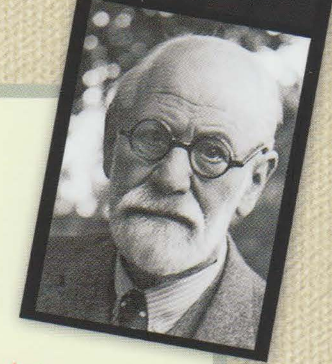
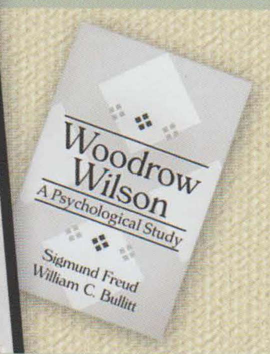
بول روزان



الأسس الثقافية للتحليل النفسي السياسي



ترجمة:
سارة اللحيدان
يوسف الصمعان







الأسس الثقافية
للتحليل النفسي السياسي

Paul Roasen

Cultural Foundations of Political Psychology

بول روزان

الأسس الثقافية للتحليل النفسي السياسي

ترجمة:

سارة اللحيدان

يوسف الصمعان

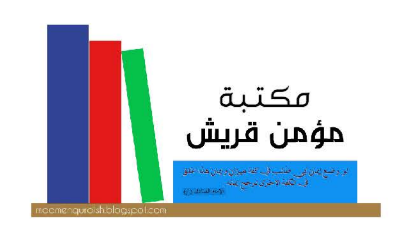
الروسم

Jadawel جداول

الكتاب: **الأسس الثقافية للتحليل النفسي السياسي**

المؤلف: **بول روزان**

ترجمة: **سارة اللحيدان / يوسف الصمعان**



جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت ـ شارع كراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 ـ فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 ـ 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

شباط / فبراير 2017

ISBN 978-614-418-343-4

طبع في لبنان

Caracas Str. - Al-Baraka Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2017 Beirut

طُبع على نفقة مؤسسة

ريم وعمر الثقافية

المحتويات

مقدمة الترجمة

أضيف إلى المكتبة العربية في السنوات الأخيرة عدد من الكتب المهتمّة بشكل مباشر، أو غير مباشر، بمحاولة فهم سيكولوجية النفس البشرية، بصفتها المدخل الرئيس لفهم العمل السياسي. هذا الطرح سبق ولادة مدرسة التحليل النفسي. إذ، يمكن الزعم أن الكثير من مفاهيم حركة التحليل النفسي كانت مشاربها الرئيسة من الحراك الفلسفي والثقافي الأوروبي منذ عصر الأنوار، وحتى ما بعد الحداثة التي ساهمت حركة التحليل النفسي في تدشينها ولتصبح أفكار التحليل النفسي مكونًا رئيسًا لأفكار مدرسة ما بعد الحداثة. قد تجوز المجازفة في الزعم أن فرويد وجوزيف بروير، وإن كانا طبيبين، هما أكثر قربًا إلى الحالة الفكرية منهما إلى كلاسيكيات الأكاديميا الطبية في ذلك العصر. بل يمكن الزعم أن نيتشه وديستوفسيكي أكثر حضورًا من بروكا وفيرنكس[1]. مثّل بروكا ثورة في علم الدماغ باكتشافه أن عطبًا في عضية دماغية جبهية يسرى يؤدّي إلى العجز في وظيفة حركية محدّدة «النطق»، في المقابل اكتشف فيرنكس ـ يكبر فرويد بثمانية أعوام فقط ـ أن عطب الخلف الصدغي للدماغ يتسبّب في العجز الحسّي عن فهم «القاموس المنطوق». أوردت المثالين الأخيرين كونهما دشّنا مناطق محدّدة لوظائف معيّنة، ليست بالضرورة مضادّة للفهم التكاملي للدماغ. ما كان بروكا ذا فهم إختزالي «reductionist»، فقد حاول أن يستخدم التنويم المغناطيسي عوضًا عن التخدير في

(1) بول بروكا (1824 ـ 1880) جراح فرنسي وعالم تشريح وأنثروبولوجيا، كان من الفريق الطبي لنابليون بونابرت. يمثل اكتشافه لحبسة النطق منعطفًا في علم الأعصاب، يصغر دوستوفسكي بعامين إذ عاش دوستويفسكي بين (1921 ـ 1981). أما كارل فيرنيكس (1848 ـ 1905) فقد كان طبيبًا نفسيًا، وعالم تشريح ألماني، ولد قبل فرويد بثمانية أعوام، وهو تقريبًا مجايل لنيتشه (1844 ـ 1900). أردت بهذا الهامش إيضاح التقارب الزمني لهذه الشخصيات والشخصية المركزية في هذا الكتاب سيجموند فرويد (1846 ـ 1939)، وتوضيح ارتباطه بالمشارب الفلسفية والأدبية أكثر من الطبية الكلاسيكية. هذا لا يغفل أن فرويد أثناء دراسة الطب كان مندفعًا لعلم الأعصاب وكتب بحثا بل وبدأ تدريبه في طب الأعصاب لكنه لم يكمل بسبب العنصرية النازية، ويذكر أحيانًا أن زواجه المبكر ساهم بقطع تدربه وفتح عيادته الخاصة. عن تأثر فرويد بفكر نيتشة أنظر الفصل2، وعن تأثير فرويد على الفكر ما بعد الحداثي وتحديدًا فوكو أنظر الفصل3 من هذا الكتاب.

Judith Butler, «The Psychic of Power :Theory in Subjection». Page 63 - 105 Stanford University Press, 1997

عملياته الجراحية، مثل هذه المحاولة تعكس فهمًا مبكرًا بضرورة مقاربة كلية لفهم الدماغ وبقية الجسد وتداخليهما[1].

أريد من المقاربة السابقة تبيان منابع أفكار التحليل النفسي، قد يُقال إن المنهج الطبي ـ مركزية المريض ـ استمرّ مع مدرسة التحليل النفسي وهذا صحيح، غير أن المفاهيم التي بدأت مع العلاج التحليلي، وتحديدًا في بواكيره، لم تكن مجرد إصغاء محايد للمريض أو العميل يستمر سنينًا حتى يمكن بناء فهم سيكولوجية الإنسان المريض والسوي، بل إن رواد التحليل النفسي الأوائل كانوا متضلعين بالمفاهيم ذات المشارب الفلسفية والأدبية عن النفس الإنسانية، إلى جانب حماس وجرأة تبشيريين لاختبار تلك المفاهيم على مجال تجريبي أفراده من بني الإنس، ولعل هذا كان سببًا لبعض النتائج الكارثية في بواكير التحليل النفسي[2].

من هنا كان تركيز هذا الكتاب على السياق الثقافي والسياسي لحركة التحليل النفسي، وذلك من خلال تتبّع أثر فرويد في المجال الثقافي الغربي، بدءًا بفيينا، ثم مهجره في لندن، حيث توفي، إلى جانب بقية أوروبا الغربية. ويستأنف المؤلف التفاعلات الثقافية والاجتماعية في القارة التي ستصبح المهجر والموطن الرئيس لأفكار فرويد حتى قبل وفاته، ثم مهجرًا للكثير من أتباعه، و«روما» التحليل النفسي، أعني القارة الأميركية[3].

هذا الكتاب هو من آخر ما ألّفه بول روزان عن تاريخ وأفكار «حركة التحليل النفسي»، ولا شك أنه تقصّد البدء بتبيان أن فرويد كان منظّرًا وناشطًا لنشر أفكاره من خلال تأسيس الاتحاد

(1) تزامن نشوء مدرسة التحليل النفسي مع ما يمكن تسميته بـ «الاستمرارية الكربلينية» نسبة إلى إيميل كربلين (1926 ـ 1956)، وهي استمرار للتقليد الطبي الكلاسيكي. وامتداد للطبيب وعالم النفس ويهليم وندت (1832 ـ 1902)، ترأس كربلين مستشفى هايدلبرغ للأمراض النفسية، وكان من فريقه فرانز نسيل (1860 ـ 1919) الطبيب النفسي الذي اختص بالفحص المجهري لأنسجة وخلايا الدماغ، وطور الأصباغ التي لا زلت تحمل أسمه، أقنع زميله الطبيب النفسي أليوز الزهيمر (1864 ـ 1915) بالانضمام إليهم مكتشف المرض الذي يحمل أسمه، وعمل معهم برودمان (1918 ـ 1968) الذي قسم القشرة الدماغية إلى باحات برودمان المعتمدة إلى اليوم. وارتحل الفريق إلى مستشفى وجامعة ميونخ عام 1902م.

(2) يصعب تعداد الحالات، أبرزها إيما اكيستين. للمزيد: انظر Unauthorized Freud: Doubters Confront a Legend, Edited F Cow, Viking Adult, 1998. والذي ناقش مجموعة من المؤلفين بلغة تقريعية، لم تفد رسالة الكتاب الاعتراضات الموضوعية للحالات الأولى لفرويد.

(3) يلمز خصوم المدرسة التحليلية فرويد لأنه استُخدم أميركيًا كرمز في صراعاتها، وكان فريدريك كرو قد كتب هذا في سلسلة مقالات في النيويورك تايمز باليوبيل الفضي لوفاته، جمع بعضها في كتاب «حرب الذاكرة The War of Memory». يستخدم دور ابن أخت فرويد «إدوارد بيرنيز» مع إدارة ويلسون في بروباغاندا «الديمقراطية لكل أوروبا» لمعاضدة هذا الرأي، خصوصًا أن أفكار بيرنيز تستند إلى ثلاثية سيكولوجية الجماهير ـ لوبون/ التحليل النفسي ـ فرويد/ غريزة القطيع ـ ولفرد تروتر. قد لا يكون هذا الكلام دقيقًا، إذ إن التبشير بفرويد كان نخبويًا في الجامعات والمراكز وجهود تلاميذه بين ضفتي الأطلسي، وحماس الأميركيين الميسورين ممن قصدوه في فيينا للتحليل النفسي. في زيارته اليتيمة لأميركا عام 1909م لم تذكر النيويورك تايمز شيئًا عنها غير خبر مغادرته! كما أن الرأي =

الدولي للتحليل النفسي. اختار المؤلف بدهاء نموذج علاقة فروم بحركة التحليل النفسي التي انتهت بطرده، ليشرح تنظيم وسياسة الاتحاد الذي أسّسه فرويد. وتنقّل في هذا الفصل شارحًا سياسة هذا الاتحاد وديناميكيته التي تحكم المنتمين إليه بين القارة المنشأ وقارة المهجر، مستعينًا بما يقرب من نصف المئة من المراجع لهذا الفصل وحده.

في فصل آخر كتب المؤلف عن زيارة فرجينيا وولف وزوجها الناشر ليونارد لفرويد، وتقصد زيارتهما وبعضًا من أعضاء «جماعة بلومزبري»، ذاك لأن فرويد التقاهم بعد لجوئه إلى لندن. وقد تبعت ذلك إسهامات الجماعة، وتحديدًا ليونارد وولف في ترتيب نشر كتب فرويد. ويعرفنا المؤلف على حجم انتشارها في تلك الحقبة، ودور أحد أعضائها «جيمس ستراتشي» الذي كان قد سبق أن قصد فرويد في فيينا وخضع للتحليل النفسي في حلقة فيينا، ثم كان له أن ترجم أعماله فرويد إلى الإنكليزية بمباركة المؤلف. لكن المساحة الأكبر تبقى لديناميكية جماعة بلومزبري، ودراسة تجمع الاستقراء والتحليل لشخصية فرجينيا وولف.

وفي فصول أخرى يحلّل روزان استقبال فلاسفة أوروبا لأفكار التحليل النفسي، ومن بين من درس المؤلف مواقفهم مارتن بوبر وفيتغنشتاين، ويتوقف بشيء من التفصيل عند معاناة ألتوسير. وفي فصل آخر يوضح الصلة بين السياسة وعلم النفس في عمل المنظرين السياسيين أمثال ميكافيللي، روسو، بيرك، توكوفيل، برلين، ويفرد لحنّة آرندت فصلًا مستقلًا، محاولًا إقناع القارئ أن إصرارها على رفض التحليل النفسي قد لا يكون خليًّا من الادعاء[1].

في الفصل السابع يدرس المؤلف كيف استطاعت المخابرات المركزية الأميركية تأسيس ذراع ثقافية مركزها لندن لتجيش العديد من رموز الثقافة في القرن العشرين من دون علم أكثرهم في دورية إنكاونتر القديمة.

ويستعرض الكتاب تداخل مدرسة التحليل النفسي في بعض قضايا القارة الجديدة، حرب فيتنام، الثقافة الأميركية وجدالاتها، النزعة الجديدة في التربية بتأثير طبيب الأطفال والمحلل النفسي د سبوك[2]، التغييرات الاجتماعية، مرورًا بالثورة الجنسية. ويُفرد المؤلف أحد الفصول

= السلبي حتى الهجاء الذي كتبه فرويد عن الرئيس ويلسون في كتاب «Woodrow Wilson _ Psychological Study» لا يدعم هذه المقولة. بعضهم يرى أن فرويد استُخدم أميركيًا كرمز ضد النازية في الحرب العالمية الثانية، وهذا يصعب قبوله كون فرويد انتشر في القارة الأميركية قبل تشكّل رأي سياسي في أميركا تجاه نازية هتلر.

(1) قارن للمزيد عن آرندت والتحليل النفسي Julia Kristeve, Hannah Arendt Life is a Narrative, UOT Press, 2001.

(2) بنجامين سبوك (1903 _ 1998م): طبيب أطفال ومحلل نفسي. غيّر التقاليد الأميركية التربوية للأطفال من خلال كتبه باتجاه تسامحي. ترجم بعض كتبه إلى العربية.

لدراسة دور أفكار التحليل النفسي في دعم الحركة النسوية، ثم دور الحركة النسوية في إضافة شروحات وأفكار إلى حقل التحليل النفسي[1].

لم يكن اختيار هذا الكتاب مصادفة، إذ إن المؤلف بول روزان (1936 ـ 2005) خير من يصل بالقارئ إلى فهم الدور الذي لعبه التحليل النفسي في الحقل السياسي، فقد درس بين هارفارد وأكسفورد وكانت أطروحته عن «فرويد: فكره السياسي والاجتماعي». وتخصّص بقية حياته في تأريخ حركة التحليل النفسي. كان مقربًا من آنا فرويد، وأذنت له بالاطلاع على الأرشيف البريطاني للتحليل النفسي (أرشيف فرويد). وقد ألّف أكثر من عشرين كتابًا معظمها عن فرويد وتلاميذه وتاريخ حركة التحليل النفسي. في حقل تجاذبي مثل الطب النفسي وعلم النفس حيث التوتر بين المدارس هو القاعدة، استطاع بول روزان أن يُثبت حياده ويستمر مقبولًا عند كل المدارس. ظل هذا القبول حتى بعد كتابه الشهير عن انتحار فيكتور توسك[2]. وقد قدّم رئيس الاتحاد الدولي للتحليل النفسي الدكتور هوراكيو إتشيجوين لكتاب روزان «كيف يعمل فرويد»[3]، وذكر أنه كان أكثر توفيقًا من جونز ـ تلميذ فرويد والكاتب الرسمي لسيرته، بل إن الكثير من أعمال روزان حظيت بدعم فيدرالي من «المعهد الوطني للصحة النفسة NIMH».

ولأن هذا الكتاب يبتغي تناول المشارب الثقافية التي ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في مسيرة التحليل النفسي السياسي، ولموسوعية المؤلف، ولكونه من آخر ما ألّف، سيتفاجأ القارئ بسفر يحكي الحياة الثقافية لما يقرب من سبعة عقود من القرن الماضي، فللمؤلف قدرة استثنائية في قراءة تاريخ الأفكار والشخوص بإيجاز يظل مفهومًا، ليس من قبيل المبالغة أنه في بعض الفصول، وإن تمحور حول الشخصية المركزية للفصل، قد يتناول ما يفوق العشرين شخصية في الفصل الواحد، لينقل للقارئ صورة حية وبليغة عمّا يريد إيصاله.

ثقتنا عالية بأن القارئ سيجد هذا الكتاب فريدًا في سرديّته وكثافة المعلومات بين دفتيه، واستثنائيًا في تقصّيه أحداثًا وتفاصيل لم تكن لتوجد لولا جهود المؤرخين في هذا العلم «علم النفس»، أو غيره من العلوم الأخرى.

المترجمان

(1) يمكن القول إن معظم فيلسوفات النسوية ضليعات بالتحليل النفسي، وهو إحدى أدواتهن التنظيرية. على سبيل المثال: جودث بتلر، مارثا نوسباوم، ليندا الكوف، جوليا كريستيف.

(2) Paul Roazen, Brother Animel The Story of Freud and Tusk: Knopf 1969.

(3) How Freud Work: First-Hand Accounts of Pateints, Paul Roazen, Jason Arroson INC 1995.

مقدمة المؤلف

مضى ثلاثة أرباع القرن منذ أن أصرَّ هارولد لازويل لأول مرة على الأهمية المركزية للعمق النفسي الحديث لفهم السياسة، حتى هذا اليوم لا يوجد شرعية تتصل بالروابط المهنية التي سعى لازويل لبنائها. قبل أن يحاول لازويل الدمج بين السياسة وعلم النفس، حاول المفكر غراهام والاس، بطريقة أخرى، أن يضع مشكلة الطبيعة الإنسانية ركيزة لدراسة السياسة، ويشارك والتر ليبمان في العديد من كتبه الأجندة نفسها مع والاس الذي كان أستاذًا له. ولو أخذنا ذلك بمنظور أقدم من المائة سنة الأخيرة، فقد كان أعظم مفكري الإغريق يقولون باستحالة تصور حياة سياسية دون استبصار بالروح الإنسانية، وعبر قرون من الزمان، جعل هؤلاء الفلاسفة علم النفس ركيزة لفهم الحياة الاجتماعية.

بدا للترابط المحتمل بين السياسة وعلم النفس أهمية أساسية لما مضى من هذا القرن. لكن عندما يقترح شخص مثل فيلهلم رايخ، على سبيل المثال، موضوع علم النفس السياسي ولديه أهداف أديولوجية ماركسية واضحة، فقد تبدو مغامرة إقحام السياسة بعلم النفس محاولة تخريبية. لكن الغايات الأخلاقية الخفية في العلوم الاجتماعية قد أثبتت انتشارًا واسعًا أكثر مما وسع الجميع أن يعترف به، فالأديولوجية مساعد على شرح أسباب التعصب المنهجي. جزء من السبب الذي جعل تاريخ التحليل النفسي يستولي على اهتمامي، هي المفاهيم المتنافسة للحياة الجيدة، والتي يمكن أن تتحسن عبر وسائل التقييم النفسية. لايزال لنزاعات المحللين النفسيين جانبًا غير جذاب، نتج عنه التخلص من العديد من المنصفين عبر مشاجرات سيكولوجية. ظهر موضوع علم النفس بأكمله وكأنه تحدِّيًا لأكثر الأساليب التقليدية للفكر السياسي، وكان من اليسير على الاتجاه السائد لحقل العلم السياسي أن يتجاهل إمكانية إقرار مدى تحرك الأحداث الفكرية في كل مكان تقريبًا، أو على الأقل في الغرب، باتجاه سيكولوجي واضح.

عندما فكر الناس بالرابطة المحتملة بين السياسة وعلم النفس، كانت في كثير من الأحيان

تحثُّ على التفكير بلغة علم النفس الاجتماعي التقليدي، وذلك لتقليص مسألة احترافية الفرد. شخص مثل لازويل، علِم أن التعرض للعمل العيادي يختلف عن صدامات الحياة الجامعية المألوفة. وبقيت المشكلة عند استمرار عمل المهنيين في المجال السياسي النفسي بتوجه معاد للتنظير. شعر لازويل بأن النظرية السياسية يجب أن تدفع ثمن غطرستها القديمة، كونها محور الكون ـ وكجزء من الحرب الطبقية داخل المهنة، قام بالتقليل من قيمة ما تعلمه من العلوم الإنسانية. ليس من مصلحة أحد رؤية علم النفس الحديث كجزء من الأدب العظيم، لأن روح السؤال الفلسفي يجب أن يتضمن تثمين الغموض وعدم الوضوح، وهذا لا يحظى بتقدير رواد علماء الاجتماع.

يبدو أننا نعيش في وقت يتطلب ربحًا ثقافيًا سريعًا، ولذلك فإن محاولة حل أكثر المشاكل السياسية عنادًا، مثل الصراع العربي الإسرائيلي أمر مغر ظاهريًا، وربما هدفًا للمستقبل القريب. لازويل بنفسه كان مهتمًا بما نسميه: «السياسة العلمية». لكن نظرتي للسياسة النفسية لم يكن لديها أي غايات علمية واسعة النطاق، بل إنني أراها مثل طريق فكري مختصر، حتى إن ميولي الفلسفية الشخصية أكثر طموحًا. متبعًا لروح هنري آدامز، أعتبر أن الحصول على التعليم محاولة طويلة المدى، وفي ظني يستحيل أن يتقدم طلاب السياسة بلا معرفة للفرضيات النفسية. ربما يوضح جزء من تاريخي الشخصي، بما إنني أؤمن أن الفرصة تلعب دورًا كبيرًا في الحياة أكثر مما يُفترض بالعادة. خلال صيف عام 1954م، بعد قبولي في هارفارد مطلع ذلك الربيع، كنت أتجول في أنحاء أوروبا مع أخي الأكبر، جاءت مذكرة إلى منزل والدي حول ماهية (المجال المرغوب ـ مجال تركيز) «كان مصطلح هارفارد للتخصص» الذي أودُّ أن أسجل فيه بعد عودتي من أوروبا، لم يذهب أبي ولا أمي للجامعة، وحدث أن قاموا بإرسال خيار المجال السياسي عني. كنت متلهفًا للسياسة على الأقل عند منتصف انتخابات عام 1950م، لذا بدت لهم الفكرة سديدة. أصبحت جلسات استماع الجيش ـ مكارثية أمرًا فاتنًا بالنسبة لي، ويوم أن أعود من المدرسة ألتصق بمحطات التلفاز، لكنها في النهاية كانت نتاج قرار والدي في الصيف. وفي خريف 1954م كنت محظوظًا عندما وجدت نفسي في كامبردج مع مرشد جامعي ممتاز تابع للمجال السياسي.

كان هناك قوى أخرى عديدة أبقتني في المجال السياسي، كانت لدي خلفية جيدة في التاريخ الأوروبي في المدرسة الثانوية العامة، ومؤخرًا وجدت دراسة الفلسفة السياسية تحدِّيًا مبهجًا. بدا المؤرخون المفكرون في هارفارد ليسوا بتلك الأهمية نسبيًا، مظهرين

نوعًا من مصالح الطبقة الراقية السطحية في تاريخ الأفكار. لكن المنظِّرين السياسيين للإدارة الحكومية، أبهروني بصورة عاطفية فيما يخص الحياة الفكرية، فأصبحت عالقًا معهم. حتى بعد سنة من العمل في العلوم السياسية في جامعة شيكاغو عام (1958 ـ 1959م) لفتني كم كانت دراسة السياسة استثنائية في هارفارد، بعيدًا عن مسألة الانضباط، لم أكن مفتونًا بسلوك الإقناع الأنيق، أو فرصة التجربة المباشرة. وقتذاك كان ليو ستراوش متحدثًا في جامعة شيكاغو، لكنني نُحِّيت جانبًا من قبل المحيطين به، لم أفترض بأن الحقوق الطبيعية للتفكير كانت الخيار الوحيد المفتوح لهؤلاء الباحثين عن القيم الاجتماعية، فاستجبت مع ردة الفعل الكارثية من كلا الجانبين، السلوكيين والستراوشيين. في السنة التالية أشرفت على الدراسات العليا في كلية ماجدلين (قسم السياسة في أكسفورد) برئاسة السير إيزايا برلين، وعملت هناك على تعزيز ولائي القديم والتزامي باستكشاف الفكر الديمقراطي الليبرالي. لغاية اليوم بقيت ممتنًا لحظي في الحصول على تعليم جيد من البداية.

لم ينبهر برلين بفرويد، وكذلك كان ستراوش، أذكر أنه كان غير قادر على رؤية الشبه بين فرويد ونيتشه في شأن التسامي. (في هذا الشأن، سيعرض للقارئ لاحقًا في الفصل الحادي عشر كيف عملت حنة آرندت بعيدًا عن فرويد). كان حكم برلين عن التحليل النفسي أمرًا شخصيًا، وعندما التقى برلين فرويد في لندن قويت شكوكه عبر تفاصيل شعر أنه قد واجهها سابقًا. نشر برلين مقالات حول لقاءه بعظماء ومشاهير مختلفين، وبدا لي صادمًا أنه لم يكلف نفسه عناء التطرق للقاء فرويد.

ظهر عمل أدبي قصير يبدي تحفظ برلين تجاه مكانة فرويد في التاريخ الفكري، وسنعود لهذا الشأن في حديثنا عن سيرة برلين المعتمدة في الفصل السابع. وكان أول كتاب لبرلين عن كارل ماركس، ولدي شكوك صغيرة بأنه رأى فرويد من زمرة ما اعتبرهم أعداء للحرية. لاحقًا، حينما رأيت برلين في أميركا، كان قد اشترى طبعة ضخمة حديثة لفرويد، رغم أن المجموعة الجديدة لأعمال فرويد كانت متوفرة في إنكلترا. كان برلين موهوبًا بشكل كاف ليكون قادرًا على بعثرة اسم فرويد في العديد من مقالاته، إلا إنني لطالما شككت بالكم الذي يحتاج برلين قراءته حول مؤسس التحليل النفسي.

كانت محاضرة برلين الافتتاحية الشهيرة عام 1958م في أكسفورد حول التمييز بين ما سماه سلبيًا كمعارض للحرية الإيجابية، متعلقة بشكل مباشر بالفرويدية، مثلما كانت متعلقة بالاشتراكية الماركسية. رغم أن برلين اعترف بالدور الشرعي للمدرسة الاشتراكية، إلا إنه

كان معارضًا بشدة للآثار الأخلاقية لكافة نظريات تطوير الذات، والتي أعتقد أنها أعمته عن آثار عمله التقليدي الفكري الذي بدأه فرويد. اعترف لي برلين أن أصدقاءه ستيورات هامبشير وريتشارد فولهايم أخذوا التحليل النفسي بشكل جدي، بينما كنت في أكسفورد كان الفلاسفة هناك مهتمين بشكل أكبر بآثار العمق النفسي أكثر من أي مجموعة أكاديمية أخرى. كما سنرى في الفصل السادس، كان لودفيغ فيتغنشتاين الشخصية المحورية في الفلسفة في أكسفورد، الأمر الذي يلقي الضوء على ما وصلت له أعمال فرويد.

لكن فتور برلين تجاه علم النفس، وانعزاله البارز عن كافة العلوم الاجتماعية الحديثة المنظِّرة لهذا الشأن، كانت سمة لكافة المنظرين السياسيين البريطانيين. بالكاد نتشارك أنا وبرلين بالأخذ والعطاء عندما يأتي الأمر لفرويد. أعطاني مرة بعض التشابهات التي سأواجهها في تاريخ الموسيقى وطائفية التحليل النفسي، واستمع لحكاياتي بدهشة حينما ذكرت أن الرقابة التي فُرضت على مراسلات فرويد المنشورة، تفوق ما حدث لرسائل ماركس. الجزء الوحيد من منشوراتي التي جذبت اهتمام برلين للتعليق عليها، كان إسهامي بمناقشة فكر ومهنة أستاذ النظرية السياسية لويس هارتز، والذي أصبح لاحقًا مشرفًا على رسالتي لنيل درجة الدكتوراه.

عدت من أكسفورد عام 1960م إلى كامبردج، ماساتشوستس حيث حصلت على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية، وكانت أطروحتي حول فرويد والنظرية السياسية. (كان عنوان أطروحة الماجستير حول أفكار والتر ليبمان)، بعدها أصبحت عضو تدريس لأربع سنوات، ثم أستاذًا رسميًا في هارفارد لست سنوات. كانت مقرراتي الخاصة في العلوم السياسية (والعامة أيضًا) قد صُممت على منتديات نقاشية للعمل عليها، كان هناك على سبيل المثال، «السياسة وعلم النفس»، «السياسة النفسية»، «الطبيعة الإنسانية في الفكر السياسي»، بالإضافة إلى «الفكر السياسي الأميركي». تقريبًا كل ما قمت بتدريسه كان ضمن سياق تاريخ النظرية السياسية. عشت بعدها في كندا ما بين (1971 و1995م) كانت تلك الحياة الأكاديمية بمثابة نعيم لي، تقليدية بشكل كاف لتتسامح مع أولئك المهتمين بالتاريخ الفكري. عندما عدت لكامبردج فترة تقاعدي، وجدت نفسي قلقًا كما لم أكن من قبل، بشأن طريقة تفكيرنا، أعني كيف أنظر للتنظير الاجتماعي. وعليّ أن اعترف بأنني شعرت بغربة عن العلوم السياسية ككل، إن بقائي في هذا المجال سمح لي أن أفعل ما أردته بالفعل، ولذلك بقيت ممتنًا.

كان لخبرتي المهنية دور في الوصول لتاريخ التحليل النفسي، بقناعة أن القضايا الأخلاقية

كامنة في كل لقاء عيادي، فمشاكل السرية والآراء المرتبطة بالخصوصية، يفترض أن تكون مواضيع ذات أهمية للمنظِّرين السياسيين. يمكن أن تنتفع الفردية الإنسانية، ومصادر التحريف والقمع من المنظور النفسي، لكن الأساليب النظرية الأخرى، مثل نظرية اللعبة، أو أنماط الاختيار العقلاني، ليست إلا بدائل خرجت دون فحص أو نقد.

لم أخطط أبدًا للدخول في منهجية استقرائية تتجه نحو الذات، رغم أن التطرق لسبب انجذابي لدراسة السياسة وعلم النفس يتطلب نوعًا من التنقيب والحس التجريدي من أحدهم. من وجهة نظري هذا النوع من المغامرة يجب أن يُحفظ لأناس موهوبين مثل: هنري آدامز، أو نعتلي قليلًا لنطاق المسائل العقلية عند القديس أوغسطين، وجان جاك روسو. حتى أليكسس دي توكوفيل حينما كتب مذكراته كان يعيش صراعًا قويًا، ليدوِّن أخيرًا تعليمات بأنها ليست للنشر، وربما تساءل أحدنا لم لم يرى أنها تستحق الإتلاف، (سيأتي بحث توكوفيل في الفصل السابع). الأجزاء التي قمت بتجميعها هنا تقدم نطاق حياة فكرية، وربما تطرقت كتاباتي الأخرى لمواضيع أخرى مختلفة. لكنني أعترف أنني تعثرت بعملي في تاريخ التحليل النفسي مؤقتًا، فقط فيما يخص المسائل الفكرية التي لم أستطع أن أقاوم العمل عليها. زوَّدني لقاء عديد من المحللين الأوائل من ضمنهم من عرفوا فرويد شخصيًا، بمواد محفِّزة لم أستطع مقاومتها. لطالما بحثت عن فرويد، الذي كان كتابه: «قلق الحضارة ـ Civilization and Discontent» مقررًا للفصل التمهيدي لطالب العلوم السياسية، كشخصية لها باع طويل مع الفلاسفة السياسيين السابقين. وأتمنى أن يعكس هذا الكتاب مدى اهتماماتي، والتي هي انعكاس حقيقي لما كانت عليه أهدافي الحقيقية على الأمد البعيد.

يتاح للمرء خيارات في هذه الحياة، حتى لمن حصلت لهم تداعيات أبعد مما قد يتخيل المرء، لكن الوجود قد يأتي أيضًا في المنتصف ليلتقينا، وفي طرق متعددة يصعب تعريفها. رغم أن الدراسة الأكاديمية للسياسة تبدو حاليًا مسألة تسوية رياضية، إلا إنني آمل أن تكون تقليدًا إنسانيًا لماهية التقدم الذي يعقبه نجاح يكون ملحوظًا على نحو كاف. بصفتي أستاذًا لطالما نشدت التقيد بالمثال السقراطي القديم، وأتمنى أن تؤخذ تلك المحاولات المختلفة من قبلي بروح مثالية مونتين الكريمة، لمثالية ما يجب أن تكون عليه كتابة المقالات.

يلامس الفصل الافتتاحي عن إقصاء إريك فروم من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي، حشدًا من المسائل السياسية الهامة، مثل التعاون مع الاستبداد كمعارض لمقاومته، والذي

اكتسب أبعادًا جديدة في القرن السابق. وكيف تعاطى التحليل النفسي المنظَّم مع النازية، والطريقة التي عانى بها ماركسي مثل فروم كمهني في أميركا، كل ذلك يبلغ أن يكون حكاية تستحق أن تذكر.

الفصل الثاني يتناول قصة كانت مشهورة «لأليغر هيز»، و«ويتكر تشامبرز»، معضلة الليبرالية الأميركية التي جذبت قدرًا جيدًا من التخمينات النفسية. بقيت المواجهة التاريخية بينهما عنوانًا يحكى لتقاطع السياسة وعلم النفس، رغم أن الخيانة الرسمية ليست التهمة الشرعية ضد هيز، إلا أن أفكار الخيانة ومعارضتها للإخلاص قد تجذب الجماهير لما يجب فهمه في إعادة بناء ما وقع. أما الفصل الثالث فيتناول مجموعة أخرى من الألغاز، هذه المرة مع الروائية العظيمة فرجينيا وولف، والدور الذي لعبه المحيطون للتعامل مع جنونها وشياطينها. حتى لو أن علم النفس لم يأمل «بحل» سؤال الإبداع الفني، سنرى كيف أن إعادة بناء حياة فرجينيا وولف قد عكس أنماطًا نفسية واجتماعية مختلفة، لم تُفحص نقديًا بشكل كاف.

في الفصل الرابع حاولت أن أتعاطى مع مصير علم النفس في القرن العشرين في أميركا، وتناقض مصيره مع الدول الأخرى في العالم القديم. بالمناسبة، ربما يُثبت مستقبل علم النفس في الأجزاء غير الغربية من العالم مجموعة هامة من القضايا التي ستقرر لاحقًا، وكيف ستقيِّم الأجيال التالية الأفكار التي ابتدأها فرويد. ومثلما يتغير نظام العائلة التقليدية، أصبح الغرب أكثر دراية بالمشاكل المتعلقة بالإنسان التي احتلت جُلَّ تفكير فرويد.

في الفصل الخامس، انتقل إلى حدث تاريخي معين، يبحث في تمويل المخابرات الأميركية لمجلة: «إنكاونتر»، وما هي آثار هذا الدعم الخفي العام لبقاء الحكومة الديمقراطية. هذا التاريخ الفكري يملك صلة مباشرة، كما أعتقد بالسيكولوجية السياسية، وأن هذه القيم والمعتقدات تستحق أن تتعرض لفحص نقدي كجزء من دراسة هذا الحقل المعرفي. أما الفصل السادس، فيتطرق لردة فعل ثلاثة من الفلاسفة البارزين تجاه التحليل النفسي، ويغطي تشكيلة من المسائل الأخلاقية النظرية، التي هي حتمًا جزء من أي سيكولوجية سياسية. مثلما كان لفرويد أتباع، أيضًا كارل يونغ كان لديه نُقَّاد عاطفيون يؤمنون به دون تمحيص، وإذا نظرنا إلى الفكر الفلسفي فقد ساعد بملء السياق الإنساني الاجتماعي، حيث تؤخذ كل الأفكار بعين الاعتبار.

يتناول الفصل السابع حياة منظِّرين عظماء مختلفين في تاريخ النظرية السياسية، وهو بمثابة تذكير بأهمية أفكار هؤلاء، والتي يلزم على كل إنسان متعلم أن يطَّلع عليهم. أبدأ بخط مباشر من ميكافيللي، روسو، بورك، توكوفيل، وأنتهي بفرويد، بالإضافة إلى فروم وبرلين. إن دراسة الفكر التقليدي تعزز قدرة أي شخص على التعامل مع أي مشاكل معينة مرتبطة بالسياسة وعلم النفس. يتحدث الفصل الثامن عن فيتنام والحرب الباردة، ويوضح أهمية أسئلة «الواجب ـ Duty» لعلم النفس السياسي. ربما بدا حلّي لهذه المسائل بأقل أهمية من هدف توضيح مركزية الأخلاق لكافة المشاكل السياسية.

يغطي الفصل التاسع مسألة المفكرين والمنفى، والذي يطرح سؤال حول ما هي الأسس الاجتماعية للتنظير السياسي؟، موضوع لطالما أُخذ بعين الاعتبار. أما الفصل العاشر، فيتناول المشاكل المنهجية المختلفة المرتبطة بالسياسة؛ وعلم النفس جزء من أهمية استحضار هذا الموضوع، يأتي من حقيقة أن دمج موضوعين لحقلين مختلفين مع بعضهم، يعني أن كليهما بحاجة لإعادة تعريف كنتيجة لتفاعلهما. ويناقش الفصل الحادي عشر، المنظِّرة الشهيرة حنة آرندت والتي تعدُّ من أدباء الدرجة الثانية اليوم. رغم أنها ازدرت بوضوح كل أشكال التأمل الباطني من ضمنها التحليل النفسي، إلا أن جلَّ ما قدمته من أعمال قُصد بها التوصل لتفاهم مع المشاكل المألوفة التي نواجهها فعليًا، مثل المساواة، الديمقراطية، والمسألة المثيرة حول التعاون مع الطغاة. في الفصل الثاني عشر حاولت أن أُنعش اسمًا غير معروف، جيفري غورير، رغم أنه الآن منسي إلى حدٍّ ما. كان رجلًا مؤثرًا برسائله، استحق باستقلالية فكره أن يكون جنبًا إلى جنب مع المشاهير. أما الفصل الثالث عشر فأقدم فيه مشكلة السيرة الذاتية عبر سلسلة من الأمثلة، لقد وقعت أعمال السيرة الذاتية تحت وطأة التحيز من الكثير، مما يجعلها نوعًا من الأنشطة منخفضة المستوى، وعادة ما تشكل المسائل النفسية مقوِّمًا أساسيًا لنهج أي سيرة ذاتية. وأخيرًا في الفصل الرابع عشر «شؤون أميركية» حاولت تصوير انطباعات الفكر النفسي للمذكرات السياسية، عبر سلسلة من المشاهدات لأعمال تتصل بالسياسة العملية.

في الفصل الختامي، أتوجه فيه إلى سيكولوجية النساء. تعدُّ النظرية النسوية جزءًا معروفًا في المناهج الجامعية اليوم، إلا إنني أعتقد أنها بحاجة للإشارة إلى علم النفس السياسي، وكيف حاول أن يتعامل مع المشاكل الناتجة عن تغييرات في المفاهيم النسوية. رغم أن فرويد أُنتقد مرارًا، ألا إنني أعتقد أن هذا النقد قد بُني على أسس غير تاريخية. أي مفكر نفسي

حينما يخرج عن سياقه الثقافي، سيكون ملزمًا بمسؤولية تطور ما نسميه بالأفكار الملتبسة. لكن من وجهة نظر تاريخية، لعب فرويد دورًا واضحًا في تحرير المرأة، وأثبتت مهنته للتحليل النفسي انفتاحًا أكثر للمواهب الأنثوية أكثر من البدائل الأخرى، وجوقة واحدة فقط من نقّاده حمّلته مسؤولية تدمير حياة الأسرة التقليدية. رغم إننا غير ملزمين بقبول أي فكرة معينة لفرويد عن النساء، وما قاله عن الرجال أيضًا، باعتقادي، إلا إن أي دراسة للتاريخ الفكري لن تتمكن من تجاهل الدور الذي لعبته أعماله في المساعدة على تغيير أفكارنا عن النوع والجنس. من الصعب تخيل تقدم موضوع علم النفس السياسي دون التوصل للتفاهم مع التحدي الذي تعرضه أفكار فرويد.

الفصل الأول

إقصاء إريك فروم
من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي IPA(*)

حظيت مسألة نسب التحليل النفسي مؤخرًا باحترام متجدد في أوساط المؤرخين لهذا المجال. رغم أن المحللين بشكل خاص، أدركوا وأقروا بأهمية أين يذهبون وعلى يد من يتدربون، إلا إنه من النادر نسبيًا أن يتركز اهتمام الرأي العام على التأثير القوي غير المعتاد الذي يحصل من نتائج التدريب التحليلي. كان يشار قديمًا للدور الإيحائي الخاص لتجارب التدريب التحليلي عبر مناوشة جدلية بين رواد مُوجِّهين مختلفين مثل إدوارد غلوفر[1]، ويعقوب لاكان، لكن لم يكن من المعتاد أن يواجه معهد تدريب المحللين بذاته تحدِّيًا علنيًا. وبقي شرط تحليل المحللين أنفسهم لأغراض التدريب غير معروف تاريخيًا إلا للقلة، ثم ظهر رسميًا تحت رعاية الاتحاد الدولي للتحليل النفسي عام 1925م، حينما أصيب فرويد بالسرطان، وأقرَّ بعجزه ضمنيًا عن إدارة مستقبل حركته[2] شخصيًا.

في الوقت نفسه، يستحق نسب التحليل النفسي ـ شجرة العائلة[3] ـ أن يحوز على

(*) تأسس هذا الاتحاد عام 1910م من قبل سيجموند فرويد، عبر فكرة تقدم بها ساندور فرينزي. يضم الاتحاد الدولي (12.000) عضوًا ويعملون في 70 منظمة تأسيسية.

(1) Paul Roazen.Oedipus in Britain: **Edward Glover and the Struggle Over Klein** .(New York: Other Press. 2000).

(2) Paul Roazen. **«The Problem of Silence: Training Analyses»** International Forum of Psychoanalysis.Vol. 11 (2002). pp. 73 _77.

(3) Ernst Falzeder, «Family Tree Matters» **Journal of Analytical Psychology,** Vol. 43 (1998), pp. 127 _ 154, and Ernst Falzeder, **«The Threads of Psychoanalytic Filiationsor Psychoanalysis Taking Effect»,** in 100 Years of Psychoanalysis, Contributionsto the History of Psychoanalysis, ed. **Andre Haynal and Ernst Falzeder** (Geneva:Cahiers Psychiatriques Genevois, Special Issue, 1994), pp. 169 _ 194.

اهتمام بالغ، لإنه من السهل نسيان الدور الذي لعبته الكتب نفسها، بنشرها للآراء خاصة للمفكرين. وربما يعتقد البعض أنه من البديهي أن الناس لا يذهبون فقط للعلاج، بل يستجيبون بقوة لما يُلاقونه من مطبوعات. فقد انجذب العديد منا لأول مرة إلى التحليل النفسي عبر مؤلفات إريك فروم (1900 ـ 1980م). كانت بحوثه غير معروفة تقريبًا في بدايات الثلاثينات، لكن كتابًا مثل: «الخوف من الحرية ـ Escape From Freedom»[1] بقي لسنوات منهجًا تعليميًا رئيسًا لعلماء الاجتماع. وقد شكلت أعمال فروم مثل: «الإنسان لذاته ـ Man For Himself» و«التحليل النفسي والدين ـ Psychoanalysis and Religion» و«اللغة المنسية ـ The Forgotten Language»، وأيضًا «المجتمع السليم ـ The Sane Society»[2] جزءًا أساسيًا لجيل التعليم العام الذي عشته. وأعتقد أن الأعمال الوعظية الأخيرة لفروم، والسياسية منها أيضًا قد سقطت في تصنيف مختلف، وبقدر التأثير العام الذي حظي به، لايزال الكتاب الذي اشترك في تأليفه فروم مع ماكوبي «شخصية اجتماعية في قرية مكسيكية Social Character in a Mexican Village»[*] يستحق مزيدًا من الانتباه[3]، بينما بيعت ملايين النسخ من كتابه: «فن الحب ـ The Art of Loving»، أما كتاب: «الامتلاك أو الوجود ـ To Have Or To Be» فقد نجح في بيع ملايين النسخ في ألمانيا وحدها، بالإضافة لإنجازه البارز[4] «تشريح النزعة التدميرية عند الإنسان ـ The Anatomy of Human Destructiveness».

---

(1) See, for example: Erich Fromm, «**The Method and Function of an Analytic Social Psychology**» and «**Psychoanalytic Characterology and Its Relevance for SocialPsychology**», in The Crisis of Psychoanalysis (New York: Holt Rinehart & Winston, 1947), Erich Fromm, «**The Social Background of Psychoanalytic Therapy**», translated by Caroline Newton (New York Public Library); Erich Fromm, **Escape From Freedom** (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1941). See Paul Roazen, «**Fromm's Escape From Freedom and His Standing Today**», International Forum of Psychoanalysis, Vol. 9 (2000), pp. 239 - 240.

(2) Erich Fromm, Man For Himself: **An Inquiry into the Psychology of Ethics** (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1947), Erich Fromm, **Psychoanalysis and Religion** (New Haven, CT: Yale University Press, 1950), Erich Fromm, **The Forgotten Language: An Introduction to the Understanding of Dreams, Fairy Tales and Myths** (New York: Grove Press, 1957), Erich Fromm, **The Sane Society** (London: Routledge & Kegan Paul, 1956).

(*) أصبحت المكسيك بلدًا صناعيًا عقب نهاية ثورة عام 1920م، فألهم هذا التغيير إريك فروم إلى جانب مايكل ماكوبي لتأليف كتاب يتناول دراسة هذه التغيرات.

(3) Erich Fromm and Michael Maccoby, **Social Character in a Mexican Village**: A Sociopsychoanalytic Study (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1970; new edition, with an introduction by Michael Maccoby, New Brunswick, NJ, Transaction Publishers, 1996).

(4) Erich Fromm, **The Art of Loving** (London: George Allen & Unwin, 1957), Erich Fromm, **To** =

إن سيرة فرويد التي كتبها إرنست جونز كانت مكوِّن معرفة بالتحليل النفسي ذلك الوقت، تمامًا مثل الخطاب القصير والمهمل «رسالة سيجموند فرويد، تحليلًا لشخصيته وتأثيره – Sigmund Frued›s Mission: An Analysis of His Personality and Influence»[1] التي ألَّفها فروم ردًّا على جونز. وبقيت تحريفات جونز التي بُنيت بسرده الموثَّق منطلية حتى على أكثر الباحثين وعيًا. دعوني أعطي مثالًا واحدًا من (رسالة سيجموند فرويد) للإقناع بمنطق فروم. على خلاف جونز، فقد سلك فروم نمطًا تأويليًا خاصًا به، إذ يقول في النص التالي عن اللجنة «السرية» التي تكونت من كارل أبراهام، جونز، أوتو رانك، ساندور فرينزي، هانز ساكس، ماكس إتينغون، والتي تأسست قبل الحرب العالمية الأولى لحماية « شأن» التحليل النفسي بعد انشقاق كارل يونغ:

«من هم أوائل التلاميذ المخلصين، أصحاب الخواتم الستة؟ لقد كانوا مفكرين مدنيين ذوي ميول عميقة للالتزام بقدوة، بقائد، أو بحركة، رغم إنهم لا يملكون إيمانًا أو مُثلاً دينية، فلسفية، أو سياسية، ولم يكن بينهم اشتراكي، صهيوني، كاثوليكي، أو يهودي أرثوذكسي. (ربما كان لإتينغون تعاطف قليل مع الصهيونية). كانت حركة التحليل النفسي دينًا لهم. إن اتساع دائرة المحللين قد حمل خبرات متشابهة، فأغلبيتهم كانوا من مفكِّري الطبقة الوسطى، الذين ليس لهم مصالح والتزامات دينية، فلسفية، وسياسية. وكان للشعبية العظمى للتحليل النفسي في الغرب وبالأخص في الولايات المتحدة منذ بداية الثلاثينات، الأسس الاجتماعية نفسها. الطبقة الوسطى تلك التي أضاعت معنى الحياة، ليس لهم مُثل سياسية أو دينية، ومع هذا فهم في بحث دؤوب عن المعنى، لتصوُّرٍ يكرِّسون أنفسهم له، لمعنى حياة لا تتطلب إيمانًا وتضحيات، والانتماء للحركة كان إرضاء لهذه الحاجة. وقد ملأت لهم هذه الحركة[2] بالفعل، كل تلك الاحتياجات».

= **Have Or To Be**? (New York: Harper & Row, 1976), and Erich Fromm, **The Anatomy of Human Destructiveness** (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1973). **The Exclusion of Erich Fromm from the** IPA 31.

(1) Ernest Jones, **The Life and Work of Sigmund Freud**, Vols. 1-3 (New York: Basic Books, 1953-57), Erich Fromm, **Sigmund Freud›s Mission: An Analysis of His Personality and Influence** (New York: Harper & Brothers, 1959).

(2) Fromm, **Sigmund Freud›s Mission**, pp. 105 _ 106.

بالنسبة لي لا تزال هذه الكلمات صالحة بشكل مدهش. بعيدًا عن إسهامات فروم النظرية، والعيادية. حيث لعبت إحدى مقالاته (التي نشرت بالأصل في مجلة السبت الأدبية القديمة ـ Saturday Review of Literature) وبصرف النظر عن محاولة ردِّها من قبل محلل أرثوذوكسي دورًا ملحوظًا في المساعدة على بدء «إعادة الاعتبار» للسمعة التاريخية لفرينزي ورانك[1]، وعلى نحو استثنائي كان جونز غير عادل بالنسبة للاثنين. وأعتقد في الواقع، أن النهضة الأخيرة لسمعة فرينزي العيادية كانت أحد قصص النجاح العظيمة في تاريخ التحليل النفسي المعاصر.

إن للمآسي البيروقراطية، كما سنرى، دورٌ في تحجيم مكانة فروم التاريخية. بما نصفه بدقة في الوقت الحالي بـ «المفكر المنسي»، واُعتبرت المدرسة الفكرية التي عرفت باسم: «الفرويدية التجديدية» (والتي لم يُرد فروم الانتماء إليها) سقطة للتاريخ الفكري[2]. حتى في أثناء حياته رأى فروم أن اتجاه التاريخ الفكري يمضي لتوجه غريب ومتصلب، إلى أن غُيِّب موقفه المنصف أواخر الستينات.

كان لفروم شعور مبرر باستبعاده خارج القصة، عند بدء استحواذ مفهوم «التاريخ ـ النفسي»، بفضل ما بادر إليه إريك إريكسون[*] أواخر الخمسينات وبداية الستينات. (قد تكون أعمال فرويد النظرية، محط جذب للفلاسفة السياسيين، لكن ليس لعلماء الاجتماع الممارسين)، ولم يعرف فروم سبب استمرار إريكسون بتجاهل أعماله الرائدة في هذا الشأن بعد ذلك نُشر كتاب: «عقيدة المسيح ـ The Dogma of Christ»[3] لفروم ـ رسالة لمن تم حظرهم من قبل النازيين ـ والذي ظهر منذ فترة طويلة في الثلاثينات.

---

(1) Erich Fromm, **«Psychoanalysis - Science or Party Line»**, reprinted in The Dogma of Christ and Other Essays on Religion, Psychology and Culture (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1963), pp. 131 - 144.

(2) Neil McLaughlin, **«How To Become a Forgotten Intellectual: Intellectual Movements and the Rise and Fall of Erich Fromm»**, Sociological Forum, Vol. 13 (1998), pp. 215 - 48; Neil McLaughlin, **«Why Do Schools of Thought Fail? Neo-Freudianism as a Case Study in the Sociology of Knowledge»**, Journal of the History of the Behavioral Sciences, Vol. 34 (1998), pp. 113 - 134. See also Daniel Burston, **The Legacy of Erich Fromm** (Cambridge, MA, Harvard University Press, 1991).

(*) إريك إريكسون، محلل نفسي عُرف بنظريته في التطور الاجتماعي للإنسان، حققت نظرية «الأنا» انتشارًا واهتمامًا مهنيًا لم يكن ليحدث لولاه. كان يصرُّ على انتماءه لفرويد، ويصف نفسه بالفرويدي التجديدي. ألّف العديد من الكتب، لكنها لم تحظ بالشهرة كالتي حظي بها كتابه: «الطفولة والمجتمع».

(3) See Erich Fromm, «The Dogma of Christ», in The Dogma of Christ.

نعلم بأن إريكسون قد ناقش كتاب فروم: «الخوف من الحرية» في اجتماع جمعية التحليل النفسي في سان فرانسيسكو عام 1943م قبل أن يرى كتابه: «الطفولة والمجتمع Childhood and Society» النور في الثلاثينات[1]. كان إريكسون أكثر من متحفظ بالإشارة إلى فروم، ربما لخشيته أن يخاطر بمصير فروم واستبعاده كمحلل نفسي، أكثر من عواقب تجاسره بذكر اسم يونغ في آخر أعماله. ورغم تقديس إريكسون لفرويد أمام العامة، إلا إنه في الوقت نفسه شقَّ طريقه نحو توجه أصيل بعيدًا عن الأرثوذكسية[2]. (بقي فروم غير متسامح بشدة تجاه أعمال يونغ، لكن الجانب الجيد لتلك الأعمال أنها تخص السياسة في الثلاثينات، والتي سنتطرق لها فيما بعد).

لعب إريكسون دورًا باهتًا بالتعاون في قضية وصم فروم بمهنيٍّ دخيل، ويبدو أن فروم كان المستبعد الوحيد فعليًا، بدلالة المقطع الذي يشير فيه إريكسون في كتابه: «الشاب لوثر - Youngman Luther» إلى «الأطروحة الاجتماعية لوقتنا الحاضر، للمؤلفين من فيبر حتى فروم»[3]. جاءت كلمة: «اجتماعي» هنا بكل تأكيد للفصل بين إريكسون وفروم، وأن التسمية الحقيقية لفروم (ليس محللًا نفسيًا) بل متخصصًا اجتماعيًا، وخشي إريكسون أن يكون قد استُغل عبر محللته الشخصية آنا فرويد. (كان ذلك أمرًا معتادًا، ففي التاسع عشر من كانون الأول/ ديسمبر عام 1934م كتب جونز إلى آنا فرويد: «يبدو أن كارين هورني، بدلت التحليل النفسي بعلم الاجتماع، تمامًا مثلما فعل فرانز إلكساندر وآخرون». ساعد النقد القاسي الذي وجَّهه كارل مييننغر لعمل فروم: «الخوف من الحرية» على تأسيس خط حزبي، وقد تبعه إريكسون بإخلاص شديد. وفي لقاء مع «The Nation» حافظ مينيغر على قوله بأن: «إريك فروم كان عالم اجتماع مميز في ألمانيا، لكنه قام بكتابة كتابه على أنه محلل نفسي»[4]. أوتو فينخيل كان أيضًا صارمًا تمامًا، ووصف مراجعته بـ: «ملحوظات التحليل النفسي» في كتب

(1) Lawrence J. Friedman, Identity›s Architect: **A Biography of Erik H. Erikson** (New York: Charles Scribner's Sons, 1999), p. 162. Erik H. Erikson, Childhood and Society (New York: W. W. Norton, 1950).

(2) See Paul Roazen, Erik H. Erikson: **The Power and Limits of a Vision** (New York: The Free Press, 1976; Northvale, NJ, Aronson, 1997).

(3) Erik H. Erikson, Young Man Luther: **A Study in Psychoanalysis and History** (New York: W. W. Norton, 1958), p. 239.

(4) Karl Menninger, **«Loneliness in the Modern World»**, Nation, Vol. 154 (March 14, 1942), p. 317.

فروم[1]. إن من أنشأ هذا النمط السيئ هو فرويد بنفسه بجداله ضد ألفرد أدلر وكارل يونغ، حيث امتنع عن الجدل مع المفكرين الأحرار الذين تم تصنيفهم لاحقًا بأنهم «جاحدون»، وإن لم يكن فهم «مهرطقون» بدعوة أن لهم حقًا في تسمية أنفسهم محللين نفسيين.

رغم إنجازات إريكسون التي حققها بإعادة تسمية كثير من المراحل الشبقية المبكِّرة، والجمع بين الأخلاق والتحليل النفسي، إلا إنها كانت في الواقع مرتقبة من فروم. واستمر إريكسون بتوجهه الواضح بإثارة الجدل حول تسمية فروم: «بمحلل نفسي». أنشأ فروم في كتاب: «الخوف من الحرية» مفهوم «الشخصية الاجتماعية»، والتي وضعت البيئة الاجتماعية على الخارطة لكل المفكرين التحليليين المستقبليين. وبصدور كتاب إريكسون: «الشاب لوثر» كان فروم يدرب مرشحي مدرسته الخاصة في المكسيك على مخالفة «ابتداعية» للسلطة التنظيمية داخل التحليل النفسي، والتي لم يخاطر إريكسون بنسخها. (وتحالف فروم مرة في نيويورك مع كارن هورني لتستكمل تدريبها في معهد ويليام ألنسون الأبيض William Alanson White Institute[*] خارج إطار الاتحاد الدولي للتحليل النفسي)، لكن كل ما عمله فروم للجمع بين المنظور الاجتماعي داخل فكر التحليل النفسي، متضمنًا اهتمامه بشأن الهوية والانسجام، قد غرق بالنجاح الهائل لتعاليم أريكسون الخاصة[2]. (ولنكن عادلين بشأن النزاع الداخلي للتحليل النفسي، فالماركسيون كان لهم سمة خاصة لطائفيتهم، وقد عانى فروم من الانتقادات الموجهة من حليفه السابق هربرت ماركوس في معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية. وكان هربرت ماركوس قد وجَّه تهمًا لا أساس لها ضد فروم و«تجديديين» آخرين مثل: كارن هورني، وهاري ستاك سوليفان، والذين بدأوا باكتساب سمعة سيئة أواسط الخمسينات).

---

(1) in Otto Fenichel, **«Psychoanalytic Remarks on Fromm's Book Escape From Freedom»**, (New York: W. W. Norton, 1954) **The Collected Papers of Otto Fenichel, second series,** Frankfurt, Stroemfeld, ch. 19, pp. 260 - 77; so also Otto Fenichel, 119 Rundbriefe, Vol. 2 1998), ed. Elke Muhleitner and Johannes Reichmayr, pp. 1559 - 1589.

(*) تأسس معهد ويليام ألنسون الأبيض على يد إريك فروم وكلارا ثومبسون عام 1946م في نيويورك، وذلك لتدريب المحللين والمعالجين النفسيين. يقدم المعهد برامج تدريبية، وخدمات عيادية، كما يستضيف مؤتمرات، ومحاضرات وحلقات دراسية.

(2) Paul Roazen, **«Book Review of Ideas and Identities: The Life and Work of Erik H. Erikson, ed. Wallerstein & Goldberger»,** Psychoanalytic Psychology, Vol. 17 (Summer 2000), pp. 437 - 442.

بدأت مشاكل فروم التنظيمية مع التحليل النفسي مع هيمنة القوة النازية في ألمانيا عام 1933م، إلى أن أُستبعد أخيرًا من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي أوائل الخمسينات. وللبدء، من الضروري أن نقدم التفاصيل الكاملة لمكانة فروم الرسمية كمحلل نفسي في ألمانيا. في الثامن عشر من حزيران/ يونيو عام 1927م قام فروم بإرسال أول بحث له، وكان آنذاك يعيش في هايدلبيرغ «كزائر» للجمعية الألمانية للتحليل النفسي في برلين «DPG». (تغير الاسم القديم لجمعية برلين للتحليل النفسي عام 1926م لتصبح الجمعية الألمانية للتحليل النفسي، واستمرت تعرف هناك بهذا الاسم). وقد حصل فروم على شهادة الدكتوراة قبل خمس سنوات في علم الاجتماع بمدينة هايدلبيرغ، تحت إشراف ألفريد فيبر، الأخ الأصغر لماكس فيبر. ومن المهم تاريخيًا ذكر انتخاب زوجة فروم الأولى فريدا فروم ـ رايخمان أوائل عام 1927م كعضو مساعد في الجمعية الألمانية، وأصبحت عضوًا رئيسيًا عام 1929م.

أُنشئ أول فرع للجمعية الألمانية للتحليل النفسي في فرانكفورت عام 1926م، وأُدرج اسم فروم وزوجته برفقة كلًا من كلارا هابل، كارل لاندور، وهينريك مينغ كأعضاء للجمعية (حُلِّل لاندور من قبل فرويد، لكنه توفي بمعسكر اعتقال في بيرغن ـ بلزن، وقد كان لاندور أحد محللي فروم، بصحبة فروم ـ رايخمان بنفسها، وساكس فيلهلم فيتنبرغ، وتيودور ريك). في شباط/ فبراير عام 1929م قامت الجمعية الألمانية (جنوب ـ غربية) للتحليل النفسي في فرانكفورت بإنشاء معهد خاص مرتبط بمعهد فرانكفورت، موجَّهٌ بشكل رئيسي لإلقاء محاضرات عامة. كان ذلك المعهد يدار من قبل لاندور، وكان مرتبطًا بمعهد الأبحاث الاجتماعية لجماعة ماركسية يرأسهم ماكس هوركهايمر، المتصل بجامعة فرانكفورت.

كان فروم ولاندور برفقة مينغ وفروم ـ رايخمان أربعة محاضرين مبدعين في معهد فرانكفورت للتحليل النفسي، (في وقت مبكر كان س. هـ فوكس شخصية بارزة في معهد فرانكفورت للتحليل النفسي، هاجر لاحقًا إلى إنكلترا، وقام بتغيير اسمه إلى فولكس ليصبح ذا شهرة خاصة بين المحللين). قدم فروم بحثًا آخر في برلين لصالح الجمعية الألمانية للتحليل النفسي. حيث أُنتخب عضوًا مساعدًا في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1930م، ثم رُقِّي ليكون عضوًا رئيسًا في الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1932م، وكان مؤهلًا بشكل كامل لعضوية الاتحاد الدولي للتحليل النفسي. وقد أقامت الجمعية الألمانية في لايبتيغ، هامبورغ ولاحقًا شتوتغارت مجموعات، بحثية إلى جانب تلك التي أقامتها في فرانكفورت. كان فروم مريضًا بالسل منذ عام 1931م وكان خارج بلاده عندما أصبح هتلر

زعيمًا لألمانيا في كانون الثاني/ يناير 1933م، وبقي في سويسرا حتى خريف عام 1933م[1]، حيث انتقل إلى الولايات المتحدة كمحاضر في معهد شيكاغو للتحليل النفسي، وقد سبقه لذلك فرانز ألكساندر وكارن هورني (كلاهما من الجمعية الألمانية للتحليل النفسي).

وتتابعت سلسلة من الأحداث السياسية المعروفة بعد هيمنة القوى النازية نهاية كانون الثاني/ يناير عام 1933م، ففي ليلة السابع عشر من شباط/ فبراير اندلع حريق في الرايخستاغ، وفي أوائل مارس عقدت انتخابات برلمانية أخرى أسفرت عن حصول النازية على نسبة 43,90% من الأصوات، وإبعاد أغلبيتهم من العمل في الرايخستاغ الجديد. أخيرًا صدر قانون التمكين في الثالث والعشرين من آذار/ مارس، وأصبحت الحكومة سلطة ديكتاتورية نعرفها كأحد سمات نظام هتلر. هاجرت المجموعة البحثية في فرانكفورت بأكملها، ولم يجد المحللون الماركسيون اليهود أي صعوبة في قراءة المكتوب على الجدار، ورغم أن هروب لاندور كان بقدر ما سمحت به هولندا، إلا إنه وقع أخيرًا في مصيدة الهولوكوست. (أغلق النازيون معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية في آذار/ مارس، ثم أُقيل هوركهايمر رسميًا من الجامعة في نيسان/ أبريل. وكانت «مدرسة» فرانكفورت قد أرسلت أموالها للخارج إلى سويسرا أولًا، ثم انتهى بها الأمر لجامعة كولومبيا في نيويورك، وأخيرًا عادت الأموال إلى فرانكفورت بعد نهاية الحرب عام 1949م). وبعد صدور تقرير الاتحاد الدولي للتحليل النفسي حول الجمعية الألمانية للتحليل النفسي، ظهر أن 240 عضوًا من أصل 36 من الأعضاء الرئيسيين قد غادروا ألمانيا فعليًا. وتقلص طاقم تدريس معهد الجمعية الألمانية إلى اثنين (كارل مولر - براونشفايغ «محلل غير متخصص»، وفيلكس بوم)، وتراجع حضور المحاضرات من 164 عام 1932م إلى 34 شخصًا[2].

قُضي على الجمعية الألمانية للتحليل النفسي لقدراتها التدريبية. وقبل هيمنة هتلر كان كلًا من ألكساندر (شيكاغو)، ساندور رادو (نيويورك)، هورني (شيكاغو)، وساكس (بوسطن) قد قدموا استقالتهم ليرحلوا إلى الولايات المتحدة. ومن بين من غادر ألمانيا لاحقًا من المحللين المدربين، سيغفريد برينفليد، إتينغون، فينخيل، جينو هارنيك، ريك،

---

(1) Rainer Funk, Erich Fromm: **His Life and Ideas, translated by Ian Portman and Manuela Kunkel** (New York: Continuum, 2000), pp. 74 _ 77.

(2) Karen Brecht, **Volker Friedrich, Ludger Hermanns, Isidor Kaminer, Dierk Juelich, editors**, «Here Life Goes On In A Most Peculiar Way...», translated by Christine Trollope (London: Kellner-Goethe Institute, 1993), p. 72.

وإرنست زيمل. ومن بين من غادر من أعضاء التدريس القدماء ستيف بورنشتاين، جين لاميل دي غرانت، فيلهلم رايخ(*)، وهوغو ستاب. ومن المحللين المدربين الذين بقوا إلى جانب مولر - براونشفايغ، وبوم، كان هناك تيريز بينديك، إيديث جاكوبسون، فيرنر كمبر، وإيديث فينكل - فيغرت (والتي غادرت بعد مدة قصيرة). لكن الاثنين الأبرز عالميًا للجمعية الألمانية داخل الاتحاد الدولي كانا بوم (الذي أصبح رئيسًا ومديرًا للمعهد)، ومولر - براونشفايغ (الذي كُلف بأن يكون أمينًا وسكرتيرًا بالإضافة لإدارته للجنة التدريبية).

كان إتينغون من بين أوائل من قرروا الرحيل، وكان قد قدم استقالته رسميًا حينما عُيِّن إبراهام رئيسًا للجمعية الألمانية في اجتماع عام جرى في التاسع من أيار/ مايو عام 1933م، ولم يقرر الهجرة إلى فلسطين إلا بنهاية العام. هنا سرد للأحداث المبهمة، والتي يسردها جونز بأسلوب سردي محنَّك، حيث كتب على سبيل المثال: في ربيع عام 1933م: «فُرض في ذلك الوقت قرارٌ يقضي بعدم أحقِّية أي أجنبي شغل وظيفة باللجنة التنفيذية المركزية لأي جمعية طبية في ألمانيا. كان إتينغون يحمل الجنسية البولندية»[1]، ولكن الحقيقة أفظع من ذلك، إذ أعلن النازيون في السابع من نيسان/ أبريل أن «اللاآريين» (اليهود) غير أكفاء، وكان هذا القرار هو ما منع إتينغون من البقاء في أي مجلس إدارة للجمعية الألمانية، وخسر اليهود فجأة حقوقهم الأساسية (ومن المسيئ أن «اللاآري» كان يُعرف بمن كان له جد واحد «لا آري»، ثم توسع الأمر ليشمل المتزوج من «لا آري».

تبع جونز خطى فرويد حينما وصف إتينغون بكونه: «أجنبيًا» باستثناء أن جونز ترك الإشارة المستخدمة من فرويد «إلخ» بعد كلمة «أجنبي»، وقد أرسل فرويد في 21 آذار/ مارس 1933م النصائح التالية لأتينغون:

1 - لنفترض أن التحليل النفسي تم منعه، وتم إغلاق المعهد (التدريبي) من قبل السلطات، في هذه الحالة ليس هناك الكثير مما يقال أو يعمل بشأنه، عندها ستصمد حتى آخر لحظة إلى أن ينهار كل شيء.

2 - دعنا نفترض أن لا شيء حدث للمعهد، لكنك أنت كأجنبي.. إلخ أزيل [خطي المائل] من قبل الإدارة. بقيت في برلين بحيث يمكنك استخدام سلطتك بصورة

(*) فيلهلم رايخ محلل نفسي وعالم اجتماع نمساوي. من أبرز الشخصيات الراديكالية في تاريخ الطب النفسي، له مؤلفات عديدة أبرزها: «تحليل الشخصية» و«الثورة الجنسية».

(1) Jones, **The Life and Work of Sigmund Freud**, Vol. 3, p. 182.

غير رسمية، في هذه الحالة لا أعتقد أنك ستغلق المعهد. صحيح أنك أنشأته [يشير فرويد هنا إلى أموال إتينغون]، وبقيت مسؤولًا عنه لمدة طويلة، لكنك سلمته بعد ذلك إلى مجموعة برلين التي تنتمي لها الآن. لا يمكنك أن تفعلها بصورة شرعية، لكن بقاؤه مفتوحًا هو أمر في المصلحة العامة، لحفظ الذكريات المفضلة. في الوقت نفسه، يمكن لشخص مثل بوم ليس له إخلاص محدد أن يديره، وربما لن يكون هناك حضور كثير سواء من الألمان أو الأجانب [بخطي المائل] ما دامت القيود مستمرة.

3 ـ ربما نفترض مرة أخرى أن لا شيء حدث للمعهد، لكنك غادرت برلين طواعية أو مجبرًا. هذا الوضع يقودنا لنفس المقاصد التي ذكرتها، إلا أن نفوذك تلاشى، وزادت المخاطر بوجود معارضين [بخطي المائل]، كتسلم شولتز ـ هانك المعهد واستغلاله لتعزيز خططهم. هناك أمر وحيد يمكن عمله اتجاه ذلك، وهو أن يعلن تنفيذيو الاتحاد الدولي للتحليل النفسي انفصال المعهد المُساء له بهذا الأسلوب، حتى يتم تبرئته، ولكن بالطبع سيكون هناك تنبيه في البداية.

ياله من نقاش بائس![1].

كان هارلد شولتز ـ هانك كما سنرى، (مسيحي متزوج من امرأة يهودية) مفكرًا «تجديديًا» بارزًا. وذكر جونز أن فرويد قام بالتحذير مرة أخرى في نيسان/ أبريل عام 1933م: «بأن أي تنازلات تتم لأشكال أخرى من العلاج النفسي [كالتي تخص شولتز ـ هانك] سيتبعها إبعاد جمعية برلين من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي». وأضاف جونز بأن ذلك الأمر: «قد حدث بالفعل في سنوات لاحقة»، رغم عدم وجود دليل على هذا المقترح. وفي الاجتماع العام للجمعية الألمانية في السادس من أيار/ مايو[2] رُفض العمل بالمقترح المقدم من قبل بوم ومولر ـ براونشفايغ والذي ينص على استبعاد اليهود من مجلس إدارة الجمعية. عبَّرت آنا فرويد عن وجهة نظرها بهذا الشأن عبر رسالة أرسلتها لجونز في الأول من حزيران/ يونيو عام 1932م :«حتى في أدنى تلك الأزمة، فإن هدف بوم هو جمعية برلين بكل تأكيد»، وكانت الأزمة قد تقلصت لتصبح أزمة شخصية.

---

(1) Brecht et al, **«Here Life Goes On»**, p. 112.

(2) Jones, **The Life and Work of Sigmund Freud**, Vol. 3, op. cit., p. 183.

كان إتينغون متجاوبًا لقرار النازية ضد اللاآريين، وقبل أن يغادر ألمانيا أواخر عام 1933م (كان قد مثَّل عام 1929م و1932م كرئيس لمؤتمرين في الاتحاد الدولي للتحليل النفسي). وقد قام بتقديم اقتراح لاستحداث فئة جديدة لتمنح «العضوية المباشرة» في الاتحاد الدولي، لكلارا هابل و«أي عضو سابق للجمعية الألمانية ممن لا يستطيع الانضمام لأي مجموعة موجودة في الوقت الراهن»[1]، وعلَّق إتينغون بأنه ظنّ أن هذا الاقتراح: «ليس بحاجة لأن يناقش في المؤتمر [والذي تقرر عقده في لوسيرن نهاية آب/ أغسطس عام 1934م]، رغم إنه لم يظهر في التشريعات، ربما لكون المسألة قد حسمت في ذلك الحين. ومن وجهة نظري أن هذه الأمور يمكن مناقشتها عبر مجلس الإدارة بذاته دون ترتيبات مسبقة، لأن ميزاته لا تحتاج لأن تصبح سابقة لزمانها»[2]. (لاحقًا قام إتينغون بتأسيس جمعية التحليل النفسي في فلسطين).

رغم أن دور الألمان لعب أهمية عددية في الاتحاد الدولي للتحليل النفسي قبل هتلر وبعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن دراسة تاريخ التحليل النفسي كانت أقل مقارنة بحال البلدان الأخرى. وعُرف عن معهد برلين الأصلي للتحليل النفسي بأنه أصبح أنموذجًا للمعاهد التدريبية التالية، حتى لتلك التي أُنشئت في فيينا. رغم ذلك، كان الأمر قاسيًا بوضوح على نفوس الألمان أنفسهم أن يشاهدوا على مقربة ما حدث منذ بداية الثلاثينات. حتى بالنسبة للأجانب، كان لمتابعة تداعيات وتحولات الأحداث التي وقعت في ذلك الوقت تأثيرًا نفسيًا بالغًا. انتقد النازيون التحليل النفسي علانية لكونه في نظرهم مظهرًا لما دعوه بتطفل اليهود على الثقافة المسيحية. وأُتهم فرويد على سبيل المثال بأنه يملك مخيلة «قذرة»، وقُلِّصت تعاليمه «للمفاهيم الآسيوية» في الأكل والشرب والزواج والموت[3]. ارتبطت قناعة لامارك بوراثة السمات المكتسبة والتي (يشاركه فرويد في ذلك) بتفكير اليهود النموذجي. وكان مناصرو المثلية والدمار الأسري متصلين أيضًا بأكاذيب النازية حول أفكار التحليل النفسي.

في هذا السياق أصبح فيلهلم رايخ مسؤولية ملحّة للجمعية الألمانية للتحليل النفسي. كان معالجًا تحليليًا وتدرب في الأصل في فيينا ثم انتقل إلى برلين، وكان رايخ رائدًا من بين عدة أمور أخرى في الجمع بين الماركسية والتحليل النفسي. من الواضح أن فروم استفاد

(1) Brecht et al, **«Here Life Goes On»**, p. 83.

(2) Ibid.

(3) Ibid, p. 101.

في أعماله المبكرة من أفكاره بربط الشخصية الفردية وأنماط «البرجوازية» الاجتماعية. لكن رايخ اقترح أيضًا إلغاء الطبقة الوسطى «البطريريكية» كوسيلة للقضاء على العصاب في مهده، ودافع عن أهمية علاج غريزة الإشباع الجنسي. (إسهامات رايخ لعلم خصائص الشخصية النفسية والعيادية لم تكن جديرة بالملاحظة، بل غالبًا ما غُيبت في أدب التحليل النفسي إلى هذا اليوم).

طبقًا لهارولد لازويل بدت حركة التحليل النفسي مهددة بطريقة خاصة بعدما شغل رايخ أواخر العشرينات منصب محاضر في الاتحاد السوفياتي، فقد كان ستالين واضحًا في تعزيز منع التحليل النفسي. ظلّ فرويد طويلًا غير راض عن بعض آثار أفكار رايخ، وكان كتاب فرويد: «القلق في الحضارة» موجهًا على وجه الخصوص ضد بعض أفكار رايخ الجنسية والعيادية والسياسية. كتب فرويد في السابع عشر من كانون الثاني/ يناير عام 1932م إلى جون لاميل دي غروت: « لقد بدأت معركة ضد العداة البلشفيين رايخ وفينخيل»[1]، و«مباشرة بعد» استيلاء النازيين على الحكم قام إتينغون بـ: «إبلاغ رايخ بأنه لم يعد مسموحًا له دخول مباني» معهد التحليل النفسي، «لإنه في حال قُبض عليه، لا يجب أن يحدث ذلك داخل مبنى المعهد»[2].

حظي بوم باجتماع شخصي مع فرويد في نيسان/ أبريل عام 1933م (وكان بول فيدرن من جمعية فيينا للتحليل النفسي حاضرًا) وحول موضوع مساعي النازية لإزالة «اللاآري» من مجلس إدارة الجمعية الألمانية، كان فرويد متشائمًا من عدم وجود أية وسيلة لإنقاذ التحليل النفسي من الحظر، لكنه رأى بأنه من غير المنطقي أن يقدم أي مساعدة للحكومة لتفعيل ذلك، وعلى أساس هذا الأمر وافق على تغيير مجلس الإدارة الحالي كما يتطلب القرار الحكومي، وأثبت هذا القرار بأنه بداية لمنزلق خطير، وبشكل عام أفرط فرويد في تقييم أنصاره المسيحيين. (ربما كتب جونز في الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1933م، لآنا فرويد بأن بوم «أنقذ التحليل النفسي»). بحسب بوم فإن فرويد قد اقترح عليه أن يخلف إتينغون، وفي تقرير بوم عن اللقاء صرح:

«عرض فرويد قبل مغادرتي أمنيتين لإدارة الجمعية، الأولى: ألا ينتخب شولتز ـ

---

(1) **I am indebted here to Hans Israels.**

(2) Brecht et al, **«Here Life Goes On»**, p. 118.

هانك لمجلس إدارة جمعيتنا، ووعدته بألا أكون معه في مجلس واحد، والثانية: قال لي: حررني من رايخ»[1].

نعلم الآن أن رايخ كان مزعجًا لفرويد شخصيًا وفكريًا لمدة طويلة. ففي عام 1932م كان فرويد عديم الحس كما لم يكن من قبل في ذلك السن المتقدم حول أمر «الانشقاق» ولم يعط أي محلل شعبية بذكر اسمه، واصفًا ما سماه بالحركات «الانشقاقية» في تاريخ التحليل النفسي بأنها لا تدرك إلا قشة الحقيقة، ثم نصص فرويد بعد ذلك: «غريزة الإتقان [قاصدًا أدلر] وصراع الأخلاق [قاصدًا يونغ] أو الأم [رانك] أو الجنس[2] [قاصدًا رايخ] ...» بحلول آذار/ مارس عام 1933م أبلغ فرويد رايخ بإلغاء العقد[3] الذي كان بينه وبين شركة فرويد للنشر في فيينا لنشر كتابه عن تحليل الشخصية. وفي صيف عام 1933م كان إرنست زيمل قد اقترح بأن يزال اسم رايخ من قائمة أعضاء الجمعية الألمانية. ومن الواضح أن إتينغون كان يتفق من حيث المبدأ، ولكنه رأى أن يؤجل قرار «التطهير» من رايخ إلى أن يقدم إتينغون استقالته من الجمعية[4]. وكان إتينغون في ذلك الوقت يزاول عمله في كوبنهاغن، ولكن لم يكن بالأمر الفريد أن تدرج أسماء محللين، كأعضاء لأكثر من مجموعة تحليلية. قام فروم في كتابه: «رسالة سيجموند فرويد» بكتابة كلمة واحدة بالخط المائل في رسالة فرويد الهامة لجونز عام 1919م: «إن نيتك في «تطهير» جمعية لندن من الأعضاء المنتمين ليونغ أمر ممتاز»[5].

وفقا لذلك، كتب مولر - براونشفايغ سكرتير الجمعية الألمانية في الأول من آب/ أغسطس عام 1943م إلى رايخ:

«تتطلب الظروف إزاحة اسمك من سجل الجمعية الألمانية للتحليل النفسي.

---

(1) op. ct, p. 119.

(2) **«New Introductory Lectures on Psychoanalysis»**, Standard Edition, Vol. 22, p. 144.

(3) Reich Speaks of Freud: **Wilhelm Reich Discusses His Work and His Relationship with Sigmund Freud** (New York: Noonday Press, 1968), p. 159.

(4) Brecht et al., «Here Life Goes On» p. 121.

(5) Brecht et al, **«Here Life Goes On»**, p. 121. 32 Cultural Foundations of Political Psychology Fromm, Sigmund Freud›s Mission, op. cit., p. 65. See also: **The Complete Correspondence of Sigmund Freud and Ernest Jones** 1908-1939, ed. R. Andrew Paskauskas (Cambridge, MA, Harvard University Press, 1993), p. 335.

سأكون ممتنًا لقبولك وتفهمك لهذا الطلب، وإبعاد أي مشاعر شخصية محتملة، بالتعبير عن موافقتك على هذه الخطوة، لمصلحة قضية التحليل النفسي في ألمانيا. وبما أنك باحث ومؤلف مشهور في عالم التحليل النفسي، فإن هذا الإبعاد قد يشكل ضررًا لك، كتأثيره على قادم جديد للتحليل النفسي. علاوة على ذلك، القضية بأكملها ستصبح أكاديمية بمجرد تمييز المجموعة الإسكندنافية في المؤتمر، وبالتالي ضمان تمثيل لقائمة العضوية مستقبلًا لهذه المجموعة الجديدة»[1].

واجه رايخ مصاعبًا سياسية ومهنية خلال عمله في الدنمارك، وكتب أحد تلامذته التحليليين لفرويد طالبًا مساعدته، فما كان من فرويد إلا القول: «إنني أعترف بمكانة رايخ كمحلل نفسي، لكنه بيَّن أن أفكاره السياسية تداخلت مع أبحاثه العلمية». كانت السلطات البوليسية قد اشتبهت به بمجرد أن استقر مؤقتًا في السويد، لأن إعلان دخوله كان ملغيًا. ورغم أن الأنتروبولوجي البولندي العظيم برونيسلاف مالينوفسكي، كان يعيش في إنكلترا آنذاك، كتب رسالة يساند رايخ في محنته، إلا أن فرويد بقي سلبيًا وكتب فقط: «لن أنضم لاحتجاجك بشأن الدكتور فيلهلم رايخ»[2].

احتج رايخ عند آنا فرويد (سكرتيرة الاتحاد الدولي للتحليل النفسي آنذاك) ضد الاستبعاد المدبر من الاتحاد، وبدورها أحالت رايخ إلى جونز الرئيس المقبل. وخلف الكواليس كان جونز يدير حملة ضد رايخ، وفي أيار/ مايو عام 1933م كتب لآنا فرويد: «برأيي الشخصي يجب أن يتوصل رايخ لحسم أمره حول ما هو الأهم بالنسبة له، السياسة أم التحليل النفسي». في الشهر التالي وُصف رايخ من قبل جونز في رسالة بأنه رجل المتاعب «مجنون» بالتحليل النفسي[3]. تذكر رايخ بمرارة أن جونز قد أخبره في لندن: «سأقف معارضًا ضد استبعادك مهما كانت الظروف»[4]. سُمح لرايخ بحضور مؤتمر لوسيرن «كزائر»، وهو مؤتمر عقد في 31 آب/ أغسطس عام 1934م، وكان قد كُتب بشكل روتيني في الإجراءات

---

(1) **Reich Speaks of Freud**, p. 189.

(2) Myron Sharaf, Fury on Earth: **A Biography of Wilhelm Reich** (New York: St. Martin›s Press, 1983), p. 185.

(3) Paul Roazen, **Freud and His Followers** (New York: Alfred A. Knopf, 1975; reprinted, New York: Da Capo, 1992), pp. 370, 503 - 506.

(4) Wilhelm Reich, **People in Trouble, translated by P. Schmitz** (New York: Farrar Straus & Giroux), pp. 210, 246.

الرسمية. لكن جونز لم يمنح رايخ حق المشاركة في الاجتماع العلمي. لم يدرج اسم رايخ في القائمة النرويجية ـ الدنماركية ولا في الجمعية السويدية ـ الفنلندية للتحليل النفسي، وكلا المجموعتان كانتا «منفصلتين رسميًا» من أجل إبعاد المجموعة السويدية عن تحكم رايخ[1]. ورغم أن المجموعة النرويجية عرضت عليه العضوية، لكنه «بعد مشاورات طويلة قرر أن يبقى خارج منظمات التحليل النفسي بأكملها»[2]. (كان لرايخ تجارب سيئة، وفي ذلك الحين بقي ضمن المجموعة الماركسية).

اكتفى جونز بتقريره لمؤتمر الاتحاد الدولي في لوسيرن بقوله: «تلك المناسبة هي التي جعلت رايخ يستقيل من الاتحاد، لقد تنبَّأ له فرويد بالإيجابية في أول أيامه، لكن حميَّة رايخ السياسية أدَّت به إلى نزاعات شخصية وعلمية»[3]. ومن العدل أن نختم بقولنا: بأن رايخ لم يستقِل في لوسيرن لكنه: «قطعًا كان تحت تأثير الطرد من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي»[4].

بدا النقاش حول رايخ وكأنه خروج عن الموضوع الرئيسي، لكنه بمثابة تصوير قبلي لما حدث لفروم لاحقًا مع الاتحاد الدولي. وأعتقد أنها أثَّرت مباشرة على تقرير بوم ولقاءه مع فرويد في فيينا ربيع عام 1933م، وكيف يتفق مولر ـ براونشفايغ وجونز وروث إيسلر بشكل أكبر لاحقًا (بالنيابة عن الاتحاد الدولي) مع فروم. وسوف يستحضر القارئ سؤال فرويد لبوم في فيينا عام 1933م، ليس فقط بأن يحرره من رايخ، بل أيضًا أن يتخذ سبيلًا واضحًا مع هارلد شولتز ـ هانك داخل الجمعية الألمانية. تم تحليل شولتز ـ هانك في برلين (مثل رايخ) من قبل رادو، لكنه انتقد نظرية الليبدو لفرويد في وقت مبكِّر. درس عام (1927 ـ 1928م) في الجمعية الألمانية للتحليل النفسي، لكنه «أعفي من التدريب بسبب نقده للنظرية الجنسية»، وعلى حساب مصلحته الشخصية جعل «السيكولوجية الفردية لأدلر ونظريات يونغ متوافقة مع مفهومه للتحليل النفسي»[5]. كان أي تقارب لأدلر ويونغ يُرى من قبل فرويد على إنه أمر محظور، وأن هذين الاسمين كانا «نكرتين» قبل الحرب العالمية

(1) Ilse Ollendorf Reich, Wilhelm Reich: **A Personal Biography** (New York: St. Martin›s, 1969), p. 31.

(2) Ibid.

(3) Jones, **The Life and Work of Sigmund Freud**, Vol. 3, p. 191.

(4) Ilse Reich, **Wilhelm Reich**, p. 31.

(5) Brecht et ah, **«Here Life Goes On»**, p. 172.

الأولى ولا يزالان غير مقبولين داخل دوائر التحليل النفسي الأرثوذكسية. أصرَّ فرويد على صحة أساطيره التي بناها حول خطر المهرطقين في التحليل النفسي، وأن المجموعات يمكن أن تنهض بأعدائها.

كان شولتز ـ هانك خصبًا في تأليفه، وناجحًا كمتحدث ومنظِّم[1] لكن في تلك الأيام صرح فرويد بأن شولتز ـ هانك يعارض بعناد فكرة المحلل النفسي، وعدَّ ذلك تنازلًا منه لآراء يونغ وأدلر. وحينما كتب فرويد لأتينغون، كان قد وصف شولتز ـ هانك بـ«خصم داخل» التحليل النفسي، مهددًا بطرده وإبعاده من الجمعية الألمانية إن أمسك شولتز ـ هانك بمنصب إداري في المعهد. كان شولتز ـ هانك يرأس حلقة دراسية في الجمعية إلى جانب أوتو فينخل، حيث كان من المفترض أن «يعرض شولتز ـ هانك باستمرار انحراف وجهات النظر التي أدت إلى نقاشات ملتهبة»[2] كانت كلمة: «الانحراف» كلمة أخرى للهرطقة. وعندما التقى فرويد بِبوم كان «يرى» بأن شولتز ـ هانك يُشكِّل نفس الخطر الذي كان يشكِّله رايخ.

بعد ذلك، سارع الآخرون للتصالح مع نظام هتلر، وفي عام 1934م ساهم شولتز ـ هانك بإيجاد منظمة تهدف إلى «تعليم العلاج النفسي وفقًا لمفاهيم الاشتراكية القومية»[3]، ومع هذا، أُنتقد في عهد النازية على أنه مثال «للعصابات النفسية». وذهب مولر ـ براونشفايغ إلى أبعد من ذلك بنشره عام 1933م مقالة في الأسبوعية النازية، مفترضًا أن التحليل النفسي يهدف إلى بناء أعضاء منتجين في المجتمع، وليس مساعدة الضعفاء: «بهذا القول وأين ومتى قاله، كان مولر ـ براونشفايغ يصادق على نفس اللغة التي كان يستخدمها النازيون لوصف المرضى اليهود والممارسين للتحليل النفسي»، ويوضح مولر ـ براونشفايغ للنازيين: «إن التحليل النفسي وجد كانضباط مخصص لإنتاج الأقوياء لا لمسايرة الضعفاء». وقد كتب شولتز ـ هانك مقالًا بالفعل «غير منشور لحزب النازية» مرددًا ما قاله مولر ـ براونشفايغ، زاعمًا أن: «هدف العلاج النفسي هو تحرير قوى اللياقة البدنية والمهارية داخل الفرد»[4]

(1) See Henri F. Ellenberger, **The Discovery of the Unconscious** (New York: Basic Books, 1970), pp. 640 _ 641.

(2) Quoted in James E. Goggin and Eileen Brockman Goggin, **Death of a Jewish Science: Psychoanalysis in the Third Reich** (West Lafayette, IN: Purdue University Press, 2001), p. 60.

(3) Brecht et ah, «**Here Life Goes On**» p. 172.

(4) Geoffrey Cocks, **Psychotherapy in the Third Reich: The Goring Institute,** 2nd ed., rev. & expanded (New Brunswick, NJ, Transaction Publications, 1997), pp. 61, 86-87,91.

وادعى مراقب موثوق بأن شولتز ـ هانك: «بآرائه السياسية لم يكن اشتراكيًا قوميًا، لكنه امتلك شجاعة شخصية».

كان شولتز ـ هانك مثل غيره يحاول «تطوير مصطلحات ذكية وعالمية»[1]، وقد يكون لهذا صلة بما كانت عليه أهداف النازية داخل ألمانيا. كان شولتز ـ هانك يدافع عن فترة العلاج القصيرة، وأُنتقد على إثر «تنازله البياني لأهداف النازية» مقابل «جزء نفعي لصحة الإنسان مقدم من علاج التحليل النفسي»[2]. مع ذلك، لا بد أن نشير إلى أن شخصًا مثل كارن هورني التي كتبت عن أهمية مفهوم «الشخصية العصابية» عام 1945م، أكّدت بشكل خاص عام 1939م تأثير هارولد شولتز ـ هانك وفيلهلم رايخ عليها كمحللين عرفتهما خلال إقامتها في برلين[3]:

«إن أعمال فرويد الرائدة والعظيمة، تميل في الواقع وبشدة لهذا المفهوم رغم أن سَمْته الجيني لم يسمح له بالوصول لصياغة واضحة. لكن الآخرين الذين استمروا بتطوير أعماله خاصة فرانز ألكساندر، أوتو رانك، فيلهلم رايخ، هارالد شولتز ـ هانك قاموا بتعريف أكثر وضوحًا»[4].

رغم أن آراء كارن هورني الخاصة اختلفت عن الآخرين الذين «استمروا في تطوير أعمال فرويد»، إلا إنها أرجعت في نقاط متعددة في كتاباتها موافقات خاصة لأفكار شولتز ـ هانك[5].

عرفت هورني كيف تحرك المحللون الألمان تحت قيادة هتلر ليكونوا شموليين عندما

---

(1) Kathe Drager, **«Psychoanalysis in Hitler›s Germany»** American Imago, Vol. 29 (1972), pp. 199-214.

(2) Geoffrey Cocks, **«Book Review»,** Psychohistory Review, Vol. 24 (1996), p. 211.

(3) Bernard J. Paris, Karen Homey: **A Psychoanalyst›s Search for Self-Understanding** (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), p. 118.

(4) Karen Horney, Our Inner Conflicts: **A Constructive Theory of Neurosis** (New York: W. W. Norton, 1945), p. 11.

(5) Karen Horney, The Neurotic Personality of Our Time (London: Routledge & Kegan Paul, 1937), p. 38; Karen Horney, New Ways in Psychoanalysis (London: Routledge & Kegan Paul, 1939), p. 95; Karen Horney, Self-Analysis (London: Routledge & Kegan Paul, 1942), p. 60; Karen Horney, **Neurosis and Human Growth: The Struggle Toward Self-Realization** (New York: Norton, 1950), p. 369; Karen Horney, Feminine Psychology, ed. Harold Kelman (New York: W. W. Norton, 1967), p. 228.

يأتي الأمر لأدلر ويونغ، ويمكن أن يُرى ذلك كمحاولة لـ «إنقاذ» ممارسة العلاج والتحليل النفسي. (ربما نشر شولتز ـ هانك مقالة في باريس حول مساعدته لحماية الناجين من التحليل النفسي في ألمانيا)، وحتى قبل هتلر كان شولتز ـ هانك قد عُوقب بعد عام (1927 ـ 1928م) داخل الجمعية الألمانية بسبب أفكاره الخاصة بالمذهب التحليلي، وعُزل من طاقم تدريس الجمعية قبل النازية. لكن تنازلات الاتحاد الدولي البيروقراطية حول الهياكل التنظيمية، وعزلها لليهود بدت لي صادمة كأي أديولوجية محتملة، وبعد هذه المدة الزمنية الطويلة، يظهر أن التخلي عن المخاوف من أفكار أدلر ويونغ كان أمرًا مرغوبًا. كما رأينا، كان عزل اليهود من مجلس إدارة الجمعية الألمانية، باعتباره قُبل من فكر فرويد، استجابة مباشرة ومساومة لضغط سياسي فوري.

كان الدور الشخصي ليونغ في أوروبا الوسطى عام 1930م حاسمًا فيما يخص مستقبل موقفه التاريخي، منذ أن كان صريحًا بعد وصول النازية لهيمنتها وإثباتها لسقطات فكر فرويد المتعددة وجذوره اليهودية[1]. ولربما تبرر هذه المواقف العامة ليونغ أخطاء له، في الوقت الذي يبقى صعبًا كشف مناورة شخص مثل جونز ـ خلف الكواليس ـ (أو فرويد والاتحاد الدولي بذاته). وكان التعاون مع السلطوية أو الشمولية في هذا الأمر يحدث تحت العديد من المظاهر المختلفة. كان اللورد ـ ماير بهامبورغ بليغًا عندما خاطب المؤتمر الرابع والثلاثين للاتحاد عام 1985م حول خطر الائتلاف تجاه الهتلرية، يقول: «كل الخطى عقلانية، لكنها كانت في الاتجاه الخاطئ. هنا تسوية مع الأفراد وهناك مع جوهرهم، بأمل تافه بالحفاظ على الكل ـ والذي يجب أن يختفي... في معظم الحالات تضيع الحرية في ثنايا لا ترى»[2].

كما نرى، لا أظن أن الاتحاد الدولي للتحليل النفسي خرج بهذه القصة بمظهر البطل بعكس سلوك يونغ، بل حتى للمحلل النفسي غير المختص مثل فرانز ألكساندر، والذي كان ساذجًا سياسيًا باتهامه ليونغ بأنه «يفتقر إلى الثبات الأخلاقي المتجذر عند فرويد»[3]،

(1) Paul Roazen, **«Jung and Anti-Semitism»** in Lingering Shadows, ed. Aryah Maidenbaum (Boston: Shambahla, 1991), pp. 211 _ 221.

(2) Fritz Stern, **«Fink Shrinks»** New York Review of Books (Dec. 19,1985), p. 48, n.3.

(3) Franz Alexander and Samuel Selesnick, **The History of Psychiatry** (New York: Harper & Row, 1966), p. 407.

أراد فرويد معرفة ما يجري أكثر من غيره ممن كانوا مستعدين للاعتراف. (كتابات جونز لأنا فرويد عن المشاكل في الجمعية الألمانية أعطت لفرويد ما يعرف الآن بسياسة الإنكار). إن هجرة شخص مثل فروم وزملاؤه في فرانكفورت (والتي لم تكن بالأمر السهل) من ألمانيا، جعلت منه أكثر نزاهة من غيره من البدلاء، الذين أصبحوا زملاء يرتحلون مع النازيين أو يرتكبون خيانة أهلية.

في بداية عام 1933م اختار يونغ نمطًا انتهازيًا، سارع رايخ للتنديد به، وفيما بعد وجَّه المحلل غوستاف بالي، صديق فروم، نقدًا ليونغ في أحد مطبوعاته. وبالنسبة للجمعية الألمانية للعلاج النفسي (تأسست عام 1926م) وعُرفت تحت الحكم النازي، وكان يونغ رئيسًا للجمعية الدولية الألمانية العامة للعلاج النفسي، ومحررًا لجريدتها. وكتب جونز كيف أن: «النازيين استولوا على الجمعية الألمانية للتحليل النفسي في حزيران/ يونيو 1933م وادَّعى أنها: «تتخفى تحت لواء الجمعية الألمانية الدولية الطبية للعلاج النفسي»، والتي كانت بالمقابل «مُنظِّمة» للثورة القومية الألمانية»[1]. لكن يونغ دافع في السنوات التالية عن الأسس التي أنجزها، وادَّعى بأنه كان يعمل من أجل حماية هذه المهنة، وحماية اليهود الذين مارسوها بعناء بالغ. واحتج يونغ: «بأن الطاقم من غير الأطباء اليهود» كان بإمكانهم أن: «يكونوا أعضاء فوريين للجمعية الدولية...»[2]. (باتباع جونز لفكر أتينغون الأصلي، يكون قد عمل ترتيبًا مشابهًا لما عمله لفروم ولآخرين داخل الاتحاد الدولي). كان يونغ مثل جونز ينفذ هذه التسويات داخل ألمانيا، وكلاهما قدم المساعدة لليهود اللاجئين من ألمانيا ليبنوا أنفسهم في الخارج.

لنتقدم قليلًا: في عام 1936م حيث اختار النازيون طبيبًا نفسيًا نازحًا يدعى: «الدكتور ماتياس غورينغ»، ابن عم هيرمان غورينغ، الذي ترأس منذ 1933م الجمعية الألمانية للعلاج النفسي وفي ذلك الوقت كان يونغ محررًا مساعدًا (استقال يونغ عام 1940م). تم تحليل ماتياس غورينغ من قبل أدريان، ليونارد سيف، ولعب غورينغ دورًا مركزيًا في تاريخ التحليل النفسي، تحت حكم هتلر منذ عام 1938م، ووسع معهده الجديد (الجمعية الألمانية للتحليل النفسي كقسم فرعي). وجهزت الجمعية الألمانية مبنى ومكتبة وعيادة. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1933م كتب يونغ عن ماتياس غورينغ، الذي كان اسمه الأخير سيئ السمعة،

Jones, **The Life and Work of Sigmund Freud**, Vol. 3, p. 186. (1)

Roazen, **Freud and His Followers**, p. 293. (2)

ومن الممكن أن يخطر ببال أغلبية القراء اليوم: «كان رجلًا لطيفًا وعقلانيًا لذلك كانت آمالي كبيرة في تعاوننا»[1].

في الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر 1933م كتب جونز لأنا فرويد يخبرها بأنه كان يتوقع تأثيرًا أفضل من بوم ومولر ـ براونشفايغ: «من سوء الحظ أن شولتز ـ هانك ـ الذي لا يعتبرونه جديرًا بالثقة بشكل كاف في أعماله التحليلية النفسية ـ كان قد تسلَّم منصبًا دائمًا لتمثيل التحليل النفسي»، بلجنة حكومية جديدة تدار بواسطة «معالج نفسي يدعى غورينغ... ابن عم المدمن الشهير» ولاحقًا كتب جونز لأنا فرويد حول غورينغ في العشرين من تموز/ يوليو عام 1936م: «كان من السهل الوصول إلى علاقة مع غورينغ الذي يملك شخصية عاطفية جدًا. من السهل قيادته في اتجاهنا، لكن لسوء الحظ... وكذلك الآخرين».

أعتقد أن ما أثار انتباهي بشكل خاص هو تقدير جونز عام 1957م بأنه وجد ماتياس غورينغ: «شخصًا ودودًا وسهل الانقياد إلى حدٍّ ما». كتب جونز بحق حول غورينغ بقوله: «اتضح لاحقًا [بعد 1936م] بأنه ليس في وضع يسمح له بالإيفاء بوعوده التي قطعها حول درجة الحرية التي يسمح بها لمجموعة التحليل النفسي [داخل معهد غورينغ]. كان جونز مثل يونغ مستمر بتقديم التحليل النفسي على السياسة، وكتب عام 1957م عن غورينغ بأنه كان مخيبًا للآمال: «إن الجذور اليهودية للمحللين اتضحت له من دون شك بالضبط في ذلك الوقت»[2]. لكن تعبير جونز كان غير محتمل، ليس لكون ماتياس غورينغ مرتبطًا كعضو بالحزب النازي، بل لأنه يجعل (السيرة الشخصية لهتلر) متطلبًا لتدرس في معهده. ولقي ماتياس حتفه عام 1945م مدافعًا عن برلين ضد تقدم قوات التحالف.

لنصل أخيرًا لتفاصيل ما حدث لفروم وعلاقته مع الاتحاد الدولي، فبينما كان في أميركا كان مولر ـ براونشفايغ يكتب في العاشر من كانون/ يناير عام 1935 لفروم حول المستحقات المتعددة التي لايزال مدينًا بها للجمعية الألمانية. (كان الإبقاء على تاريخ 1934م في مذكراته الخاصة بفرويد، أمرًا مغرضًا من جونز: «شهدت هذه السنة رحيل ما تبقى من المحللين من ألمانيا وتصفية التحليل النفسي فيها»[3]. عن وعي أو دونه، علم جونز

(1) Geoffrey Cocks, **Psychotherapy in the Third Reich** (New York: Oxford University Press, 1985), p. 127.

(2) Jones, **The Life and Work of Sigmund Freud**, Vol. 3, p. 187.

(3) Ibid, p. 185.

(أن هناك الكثير مما دفن عقب عام 1934م). وأخذت رسالة العاشر من كانون الثاني/ يناير 1935م وقتًا ليعاد توجيهها إلى عنوان فروم الصحيح في أميركا. شرح مولر - براونشفايغ بدقة نسبة المستحقات والواجبات لكل عضو مدان بالمقابل من الجمعية الألمانية للاتحاد الدولي، واعتبرها مولر ـ براونشفايغ «إنذارًا نهائيًا» لفروم لدفع مجمل المستحقات البالغة 211 ماركًا ألمانيًا قبل الأول من آذار/ مارس[1]. وعرض فروم بالمقابل أوضاعًا تصحيحية ليدفعها بالتقسيط.

في الثالث من آذار/ مارس 1936م أرسل فروم رسالة قاسية لمولر - براونشفايغ:

«إنني متأسف للغاية لأنني لم أقم حتى الآن بإرسال ما وعدتك به من الدفعة الأخيرة من الدين. أنا في وضع يسمح لي بفعل هذا، وكنت سأرسل إيصالًا بالمبلغ في غضون أيام، لو لم أسمع من أوساط متعددة بأن الجمعية الألمانية قامت باستبعاد أعضائها اليهود. وأنك قمت بذلك دون أن تكلِّف نفسك عناء إخباري، (وبعيدًا عن تبرير تلك الفعلة، والتي لا أريد الحديث عنها هنا)، لا أصدق أنني أسألك إفهامي للمرة الأولى، حول ما إذا كانت تلك الشائعة تنطوي على حقائق»[2].

قام مولر - براونشفايغ بالردِّ على فروم في الواحد والعشرين من آذار/ مارس شارحًا له أن الأعضاء اليهود في الجمعية الألمانية - في اجتماع برئاسة جونز - قد صوتوا بالاستقالة نهاية خريف 1935م. كما كتب مولر - براونشفايغ لجونز في الثاني والعشرين من آذار/ مارس:

«أنا آسف لإقحامي إياك في هذه المسألة المزعجة، حسبما أذكر، عند زيارتك اللطيفة لنا في برلين أخذت على عاتقك النظر في أمر الأعضاء اليهود في الجمعية الألمانية، وأن من يعيشون خارج ألمانيا يجب أن يتم إخبارهم عن طريق المركز التنفيذي للاتحاد الدولي، حول القرار الطوعي للأعضاء اليهود المستقرين في ألمانيا كي يستقيلوا من الجمعية، وأنهم في نفس الوقت يجب أن تُقدم لهم المساعدة للانتقال لمجموعة أخرى، أو تعرض عليهم عضوية دائمة مجانية. قبل عدة أيام تسلمت رسالة مرفقة من الدكتور فروم والتي كانت مزعجة لنا، بإثارتها للشكوك حول ما إذا كنت قد أخبرت كافة الأعضاء اليهود خارج ألمانيا وسألتهم

---

(1) Rainer Funk, «**Erich Fromm›s Role in the Foundation of the IFPS**» Fromm Forum (International Erich Fromm Society), Vol. 3 (1999), p. 22.

(2) Brecht et al, «**Here Life Goes On**» p. 139.

حول الاستقالة، وأذكر أننا تناقشنا حول ذلك. من المهم لنا هنا أن يكون كل شيء واضحًا لا لبس فيه لجميع المعنيين، ويجب أن يعلم الجميع بأنه لن يتم استبعاد أحد، ولكن يُتوقع من الأعضاء اليهود تقديم استقالتهم، وأنهم لن يتكبدوا أي عناء بانتقالهم لمجموعات أخرى أو استلام عضوية مجانية مفتوحة دائمة»[1].

كان مولر براونشفايغ محبطًا (ليس عاجزًا فقط) في محاولته لإدارة منحة دراسية ممولة، والتي أعدت في الأصل من محللي برلين الأغنياء، مددت هذه القروض الفترة التدريبية للطلاب مثل فروم. وحينما تولى النازيون زمام الأمور كان هناك يأس من حصول اليهود على إعانات لسداد قروضهم، لذا، عرض مولر - براونشفايغ أخيرًا عام 1937م نقل هذا التمويل لجونز والاتحاد الدولي، ولتحصيل هذه الديون اشترط أن تخصم مستحقات الجمعية الألمانية التي تدين بها للاتحاد الدولي من هذا البند المفترض. وكان موقف الألمان من هذا المال، إن وضعته بعبارة لطيفة موقفًا عديم الحس[2].

في خريف 1935م وقعت حادثتان خارجيتان لها علاقة مباشرة بما نتحدث عنه هنا. الأولى في أيلول/ سبتمبر، حيث سُنَّ قانون نورنبيرغ[*] السيئ الشهرة خلال جلسة خاصة في الرايخستاغ، أن لاحقوق للألمان من أصول يهودية، وتحريم الزواج بين الألمان واليهود، ومنع اليهود من توظيف خدم « آريين». وبعيدًا جدًا عن هذا التصعيد الرسمي من النازيين المعادين للسامية، والتسبب في مشاكل لليهود و«اللآريين» ليتواصلوا اجتماعيًا، اُعتقلت في تشرين الأول/ أكتوبر محللة متدربة في برلين «إيدث جاكوبسون» من طرف البوليس السري النازي «الجستابو». كان لها ارتباط نوعًا ما بجماعة المقاومة السرية، وحاولت بطريقة أو بأخرى إفراغ صندوق مليء بكتب أدبية ضد النازية[3] في بحيرة غروفيلد في برلين. قد يعتقد المرء بأنها كانت طريقة خرقاء للغاية للتخلص من مواد هدامة، وأن الموقد والبابور كانا أكثر أمانًا. في كل الأحوال، تم إخبار المحللين الدوليين بمصير المرأة، بالإضافة الى

---

(1) op. ct.

(2) op. ct, p. 79.

(*) هي سلسلة من القوانين صدرت في 15 أيلول/ سبتمبر من سنة 1935م، لتشكل معلمًا من معالم السياسة التشريعية المناهضة لليهود في ألمانيا. وكان أهم تشريعين هما: «قانون مواطنة الرايخ»، و«قانون حماية الدم الألماني والشرف الألماني» واللذان ألغيا مواطنة اليهود.

(3) Ibid., p. 126; Goggin and Goggin, Death of a **Jewish Science**, p. 98.

تنبيه الجمعية الألمانية، وتوقفت جهود جونز بمساعدتها بعد تلقيه «برقية عاجلة»[1] من بوم. (حكم عليها بالسجن لسنتين)، وكان جونز «حادًّا بنقده لما وصفه بمواقف «اليهود المتطرفة» من جانب بعض المحللين[2].

تجدر الإشارة إلى أن جونز كتب في وقت سابق، في الثامن والعشرين من تموز/ يوليو 1934م، إلى بوم قبل مؤتمر لوسيرن:

«طلبي أن تبقي هذه الرسالة سرية باستثناء الدكتور مولر - براونشفايغ، كي تستعد للمصاعب التي قد تواجهك في المؤتمر. من المحتمل أنك لا تعي قوة عاصفة الاستياء والمعارضة التي تُهيِّج في الوقت الحاضر دوائرًا شرعية معينة، خاصة بين المنفيين من ألمانيا. وقد يأخذ ذلك شكل تصويت شخصي للإدانة ضدك أو حتى الإصرار على إبعاد الجمعية الألمانية من الاتحاد الدولي. واعلم بأنني غير متعاطف مع المواقف العاطفية اليهودية المتطرفة، ومن الواضح لي بأنك وزملاءك كنتم منساقون للعاطفة والغضب الذي لا محل له هنا، بل تم توجيهه نحوكم. قلقي الوحيد هو مصلحة التحليل النفسي، ويجب علي أن أدافع عن وجهة النظر التي أحملها بثقة بأن ما قمت به قد تم بسبب نفس الدافع»[3]

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1935م قام بوم بمهاتفة جونز، يخبره أن الجمعية الألمانية تواجه: «كارثة حقيقية، وأن نهايتها وشيكة». وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1935م احتج فينخل بشكل غير نافع بأن الجمعية الألمانية كانت مستسلمة للنازية. استبدلت على سبيل المثال صورة فرويد بصورة هتلر[4] (وكتب جونز لآنا فرويد في الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر: «أُفضِّل أن يمارس التحليل النفسي في ألمانيا من قبل المسيحيين أو لا يتم ذلك إطلاقًا». اعتقدت آنا فرويد «من ناحية واقعية»[5] أن فينخل كان محقًّا. وبعد التفكير في مكالمة بوم في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، أرسل جونز (برقية قصيرة لإخبار بوم بتأخر زيارته)، وكان جونز قد «أكد بأن اليهود استقالوا طواعية».

(1) Brecht et al., **«Here Life Goes On»** p. 126.

(2) Goggin and Goggin, Death of a **Jewish Science**, p. 61.

(3) Brecht et al., **«Here Life Goes On»** p. 78.

(4) Ibid, pp. 126, 181.

(5) Goggin and Goggin, Death of a **Jewish Science**, p. 99.

بعد ذلك ذهب جونز بنفسه الى برلين حيث ترأس اجتماعًا للجمعية الألمانية في الأول من كانون الأول/ ديسمبر، وكان كلا الداعمان لبوم وإيدث جاكوبسون يعتقدون بأن مصاعب الجمعية جاءت أساسًا من قانون نورنبيرغ الجديد[1].

بعد ذلك لاحت في الأفق مشكلة خيار حل الجمعية الألمانية أو إلغاء انتماءها للاتحاد الدولي. ومنذ عام 1933م أتت مطالب من النازيين بأن على المحللين اليهود الاستقالة. وبحلول كانون الأول/ ديسمبر 1935م: «إذا لم يستقِل المحللون اليهود، فمن المحتمل أن الجمعية الألمانية سوف تحل» من طرف النازية[2]. واحتلت العضوة الجديدة إيفا روزنفيلد ما اعتبره المرء مكانة جذَّابة بين الأعضاء اليهود أنفسهم: «كان رأيها أن الزملاء في مأزق ترفضه داخليًا، لأنهم لن يستقيلوا طواعية بسبب معاناة شديدة من المازوخية، وبالتالي من غير الممكن أن يكونوا جلَّادين لذواتهم»[3]. كما صاغها المؤرخ والمحلل بيتر لوفينبرغ مؤخرًا على هذا النحو:

> **«من الواضح أن فرويد كان مهتمًا بالحفاظ على تنظيم وحضور التحليل النفسي في الرايخ الثالث، أكثر من حفاظه لكرامة وثقة زملاؤه اليهود أو الأوضاع الضرورية للتحليل النفسي ليشتغل كعلاج عيادي مؤلم ومخزي وقراءة سجل رؤساء معهد محترم، قاموا من أجل الحفاظ على تنظيم ورقي المهن لخلفاء القيادة الجدد، بإهانة وإهمال الغالبية العظمى من أعضائهم، ليتكيّف مع طغيان الدولة. هذا المجتمع «العلمي» أو في هذا الشأن «الإنساني» سيستبعد أعضائه عبر دوافع عرقية، إثنية، دينية، أو أي دوافع أخرى عارضة من أجل وجود المعهد، ويرفض استقلال العلم من أديولوجيات السياسة، وأخلاقية تقسيم الأفراد، والتي هي جوهر التحرر الإنساني للتحليل النفسي بذاته»**[4].

ادَّعى جونز في رسالته لآنا فرويد في الثاني من كانون الأول/ ديسمبر 1935م بأنه يعارض «طرد اليهود»، وأخبرها أيضًا بشكل عام عما كان يعتقده: «إن مولر - براونشفايغ مشغول

---

(1) Brecht et al., **«Here Life Goes On»** p. 129.

(2) Goggin and Goggin, Death of a **Jewish Science**, p. 88.

(3) Brecht et al., **«Here Life Goes On»** p. 137.

(4) Peter J. Loewenberg, «Foreward», Geoffrey Cocks, **Treating Mind and Body: Essays in the History of Science, Professions, and Society Under Extreme** Conditions (New Brunswick, NJ, Transaction Publishers, 1998), pp. ix-x.

بمغازلة فكرة الجمع بين فلسفة التحليل النفسي ومفهوم شبه - لاهوتي لأديولوجية القومية الاشتراكية، ولك أن تتخيلي أنها مهمة شاغلة جدًا، وما من شك في أنه سيواصل جهوده في هذا الاتجاه، وقطعًا لا يشابه بوم فهو من معادي السامية»[1]. وكان مسؤول الاتحاد الدولي الهولندي فان - أوفويسن قد كتب لجونز في الواحد والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1933م بأنه قد ثبت أن كلًّا من بوم ومولر - براونشفايغ نازيين[2]. اعتقد جونز أن شولتز - هانك: «غريب بما يكفي ليكون على توجهه الصحيح»[3]، وأبلغ بوم أن شولتز - هانك اقترح أنه على: «الجمعية الألمانية أن تنفصل عن الاتحاد الدولي، وكل واحد منا يجب أن يبقى عضوًا سريًا للاتحاد الدولي للتحليل النفسي، وأن يواصل مسيرته/ مسيرتها بسرية»[4].

لكن بوم ومولر - براونشفايغ لم يكونا كما ذكر جونز في رسالته لآنا فرويد، بالتأكيد على كون جونز كانت له مصلحة في مغادرة اليهود للجمعية، ومن الواضح أنه أرسل برقية أيضًا لتريزا بينديك: «مشورة عاجلة بالاستقالة الطوعية»[5]، والتي كانت تتزعم معارضة فكرة إبعاد اليهود لأنفسهم. (فيما بعد وتحت ظروف مشابهة)، اقترح على المحللين الهولنديين بأن يقدموا استقالتهم الاحتجاجية عوضًا عن الاستقالة الطوعية. كان بوم لايزال في نعيم، مقيمًا داخل الاتحاد الدولي ليقضي ثلاث ساعات، عاد 1937م يصف وضع التحليل النفسي في ألمانيا قبل دخول مجموعة المحللين النمساويين الصغيرة.

في السادس والعشرين من آذار/ مارس عام 1936م كتب جونز إلى فروم، ردًّا على الرسالة التي بعثها مولر - براونشفايغ إلى فروم:

«أعاد الدكتور مولر - براونشفايغ توجيه رسالتك المتذمرة من إقالة الأعضاء اليهود. غير صحيح أنه تم استبعادهم، لكنهم قرروا عقب نقاش هام في برلين بينهم وبين زملاؤهم، نقاشًا كنت حاضرًا فيه، أن من مصلحة الجميع أن يقوموا بتقديم استقالتهم، كان واضحًا لي أنه لن يوجد بديل لهم، أقول لك: إنني أتوقَّع يوميًا سماع خبر حلِّ الجمعية الألمانية بذاتها كليًا».

(1) Brecht et al., **«Here Life Goes On»** p. 134.

(2) Goggin and Goggin, Death of a **Jewish Science**, p. 91.

(3) Brecht et al., **«Here Life Goes On»**, pp. 130 _ 31.

(4) **Ibid, p.** 134.

(5) **Ibid, p.** 136.

فكرة أي حل وشيك قد تكون مفاجئة، لكنها كانت إحدى تلفيقات جونز البيانية أراد أن تجري على فروم:

«وحول مسألة التواصل معي، إنك تتفهم بلا شك أن الكتابة من برلين أمر شاق، واتضح لي أن هناك سوء فهم في المسألة، حيث إنني الملام الأكبر مقارنة بالدكتور مولر - براونشفايغ. لقد افترضوا أنني سأقوم بإبلاغ الأعضاء الألمان الذين يعيشون خارجها، وهو أمر لم يكن واضحًا بالنسبة لي. أبلغت الذين يعيشون في إنكلترا واعتقدت جليًا أن ذلك يفي بالغرض. أنت العضو الوحيد في هذه الفئة، وظننت أنك عضو حالي في جمعية نيويورك».

لكن أ.أ ابريل كان متواصلًا بانتظام مع جونز حول انضمام أي عضو من الخارج لمجموعة نيويورك، وسوف يسمع جونز من أبريل كل خبر لانضمام عضو جديد. وعرف جونز بكل تأكيد أن المحللين غير المختصين مثل فروم كانوا يائسين من التحليل النفسي الأميركي بأكمله: «ومع ذلك»، أضاف جونز: «إذا كان هناك أية مصاعب في مسألة قبولك هناك [في نيويورك]، فيمكنني أن أعرض عليك عضوية «نانسن» المباشرة للاتحاد الدولي. كن مخلصًا لي لتخبرني بذلك»[1] (أسست عضوية نانسن على غرار جواز نانسن للاجئين السياسيين، والتي تقدم للاجئين الروس دون إقامة»[2]. وهذا يتبع حادثة أتينغون مع كلارا هابل، وأيضًا إجراء يونغ مع متابعيه من علماء النفس التحليليين).

بسبب خطأ بريدي قال فروم: بأنه لا علم له برسالة جونز التي بعثها في آذار/ مارس قبل شهرين وذكر فروم ما يلي:

«في غياب بديل، أقبل التخلي عن عضويتي في الجمعية الألمانية للتحليل النفسي. أنا على اتصال مع جمعية واشنطن - بالتيمور للتحليل النفسي، التي قدمت فيها فصلًا من المحاضرات السنة الماضية، لكن قبول عضو - غير متخصص يعدُّ مخالفًا لشروطهم، وأفضِّل ألا أضغط في هذا الشأن، وعليه، مادام الأمر هكذا، أفضل أن أكون عضو «نانسن» للاتحاد الدولي، وامتناني الكبير لك باتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذ ذلك».

(1) op. ct.p. 138. I am indebted to Rainer Funk for having allowed me to make copies from his Fromm Archives of the correspondence between Muller-Braunschweig and Fromm, the letters between Jones and Fromm, and the later exchanges between Ruth Eissler and Fromm.

(2) Funk, **Erich Fromm**, p. 23.

في نيسان/ أبريل، قام فروم بإرسال إيصال بخمسين دولارًا (24 مارك ألماني) إلى مولر - براونشفايغ، وفي حزيران/ يونيو صادق جونز على عضوية فروم كعضو مباشر للاتحاد الدولي للتحليل النفسي، وأمِل أن يحضر للمؤتمر القادم في مارينباد. وشرح فروم عدم قدرته على حضور المؤتمر، وكان ممتنًا لرسالة جونز، وسأله لمن عليه إرسال رسوم عضويته.

لم ترد المزيد من الرسائل بهذا الشأن، وأفترض أنه لم يكن هناك وجود لقبول الرسوم للعضوية المباشرة. على أي حال، صُدمت بأن فروم قد دمر كثيرًا من مراسلاته الخاصة، وكان قد حفظ الرسائل التي دارت بينه وبين جونز، مولر - برونشفايغ، وكما سنرى أيضًا روث إيسلر.

تأسست الجمعية الألمانية نتيجة اتفاق جرى في تموز/ يوليو عام 1936م بين جونز، بريل، بوم، مولر - براونشفايغ و م.هـ. غورينغ وأصبحت الجمعية الألمانية (كانت لا تزال جزءًا من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي) جزءًا جديدًا من المؤسسة الجديدة المسماة بمعهد غورينغ. احتفلت الجمعية الألمانية بميلاد فرويد الثمانين، ولم يسمح لليهود بالحضور[1]. وكانت الجمعية الألمانية قد أنشئت أصلًا من طرف إبراهام عام 1910م، وحُلّت في نهاية المطاف في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1938م. كان جونز من أوائل المبادرين لاقتراح عضوية الجمعية «عضوية مباشرة» في الاتحاد الدولي، لكن بوم رفض هذا الاقتراح. المسمار الأخير في نعش الجمعية الألمانية كان عبر «مجموعة العمل (أ)» لمعهد غورينغ، والتي أتت من رحلة مولر - براونشفايغ إلى فيينا، وذلك بعد زحف النازيين في الثاني عشر من آذار/ مارس 1938م. (مجموعة العمل (ب) كانت تضم المحللين الجدد لشولتز - هانك، ومجموعة العمل (ج) أتباع يونغ).

عندما استولت النازية على جمعية التحليل النفسي النمساوية؛ كعيادة فرويد ومطبعته، كان ابنه الأكبر مارتن مسؤولًا آنذاك عن الأمور المالية، أرسل برقية لمولر - براونشفايغ يستنجده من برلين. مرة أخرى قام جونز في سيرة فرويد بتمويه مدى توسع الاتحاد الدولي بعد بدء هذا التعاون، حيث كتب: «لقد وصل مولر من برلين مصحوبًا بمفوض نازي؛

(1) Goggin and Goggin, **Death of a Jewish Science,** p. 105.

بغرض تصفية وضع التحليل النفسي»[1]. كانت براونشايغ الفكرة واضحة، وهي التخلي عن مولر - برونشفايغ ومن خلاله عن الجمعية الألمانية، مهما كانت ممتلكات المحللين في فيينا. ويشق عليّ أن أعتبر ذلك احترامًا ذاتيًا من فرويد وجمعية التحليل النفسي النمساوية؛ بأن يسلموا أصولهم إلى الجمعية الألمانية الآرية يوم التجأوا لمولر - براونشفايغ ليأتي إلى فيينا.

توارت كافة الميول السياسية الفاشية لفرويد خلال العقد الأخير من حياته في فيينا، رغم أنها كانت في ذلك الوقت غمًّا على أتباعه السياسيين المثاليين في أميركا، والذين كانوا على علم بما يجري في فيينا. بكت روث ماك برونشفيك على سياسة فرويد، وتوقف علاج زوجها مارك لأن فرويد «خان» الاشتراكية المحلية. كان المستشار إنغلبرت دولفس قد قمع في بداية عام 1934م تمردًا ماركسيًا في فيينا بتعليق البرلمان وقصف مشروع الإسكان الضخم في المدينة حتى استسلمت[2]، وعلى الرغم من ذلك علّق مارتن فرويد لوحة لدولفس في مكتبة مطبعة فرويد. أكثر من هذا، حاول فرويد استمالة موسيليني (الذي كان مدافعًا عن استقلال النمسا)، وكان ذلك، من دون شك، لخدمة التحليل النفسي في إيطاليا، التي لم تكن مستقرة[3]. شكّل قرار فرويد بالبقاء مطولًا في فيينا مصاعبًا للمقربين من حوله، يوم أن شعروا أنهم لن يتمكنوا من المغادرة مبكرًا دون أن يبدو بمظهر الهاربين. (فيما بعد لقيت أخواته الأربع حتفهن في مخيمات الاعتقال النازية).

قدِم جونز مباشرة بعد احتلال النمسا، وكان له دور في المشاورات، التي قبِل فيها مولر - براونشفايغ أن يصبح الوصي لجمعية التحليل النفسي في فيينا، بالنيابة عن الجمعية الألمانية. كان هناك قلة من المحللن غير اليهود في فيينا لنجاح المشروع، لذلك، أراد جونز من (غير اليهودي) ريتشارد ستيربا أن يبقى في النمسا. تم استجواب آنا فرويد من قبل الشرطة النازية السرية «الجيستابو» حول أمور مالية، بعدما ترك شقيقها مارتن دليلًا اجراميًا توثيقيًا حول أموال خارجية. بعد ذلك، لكي تحمي نفسها، عرضت عليهم رسالة مولر - براونشفايغ،

(1) Jones, **The Life and Work of Sigmund Freud**, Vol. 3, p. 221.

(2) Goggin and Goggin, **Death of a Jewish Science** p. 41.

(3) See Paul Roazen, «Psychoanalytic Ethics: Freud, Mussolini, and Edoardo Weiss» **Journal of the History of the Behavioral Sciences**, Vol. 27, October 1991.

بعدها قامت الشرطة باستجوابه أيضًا[1]. من الواضح أن مولر ـ براونشفايغ (بصحبة العديد ممن حاولوا حماية فرويد) كان مساعدًا لإعطاء الإذن لفرويد بمغادرة النمسا (غادر فرويد في الرابع من حزيران/ يونيو عام 1938م).

أخفقت المحاولة في مجموعة فيينا الآرية للتحليل النفسي، وتم تصفية المطبعة واتحاد التحليل النفسي والعيادة في الأول من أيلول/ سبتمبر. في تلك الأثناء، تلوثت سمعة مولر ـ براونشفايغ مجددًا في برلين، وكانت رسالته مواسية لآنا فرويد وداعمة لمستقبل استقلالي لمعهد فيينا عن كل من معهد غورينغ والاشتراكية الوطنية[2]. كانت تلك هي المناسبة التي تم فيها حلُّ الجمعية الألمانية. ثم قام النازيون عند نهاية أيلول/ سبتمبر 1938م بإلغاء رخص جميع الأطباء اليهود والمحامين، وكان ذلك بعد ثلاث سنوات تقريبًا من استقالة اليهود بأنفسهم من الجمعية الألمانية.

كانت أنشطة معهد غورينغ والدور الذي لعبه المحللون هناك قصة مختلفة تمامًا. وعلمنا أنه ربما كان «مأوى للأغلبية»[3]. لكن سجلات المعهد تم تدميرها بالكامل في نهاية الحرب. على أي حال، نعلم جميعًا الآن، أن مولر ـ براونشفايغ قد مرر للسلطات الفاشية أسماء الأعضاء اليهود لجمعية إيطاليا للتحليل النفسي[4]. وقد رفض الانضمام للحزب النازي، الذي قد يحميه من منع التدريس والنشر، ولم يسمح له بدخول «معهد غورينغ» رغم أن زوجته المحللة كانت تقوم بالتدريس هناك. لم يستطع بوم أن يتولى تدريب المحللين، لكن مولر ـ براونشفايغ واصل ممارسته السرية: «كان مسؤولًا عن تنظيم الدروس حتى بعد عام 1938م»[5]. و قد عارض بوم مسبقًا نهج النازية للشذوذ الجنسي «بالتطهير، العلاج

(1) Goggin and Goggin, **Death of a «Jewish Science**, p. 139.

(2) op.ct. p. 130.

(3) Drager, «**Psychoanalysis in Hitler's Germany»**, p. 212; See also, Rose Spiegel, «Survival, Psychoanalysis, and the Third Reich», **Journal of the American Academy of Psychoanalysis**, Vol. 13 (1985), pp. 521 _ 536; Rose Spiegel, Gerard Chrzanowski, Arthur Feiner, «On **Psychoanalysis in the Third Reich»** Contemporary Psychoanalysis, Vol. 11 (1975), pp. 477 _510; Arthur Feiner, «Psychoanalysis During the Nazis» **Journal of the American Academy of Psychoanalysis**, Vol. 13 (1985), pp. 521-36.

(4) Goggin and Goggin, **Death of a Jewish Science**, p. 144.

(5) Brecht et al, «**Here Life Goes On»**, p. 154.

الهرموني، السجن، العمليات، معسكرات الاعتقال، وعقوبات الإعدام»[1]. وبحلول كانون الأول/ ديسمبر 1944م توصلوا للموافقة على هذه الممارسات. ثم ظهرت قضية التواطؤ بالقتل الجماعي بما أن الجنود المصابين «بإجهاد المعركة» أبيدوا هم أيضًا. وربما نذهب دون أن نقول إنه لم يكن شرعيًا أن يعامل اليهود في معهد غورينغ كمرضى غير قابلين للعلاج، وإعدادهم للبرنامج النازي للقتل الرحيم، حيث يتم تجهيزهم للإعدام. وحقيقة أن عضوًا ألمانيا من مجموعة العمل (أ)، يدعى: «جون ريتمستر»، الاقتصادي الذي كان طالبًا لدى يونغ ـ قد أعدم لخيانته عام 1943م، لا تلمّع كثيرًا المرحلة الدنيئة والسيئة في التاريخ الأوروبي.

تبعًا للتهكم الخبيث، كان النازيون مقتنعون بأن «الاضطراب العقلي في العرق الأولي لا يمكن أن يكون جينيًا أو عضويًا في الأساس»، ولذا اعتقدوا أن تطبيق العمق النفسي كان له دور خاص ليلعبه في الرايخ الثالث[2]. وأعتقد أن العلاج النفسي الحقيقي قد تدمر تحت حكم النازية. نجاح معهد غورينغ في تسليم (مقاتلات وفتوفا) وتعزيز جهود الحرب النازية بذاتها قد لطخت كامل النهج أو ما ندعوه بالعلاج النفسي الألماني. وعلينا أن نحذر جميعًا من آثار أي نظام فكري قد يستهدف «انسجام» الفرد والنظام الاجتماعي. ومن يسعى للجدل بأن التحليل النفسي «قد أُنقذ من خلال مغادرة المحللين اليهود، والتغطية على معهد غورينغ»[3]، فقد فوَّت المقصد. ربما اعتقد جونز النجاح في «محاولته إنقاذ» التحليل النفسي في ألمانيا، لكنه أدرك في نهاية الحرب فشل هذا المشروع. (وكان من الصعوبة كشف تسويغه بالصيغة السردية التي بناها في سيرة فرويد، مقارنة بصيغ يونغ الدفاعية الخاصة به). الى درجة أن الثقافة الألمانية قدمت مرة بعضًا من أفضل أدوارها للتقاليد الغربية، مسألة تتمثل في كون «العلاج النفسي» تحت حكم الرايخ الثالث لا بد أن يكون أخلاقيًا، وهو أمر مقلق بالنسبة لي أكثر من الانتهاكات المتعددة للطب النفسي تحت حكم النظام السوفياتي.

لا بد من سرد أحد أسوء الجوانب لهذه القصة. رغم أن جونز كان لسنوات سابقة يكتب

---

(1) op. ct. p. 168.

(2) Cocks, **Psychotherapy in the Third Reich**, p. 12. See Paul Roazen, **Encountering Freud: The Politics and Histories of Psychoanalysis** (New Brunswick, NJ, Transaction Publishers, 1990), pp. 34 - 37.

(3) Cocks, **Psychotherapy in the Third Reich**, p. 9.

لآنا فرويد بأن مولر ـ براونشفايغ معاديًا للسامية، إلا أن مولر ـ براونشفايغ نجح في النهاية (والذي ذهب لمحلل من أتباع يونغ بعد الحرب العالمية الثانية) بتصدر المجموعة الألمانية، لما بعد الحرب العالمية الثانية داخل الاتحاد الدولي. على الرغم من أن فرويد كان يرغب أن يؤنب الذين تصدروا «الانشقاقات» في تاريخ التحليل النفسي، إلا أنه كان يعتبر انشقاق مجموعة ما بمظهر التحليل النفسي الأرثوذكسي أمرًا مقبولًا. كان مولر ـ براونشفايغ قادرًا على النجاح كرئيس داخل الاتحاد الدولي، و كانت الأرثوذكسية «السبيل الوحيد لتخلص البعض من الماضي النازي»[1]. كان فرويد كما رأينا معاديًا بشدة لشولتز ـ هينك والأفكار التي عبَّر عنها. (شككت بأن استخدام شولتز ـ هانك لمصطلح: «التحليل التجديدي» وضع فروم لاحقًا خارج أي تعيين لوجهة نظر خاصة). وطغى على السطح سؤال عن انضمام الجمعية الألمانية للاتحاد الدولي بعدما أعيد تكوينها برئاسة مولر ـ براونشفايغ، وذلك بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945م.

كان مولر ـ براونشفايغ قادرًا على التأكيد بأن رأي شولتز ـ هانك حول «نظريات التحليل النفسي، وبشكل أدق نظرية الليبدو [كانت] بالأساس عتيقة ومنتهية الصلاحية»[2]. في أيار/ مايو 1946م كتبت آنا فرويد لمولر ـ براونشفايغ: «لطالما كنت متأسفة لكون زيارتك لفيينا وعلاقتك معي عام 1938م كانت لها عواقب غير مفرحة بالنسبة لك. تعلم أن ذلك لم يكن في نيتي[3] لطالما كان التحليل النفسي الأرثوذكسي أقوى رباطًا من السياسة. خلال بداية عام 1933م بيَّنت مريضة متدربة لدى آنا فرويد، تدعى أستير مينكير، بأنها كانت في مأزق من تواجد: «كثير من الحركات المنشقة، يونغ، أدلر، رانك، لو كنتم تبحثون جميعًا عن حقيقة الشخصية الإنسانية، فلما لا تعملون مع بعضكم البعض؟» و«أجابتها آنا فرويد دون تردد»: «ليس هناك شيء يهمنا من غير حركة التحليل النفسي»[4].

في ديسمبر كانون الأول/ عام 1947م أصبحت آنا فرويد أمينة للاتحاد الدولي، وكتبت لمولر ـ براونشفايغ: «ليحضر استجواب دفع متأخرات الاشتراكات السنوية عام 1939م»[5].

(1) Goggin and Goggin, Death of a «**Jewish Science**» p. 145.

(2) Brecht et al., «**Here Life Goes On**» p. 199

(3) Ibid, p. 201. **Cultural Foundations of Political Psychology** P 34.

(4) Esther Menaker, **Appointment in Vienna** (New York: St. Martin›s Press, 1989), p. 40. **Reprinted as Misplaced Loyalties** (New Brunswick, NJ, Transaction Publishers, 1995).

(5) Brecht et al, «**Here Life Goes On**» p. 217.

ضمنيًا، كانت توحي بأن الجمعية الألمانية بقيت بشكل غير رسمي داخل الاتحاد الدولي، عندما يتعلق الأمر بالأموال. وقامت آنا في تلك السنة، كسكرتيرة للاتحاد الدولي للتحليل النفسي، بإدراج أنشطة الجمعية الألمانية بين عامي (1945 ـ 1947م) داخل (النشرة) الخاصة بالاتحاد الدولي للتحليل النفسي.

عندما حاولت الجمعية الألمانية تجديد الاعتراف بها من قبل الاتحاد الدولي في مؤتمر زيورخ عام 1949م، تحكَّم جونز كرئيس في تلك السنوات «بدمج أشكال مختلفة من العلاج النفسي ـ يونغ أدلر، فرويد، والتحليل التجديدي»، والتي ظهرت لها آثار سيئة و بقي مولر ـ براونشفايغ كأحد «المحللين الحقيقين والمخلصين»[1]. وأعتقد أن القبول المؤقت من الألمان كان سليمًا. على الرغم من أن المحلل الإنكليزي جون ريكمان كان من المفترض أن يعمل بالنيابة عن الحكومة البريطانية، إلا أنه سلم لمحللي الاتحاد الدولي في لندن تقريرًا يصف مولر ـ براونشفايغ: «بعدم أهليته كمحلل الى جانب ميوله النازية»[2].

بعد مؤتمر زيورخ حدثت مشادات غير مرضية بين مولر ـ براونشفايغ وشولتز ـ هانك، وأعتقد مولر بأن شولتز يوضح بالتأكيد: «الانطباع بأنك محلل نفسي»، واحتج شولتز بأن مولر أساء في اقتباسه معطيًا الحضور في زيورخ «صورة كارثية لمعتقدي»، وادعى شولتز- هانك:

«أنت والآخرون من جانب واحد تعتقدون بأنكم قادرون على كسر اتفاقية رجل شريف معقودة حتى الآن.. إذا ذهبتم للتأكيد بأنني تخليت عن 90% من المحللين النفسيين، يجدر بي أن أخبركم بحدَّة، أن المحللين الشباب سوف يرون هذا الرأي تافه ببساطة.. وإذا كنا سنتحدث بالأرقام، فاستنتاجي يؤكد أن ما نسبته 75% من الاكتشافات التجريبية في التحليل النفسي والتي ارتبط بها فرويد لها أهمية حاسمة. إنني لم أقم سوى بانتقاد الهيكل النظري والمجازي والذي كما عبَّر عنه فرويد بالافتراضي إلى حدٍّ ما. انتقدت محاولة التعبير بأسلوب التسعينات، لنظرية الليبدو(*) النشطة الساذجة للطبيعة الفكرية. أعتقد أنني بررت تمامًا وصفي لنفسي

(1) op. ct. p. 202.

(2) Goggin and Goggin, **Death of a Jewish Science** p. 172.

(*) الليبدو كلمة لاتينية ومعناها: التلذذ، استنادًا إلى شهوة حسية، وفي ضوء التحليل النفسي هي الطاقة النفسية للكائن الحي. الموسوعة العربية www.arab.ency.com.

بمحلل نفسي كما لم أفعل من قبل، تمامًا مثلما يصف الأميركيون أنفسهم عندما يُسألون بالمحللين التجديديين».

وجد مولر ـ براونشفايغ هذه الرسالة: «تعجُّ بافتراءات وإهانات ومحاولات تشويه» من شولتز ـ هانك. «إن رأيك في علم النفس التأويلي، بالنسبة لمولر ـ براونشفايغ، مثل مجموعة فرضيات عفا عليها الدهر». وكان يعني أن شولتز ـ هانك: «تمسك بنظرية لا وعي مختلفة عن تلك الخاصة بفرويد»[1] تمسك مولر ـ براونشفايغ بموقف الأقلية داخل الجمعية الألمانية، وسنذكر بأنه سُمح لشولتز ـ هانك بتدريب المرشحين خلال الحرب. ونتيجة لموقف مولر ـ براونشفايغ الانتهازي كأقلية داخل الجمعية الألمانية، قام مع خمسة آخرين (واحد منهم يعرف بكونه أحد أعضاء الحزب النازي) بتنظيم اتحاد ألماني جديد للتحليل النفسي، والذي بدوره أمّن حق الدخول الى مؤتمر الاتحاد الدولي في أمستردام عام 1952م. لاحظ جوجينز مؤخرًا: «أن دعم انضمام الاتحاد الألماني الى الاتحاد الدولي، يعني أن الرئاسة العليا العالمية لمجتمع التحليل النفسي، بقبولها الأعضاء النازيين، اختارت وضع العقيدة النظرية كعامل أكثر أهمية». ونجح مولر ـ براونشفايغ: «بعد سلسلة من المناورات المنظمة» أن يُقبل هو ومجموعته الصغيرة مرة أخرى في الاتحاد الدولي، تاركًا شولتز ـ هانك وحيدًا في العراء، ليس بسبب الفرويدية ـ التجديدية ـ التي كان يمثل ـ، بل لإزالة الذنب المشترك بتعيينهم لمتعاون نازي، لم يقم به شولتز ـ هانك.

كان فروم في ذلك الوقت يعيش في المكسيك (منذ عام 1950م)، مكتشفًا أنه بطريقة ما، أبعد من كونه عضوًا مباشرًا للاتحاد الدولي. (خلال الأوضاع الصعبة للحرب العالمية الثانية حتى لائحة العضوية العامة لم تبق طويلًا في (النشرة) التي ظهرت في «مجلة التحليل النفسي). العضوية المباشرة الوحيدة التي أدرجت عام 1952م كانت للدكتور فانر كيمبر الذي تعاون مع بوم في دعمه «استئصال المثليين والجنود المصابين بإجهاد المعركة». كان كيمبر مصدرًا هامًا في التضليل حول ما حدث للتحليل النفسي تحت الحكم النازي[2]. (وهو الذي قام بتحليل زوجة م.هـ غورينغ أيضًا). علاوة على ذلك بحث كيمبر في قانون تحسين النسل في ألمانيا.

---

(1) Brecht et al., **«Here Life Goes On»**, p. 204 _ 207.

(2) Goggin and Goggin, **Death of a «Jewish Science»** pp. 122, 198.

من الواضح أن جونز قام بتشجيع كيمبر ليذهب الى البرازيل حيث تورط قبل أن يعود لألمانيا باتهامات بإقراره على عقوبة التعذيب[1]. وبالعودة الى السؤال حول تاريخ نسب التحليل النفسي وشجرة العائلة والذي تطرقنا له في بداية هذا الفصل، وبما أن المحللين قادرون على تتبع خلفية تاريخ التحليل النفسي، سيبدو للبعض بأنه من العدل لوم كيمبر على ما اقترفته أيدي تلامذته في البرازيل.

في 28 أيار/ مايو عام 1953م كتب فروم الى روث إيسلر سكرتيرة الاتحاد الدولي ومقدمة الرعاية في معهد التحليل النفسي في لندن، ـ وكان جونز آنذاك رئيسًا فخريًا للاتحاد الدولي: «سأكون ممتنًا بشدة إن تكرمتِ بإجابتي عن السؤال التالي: لقد كنت عضوًا مهاجرًا للاتحاد الدولي منذ عام 1934م، عندما اضطررت للاستقالة من الاتحاد الألماني. يظهر لي أن اسمي لم يعد موجودًا في لائحة الاتحاد الدولي للأعضاء المهاجرين، على الرغم من أنني لم أقدم استقالتي، ولم يصلني إشعار بانتهاء عضويتي، هل تتفضلين بإخباري عن حالة عضويتي؟».

حملت هذه الرسالة تشابهًا مدهشًا لرسالة فروم الشجية لمولر عام 1936م.

ردت روث إيسلر من نيويورك في الحادي عشر من حزيران/ يونيو 1935م: «توصلت برسالتك في الثامن والعشرين من أيار/ مايو منذ 1946م والاتحاد الأميركي للتحليل النفسي هو الجمعية الوحيدة المكوّنة للاتحاد الدولي للتحليل النفسي في هذه البلاد.

تم استبدال العضوية الأوتوماتيكية المبكِّرة للاتحاد الدولي الأعضاء في مختلف فروع المجموعات، بروتين خاص يتطلب اعتراف الاتحاد الدولي قبل التسمية الأوتوماتيكية لمحللي فروع الجمعيات، ليكونوا أعضاء للاتحاد الدولي للتحليل النفسي، وقد واجه المحللون ـ غير المتخصصين حاجزًا خاصًا في أميركا».

ومضت رسالة روث الى أن تعتمد عضوية الاتحاد الدولي على عضوية الجمعية المكوّنة للاتحاد الدولي. لقد أُدرجت كعضو لجمعية واشنطن للتحليل النفسي، وهي بدورها ليست جمعية مكونة للاتحاد الدولي للتحليل النفسي، لكنها جمعية منتسبة للأميركية. ولم يعد هناك وجود للجمعية الألمانية القديمة.

---

(1) Helena Besserman Vianna, **Politique de la Psychanalyse Face a la Dictature et a la Torture** (Paris: Harmattan, 1999).

لم يكن ذلك صحيحًا، وكانت روث إيسلر تعلم ذلك، بما أن حق دخول الجمعية الألمانية للاتحاد الدولي عام 1949م لم يتم تمديده عام 1951م. والجمعية الألمانية لا تزال (وهي خارج الاتحاد الدولي) مستمرة في العمل في سنة 2003م. أو أنها كانت تودُّ أن تقول بأن الجمعية الألمانية لم تعد موجودة على حدِّ علم الاتحاد الدولي؟ هذا التفكير يمكن أن يتماشى مع التحيز القديم، بأن كونك خارج الاتحاد الدولي للتحليل النفسي، يعني أنك ستقدم شخصًا ليس بالمحلل.

واصلت إيسلر:

«تم تنظيم جمعية جديدة تحت رئاسة الدكتور كارل مولر - براونشفايغ. ربما تكون العضوية المهاجرة في الاتحاد مطلوبة في حالات إستثنائية من قبل أولئك الذين كانوا أعضاء سابقين لجمعية مكونة للاتحاد الدولي. لقد قام عدد من المحللين - غير المتخصصين في تلك البلاد، والذين ليسوا أعضاء للاتحاد الأميركي للتحليل النفسي، بإعادة طلب العضوية في الاتحاد الدولي، والذين كانوا موافقين على فحص طلباتهم من قبل لجنة الفحص المشتركة للاتحاد الدولي والأميركي. تأسست هذه اللجنة في مؤتمر أمستردام عام 1951م قصد المساعدة في تقييم المحللين - غير المتخصصين الأجانب، لكي يعيدوا عضوياتهم في الاتحاد الدولي؛ والتي تحتوي على ثلاثة أعضاء مناصبهم كالتالي: رئيس الاتحاد الأميركي للتحليل النفسي، رئيس مجلس إدارة المعايير المهنية للاتحاد الأميركي، عضو من المركز التنفيذي للاتحاد الدولي، والذي بدوره عضو في الاتحاد الأميركي.

عليك الآن أن ترسل لي طلب إعادة العضوية بصفتي رئيسة لجنة الفحص المشترك ويجب أن تتضمن تفاصيل السيرة الذاتية متضمنة الأنشطة الحالية. أتمنى أن تكون تلك هي المعلومات التي طلبتها.

قام فروم بالردِّ في التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو: «شكرًا جزيلًا على إجابتك على رسالتي.

«ما فهمته منك هو أنني إن أردت أن يستمر وضعي كعضو مهاجر في الاتحاد الدولي، فيجب أن أقدم طلب إعادة عضوية. قبل أن أتخذ قرارًا أودُّ أن أفهم الوضع بشكل أدق قليلًا، وسأكون شاكرًا جدًّا إن قمت بتنويري حول سؤالي عما

قصدتِ «بالفحص» للعضو السابق المهاجر. هل يعني ذلك أنهم يُعتبرون فاقدين لأوضاعهم كأعضاء مهاجرين، وأن الفحص يعني عمليًا تقديمًا جديدًا للعضوية؟. وإن لم يكن كذلك، فوفقًا لأي المبادئ يتم تنفيذ هذا الفحص؟. هل يمكن أن يكون على سبيل المثال: أن تكون آرائي التحليلية النفسية لا تتوافق مع آراء الأغلبية، أحد العوامل المأخوذة في الحسبان عند الفحص، وأحد أسباب رفض العضوية؟.

لا بد أن أعترف كذلك بجهلي فيما يتعلق بالمبادئ التي تحكم الاتحاد الأميركي للتحليل النفسي، وما يخص قبول الأعضاء، وهل هناك أي قاعدة قام الاتحاد وعلى أساس المبدأ باستبعاد كل من هو محلل ـ غير متخصص طبيًا؟.

أتمنى أنني لم أسرق من وقتك الكثير بطرحي لهذه الأسئلة، وأشكر لك عناء الإجابة عنها.

فائق التقدير والاحترام لك».

قامت روث بالردِّ في السابع والعشرين من تموز/ يوليو عام 1953م، ولم تعرِّج على أيٍّ من كتب فروم أو مقالاته أو إسهاماته المعروفة في التحليل النفسي. ولم تقرّ عن طيب خاطر حقيقة قبول بعض المحللين ـ غير المتخصصين كأعضاء للاتحاد الأميركي للتحليل النفسي. بدا قرار مؤتمر أمستردام المتصل بالأعضاء المباشرين، وكأنها دعوة للتسهيل على المحللين ـ غير المتخصصين، خاصة في أميركا ليكونوا أعضاء للاتحاد الدولي.

على الرغم من كون مرتبة الأعضاء المهاجرين يفترض أن تمنح بعد «تقويمًا حذرًا لأهليتهم»، لم يكن هناك تلميح بأن هذه العملية قد تعني استبعاد الأشخاص الذين قبلوا بالفعل كأعضاء مباشرين[1].

واصلت إيسلر بمزاجها البيروقراطي: «إنني آسفة لأن جواب رسالة التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو قد وصل متأخرًا. على أي حال، شغلتني تحضيرات المؤتمر الثامن عشر للاتحاد الدولي تمامًا.

ردًا على سؤالك، في المؤتمر السابع عشر للاتحاد الدولي في أمستردام عام 1951م [والذي فاز فيه مولر ـ براونشفايغ ومجموعته الجديدة بحق الدخول]، تأسست

(1) **International Journal of Psychoanalysis**, Vol. 33 (1952), p. 256.

لجنة الفحص المشترك للاتحاد الدولي والأميركي للتحليل النفسي، بغرض إعطاء فرصة إعادة العضوية للمحللين - غير المتخصصين في شمال أميركا ممن لا يملكون عضوية للاتحاد الأميركي للتحليل النفسي، والذين خسروا عضوياتهم في الاتحاد الدولي خلال تغير الأوضاع في الاتحاد. لا يعدُّ المحللون غير - المتخصصين أعضاء في الاتحاد الأميركي، باستثناء من كانوا أعضاء قبل 1939م. يجب على كل المحللين غير - المتخصصين الذين كانوا أعضاء مهاجرين في الاتحاد الدولي ونشأوا في شمال أميركا، إعادة تقديم طلب عضوية بلجنة الفحص المشترك، بالإضافة الى الأعضاء المهاجرين السابقين. ويعتمد إعادة العضوية على توصيات اللجنة، التي تتضمن ثلاثة مناصب كالتالي: رئيس الاتحاد الأميركي للتحليل النفسي، رئيس مجلس معايير الاتحاد الأميركي للتحليل النفسي، وعضو المركز التنفيذي للاتحاد الدولي للتحليل النفسي، والذي بدوره عضو في الاتحاد الدولي للتحليل النفسي»

بعدما كررت روث إيسلر تشريعاتها القانونية وضعت فقرة قصيرة تقول:

«بالطبع، أنا لست في موضع المراقب لتوصيات لجنة الفحص المشترك. ورغم ذلك، أفترض شخصيًا بأن أي شخص لا يساند المبادئ الأساسية للتحليل النفسي، لن يكون مهتمًا على أي حال ليصبح عضوًا في الاتحاد الدولي للتحليل النفسي».

قام فروم بالردِّ على روث مرة أخرى في السادس والعشرين من آب/ أغسطس، برسالة يتضح أنها كانت خاتمة مراسلاتهم: «شكرًا لرسالتك البليغة المؤرخة بتاريخ السادس والعشرين من تموز/ يوليو.

أقدِّر تعليقك الشخصي؛ بأن أي شخص لا يساند المبادئ الأساسية للتحليل النفسي، لن يكون مهتمًا بالحصول على عضوية الاتحاد الدولي للتحليل النفسي. متأكد أنك تدركين أن المسألة الرئيسية هي ما نعني بـ «المبادئ الأساسية» للتحليل النفسي. إنني أعتبر نفسي أقتسم هذه المبادئ، لكن السؤال هو ما مدى دقة وشمول تفسير الاتحاد الدولي لها. وليس السؤال المناسب عن رغبتي بأن أكون عضوًا للاتحاد الدولي، بل عن أسباب استبعاد عضويتي.

ارتأيت أن اعطيك لمحة عن المشكلة في حال رغبتك بإعادة فتحها».

منطقيًا، يظهر لي بأن أي متقدم بطلب العضوية سوف يقبل أوتوماتيكيًا، لكن فروم كان متأكدًا أنها لم تكن تقصد ذلك. من الواضح أنه أراد أن يبقى - غير منتسب - لعضوية الاتحاد الدولي للتحليل النفسي. ربما يظن ساذج بأنه كان منشغلًا بتحضير مجموعته المكسيكية للاتحاد الدولي للتحليل النفسي. لكنني أشك إن روث إيسلر ستقوم بالرد مثلما فعلت في كتابها الخاص، وبقي مشهودًا على سبيل المثال ما إذا كان رئيس الاتحاد الدولي هاينز هارتمان الذي يعيش في نيويورك، أو أي أحد في لندن، كان له دور خلف الكواليس في سلسلة الرسائل الآنفة الذكر.

أشار فحص ملفات غريت بايبرنغ، كإجراء قامت به روث إيسلر بصفتها سكرتيرة الاتحاد الدولي بأن مشكلة الاتحاد الدولي مع فروم عندما بدأ تدريبه وممارسته في المكسيك. كان روبرت نايت رئيسًا لمجلس المعايير المهنية، بالإضافة لكونه رئيسًا منتخبًا للاتحاد الأميركي عند تسلمه استطلاعًا حول موقف فروم. وبعد رسالة مطبوعة وطويلة حول موضوع فروم، وضع نايت ملحوظة صغيرة بيده لبايبرنغ قال فيها: «هل الدكتور فروم أحد الذين يريدون مرتبة في الاتحاد الدولي كعضو مهاجر؟». من هنا، فقلة من الناس في الواقع ستعي حجم التعقيدات البيروقراطية في الاتحاد الدولي للتحليل النفسي. إن المكسيكي الذي كتب لنايت في المقام الأول، كان متشجعًا للتحري عن المؤهلات التنظيمية لفروم عبر كارل منينغر. وبحلول عام 1953م كان منينغر لايزال منزعجًا بحدة من فروم. عندما قامت خدمة المعلومات في المجلس الوطني لكنائس المسيح بالإشارة لفروم كـ «محلل مرموق» قام منينغر بمعارضة ذلك: «حسنًا، هو محلل نفسي مرموق، لكن ليس بالقدر الجيد الذي صرحتم به. كان الدكتور فروم منشقًا عن مجموعة التحليل النفسي، وغادر في البداية إلى المكسيك، حيث يلقن الأطباء المكسيكيين نوعًا عجيبًا من التحليل النفسي، واعتقد الأطباء هناك أنه معتمد في أميركا، لكنه لم يكن كذلك».

قام منينغر بالمقارنة بين فروم في المكسيك، وكيف يرى المجلس الوطني لكنائس المسيح «المنشق عن الكنيسة المشيخية، دعونا نقول، فهو مبشر في المكسيك وواعظ على سبيل المثال بكون عيسى غير يهودي، وأنه عاش بالفعل في شمال أفريقيا، وآمن بمحمد كأحد أنبيائه»[1]. كان رد غريت بايبرنغ لاستطلاع آخر حول فروم في المكسيك أكثر ترددًا

(1) Karl Menninger, **The Selected Correspondence of Karl A. Menninger, 1946 - 1965**, ed. Faulkner & Pruitt (Columbia: University of Missouri Press, 1995), pp. 123 - 124.

وسلاسة من الجانب السياسي، مقارنة برد منينغر أو روث إيسلر، تقول بايبرنغ إنها غير متأكدة «هل يخطط للبقاء طويلًا هنالك، وربما من الأفضل التروي، ثم نرى كيف ستصبح الأمور». على أي حال، بعد مرور سنتين «اتضح أن وجود فروم في المكسيك لم يكن مؤقتًا».

ربما يبدو الآن منطقيًا أكثر كيف لفروم أن يدافع عن نفسه بشرعية ضد اتهامات ماركوس بأنه كان ملتزمًا إلى حدٍّ ما. كان على سبيل المثال يخاطر بمكانته في جمعية واشنطن للتحليل النفسي بمواصلة تدريب لم يُشرع من قبل الاتحاد الدولي. وفي عام 1971م كتب احتجاجًا للمؤرخ مارتن جاي، بأن مجمل أفكار ماركوس أخذت على فروم تنازله عن الأسس الفرويدية. احتجَّ فروم بأن أطروحة مخطوطة جاي لا يمكن اعتبارها إلا: «بيانًا عنيفًا ومتوقعًا فقط من وجهة نظر الفرويدية الأرثوذكسية»[1]. كان فروم يحاكي دون علم ما حدث بين شولتز ـ هانك ضد مولر ـ براونشفايغ، فعلى الرغم من أن فروم اختلف عنهم سياسيًا، فإنه لم يتلون بأي تعاون سياسي. واحتجَّ فروم كما فعل لاكان في فرنسا، بقوله: «لم أنوِ تأسيس مدرسة خاصة بي».

كنت عضوًا تابعًا للاتحاد الدولي للتحليل النفسي، وتم استبعاد عضويتي من قبلهم، ومازلت عضوًا لجمعية واشنطن الفرويدية بطبيعة الحال. لطالما انتقدت الفرويدية الأرثوذكسية والطرق البيروقراطية للنقابات الدولية الفرويدية، لكن كافة أعمالي النظرية قامت على ما أعتبره أهم الاكتشافات الفرويدية، باستثناء تلك التي تخص علم النفس النظري. (وهذا بالمناسبة خلاف موقف ماركوس الذي بنى رأيه خالصًا على علم النفس النظري الفرويدي، وتجاهل تمامًا نتائجه العيادية، ومنها اللاوعي، الشخصية المقاومة ...ألخ)»[2].

فشل ماركوس وأنصاره في مدرسة فرانكفورت دون وعي منهم، بتعريفهم للسلطة في فكر التحليل النفسي الأرثوذكسي.

من الواضح أن جرح فروم كان عميقًا عندما أُبعد من الاتحاد الدولي عام 1953م، وكان

(1) Erich Fromm, **in Michael Kessler/Rainer Funk, Erich Fromm und die Frankfurter Schule** (Tubingen: Francke Verlag, 1991), p. 251. See Martin Jay, The Dialectical Imagination: **A History of the Frankfurt School and the Institute of Social Research, 1923 _ 1950** (Boston: Little Brown, 1973).

(2) **Fromm**, Ibid, p. 251.

يمكن أن يسمى عضوًا نظرًا لما لحقه من إساءة وإهانة لكبريائه. (لايزال الاتحاد الدولي يقدم عضويات مباشرة، لم ترق إلى مساهمات فروم الشخصية الخاصة). لم يذع فروم أمر اضطهاده كما فعل رايخ. ولو كان فروم ملاحمًا بيروقراطيًا جيدًا، لكان عرف ميزة جماعة مولر ـ براونشفايغ كجمعية ألمانية تم قبولها داخل الاتحاد الدولي. وكان بإمكان فروم حينها أن يتنازع حول زعم روث إيسلر، بأن الجمعية الألمانية لم يعد لها أي وجود.

كان تأليف الكتب أفضل طريقة للتقدم بالنسبة لفروم. وربما كان الإيمان بأن المفاهيم أكثر أهمية من الانتماء إلى التحليل النفسي، أو شجرته العائلية، ضربًا من مثاليات التنوير في القرن الثامن عشر. كان لفروم روح ثورية صادقة للتحليل النفسي، تم تجاهلها من قبل مناصري وجهة نظر ماركوس.

مما عقَّد موقف فروم أنه لم يتقاسم كافة جوانب شولتز ـ هانك «الفرويدية ـ التجديدية»، إضافة إلى أنه ابتعد بنفسه أديولوجيًا من إدلر ويونغ، اللذان ظلّا مهرطقان في نظر الاتحاد الدولي للتحليل النفسي. لكن فروم كان لا يزال بطريقة ما متشبثًا بذلك الفكر التقليدي. لم تكن معاناته تشبه معانات الآخرين، لأنها لا يمكن أن تعتبر بأي شكل من الأشكال قضية شخصية مع فرويد. عام 1961م وبعد وفاة شولتز ـ هانك انضم فروم للجمعية الألمانية ومجموعات أخرى غير تابعة للاتحاد الدولي للتحليل النفسي (مثل المعهد الأبيض) ليؤسسوا الاتحاد الدولي لجمعيات التحليل النفسي.

إن كافة مراحل قصة استبعاد فروم من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي، تنفي ما قاله ماركوس بأنه كان ملتزمًا. وربما اعترف فروم بتخليه عن آراء التحليل النفسي الأرثوذكسية الخاصة به بيسر بعد عشر سنوات من التدريب العيادي، وعلى عكس الآخرين ـ كان قادرًا على الوقوف لوحده. وكان له مناصرون مثل فروم ـ ريتشمان، هورني، كلارا ثومبسون، هاري ستاك سوليفان، ولا يحق التقليل من إنجازاته الشخصية، تمامًا كالآخرين. (جزء من مصاعب فروم مع هورني إضافة لتفرده، أنها نجحت في استبعاد فروم كمحلل متدرب في معهدها الجديد، تحت ذريعة كونه لا ينتمي إلى التخصص الطبي، رغم إنها كانت ضحية للأرثوذكسية بنفسها، وعقب استقالته انضم لمجموعة ترتبط بسوليفان. انهيار المدى القصير الذي لحق فروم هنا، ربما كان بسبب كون مشاعر التنافس الحامية قد ولَّدت نجاحه الشخصي). لكن الطلب الخاص على كتب فروم يدل بأنه يستطيع أن يتفوق على رؤساء الاتحاد الدولي. وقد سدَّد فروم لكمة على الأقل في تصديه لجونز ضد فرينزي (ورانك)،

بالإضافة الى كتابه: «رسالة سيجموند فرويد». (طبقًا لراينر فونك، الوارث الشرعي الأدبي لفروم، لم يشعر فروم بالراحة حيال النقد الذي وجَّهه إلى رانك أواخر عام 1930م لذلك لم يرد أن يعاد طباعته)[1].

كُوفئ فروم لاحقًا بطريقة غير متوقعة. رأينا ان استبعاده من الاتحاد الدولي حصل لأنه لم يكن متخصصًا، وعُيِّن ليكون عضوًا للاتحاد الدولي، الذي كان في ذلك الوقت الهيئة التأسيسية الوحيدة في أميركا للاتحاد الدولي للتحليل النفسي. وعلى الرغم من ذلك، ظلّ لسنوات ملتزمًا بالدرجة الأولى مع المعهد الأبيض، وسيكون أعضاء تلك المجموعة هم من لعبوا دورًا رئيسيًا عام 1980م، برفع دعوى قضائية لمكافحة ضبط التبادل التجاري ضد القيود التدريبية في الاتحاد الدولي، والمعهد الأميركي للتحليل النفسي[2]. ومن سخرية القدر أن كيرت زوج روث إيسلر كان قد كتب كتابًا ضخمًا عام 1965م، يقف فيه مع المحللين غير المتخصصين طبيًا[3]. ومع كل أمثلة التلاؤم والتكيف والجبن والانتهازية لسرد حكاية استبعاد فروم من الاتحاد الدولي، كان فروم نفسه قد مر من باب الاحترام الذاتي.

من الصعوبة فهم ما قام به فروم عند قبوله عام 1936م لاقتراح جونز ليكون عضوًا «مباشرًا» في الاتحاد الدولي، لكن مادام أنه فعل، فقد بقي كمحلل - غير متخصص في أميركا، في موقف معارض. كان غلوفر داهية في بريطانيا أواسط عام 1940م بإصراره على أن يصبح عضوًا للجمعية السويسرية. وكان قد استقال من الجمعية البريطانية، بدلًا من أن يعزم على التقديم لمنصب غير مؤكد كعضو مباشر[4]. وبعد مرور الوقت، من البديهي أن ينزع منه ما وهبه إياه بسهولة رئيس الاتحاد الدولي، ونفس الشيء ينطبق على سكرتير الاتحاد. لم يكن استبعاد فروم يشبه استبعاد الجمعية الألمانية لأعضائها اليهود أواخر عام 1935م، وعلى القارئ أن يقرر بنفسه ما إذا كانت روث إيسلر محقة، بأن فروم كان على خلاف مع «المبادئ الأساسية للتحليل النفسي».

---

(1) Erich Fromm, **«The Social Philosophy of ‹Will Therapy»** Psychiatry, Vol. 2 (1939), pp. 229-237.

(2) Robert S. Wallerstein, **Lay Analysis: Life Inside the Controversy** (New York: The Analytic Press, 1998).

(3) Kurt R. Eissler, **Medical Orthodoxy and the Future of Psychoanalysis** (New York: International Universities Press, 1965).

(4) Roazen, **Oedipus in Britain**.

المسألة الأخرى والأهم، هي مشكلة عامة تتعلق بكيفية تكيُّف الناس في الأزمات الاجتماعية. ولأولئك الذين لم يخوضوا غمار معايشة الأوقات الصعبة في أوروبا الوسطى خلال عام 1930م والحرب بذاتها، ومن الرائع افتراض أن الناس قد تصرفوا بشرف كبير اتجاه الطغيان النازي، بدلًا من الانهماك في توجهات ميكافيلية. رغم كل ذلك، كان المحللون مجهزين على نحو فريد لممارسة مهنتهم خارجيًا. من جهة أخرى، وقعنا حتميًا جميعًا في حياتنا في شراك أديولوجيات زماننا. وفي الوقت الحاضر، نتناول بالتأكيد الاتهامات المرتبطة بـ «الإصلاح السياسي» كمعارضة لسؤال ما إذا كانت الفرويدية التجديدية تندرج تحت الفاشية. بالنسبة لي مازالت كرؤية واضحة المعالم للماضي، مرغوبة بالتماشي مع تعاليم فروم.

اللافت للنظر أن قصة إقصاء فروم من التحليل النفسي بكل تشعباتها الى حدِّ الآن بقيت طي الكتمان. وليس من السهل متابعة الأمور مع شخص بمهارة جونز وقدرته على الحصول على ثرثرة سردية بشكل عشوائي. على سبيل المثال: ادَّعى في وقت متأخر في مؤتمر الاتحاد الدولي في باريس عام 1938:

«واصلت الجمعية الألمانية وجودًا حيًا وضعيفًا إلى حدٍّ ما. وقد تأسس في أيار/ مايو 1936م المعهد الألماني الجديد للعلاج النفسي، وأبحاث التحليل النفسي [معهد غورينغ]، والذي يضم جمعية منفصلة للتحليل النفسي، تمتع القسم باستقلالية كبيرة، وتدرب فيه العديد من المرشحين مع تزايد عام لقائمة أعضائها».

بيّن جونز بأن الجمعية الألمانية للتحليل النفسي قد تحولت في تشرين الثاني/ نوفمبر 1938م إلى مجموعة العمل (أ)، وأُقيلت عضويتها من الاتحاد الدولي[1]. ويبدو من العسير فهم ما حدث، إلا إذا تتبع المرء، باستقراء شامل، القصة كاملة. بحلول عام 1957م، كان جونز متمكنًا كما رأينا من خلق تحوير في مؤلفه البديع لسيرة فرويد، بأنه تم التخلص من التحليل النفسي في ألمانيا عام 1934م. واحتاج جونز خمسين عامًا منذ كتابة تلك الكلمات، ليفك العقد خلف منطقه العقلاني. لقد ارتاب فرويد من جونز الذي كان مؤلفًا في وقت مبكِّر لبحث مشهور في العقلانية، ذلك لإنه كان من الصعوبة مواصلة تتبع ازدواجية جونز.

كان فرويد نفسه كاتبًا عظيمًا، وهامًّا على الدوام كمفكر بالنسبة لنا لنكون قادرين على

---

(1) International Journal of Psychoanalysis, Vol. 20 (1939), p. 123.

فهم كون عيوبه كانت جزئيًا عيوب الزمن والثقافة. عندما توفي في لندن عام 1939م، كان يبلغ من العمر ثلاثة وثمانون عامًا، واعتقد أنه استقر جزئيًا في فيينا لوجود أطباء عارفين بحالته، إضافة لتدهور صحته بشكل سريع في لندن. إنه ليس بحاجة لتعظيمنا له، ويُمكن أن يكفل لحياته استقراء دقيقًا. تحدثنا حول الاجتماع الذي تم في تشرين الثاني/ نوفمبر 1936م بين بوم وفرويد، وقد أنهى فرويد اجتماعه بنصيحة وجهها لبوم يقول فيها: «الإدانة اللبقة غير المباشرة في الواقع، يعني أن تقوم بكل أنواع التضحيات، لكن دون تنازلات».

يجب ألا يجرفنا سحر العالم القديم. فقد قدم فرويد والاتحاد الدولي تنازلات كثيرة وقد يستمران في ذلك، على الرغم من أننا في العالم الجديد قد نكون ساذجين في خلطنا للنفاق بالحقيقة. كان الموضوع الرئيسي لروايات هنري جيمس يدور حول السلوكيات الأوروبية والصراحة الأميركية التي ظلّت تواصل التصادم مع بعضها البعض.

حتى إذا حاولنا الاعتراف بكل الأخطاء التي نميل لتحميلها لأميركا الشمالية، لايعني هذا أن يعمى المرء عن الوسائل الإشكالية التي تم اتخاذها تحت قيادة فرويد، وجونز والآخرين ليكون الاتحاد الدولي مؤسسة جبارة تقوم بالانقلاب على أعضائها. لحسن الحظ أن مقاومة فروم الفردية لم تتخذ الشكل المأساوي لريتميستر في ألمانيا خلال الحرب.

ختامًا، لم يكن الخيار كما فرضه جونز بين التحليل النفسي والسياسة، ولكن ما يجب أن تكون عليه العلاقة السليمة بين تلك الأنواع المختلفة والحتمية من التساؤلات[1].

(1) Richard F. **Sterba, Reminiscences of a Viennese Psychoanalyst** (Detroit: Wayne State University Press, 1982), p. 157.

الفصل الثاني

ويتكر تشامبرز/ أليغر هيز (قضية غريبة)

ظلَّت قضية تشامبرز ـ هيز(*) تطارد الليبرالية الأميركية لأكثر من خمسين عامًا حتى الآن، رغم هذا لازلت أتساءل ما إذا كانت الأجيال القادمة قادرة على إدراك ماهية هذه القضية؟. قام توني هيز ابن أليغر عام 1999م بنشر كتابه الثاني حول هذا الموضوع، وعنوانه: «نظرة من زاوية أليغر، مذكرات الابن A son's Memoir(1) The View From Alger›s Window:». توفي أليغر هيز في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1996م عن عمر يناهز الثانية والتسعين، وحضر في ذكرى وفاته أكثر من 800 شخص في مدينة نيويورك. يعيش توني هيز حاليًا مع زوجته وابنه في الشقة نفسها التي ملكها والديه في يوم ما. تشكِّل الرسائل وبطاقات البريد الألفين وخمسمائة التي تبادلها والده مع زوجته المتوفاة حاليًا «بريسلا»، وابنه توني (وذلك خلال فترة سجنه التي امتدت لأربعة وأربعين شهرًا عقب إدانته بشهادة الزور) خلاصة الجزء الأخير من حكاية تشامبرز ـ هيز الغامضة، والتي، كما سنرى، توسع الجدل حولها بمرور الزمن.

لا تزال الحرب السياسية القديمة على هيز حامية بين حزبي اليسار واليمين كما لم تكن من قبل. أشار فيكتور نافاسكي ـ المؤلف البارز لـ (تسمية الأسماء Naming Names

---

(*) في الخامس والعشرين من آب/ أغسطس عام 1948م، اتهم كلٌّ من أليغر هيز وويتكر تشامبرز بشيوعيتهما وتجسسهما لصالح الاتحاد السوفياتي. بعد اعترافه، اتهم تشامبرز صديقه هيز بكونه عميلًا سريًا لموسكو، مما حدا بوزير الخارجية دين أتشيستون للدفاع عنه مدَّعيًا بأنه ضحية لهستيريا الحرب الباردة. لكن العديد من الجمهوريين من أبرزهم ريتشارد نيكسون أكدوا على أن روزفلت وترومان كانوا متساهلين بشأن الشيوعية.

(1) Tony Hiss, **The View from Alger's Window: A Son's Memoir** (New York: Alfred A .Knopf, 1999).

1980م) والمحرر في صحيفة: «The Nation» ـ في مراجعته لكتاب توني الجديد لاتزان عددي لدليل جديد؛ فرسائل عائلة أليغر هيز من السجن الفيدرالي تقارب بعددها الثلاثة آلاف شفرة لكابلات (عرفت بمشروع فينونا) أوائل الأربعينات والذي تم بين عملاء سوفيات يعملون في الولايات المتحدة والسلطات الروسية في موسكو(1). غدا هيز عاجزًا كمتهم بالتجسس، وذلك عقب إسقاط قانون التقادم. أدهشني أن نافاسكي كان جاهزًا لمقارنة مراسلات عائلة هيز كجزء من «أرشيف الحرب الباردة»، بالخطابات الحديثة التي أظهرت اتصالًا بجواسيس الاتحاد السوفياتي القديم، لقاء مال يمول لصندوق التقاعد KGB، وحالما أطلقت التسجيلات المسربة من قبل الروس، خلُص الخبراء إلى أن كابلات فينونا ساعدت بتوثيق مشاركة هيز في التجسس السوفياتي(2).

بدا لي أن توني أفضل من أبيه ككاتب، وحتى ظهور الملفات الحاسمة من ملفات جيش الاستخبارات السوفياتي (منفصلة عن KGB) كانت حكاية تشامبرز ـ هيز مستمرة بخلق نقاش جديد. وضع توني ما سماه بـ «لب مشكلة أليغر» بهذه الطريقة: «لم يكن رجلًا مصابًا بنوع من «تشظر الذهن» Mental Dissociation يجعله يتصرف بخزي ثم يخفي ذلك، لكنه عانى من الغفلة والانفصال الذي ربما أحبط محاولاته للدفاع عن نفسه بفعالية تجاه الاتهامات المختلقة»(3). أعتقد أن توني هيز قد وضع قضية والده موضع تدليس، وربما اختلط عليه الأمر، فمهما اعتقد الكثير منا أن تصرفاته مخزية، في مرحلة ما، كان بإمكانه كالآخرين، أن يؤمن بأنها اُتخذت لصالح قضية حصار المتورطين «الإصلاحيين» السوفيات. لكن توني هيز اقترب من لب المسألة عندما استحضر مفهوم «التشظر» بدا أن الجواسيس قد تعارفوا على تسميته اليوم بسعة التحاوز (الانقسام إلى أحياز Compartmentalization)(*). «كلوز فوخ» الذي سرق أسرار مهمة (القنبلة الذرية) ثم ارتد خلف (الستار الحديدي) عاد بالنظر

(1) Victor Navasky, **«Alger, Ales, Tony, and Time»**, Tikkun, Vol. 14 (Sept.-Oct. 1999), pp. 66 _ 68.

(2) Allen Weinstein and Alexander Vassiliev, **The Haunted Wood: Soviet Espionage in America - the Stalin Era** (New York: Random House, 1999). See also: Allen Weinstein, **Perjury: The Hiss-Chambers Case**, 2nd edition (New York: Random House, 1997), and Sam Tanenhaus, **Whittaker Chambers: A Biography** (New York: The Modern Library, 1998).

(3) Hiss, **The View from Alger's Window**, p. 82.

(*) مسمى آخر للتشظر الذهني.

لحياة التجسس التي عاشها كـ «انفصام تحت السيطرة»[1]. إن الرعب والوحدة التي يعيشها الجاسوس تُسكَّن بقناعات أديولوجية لما يفترض أن يكون هدفًا ساميًا، ففي ذهن هيز يمكن تبرير وتقدير هذه الخيانة، ومن المؤكد أن هناك من سبقه بعقلنة خيانة وطنه الأصل.

ما لم يكن عاديًا هو إنكاره المدروس في شيخوخته ارتكاب أي من هذه الأفعال التي شهد عليها أشخاص مثل تشامبرز، ووثائق ملفات الاتحاد السوفياتي، الوثائق التي قطعت الشك باليقين، والتي بطبيعة الحال لم يكن ليخطر ببال هيز توفرها. أُعدم (يوليوس وإينل روزنبيرغ، عام 1953م، وأعلنت براءتهما، لكن مادة فينونا حسمت الأمر بتهمة يوليوس)[2]. واصل هيز المراوغة بإجابته لكل تهمة مركزية وجهها تشامبرز، بينما اعترف آخرون مثل فوخ ورُحِّلوا لأراضيهم الأصلية، فيما بقي هيز صامدًا على موقفه. بدا من المؤكد أن زوجته برسيلا قد علمت وأفصحت بالحقيقة، لكنه استمر بالكذب على أصدقائه، ابنه، والعالم. (يظهر الآن أن هيز وجماعته السرية نجحوا بوضوح بالفوز بأوسمة السوفيات العسكرية). حينما ثبُت ولاءه للسوفيات وكذبه على ابنه، لم يعد ظاهرًا لهيز أي سبيل لمسار بديل. بالنظر إلى الطريق الذي اختار أن يسلكه، يبدو أنه هو من سمح بأن تُبنى حياة ابنه على كذبة أصلية.

من الكتب المبكرة لتوني هيز «من يضحك أخيرًا: أليغر هيز Laughing Last; Alger Hiss 1977م»[3] والذي ظهر قبل «نظرة من زاوية أليغر هيز»، بذا أضحى توني ذو شعبية أكثر من والده لما تميز به من أسلوب سردي، وهو الذي قد عمل يومًا ضمن طاقم كتَّاب صحيفة: «New Yorker». في كتابه: «من يضحك أخيرًا» ربما روج لبيان غير مرجح كليًا مثل: «أن آل [أليغر] لم يعلموا أي شيء، أو على الأقل لم يعلموا أي شخص زعم أنه شيوعي»[4]. إن ولاء الابن لوالده أمر يستحق الإعجاب. لكن هذا الولاء سمح لتوني بتجسيد موقف سياسي يتعذر الدفاع عنه. كان أليغر هيز داعمًا اقتصاديًا بارزًا، لذا يستحيل ببساطة نفي صلته بالشيوعيين فترة الكساد العظيم، حتى عن أولئك الذين أفصحوا عن انتمائهم بكل يسر. باعتقادي أن من يملك دراية بالشيوعية المبتذلة بين المثقفين الأميركيين خلال الثلاثينات سيسخر من سذاجة توني الرجعية.

---

(1) Weinstein and Vassiliev, **The Haunted Wood**, p. 324.

(2) CT: Ronald Radosh and Joyce Milton, **The Rosenberg File, second edition** (New Haven, Yale Wood University Press, 1997), and Weinstein and Vassiliev, The Haunted.

(3) Tony Hiss, **Laughing Last: Alger Hiss** (Boston: Houghton Mifflin, 1977).

(4) **Ibid**, p. 86.

اعترف بأن شكوكًا مؤقتة قد تملكتني عندما قرأت للمرة الأولى «مذكرات من حياة Recollections of a Life»[1] 1988م لأليغر هيز، كانت سيرته بليغة بشكل مؤثر، بأسلوب يسهل فهمه، شعرت بصعوبة وضعها جانبًا دون أن أسأل نفسي على نحو واع، هل من الممكن أن هيز قد وقع ضحية في خضم هذه الحرب الهستيرية الباردة؟ هل من المحتمل أن ويتيكر تشامبرز عمل متواطئًا مع عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي ج. إدغار هوفر والشاب ريتشارد نيكسون، اللذان دفعا بأليغر هيز البريء لكل ذلك؟ أصبح الجدل حول هيز يقارن باحتفال فرنسا بقضية دريفوس[*]، لكن هذا قد بُرئ عقب وقت قصير نسبيًا، بينما قضية هيز مازالت تبحث حتى الآن لأكثر من نصف قرن من الزمان.

الحقائق المعروفة على النحو الآتي، عام 1948م وجه تشامبرز تهمة الشيوعية إلى هيز (ثم مدير وقف كارنيجي للسلام الدولي)، كان تشامبرز قد اعترف بأنه عميل سابق للاتحاد السوفياتي، وزعم أن هيز قد مرر له ملفات سرية حينما كان يعمل في وزارة الخارجية خلال الثلاثينات لينقلها إلى الروس. ظهر تشامبرز الذي بزغ من بيئة سياسية، بتهمة غير قابلة للتصديق، هيز بنفسه كان عضوًا آمنًا للمؤسسة، وداعمًا حاز من بين الجميع على ثقة واحترام الآخرين، أمثال دين أتشيسون، القاضي فيليكس فرانكفورتر، والتر ليبمان، وإلينور روزفلت.

قام هيز بمقاضاة تشامبرز لتشهيره، لكن بعد ذلك وجهت له التهم وحُوكم بشهادة الزور أمام لجنة مجلس النواب لأنشطة غير الأميركيين. رغم أن المحاكمة الأولى توصلت لحكم غير متفق عليه بالإجماع، إلا أن الثانية أثبتت عليه التهمة. حينها كتب تشامبرز أفضل كتبه مبيعًا: «الشاهد ـ Witness» 1952م، بينما كان هيز محطمًا ومشطوبًا من جدول المحامين. قام الكونجرس بحرمانه من الراتب التقاعدي الفيدرالي، رغم أن المحكمة العليا أعلنت عام 1973م أن تصرف الكونجرس غير دستوري. سمحت ولاية ماساتشوستس لهيز أن يمارس المحاماة مرة أخرى، لكن هيز لم ينجح أبدًا في قلب حكم المحلفين ضده أو بالفوز بمحاكمة جديدة. عام 1984م منح الرئيس رونالد ريغان ميدالية الحرية تخليدًا لتشامبرز، وفي عام 1988م أصبحت مزرعة تشامبرز في ماريلاند نصبًا تاريخيًا وطنيًا. تُرك هيز منبوذًا،

(1) Alger Hiss, **Recollections of a Life** (New York: Henry Holt, 1988)

(*) حدثت قضية دريفوس في نهاية القرن التاسع عشر في فرنسا، في هذه القضية أُتهم ألفريد دريفوس وهو نقيب فرنسي يهودي بالخيانة. وذلك بإرساله ملفات سرية فرنسية لألمانيا، كانت فرنسا تُعرف في ذلك الوقت بعدائها للسامية، وكراهيتها للإمبراطورية الألمانية.

وبدا القلة من المدافعين عنه غريبي الأطوار، كشكل نادر من السياسيين النباتيين. في النهاية وجد توني هيز عددًا من الناشرين البارزين جاهزين لنشر دفاعاته عن والده، من أولئك الحاضرين لجنازة هيز عام 1996م (قامت جامعة بارد باستحداث كرسي لأليغر هيز).

عاينت عن قرب كتاب هيز: «داخل محكمة الرأي العام In The Court of Public Opinion 1957م»[1] والذي كتبه عقب إطلاق سراحه من السجن، بالنسبة لي هذا الكتاب جعله يبدو غير مقنع على نحو لافت. توني هيز في كتابه: «من يضحك أخيرًا» قال بأن (محكمة الرأي العام) رُوي على لسان «عديد من الأشخاص» ممن «لا يملكون مشاعر»[2] أليغر بنفسه أرجعه كـ «مذكرة قانونية»، لكن ما هو عظيم بالنسبة لي، بالنظر للتهمة الرئيسية الموجهة إليه بكونه شيوعي متخفي، لم يكن له أي أثر على رد تهمة تشامبرز الأساسية. ربما يعتقد أحد أن هيز قد حاول أن يشرح استحالة أن ينتمي للشيوعية أو أن يصبح جاسوسًا. بدلًا من هذا، كان لدينا تكرار لمن احتفي به وتفاصيل مملة كالسيارة، السجادة، الآلة الكاتبة، الملحن الغريد (هذه كانت الأدوات المعينة التي كان تشامبرز قادرًا بواسطتها أن يبني ألفة مع هيز لنقل ملفات تخص الحكومة). كان هيز محقًا في اعتقاده بأن القضية الوحيدة الحقيقية كانت بالأصل «مصداقية تشامبرز ضد مصداقيته»[3].

قبل زمن مضى، انتشرت مواد تؤكد قصة تشامبرز غير المألوفة، ربما يعتقد أحد أن الاعتراف الصادق كان كافيًا لهيز بدلًا من أن يستمر بإنكار فارغ لما قد فعله. من المؤكد أنه اعتبر نفسه بالأساس بريئًا من الإثم معظم الأحيان، مما أتاح له، فيما بعد، أن يصرح بتكبر أنه لم يعرف تشامبرز يومًا ما، فضلًا عن بقية الشيوعيين. بعد خمسة وأربعين سنة من قراءتي الأولى لكتاب تشامبرز «الشاهد» ومن بين ثمانمائة صفحة، إلا أن أكثر ما علق منها في ذهني كانت نسخة من مواجهة هيز وتشامبرز أمام لجنة مجلس النواب لأنشطة غير الأميركيين. (طلب هيز على وجه الخصوص رؤية تشامبرز بفم مفتوح حتى يستطيع أن يرى أسنانه). لم يدرك هيز أن القانون جعل منه مراوغًا، وأسوأ عدو لذاته. ضجت المحكمة بالضحك في إحدى المحاكمات عندما شرح هيز بتحذلق حيرته الدائمة حول الكيفية التي دخل بها تشامبرز لمنزله، وكتب ملفات على آلته الكاتبة.

---

(1) Alger Hiss, **In the Court of Public Opinion** (New York: Alfred A. Knopf, 1957).

(2) Tony Hiss, **Laughing Last**, p. 72.

(3) Hiss, **In the Court of Public Opinion**, p. 214.

احتوت «مذكرات حياة» الخاصة بهيز على فصل عظيم كما أتصوره، بُني على تجارب هيز كسكرتير خاص للقاضي أوليفر ويندل هولمز الابن (كان فليكس فرانكورتر من قام بانتقائه لهولمز، مع دونالد شقيق هيز - وكان من ضمن من سمي شيوعيًا - سكرتير هولمز أيضًا). عبَّر هيز عن إعجابه بهولمز تعبيرًا يجعل المرء يتساءل كيف لهيز أن يؤمن أنه قام بأمر غير شرعي، فضلًا عن كونه مذنبًا للجرائم الفظيعة التي ادَّعاها تشامبرز؟. رغم هذا بدا أن هيز قد أدرج بدقة اسم هولمز في كتاب: «محكمة الرأي العام» مدَّعيًا أنه لو كان تشامبرز صديقًا حقيقيًا وقضى وقتًا في مكتبة هيز، فإنه ربما قد لمح طبعة ماكسيميل لكتاب من قراءات هولمز[1]. في هذه النقطة، شعرت أن على هيز أن يخجل من إساءة معاملة استخدام ذكرى هولمز. كان عليه أن ينكر تهم تشامبرز ليبقي على منصبه في وقف كارنيجي للسلام الدولي (كان جون فوستر دولز الجمهوري رئيسًا للمجلس الإداري في ذلك الوقت) وأيضًا كان عليه مقاضاة تشامبرز للتشهير، والذي أثار لاحقًا دليل تجسس تشامبرز، وربما كان على هيز الشهادة أمام هيئة المحلفين الكبرى، والتي أثبتت عليه التهم لاحقًا، لأنه على الجانب الآخر لم يكن لأحد أن يصدق تصريحاته ببراءته التامة. علَّق توني على ذلك «سلوك آل هيز كدفاع وشهود بدا منفصلًا بدقة»[2] بدونه فالغرق في هذا الانفصال ربما كان جزءًا أو نوبة من التشظر الذي حاول توني أن يحمي والده منه.

كان من الصعب إبقاء مسألة الأمراض النفسية خارجًا مع الفضول الذي عم قصة هيز وتشامبرز. خلال محاكمة هيز قام اثنان من المحللين النفسيين البارزين بالشهادة لصالحه، وهما الدكتور كارل بينغر والبروفيسور هنري موراي، - زوجة بينغر كانت زميلة جامعية لبريسلا هيز -، تلك كانت بلا ريب علامة قدر، في غمرة تأثير الموجة الفرويدية في أميركا، وسماح القاضي بأي شهادة خبير معروف من الناس ممن لا يملكون سابق معرفة أو لقاء بتشامبرز. كلٌ من بينغر ومورراي اعتقدا أنهما قادران على إقناع الناس، بأنه طبقًا لسلوك تشامبرز في المحكمة وما نشره بأنه من النوع المعتل نفسيًا، وعلى أي حال هو مريض مضطرب بما يكفي لعدم تصديقه. حتى بالنسبة لتوني، فالادِّعاء قد خرج بـ «دمار» من هذه الشهادة في كتاب: «من يضحك أخيرًا» أعطى توني دليلًا على تورط عائلة هيز مع التحليل النفسي.

---

(1) op. ct. p. 153.

(2) Tony Hiss, **Laughing Last**, p. 135.

في العشرينات حُللت بريسلا هيز من قبل «أحد طلاب فرويد» لمدة سنة، وذهبت لمحلل آخر بعد طلاقها من هيز في بدايات عام 1959م. هيز بنفسه كان لديه محلل في مدينة نيويورك قام بدعوته باسمه. نُقل عنه قوله: «كنت مهتمًا جدًا في التحليل النفسي من أجل بروسي [زوجته]...»[1]. كان هناك على الأقل طبيب نفسي واحد مقرب للعائلة قام بتقديم المساعدة لتوني، ولاحقًا أُرسل الطفل توني لتلقي جلستين علاجيتين في الأسبوع. ربما يتساءل أحدنا عن طبيعة هذا الالتزام بين عائلة هيز والتحليل النفسي، وإلى أي مدى آمنوا به كعلم، بالنظر للاتهامات الشيوعية، والجهد الذي بُذل من قبل الآخرين لربط التحليل النفسي بالماركسية، لذلك كان من الصعب ـ على الأقل بالنسبة لي ـ ألا أكون فضوليًا تجاه تورط آل هيز مع التحليل النفسي. أعطى تشامبرز في كتاب: «الشاهد» مادة نفسية غنية عن الدوافع خلف كونه شيوعيًا، وانشقاقه لاحقًا، لكن على العكس من مذهب هيز البارد، لم يسجل تشامبرز أي امتنان خاص إلى التحليل النفسي.

خلف تلك الصورة العامة، كان هناك ما يستدعي الشرح في كتاب طويل مثير ألّفه محلل نفسي عام 1967م، يدعى ماير زيلغز «الصداقة وقاتل أخيه، تحليل لأليغر هيز وويتكر تشامبرز Friendship and Fratricide; An Analysis of Whittaker Chambers and Alger Hiss»[2]. بيّن زيلغز مبدئيًا بـقوله: «لن تُسنّ فأس سياسية هنا» ذلك أن قضية هيز ـ تشامبرز باعتقاده تقدم: «لغزًا مذهلًا لسلوك الإنسان»، ورغم أن هيز لوحده وافق على التعاون مع زيلغز، بينما امتنع تشامبرز عن ذلك، إلا أن المحلل النفسي المتعهد ألمح «بالإبقاء على تحليل حيادي حذر تجاههما»[3]. فرويد بنفسه كان يملك مفهومًا تهكميًا حول كتابة السيرة، على الأقل عندما يعرض للكتابة عن نفسه، مثلما كتب في عام: 1936م.

> **من يقوم بكتابة السيرة الذاتية سيكون معرضًا للكذب، النفاق، الإطراء التمويهي، وربما يخفي قصور فهمه الشخصي، إذ لا وجود لسيرة ذاتية حقيقية، ولو وجدت لم تكن لتكتب. الحقيقة ليست بالمنال، والإنسان غير جدير بها، وعلى أي حال، كان أميرنا هاملت محقًا عندما سأل من سيفرّ من السوط بعد المثوبة؟**[4].

---

(1) op. ct. p. 133.

(2) Meyer A. Zeligs, **Friendship and Fratricide: An Analysis of Whittaker Chambers and Alger Hiss** (New York: The Viking Press, 1967).

(3) Ibid, pp. ix, xiv.

(4) **The Letters of Sigmund Freud and Arnold Zweig**, ed. Ernst L. Freud, translated by Prof. and Mrs. W. D. Robson-Scott (London: The Hogarth Press, 1970), p. 127.

تسلح زيلغز بقناعة تحليل نفسية حماسية حول حيادية العلم، وشرع بكتابة لمحات عن هيز وتشامبرز والتي كانت متحيزة بلا شك، فدنّست شخصية تشامبرز بينما برئت القيم الشخصية لهيز. قد يكون فرويد أخف وطأة حول مسألة كتابة السيرة الذاتية لأنه لم يشعر بالتهديد، وربما انهمك بها بنفسه حينما يأتي الأمر إلى وودرو ويلسون[1]. لكن بافتراض أن إلهام أفكار فرويد قد وُظف بنوع من الرضى يمكن لنوعية مفاهيمه أن تُستخدم بأفضلية وتتعلق بنقاط محددة لتاريخ حياة أي فرد[2]. إن كافة نظريات التحليل النفسي يجب أن توضع في جانب واحد، وإذا كانت كتابة السير لعلم النفس الحديث ستكون عاملًا مساعدًا، أعتقد أنها يجب أن تلقي بظلالها على أحدهم. لا يمكن أن تبنى دراسة السيرة لأجل أن تثبت رأيًا نظريًا، لأن هذا المشروع قد وضع لتحريف تعقيدات الحياة الإنسانية، وعليه يجب ألا تكون مصطلحات علم النفس بدائلًا لأحكام سياسية. فإن كان هناك حزب واحد متعاون والآخر غير ذلك، فالمتوقع من المحلل النفسي أن يواصل الحذر. على أي حال، خرج زيلغز بلمحات نفيسة لهيز وتشامبرز، أصبح ذا شهرة مؤقتة بسبب تعصبه[3].

تُمثل قضية هيز ـ تشامبرز، في الواقع، مواجهة خفية كانت فيها المؤسسة الأميركية في خلاف مع نفسها. حظي تشامبرز بأصدقاء من حياته الأدبية الفكرية تمامًا مثلما كان من مساعدي هيز السياسيين رفيعي المستوى. عاد تشامبرز إلى كولومبيا، وغدا صديقًا حميمًا لماير سكابيرو، الذي أصبح مؤرخًا فنيًا عظيمًا، حافظ تشامبرز على تلك الصداقة حين دراسته تحت يد الناقد الأدبي فان دورين. أصبح زميل تشامبرز ليونيل تريلنغ أول من كتب عن تشامبرز عبر ما بناه في رواية: «منتصف الرحلة ـ The Middle of the Journey 1947»[4]. بالنسبة للأغلبية فإن تريلنغ قد جسّد صورة تبدو مهولة لشيوعي سابق سيعلق في أذهان القراء بإحكام، مثلما علق من الحياة السياسية فيما بعد.

---

(1) Paul Roazen, Freud: **Political and Social Thought** (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1999), 3rd edition, «Epilogue: Woodrow Wilson».

(2) Paul Roazen, Canada's King: **An Essay in Political Psychology** (Oakville: Mosaic Press, 1998), «Introduction: How Psychology Relates to Politics».

(3) Meyer Schapiro, «**Review of Zeligs's Friendship and Fratricide**», New York Review of Books, Feb. 23, 1967, pp. 5 _ 9.

(4) Lionel Trilling, **The Middle of the Journey** (New York: Doubleday Anchor Books, 1957); Lionel Trilling, **«Whittaker Chambers and The Middle of the Journey»**, New York Review of Books, April 17, 1975, pp. 18 _ 24; Irving Howe «**On 'The Middle of the Journey**» New York Times Book Review, Aug. 22, 1976, p. 31.

كتب تشامبرز كتابه: «الشاهد»[1] بحسن صياغة وقوة إقناع. يصنف باعتقادي كرواية لسيكولوجية شيوعي سابق مع رواية آرثر كوستلر «ظلام الليل» أو مقالات كتاب: «الإله الذي فشل»[2]. نجح تشامبرز بجعل نفسه يعبِّر كشخصية مندفعة لديستوفيسكي، عازمًا أن يهدي الآخرين بعيدًا ـ كما قادته تجاربه الخاصة ـ عن المادية الماركسية. لم يكن كتاب: «الشاهد» مناصرًا بحرارة للمسيحية فقط، ولكنه كان معاديًا للفكر في مغزاه. بعد خروجه من الجماعة الشيوعية، ذهب تشامبرز للعمل أواخر عام 1930م لدى هنري لوس في صحيفة: «التايم»، وانتهى به الأمر بتحالف ودي مع ويليام بكلي وصحيفته: «National River». نقل عن تشامبرز محاولاته الانتحارية ومعاناته مع مشاكل القلب، توفي مبكرًا عام 1961م. بقي اسم تشامبرز مرتبطًا دومًا بثورة ما بعد الحرب العالمية الثانية «الرعب الأحمر Red Scare»[*]، كان ريتشارد نيكسون عضو لجنة مجلس النواب لأنشطة غير الأميركيين من الذين آمنوا بتشامبرز، وازدهرت مهنته بقوة حينما سقط هيز. أسوأ تهجمات السيناتور جوزف مكارثي على الحرية الأميركية جاءت على خلفية اتهام هيز. في الواقع، كان مشروع الصفقة الجديدة New Deal[**] بأكمله متهمًا بتواطؤه في خيانة هيز لأميركا. حضر هيز في مؤتمر يالطا مع فرانكلين روزفلت، وترأس جلسة مؤسسية للأمم المتحدة. من الصعوبة ألا يمسك المرء برأسه، حينما يرى ما ذهب إليه هيز في الشأن السياسي حتى بعد إدانته. (في ذلك الحين، كان الرئيس ترومان مقتنعًا بإدانة هيز) بينما قال وزير الخارجية أتيشستون بأنه لن يدير ظهره لهيز.

قدم زيلغز نفسه عبر معضلة نفسية واضحة في كتابه: «الصداقة وقاتل أخيه» ربما أُرغم تشامبرز وهيز على الكذب، أو أن كليهما كانا مذنبين على حدٍّ سواء بليِّ الحقيقة. مهما كان تحريف الأحداث خطيرًا، من السهل أن تدرك دوافع الرجال. لكن ليس لأن فرويد علمنا أن نؤمن بأهمية دوافع اللاشعور، يعني أن اللاعقلانية في ظاهرها أمر مقبول، فالبراعة وحسن

(1) Whittaker Chambers, **Witness** (New York: Random House, 1952).

(2) Arthur Koestler, **Darkness At Noon** (New York: Bantam Books, 1966), Richard Crossman, ed, **The God That Failed** (New York: Bantam Books, 1954).

(*) امتازت هذه الحركة بتصعيد المخاوف من خطر الشيوعية على الولايات المتحدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

(**) دعي لهذا المشروع «مشروع الصفقة الجديدة» زمن الكساد الاقتصادي، وهو عبارة عن مجموعة من البرامج والسياسات التي صممت لتعزيز الوضع الاقتصادي في الثلاثينات، عهد الرئيس فرانكلين روزفلت.

التميز مطلوبان لأجل التفريق بين الاحتمالات المختلفة. عندما كنت أقوم بتدريس مادة في (السياسة وعلم النفس) لسنة الماجستير في هارفارد عام (1966 حتى 1971م)، اعتدت أن أحاضر عن كتاب زيلغز، وعندما أتذمر في قاعة الدرس من تصوير زيلغز لهيز بمظهر الملاك، تقريبًا في كل سنة، يأتي إليّ طالب عقب انتهاء المحاضرة ليخبرني بأن «هيز ملاك بالفعل». جاذبية هيز العظيمة (والتي لم تأتي أبدًا من خلال كتابه: «محاكمة الرأي العام») جعلت الناس لايزالون يقسمون ببراءته.

مُنح هيز أوراق اعتماد لرابطة Ivy League(*) التي منحته كل «فصل» افتقر إليه شخص مثل نيكسون. لم أنسى أبدًا كيف أُشتبه بنيكسون في البداية عبر شهادة هيز التي أظهرته «ثرثارًا». انتمى هيز لـ Phi Beta Kappa(**) جمعية في جامعة جونز هوبكنز قبل أن يذهب لكلية المحاماة في هارفارد، حينما جذب انتباه فيلكس فرانكفورتر لأول مرة. لا يمكن أن ينسى الأميركيون الليبراليون دور نيكسون في نجاحه بالإطاحة بهيز، كان ذلك في فترة خسرت فيها أميركا احتكارها النووي للروس، وسقوط الصين في الشيوعية. من ناحية أخرى، قد يحتكم هيز لسذاجة الأميركيين بشأن الجواسيس، فمن الصعب على الأميركيين تقبل حتمية التجسس، وأميركا لا تزال جديدة على دورها كقوة عالمية. قد يستفيد هيز أيضًا من سخاء أميركا حتى على أولئك المتهمين بجرائم خطيرة، فبالنسبة له إعلان براءته سيجتذب شخصية المستضعف التي يحترمها الأميركيون. لكن من المشكوك به أن ثورة الرعب الأحمر لما بعد الحرب العالمية الثانية كانت ستبدو أسوأ دون اتهام هيز وإدانته. قد تكون خيانة هيز كعضو لجماعة سرية شيوعية أقل ضررًا مما أحدثه اتهام تشامبرز له لأول مرة، وما قام به هيز من حرب ضد هذه التهم.[1]

التباين بين تشامبرز وهيز ساعد بذاته ليحدث أثرًا سياسيًا كبيرًا. خلال السنوات التي قضاها مع الجماعة الشيوعية، قاد تشامبرز وجودًا سريًا معزولًا. قام بتلفيق عدة أسماء مختلقة لنفسه، وكان مُناصرًا في كل جانب من جوانب وجوده، واحتفظ بملفات عن أشخاص للإبقاء على ما سماه: «حبال وقاية» مستقبلية للواقع الخارجي. كافة المخبرين

(*) هو مؤتمر رياضي جماعي، يضم الفرق الرياضية من عدة مؤسسات خاصة بالتعليم العالي في شمال شرق الولايات المتحدة (**wikipedia**).

(**) هو مجتمع للفنون والعلوم الليبرالية في الولايات المتحدة، وهو يضم، 28 فرعًا نشطًا. تهدف تلك الجمعية إلى تعزيز التميز في الفنون والعلوم ضمن إطار الليبرالية، لتجنيد الطلاب الأكثر تميزًا من الجامعات الأميركية (Wikipedia).

السياسيين ارتقوا إلى كونهم «واشين» وهذا ما يبرر الهجوم على تشامبرز مرارًا ووصفه بشخصية بغيضة.

هيز على الجانب الآخر كان مستقلًا، موسوسًا بتدقيقه عن التفاصيل، على ما يبدو كثير النسيان «لروح اللحظة»[1]. على العكس من تشامبرز الذي كان ماهرًا في تهويل شخصيته ومطالبه. أخفى تشامبرز ميكروفيلم داخل يقطين (عرفت المادة فيما بعد بـ «وثائق اليقطين») والتي عرضت على العامة بعدما مضى هيز بتهمة التشهير، فمن الصعوبة أن يتناسب ذلك مع كونه سياسيًا. كان زيلغز قادرًا على بناء قصة تشامبرز غير المحتملة عن كونه وُلد بطول 14 إنشًا من الكتف، وأنها لم تكن مثلجة ليلة مولده كما ادَّعى تشامبرز في كتابه: «الشاهد». وعلى الجانب الأخر، بلغ كتاب زيلغز مبلغًا رفيعًا من التنابز اللفظي.

نقل زيلغز عن تشامبرز كونه: «شابًا بائسًا يبحث عن معنى وتوجه لحياته»[2]. كان زيلغز سريعًا في التقاط العلامات والإشارات لردة فعل تشامبرز كـ «إغراء المثلية التي فزع منها وهرب»[3]، موضوع المثلية بأكمله كان مخفيًا لفترة في قصة هيز ـ تشامبرز، فابن زوجة هيز كان متورطًا في حادثة مثلية بينما كان في الجيش، والتي عُدت سببًا لعدم رغبة هيز بالسماح له بالشهادة في محاكمات شهادة الزور.

سارع تشامبرز بالاعتراف لمكتب التحقيقات الفيدرالية عندما خاف أن يجلب معسكر هيز فضيحة تورطه بأحداث جنسية مثلية متفرقة قبل مغادرة الحزب الشيوعي. وتساءل المراقبون الخارجيون عما إذا كان هناك علاقة متبادلة بين هيز وتشامبرز، صادق هيز بالنهاية على نظرية رفضه لتحرشات تشامبرز الجنسية عن جهل، والتي يفترض بأنها كانت علة خلف عزيمة تشامبرز تدمير مهنة هيز.

لكن كتاب زيلغز بالأساس كان له نظرة نفسية متحيزة لكل شيء في حياة تشامبرز على سبيل المثال: أعلن تشامبرز مرة:

يتلخص عالم طفولتي المبكرة بانطباعين، مستلقيًا على السرير، مرغمًا على الذهاب للنوم دون رغبة. ثم أصبحت واعيًا لصمت رهيب يطويه الضباب دومًا

(1) Zeligs, **Friendship and Fratricide**, p.8.

(2) Ibid, p 59.

(3) Ibid, p 60.

على الأرض. يتحول الرذاذ على غصون الأشجار لمنغَّم، ثم يغشاني النوم بينما أصغي لسقوط قطرات الماء غير المنتظم.

تناول زيلغز النص التالي خارج ذلك المقطع القصير:

يعرض «عالم الطفولة المبكر» نمط وقيمة أمومة لاها بالكشف عن مشاعر الوحدة الشديدة والمسكنة عند ابنها. الأحاسيس الحادة لمعاناته الطفولية كانت واضحة بحدَّة في ذاكرته. بأسلوب الاستعاري وصف تشامبرز كيف أنه حاول التخفيف من جوعه بأن يغط في النوم، بينما يجرُّ لنفسه كافة المحفزات أو الأصوات الخارجية الممكنة. بذلك سعى لدمج أي مورد حسي «غذائي» قد يقدمه المحيط حوله. في سهاده الليلي قامت فيفيان بعمل موصل هوائي صوتي ليمتص صوت قطرات الرذاذ من غصون الشجيرات خارج المنزل وبتشربه لتكرار الصوت، مكَّن نفسه للغط في «غشاوة النوم». من هذه الذكريات يلحظ المرء ملامح مهمة لمرحلة من مساعيه الطفولية، تبدل انتباهه بعيدًا عن «حزن» والدته نحو أم بديلة «الطبيعة» المصدر الوحيد للإشباع بالنسبة له[1].

لم يبالغ زيلغز في تفسير استذكار الطفولة الموجز لتشامبرز، لكنه فعلها لأجل افتراض تمسكن و«خواء»[2] تشامبرز الداخلي. في شباب تشامبرز وهروبه من المنزل، وجد زيلغز «ملامح مرضية لانهيار عقلي خطير Mental Break»[3]، من ناحية أخرى، كتب زيلغز: «ما من شك حول خطورة هذا الانهيار الذهاني Psychotic Break»[4] وأبقى زيلغز على «حيوية تشامبرز وطيشه التي قدمت صورة خارجية لخوائه الداخلي»[5]. على المرء أن يتذكر أن تشامبرز كان من الأوائل بجانب مارك فان دورين وصديق مقرب لماير سكابيرو. أساء زيلغز فهم تطرف تشامبرز الشعري، وعوضًا عن ذلك وجد فيه دلالة على «الهلاوس»[6].

(1) op. ct. p. 49.

(2) op. ct. p. 290.

(3) op. ct. p. 291.

(4) op. ct. p. 65.

(5) op. ct. p. 81.

(6) op. ct. p. 83.

شعر زيلغز برخصة لمتابعة «فك رموز»[1] حياة تشامبرز الخيالية. ووجد أن تشامبرز «منهكًا بمقاومة عقدة الاضطهاد بعد انتحار شقيقه»[2]، ونسب زيلغز إلى تشامبرز «أعراض ضلالات وأوهام اضطهادية»[3]. استعرض لنا زيلغز «خواء تشامبرز الداخلي، وعجزه عن الشعور والمعاناة أو الحب نحو أي مخلوق حي»[4]، ونسب إليه المرض النفسي صراحة، رغم أن تشامبرز لم يُدخل إلى المستشفى، وكان له زوجة متفانية وطفلين، مع ذلك وجد زيلغز الثأر المتأصل في شكوك تشامبرز مرضًا حيًا أنهكه طوال حياته[5].

هذا النوع من التشخيص المبالغ به حول تشامبرز وتباينه، مع ما أظهره زيلغز عن حياة هيز، والد هيز وأخته أيضًا قاما بالانتحار، لكن زيلغز لم يجد أي عواقب مهلكة لهيز، كما تصورها زيلغز في حديثه عن مقتل شقيق تشامبرز، (اعتبر زيلغز على نحو جامد وفاة والد هيز كصدمة بالغة لحياته)[6]. نموذج هيز كان مرتبطًا فقط بكونه «نموذجًا للأخلاق الحميدة»[7]. عوضًا عن أن يرى في هيز سلسلة التدمير الذاتي القاسي التي رآها في تشامبرز، وصف زيلغز نمو هيز كواحد كان قادرًا على «إضافة مقياس مهم لإحساسه بنفسه»[8]. من الملفت أنه حين إعادة بناء أنشطة هيز خلال السنوات (1934 و1935م) كان زيلغز مندهشًا باتساع عالم هيز مع وحدته[9] رغم هذا كانت تلك السنوات هي التي أشار لها تشامبرز، عندما كان هيز ناجحًا في أدائه كشيوعي في الجماعة السرية. اعترف زيلغز أمام لجنة مجلس النواب لأنشطة غير الأميركيين بأن سلوك هيز الدقيق قد نجح بإعطاء مظهر المراوغة والتلاعب، وأن نزعة هيز نحو الكمال والاحتراس وفرط الحذر كانت دافعًا ذاتيًا[10]. عند انفصال هيز وبرسيلا لم يلبس زيلغز صورة الانفصال، صورة طبيعية، عوضًا عن هذا كتب: «أن الإدراك المتأخر

(1) Zeligs, **Friendship and Fratricide**, p 323
(2) Ibid, p 105.
(3) Ibid, p.260.
(4) Ibid, p 182.
(5) Ibid, p.154.
(6) Ibid, p 160.
(7) Ibid, p 206.
(8) Ibid, p 276.
(9) Ibid, p 411.
(10) Ibid, p 213.

لهذه الثغرة العسكرية لم يكن مفاجئًا أو صادمًا، لقد كان بزوغًا نهائيًا لحقيقة لا شعورية»[1].

كتاب زيلغز العظيم لم يكن وافيًا ولو بدا ذلك، إذ لايزال هناك أمر مهم يجب الوصول له. فحديثه يمكن أن يظهر كواحد من شهادات التعاطف مع معاناة مناصري هيز. عندما أشار تشامبرز بنفسه إلى بداية «ذهان هيز Pro-Psychosis»[2]، كان يستند إلى المدرسة النفسية ذاتها التي ينتمي لها زيلغز، لكن من رؤية مختلفة. مع ذلك، ومع كل ما قيل ومضى يبدو أن هناك جانبًا نفسيًا محيرًا لمجابهة هيز - تشامبرز، إذ لا يمكن أن تكون هذه حكاية لتصور خاطئ أو سوء تواصل، من الواضح أن أحدهما كان يخفي الحقيقية، مع هذا ليس من السهل شرح الدافع خلف هذا الكذب. أحرز تشامبرز مهنة صحفية ناجحة في ادعاءاته بأساس كونه محررًا في صحيفة التايم، ولأكثر من مرة أخذت هذه القضية محل جدل. أما هيز فقد أصبح خزي القرن العشرين في تاريخ أميركا. إذا كان قد وقع ضحية عبر تشامبرز فهي لحساب ماذا؟. على الجانب الآخر، إذا كان كما يبدو أن هيز كان مستمرًا لما أخذ عليه بإنجازه لالتزاماته تجاه الاتحاد السوفياتي، هل نعي بعدها كيف لأحد أن يجد في الشيوعية غوثًا أو عونًا ليخون عائلته، أصدقائه، وطنه؟. هؤلاء 800 شخص الذين حضروا ذكرى وفاة هيز في نيويورك شهداء دائمون لموقف هيز القديم، لجزء من اليساريين الأميركيين.

في كامل هذه القصة المحرفة قد يشتبه المرء، بسيكولوجية مستر جيكل وهايد. إن عملًا ما، كان خلف هذا السلوك العقلاني الصرف. فإذا كان تشامبرز مذنبًا بفبركة أدلة ضد هيز، فإن مرضه النفسي سيبدو أمرًا مفهومًا حتى خارج النمط المتحيز الذي وضعه له زيلغز. (لمَّح زيلغز بالفعل لتبدلات تشامبرز وتشظره الذهني)[3] وإذا كان هيز هو من عاش حياة مزدوجة بدلًا من تشامبرز، إذن لدينا إلى حدٍّ ما، صورة سيكولوجية غير مكتملة لما دفعه ليواصل ازدواجيته، ثم لدينا بالطبع الرابط بين هيز وتشامبرز كرابط مذهل بحدِّ ذاته. رجلان مختلفان، في عالمين مختلفين للحياة الأميركية، يبدو كما لو أنه قُدر لهما أن يجتمعا مع بعضهما كنموذجين للتاريخ الأميركي، بقي السؤال المفتوح لحساب ماذا أصبحا صديقين مقربين، بافتراض ثبوت صحة قصة تشامبرز الأساسية.

(1) op. ct. p.74.

(2) op. ct. p.74.

(3) op. ct. p.74.

مع بداية الخمسينات كان الكاتب موراي كمبتون وأيضًا ليزلي فيدلر[1] مقتنعين تمامًا بكون هيز مذنبًا لخيانته الوطنية، رغم هذا، وبعد خمسين عامًا توسعت القصة بتعقيداتها. لدينا دفاع مختلف من جهة هيز وابنه توني، أما والاتحاد يفصح عن مكنونات نفسه الآن، وأن نسخة (فينونا) كانت متوفرة، سنفترض أن هيز هو مجرم وجريمته لا تشمل فقط عناده العظيم، بل ضربًا أساسيًا من انعدام الإخلاص العائلي. (ثم مرة أخرى مسؤوليته تجاه بريسلا وأخيه دونالد التي ربما تعقَّدت في ذهن ابنه توني) من الصعب أن نؤمن أن أي شخص قد يقتنع بحصانته واستقامته الشخصية ليخاطر بالكثير. على الأقل في الأدب العظيم نادرًا ما يلتمس الأوغاد اللئام «باردوا الدم» رجاء الخلاص وطلب الغفران. إذا كان هيز مستعدًا للتضحية بحياته، زواجه، ابنه، إذن في نقطة ما، ربما يتوقع أحد أنه قد سأل نفسه عما إذا كان الأمر يستحق كل ذلك؟. مع ظهور المستندات الأخيرة التي يفترض أنها من أرشيف الاستخبارات العسكرية الروسية، لازال هناك لغز نفسي بحاجة ليفسر سلوك هيز. ربما كانت سيكولوجية الليبرالية الأميركية غير كافية لتفسر تعصب المنتمين الشيوعيين، وليس من جديد أتى ليبطل تلوُّن المواجهة بين هيز - تشامبرز سوى أنها نوع من أكثر الأحداث الدرامية.

(1) Murray Kempton, Part of Our Time: **Some Ruins and Monuments of the Thirties** (New York: The Modern Library, 1998), Ch. 1 «**The Sheltered Life: Alger Hiss and Whittaker Chambers,» and Leslie Fiedler, An End to Innocence: Essays on Culture and Politics** (Boston, Beacon Press, 1955), ch. 1 «**Hiss, Chambers, and the Age of Innocence.**

الفصل الثالث

مذكرات عن فرجينيا / ليونارد وولف

عُرفت فرجينيا وولف كأبرز الشخصيات في بدايات القرن العشرين، زمن ازدهار المثقفين البريطانيين الذين عرفوا بجماعة بلومزبري «Bloomsbury»(*)، إلا إنني توصلت إلى أعمالها عبر مسلك غير مباشر. كان جون ماينارد كينيز(**) أول عضو قمت بقراءة أعماله من أعضاء تلك الجماعة، لفت انتباهي في المرة الأولى عام 1959م عبر نسخة ورقية الغلاف لكتابيه الشهيرين: مقالات في البيوغرافيا «Essays on Biography» وكتابه: السيرتان ـ «Two Memoir»، ذلك لأنه كان يعُدُّ رمزًا أساسيًا في الاقتصاد الحديث. ما زلت قادرًا على استدعاء تألقه في كتاب: «معتقداتي في وقت مبكر»، بدا لي كينيز من الكتّاب الذين يحبسون أنفاسك عند حديثهم عن، روبرت مالتس، ليويد جورج، وينستون تشرتشل، تروتسكي، والدكتور الغامض ميلكيور، ومؤسسي معاهدة فيرساي، وحتى نيوتن.

أتيح لي في أكسفورد فقط، وبعد سنة تخرجي، شرف قراءة نظرية كينيز الاقتصادية في كتابه الشهير «النظرية العامة في التشغيل والفائدة والنقود»، «The General Theory of Employment, Interest and Money ـ 1936م». في ذلك الحين كنت واعيًا بموهبة كينيز ككاتب واقتصادي أيضًا. كان كتابه: «العواقب الاقتصادية للسلام The Economic Consequence of Peace ـ 1919م» تجربة لا تنسى، بمسوداته العظيمة حول رجل الدولة

(*) جماعة من المثقفين، بدأت التجمع في منزل وولف وشقيقتها عام 1905م. استمر نشاط هؤلاء المثقفون لثلاثة عقود، نتج عنها أعمال أدبية وفنية بارزة. كان من أبرزهم وأشهرهم الكاتبة فرجينيا وولف.

(**) (1883 ـ 1946م) جون ماينارد كينيز، اقتصادي إنكليزي، شارك في مؤتمر السلام بعد الحرب العالمية الأولى، وله كتاب: «الآثار الاقتصادية للسلام». عمل أستاذًا للاقتصاد في جامعة كامبردج، وهو مؤسس النظرية الكينزية عبر كتابه: «النظرية العامة في التشغيل والفائدة والنقود». والتي تقوم على أن الدولة تستطيع من خلال سياسة الضرائب والسياسة المالية والنقدية أن تتحكم بما يسمى الدورات الاقتصادية.

المتورط في ختام الحرب العالمية الأولى، وتكهناته حول ما سيلحق أوروبا إثر أحكام معاهدة السلام. بدأت بالقراءة ثم تدرجت سياسيًا، وفلسفيًا، واقتصاديًا، وأعتقد أن سبب ذلك هو حيوية الفلسفة غير المعتادة بأكسفورد في ذلك الوقت، والدور الرئيسي الذي لعبته في الحياة الفكرية، مما جعلني أبدأ بقراءة المزيد عن مبادئ الأخلاق Principia Ethica لـ (ج. إي. مور). (1903م). كانت حجة مور مركزة، وكوني طالبًا في الفلسفة السياسية، كنت بحاجة لفهمها تمامًا، لكنني شعرت بأنني أواجه المفكر كينيز مثل الجميع، أي: باعتباره أبرز الشخصيات الفلسفية لجماعة بلومزبري «Bloomsbury». حينها تيقَّظ لدي اهتمام بفرويد، لكن كتبه لم تتوفر في مكتبة جامعتي ماجدلين. وفي السنوات القليلة اللاحقة، كنت قد قرأت كل ما (يخص إ. م فورستر)، الصديق المقرب لكينيز ولفرجينيا وولف أيضًا. بدأت كتب السير الذاتية لوولف وليونارد بالخروج عام 1960م، فقد قاموا بتقديم عرض خالد لحياة كامبردج الفكرية، وكان أمرًا صعبًا على أميركي ألا يغار من طريقة تحديد الجغرافيا البريطانية، ففي مقابل اتساع العالم الجديد، سيكون من السهل على الأصدقاء القدامى البقاء على اتصال.

خلال صيف عام 1965م أنهيت رسالة الدكتوراه حول «فرويد: الأفكار السياسية والاجتماعية «Freud's Political and Social thoughts» وعينت بمنصب أستاذ مساعد في جامعة هارفارد، وأخذت على عاتقي أن ألتقي (بينما أعدُّ بحثًا في لندن) كل من باستطاعتي إيجاده ممن التقوا بفرويد شخصيًا. في عام 1917م قام ليونارد وولف بمعيّة زوجته فرجينيا بتأسيس مطبعة هوغارث، والتي مازالت تقوم بالنشر، وبما أنها كانت المعنية بنشر أعمال فرويد باللغة الإنكليزية كان من المنطقي بالنسبة لي أن ألتقي ليونارد وولف. (كان لقاء كيرت إيسلر بليونارد وولف لايزال حبيسًا في مكتبة الكونجرس حتى عام 2013م). رغم إنني دونت ملاحظات قيّمة خلال اللقاء وبعده، بدا لي الآن أنني تغاضيت عن تدوين ربما أبرز جوانب ذلك اللقاء. أول هذه الجوانب، كان الجو المحيط بهوغارث، التي تقع في شارع ويليام الرابع 40، و20، لقد كانت كل ما يحلم به ناشر بريطاني تقليدي، يحب للكتب أن تكون كما يريد، كان المكان عفنًا ومتداعٍ بشكل عجيب، ولأجل أن تصل لمكتب وولف الصغير، يلزمك أن تصعد على درج ضيق ومتهالك. لم يكن هناك علامة على التجانس، لا طلاء كروم حديث، ولا تكنولوجيا كالتي كانت تسيطر على دور النشر التجارية. الجانب الثاني، هي تلك النظرة التي ألقاها ليونارد على أحد أعمال فرجينيا، بينما كنا نتحدث، أعتقد

أنها كانت أحد مجلدات مقالاتها التي قام بتحريرها، وقد تكون جزء من مذكراتها التي كان يشرف على نشرها بعد وفاتها. تحول وجهه للحظات بينما انحنى على المخطوطة قليلًا، أعتقد أن التوهج الذي شاهدته على وجهه يشرح شيئًا من عبقريتها، التي أضفتها على حياته. كان ليونارد يبلغ الخامسة والثمانين، بيدين مرتعشتين (صدمتني ضخامتهما)، ودماغ لايزال حيًّا. كانت ملامحه رزينة، وشخصيته مهيبة (ألمحت في الملاحظات لا بد وأنه كان شخصًا قويًا) عاش بعد ذلك اللقاء أربع سنوات فقط.

كان جيمس ستراتشي الأخ الأصغر للايتون وأحد أصدقاء ليونارد القدامى، أول من اقترح نشر أعمال فرويد عبر مطبعة هوغارث. وكانت مطبعة أنوين هي المعنية كموزع بريطاني بأعمال المحللين النفسيين، لكن ليونارد كان يعتقد أن «مثل هذه الترتيبات لم تكن مرضية أبدًا». كان لفرويد دار نشر خاصة في فيينا، طبعت بعضًا من كتبه باللغة الإنكليزية هناك. وبرأي ليونارد، لم يكن فرويد رجل أعمال كفؤ، إذ يرى ليونارد أن فرويد مهووس بعظمته، وكثيرًا ما طبع عشرة آلاف نسخة وبالكاد بيعت منها 300 أو 400 نسخة في السنة الأولى. عندما تولى ليونارد نشر أعمال فرويد، كان قد ورث ملكية الكتب التي طبعت في فيينا، والتي غالبًا ما تصل متسخة بسبب طريقة تخزينها خارجيًا، ولسنوات كانت الشكاوى تصل إلى ليونارد من بائعي الكتب في لندن. حينذاك أنشئت لجنة للنشر في معهد التحليل النفسي البريطاني، والتي ضمّت كلًّا من إيرنست جونز(*)، جون ريكمان، وجيمس ستراتشي. في بداية النشر تعامل ليونارد في فيينا مع مارتن الابن الأكبر لفرويد، ثم في لندن مع إيرنست الأخ الأصغر لمارتن.

كان ليونارد قد تبادل بضع رسائل مع فرويد بنفسه، والذي من وجهة نظر ليونارد كان «رجل أعمال سيئ». لإنه قام ببيع مجموعة بحوثه التي تقع في أربعة مجلدات لمعهد جونز مقابل خمسين جنيهًا لكل مجلد، لم يطل الأمر حتى أعادت مطبعة هوغارث كافة المجلدات، في ذلك الوقت كتب ليونارد لفرويد يعرض عليه الشروط السليمة للبيع حيث تكون له ما نسبته 10% من العائدات.

عندما هاجر فرويد إلى لندن عام 1938م، ذهب كلًّا من ليونارد وفرجينيا وولف لاحتساء الشاي معه في حدائق مارسفيلد، أدخلتهم آنا ابنة فرويد إلى مكتبة الاستشارات. كان ليونارد

(*) محلل نفسي بريطاني وكاتب سيرة فرويد الرسمية.

قد جلب قصاصة من جريدة حول محاكمة سارق في لندن، من بين سرقاته أحد كتب فرويد، وكانت حادثة فويل أمرًا مألوفًا في ذلك الوقت. أرسل القاضي السارق للسجن ثلاثة أشهر قائلًا: «أتمنى أن أحكم عليك بقراءة كافة كتب فرويد» أضحكتني تلك القصة، وإذا كنتم تتساءلون عن ردة فعل فرويد، نعم لقد ضحك كثيرًا كما يروي ليونارد.

لاحقًا وضع ليونارد هذه القصة في المجلد الرابع لسيرته «Downhill All the Way» 1967م. حيث يروي:

«كل المشاهير تقريبًا مخيبين للآمال ومخيبون ومملون، أو كلاهما معًا. لكن فرويد لم يكن من هؤلاء، لم تكن له هالة شهرة، وإنما هالة من العظمة. مضت ثمانية أشهر بعد مهاجمة سرطان الفم لفرويد، والذي أدّى إلى وفاته، لم يكن اللقاء بالسهل. كان لطيفًا للغاية وتقليديًا بترحيبه، حينما قدم لفرجينيا زهرة نرجس. امتلك فرويد شيئًا يشبه بركانًا نصف خامد، كان بائسًا، مكبوتًا، ومتحفظًا. تملكني شعور لا يأتيني إلا لقلة ممن ألتقيهم، شعورًا بالغًا بالرقة وفي ذات الوقت بالقوة. بدت الغرفة التي جلس فيها بسيطة، مشرقة ومضيئة، بمنظر بهي من النافذة، ومطّلا على الحديقة. كانت غرفة بمثابة المتحف، تحيط بمكتبه الآثار المصرية التي قام بجمعها. عند حديثه عن النازيين، قالت فرجينيا: إننا نشعر بالذنب لأننا كسبنا حرب 1914م، لو لم نكسبها لم يكن هناك نازيين، ولم يكن لهتلر أي وجود، فأجابها فرويد: بأنها مخطئة، سيكون لهتلر والنازية وجود، وكان يمكن أن يكون أسوء لو فازت ألمانيا بالحرب»[*].

كان فرويد مستمتعًا باستهجان حين سماعه قصة السارق فويل التي سردها ليونارد عند لقائه به، يقول: بأن كتبه لم تجعله مشهورًا، وإنما رجلًا مذهلًا وسيئ الصيت[1]. ومن المهم أن نشير لما كتبته فرجينيا وولف في مذاكرتها التي ظهرت فقط عام 1984م، كتبت:

«قدم لي الدكتور فرويد زهرة النرجس، كان يجلس في مكتبة كبيرة حوله تماثيل

(*) لم يكن لدى فرويد وجهه نظر معلنة تجاه التمدد النازي، بل إن عائلته واجهت صعوبة في إخراجه وإقناعه بترك فيينا والرحيل الي لندن، كان يردد: إن بلدًا أنجبت غيتة لن تسمح بهذا الدمار، كما أنه بعث ببعض كتبه مهداة لموسوليني عن طريق أحد مرضاه من حاشية موسوليني، قارن: Freud and his Followers by P Roazen.

(1) Leonard Woolf, Downhill All The Way: **An Autobiography of the Years 1919 to 1939** pp. 168 - 169 (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1969).

صغيرة مرتبة بدقة فوق طاولة كبيرة ولامعة. جلسنا على الكراسي كالمرضى، أمام رجل كبير بالسن منكمش وينظر بعينين رقيقتين، بالكاد تصدر منه حركات متشنجة ولكنه في وضعية تأهب دائمة. وحول هتلر قال: بأنه لو عاش متأخرًا بجيل سيكون للسم مفعوله. وعن شهرة كتبه؟ يقول: كنت سيئ الصيت أكثر من كوني مشهورًا، لم أجني 50 جنيهًا من كتابي الأول. كان حوارًا صعبًا، ساعدتنا ابنته وابنه مارتن بإمكانيات جبَّارة كشعلة مضيئة. لدى مغادرتنا كان يحدثنا عن موقفنا وما نحن فاعلين؟ أمام الحرب الإنكليزية».

وفي اليوم التالي مضت تكمل سرد اللقاء:

كم كان الأمر سيؤول للسوء لو لم تكسبوا الحرب؟، هكذا قالها فرويد. قلت له: إننا نشعر بالذنب، فلو خسرناها لم يكن ليوجد هتلر، وبتأكيد كبير قال: لا، سيكون أسوء بشكل لا محدود، وكان فرويد قد خطط بغضون أربع وعشرين ساعة للمغادرة لثلاثة أشهر. وعندما ذكر ليونارد قصة القاضي الذي أمر السارق بقراءة عشرين كتابًا لفرويد، كان مصغيًا له باهتمام بالغ. أخبر أدريان ستيفن ـ شقيق فرجينيا وولف ـ بأن الأميرة ماري بونابرت سلمته ذلك الصرح المهيب، قصر هامبتسيد. ولم يرق ذلك لآنا قالت: «لكنه لم يعجبنا مثل شقتنا في فيينا». إن اللاجئين مثل النوارس، بمناقيرها المفتوحة والمتأهبة لكسر الخبز. كان هناك ضغط من قبل مارتن لنشر روايته، وآنا من أجل كتابها، وجهد كبير علينا، لنظهر بصورة حسنة[1].

بدا لي أن عبقرية فرجينيا تفتقر لحس الدعابة، كقولها: (هل أنا متعالية؟)[2] والتي أضحكتني بقدر ما صدمت بها، أو حين إغفالها لمقولة فرويد الساخرة حالما دخلت هي وليونارد: «نحب المرضى على الكراسي» كلاهما لم يظهر أنه فهم الإشارة التهكمية لطريقته المعتادة في رؤية من يقوم بتحليلهم على الأريكة، الجلوس على الكراسي قطعًا لم يكن اقتراحًا يقدمه فرويد لمرضاه كمحلل نفسي، والظاهر أن فرجينيا لم تفهم دعابة فرويد، بدلًا عن ذلك ما قصدته فرجينيا أنها هي وليونارد كانا يجلسان على الكراسي مثل المرضى، لكنها

(1) **The Diary of Virginia Woolf**, Vol. 5, ed. Anne Olivier Bell (New York: Harcourt Brace, 1984), p. 202.

(2) Virginia Woolf, **Moments of Being**, second edition, ed. Jeanne Schulkind (New York: Harcourt Brace, 1985), pp. 204 _ 220.

فوتت الإشارة الفرويدية لاستخدام الأريكة من بين مجمل الأثاث في الغرفة. وعلى العكس من ليونارد لم تُشر لضحكه على تعليقات القاضي وحكمه على السارق. كتب فرويد إلى ليونارد بعد لقائه معتقدًا أن القاضي كان نرويجيًا: «أعتقد إنني لم أكن مُرضيًا عندما ألتقيتك أنت والسيدة فرجينيا، وذلك لعجزي عن استخدام لغتكم. قد يساء فهم الإدانة التي قدمت من قبل القاضي النرويجي، وتصبح نكتة سيئة من قبل صحفي خبيث»[1]. هذه الرسالة كانت مدعاة تساؤل ـ بالنسبة لي ـ عن حجم استمتاع فرويد بحادثة فويل.

تحدث ليونارد عن واحد من كتبه المفضلة يستعرض ردًّا على كتاب فرويد «علم النفس المرضي للحياة اليومية Psychopathology of Everyday Life». كان الكاتب الأميركي والتر ليبمان من الأوائل المطلعين على أعمال فرويد، وكان يتحدث هو وليونارد عن أهمية فرويد قبل الحرب العالمية الأولى. وسألته ما إذا كان ليبمان لديه معرفة بالتحليل النفسي؟ فتردد ليونارد قبل الإجابة بكياسة، كان لديه علم «بقدر ما كنت أعلم». عمل ليونارد لاحقًا على إدخال أفكار فرويد في كتبه التنظيرية السياسية (وهذا ما فعله ليبمان في كتاباته الشخصية). كانت فرجينيا أقل اطِّلاعًا عن فرويد مقارنة بزوجها ليونارد[2]، (من الواضح أنها بدأت بقراءة أعمال فرويد بعد أشهر قليلة من لقائها به). ولم يأخذ ليونارد فرجينيا لأي طبيب نفسي رغم اضطراباتها النفسية المتكررة. (يقول جيمس ستراتشي: لعلَّه لم يقرأ كتب فرويد التي كان ينشرها، بينما كان اعتقاد أليكس زوجة جيمس أن فرجينيا كانت خائفة من أن التحليل النفسي يتداخل مع إبداعها).

ويكمل ليونارد الحديث عن تلك الأيام، بقوله: كان هناك قلة قليلة من الناس من اهتموا بفرويد وقد سألته عن أصدقائه، فذكر استثناءً جيمس ستارتشي وآل ستيفنز (أدريان شقيق فرجينيا، وزوجته كارين، وكلاهما أصبحا محللين نفسيين). ويضيف: «تحدث ت. س إليوت بقدر جيد عن التحليل النفسي، لكن روجر فراي بدا استثنائيًا في عدوانيته». (وندمت على عدم سؤالي عن كينيز وفورستر، كنت قد اشتبهت بأن الشذوذ الجنسي بين أدباء الإنكليز الشباب قد عقَّد استجابة البريطانيين للتحليل النفسي، عقَّدها بصورتها أكثر من كونها آراء شخصية تجهمية حول الانحراف).

---

(1) **Letters of Leonard Woolf**, ed. Frederic Spotts (London: Weidenfeld and Nicolson,1989), p. 244.

(2) Jan Ellen Goldstein, «**The Woolfs's Response to Freud**», Psychoanalytic Quarterly,Vol. 43 (1974), pp. 438 _ 476.

بقي ليونارد على اتصال مع مارتن فرويد حول أمور نشر أعمال الأب، وكانت فرجينيا قد أشارت في مذكراتها لروايته التي لم تنشر بعد. (ربما كان كتاب آنّا فرويد الذي ذكرته فيرجينيا أول كتاب حول تحليل الطفل، والذي قام بطبعه جونز ولاء لآنا منافسة ميلاني كلين التي لم يسمح لها بنشر شيء). وقد أخبرني وولف أنهما استضافا مارتن على العشاء وكانا ودودين معه. (في عام 1940م كتب ليونارد الاشتراكي إلى كليمنت أتلي أمير بريفي سيل في مجلس وزراء حرب تشرشل، يحتج على اعتقال مارتن وترحيله لأستراليا، بصفته أجنبي خطر)[1]. ويتساءل ليونارد عما فعله مارتن في لندن ليستحق الترحيل، وبسؤالي عنه قال: أعتقد أنه كان مفكّرًا. عرض مارتن روايته على مطبعة هوغارث، لكن ليونارد لم يكن مقتنعًا بها كرواية صالحة للنشر. وبما أنني قد قرأت الرواية، أقول عن هذا الحكم: إنه كان حكمًا رحيمًا.

كان السبب الأول لرؤيتي ليونارد هو الاطّلاع على أرقام مبيعات كتب فرويد، وكان جوابه بأن هذه المعلومات ليست سرية، لكنه يخشى أنها أضيعت بسبب تنقلهم خلال الحرب وتسرب الأمطار لها بعد تعرضهم للقصف. ويظهر أن مطبعة هوغارث قد ربحت مبلغًا مجزيًا من مبيعات (مجموعة أبحاث فرويد)، كان ذلك المشروع «أكثر مجازفة رابحة» قاموا بها. وكانت الكتب قد طبعت وأعيد طباعتها في أميركا. قال لي ليونارد: قد يملك ماكميلان معلومات حول أرقام المبيعات الخاصة بهم، بما أنهم الموزعين لهوغارث هناك، وبالطبع في أميركا ستكون هناك كتب بترجمة (أ.أ بريل) الرديئة. كانت (مجموعة الأبحاث) لفرويد فكرة جونز بالمقام الأول، لكن بحلول عام 1965م رتب جيمس ستراتشي لعمل جديد، بترجمة منقّحة، وملاحظات محررة. (كان تقويم النسخ الأميركية الصعبة بمثابة عمل بطولي، قبل تصدُّر الطبعة الأصلية لستارتشي والتي تحتوي على أربع وعشرين مجلدًا، بيعت هذه المجموعة بأميركا مقدمة من هوغارث).

مازحني ليونارد بابتسامة واسعة على وجهه، سائلًا ما إذا كنت سأكتب عن الخلافات التي حصلت بين فرويد وتلميذيه السابقين ألفرد أدلر وكارل يونغ؟ وما كنت في تلك المرحلة من عمري أعطي إجابات مؤكدة، لكنني سألته ما إذا كان يونغ وأدلر يُعتبران على قدم المساواة مع فرويد؟، فأجابني بنفي قاطع. كان لديه فضول حول ما إذا كان في فيينا

(1) **Letters of Leonard Woolf**, pp. 425 ـ 426.

عام 1965م محللون نفسيون بارعون، (في ذلك الوقت كانت الجمعية النمساوية للتحليل النفسي جمعية إستثنائية، بكونها من الجمعيات القليلة التي لم يكتب لها الازدهار). بعد اليوم الذي قابلت فيه ليونارد، أرسل لي رسالة حول أرقام مبيعات كتب فرويد والتي كنت قد طلبتها منه، (لم أشعر بأن ليونارد كان عدائيًا تجاه أميركا، لكنه هو وفرجينيا لم يقوما بزيارتها خلال حياتهما العملية).

بدأت هوغارث بنشر المجلدات من السابع حتى العاشر لسلسلة في مكتبة معهد التحليل النفسي. كانت هذه المجلدات الأربع هي التي بيع منها حوالي 300 نسخة في السنة الأولى. من مجموعته البحثية.

كتاب فرويد التالي: «الأنا والهو The Ego and the Id» بيع منه 404 نسخة في أول اثني عشر شهرًا من نشره، والطريقة التي ازدهرت بها مبيعات كتب فرويد يوضحها البيان التالي، بيان المبيعات الكتاب/ تاريخ النشر/ مبيعاته في 12 شهرا:

- مستقبل وهم Future and Illusion/ 899 ـ 1928م نسخة.
- الحضارة وتوعكها Civilization and Discontent/ 1930م ـ 929 نسخة.
- محاضرات تمهيدية جديدة New Introductory Lecture/ 1932م ـ 122 نسخة.
- دراسة السيرة الذاتية Autobiographical Study/ 1935م ـ 1997 نسخة.

مقارنة بغيره من المؤلفين:

- إسهامات إضافية ـ Further Contributions (فيرنزي)/ 1927م ـ 302 نسخة.
- علم نفس الثياب ـ Psychology of Clothes (فلوجيل)/ 1930م ـ 406 نسخة.
- علم نفس الأطفال ـ Psychology of Children (كلاين)/ 1932م ـ 343[1] نسخة.

لا أعلم كيف تمكن ليونارد من حصد هذه الأرقام سريعًا، لكنها تتفق تقريبًا لقائمة إجمالية صنفها ج. هـ ويليز عام 1992م لصالح حسابه في هوغارث[2].

ورغم أن لقائي بليونارد كان من باب الاهتمام بالتحليل النفسي، واظبت على القراءة العامة والاهتمام بجماعة بلومزبري، ومبادرتي كانت بسبب كتب ميتشل هولرويد العظيمة

(1) **Leonard Woolf to Paul Roazen**, August 18, 1965.

(2) J. H. Willis, Jr., **Leonard and Virginia Woolf As Publishers: The Hogarth Press** 1917 _ 1941. (Charlottesville: University Press of Virginia, 1992). Appendix C

عن لايتون ستراتشي والتي ظهرت عام 1976م[1]. وكنت قد نشرت مقالاً قصيرًا حول الصلة الغريبة التي جمعت فرويد[2] ولايتون ستراتشي. في العديد من كتبي أتيت على جماعة بلومزبري، لكنه كان من أجل تأليف كتاب، وكان عليّ التعامل مع أدريان ستيفن ـ شقيق فرجينيا وولف ـ في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي للمؤلف[3].

كانت قد ظهرت لهذا الشقيق سيرة مثيرة وغريبة، حيث كانوا يُتوسلون إلى هذا الولد الصغير كي يذهب لرحلة إلى الفنار، مما قادني أخيرًا لقراءة عمل فرجينيا (نحو الفنار) ولأول مرة. (كنت قد قرأت مذكرات فرجينيا التي احتوت على مجلدين كتبهما ابن شقيقتها كوينتن بيل)[4].

ورغم أنني أتيت على أعمال فرجينيا وولف متأخرًا، وجدت أن علاقتي بليونارد كانت عاملًا مساعدًا على فهم الأعمال الأدبية الأخيرة، والتي دارت حول زواجهم. بدا لي أن سيرة فرجينيا وولف لمؤلفتها هيرميون ليّ الأفضل، لأنها الأشمل من بين كل الأعمال التي ظهرت، لكنني رأيت أن صفحتها الافتتاحية كانت صادمة بشكل غريب، علّقت ليّ: « لم يكن عبثًا من فرويد في مناسبة لقائهم الوحيدة عام 1939م أن يقدم لها زهرة نرجس13»، هل كانت ليّ تفكر هكذا؟ بمرضه وسنّه الكبير استعد فرويد للقاء فرجينيا بالذهاب للحديقة واختيار أي زهرة ستكون الأنسب لفرجينيا؟ يبدو لي أنها مبالغة من نوع غريب، من الممكن أن شخصًا آخر من العائلة قد اختار الموجود من الزهور للمكتب، والتي بلا شك اختار فرويد منها اختيارًا فريدًا.

ويبدو جوهريًا وبشكل واضح افتقاد سيرة لي للعناصر الرئيسية لعلاقة فرجينيا بليونارد.

---

(1) Michael Holroyd, Lytton Strachey: **A Biography** (London: Penguin Books, 1971) **and Michael Holroyd, Lytton Strachey and the Bloomsbury Group: His Work, Their Influence** (London: Penguin Books, 1971).

(2) Paul Roazen, «**Freud and Lytton Strachey: An Uncanny Parallel,**» **Psychologist/**Psychoanalyst, Summer 1991, pp. 43 _ 44. (Also in Paul Roazen, The Historiography of Psychoanalysis [New Brunswick, NJ, Transaction Publishers, 2001, pp. 346 _ 49).

(3) Paul Roazen, **Oedipus in Britain: Edward Glover and the Struggle Over Klein** (New York: Other Press, 2000).

(4) Quentin Bell, Virginia Woolf: **A Biography, 1882 _ 1912**, Vol. I (London: The Hogarth Press, 1973) and Virginia Woolf: **A Biography, 1912 _ 1941** Vol. II (London: TheHogarth Press, 1973).

الرجل الذي عاد من سيلان كموظف استعمار مدني، قبل أن يتزوجها عام 1912م، وكان لزامًا عليه أن يبدو لعائلتها ولأصدقائها كشخص قادر على العناية بها. (بعد ثلاث سنوات من زواجهم أصبحت فرجينيا مريضة بالفعل) كان الانهيار الأول بعد وفاة والدتها عام 1985م، وكان عمرها آنذاك ثلاثة عشر عامًا. كان من أكثر الجوانب إيلامًا بالنسبة لـ ليّ أن فرجينيا لم تكن قادرة على الشعور بأي شيء، كردّة فعل على وفاة والدتها. وما صاحبها خلال شبابها من مشاعر مرهقة من التفكك[1]. هذا الحرج من مشاعر الحزن المكبوحة قد يكون له صلة بما وصفته هيلين دويتش[*] في بحثها الشهير حول (غياب الحزن Absence of Greif) كيف أن الحداد المتأخر يمكن أن يكون مصدرًا قويًا للتعاطف والحدس[2]. بالنسبة لـ ليّ فإن الحادثة المرتبطة بوفاة والدتها « تُظهر تجربة طويلة من الحرج من إظهار المشاعر» وقد يعتقد آخر أنها ساهمت بتغذية رقة الشعور لديها[3].

درس ليونارد في كامبردج مع شقيقيّ فرجينيا توبي وأدريان، لكن ليونارد كان غير عادي بكونه يهوديًا وميسور الحال. في وقت متأخر من عام 1930م كتبت فرجينيا وولف في رسالة: «كم أكره الزواج من يهودي، كم هي كريهة مخارج أصواتهم الأنفية، ومجوهراتهم الشرقية، وأنوفهم، كم كنت متعالية؟». كانت ليّ محقة في ملاحظتها لفرجينيا بـ «تحيزها العنصري وتميزها الطبقي»[4].

جمعت كافة أعضاء بلومزبري النخبوية المعادية للسامية، ولم يكن متوقعًا لأحد أن تثبت فرجينيا كم كان عدد الأعضاد غير الصالحين. من ناحية مالية، كان لليونارد جزء قليل من مال فرجينيا، ومن المحتمل أن هناك قناعة مشتركة بعدم استقرار فرجينا نفسيًا، ولذلك كان ليونارد خيارًا جيدًا كزوج لها. أما في الجانب الجنسي في حياتهما، فيبدو إنه لم يكن هناك

---

(1) op. ct. p. 129 ،131

(*) (1884 – 1982م) طبيبة ومحللة نفسية بولندية/ أميركية، حللها نفسيًا فرويد، وكانت تحلل تلميذه فيكتور توسك، الذي انتحر في ملابسات غامضة تقصاها روزان في كتابه: The Animal Brother. كما اختصها روزان بكتاب يحمل اسمها، ماتت عن عمر 97 عامًا، ارتبط اسمها بالشخصية As if Personality).

(2) Lee, **Virginia Woolf**, p. 131. Helene Deutsch, «**Absence of Grief**,» in Neuroses and Character Types: Clinical Psychoanalytic Studies (New York: International Universities Press, pp. 226 _ 36, 1965).

(3) Lee, **Virginia Woolf**, p. 131.

(4) Ibid, p. 308.

اتفاق بالعموم بينهما، تكهن محلل نفسي بريطاني بأن زواج وولف ربما لم يكن مكتملًا، إن لم يكن فعلًا كذلك، وكان بالأساس تسليمًا لوضع طويل المدى.

لاحظت لي أن «الشهود على هذا الزواج خلصوا إلى أن التكافؤ الجنسي لم يكن موجودًا»[1]. واستنتج ابن هارولد نيكلسون وفيتا ماكفيل، أن فرجينيا كانت من النوع «البارد جنسيًا»[2]. ومنذ بداية زواجهما اعتادا على النوم في غرفتين منفصلتين، كان ليونارد يحضر لها الإفطار على سريرها كل صباح. وجدت ليّ أن «الصورة القياسية للزوج البسيط، كمنبوذ جنسيًا يضحي بنفسه على مذبح عبقريتها»[3]. كانت فكرة إنجاب الأطفال خارج الحسبان بالنسبة لشخص غير مستقر مثل فرجينيا. لكن ليّ استمرت بالتأكيد على أن «هذا الزواج لم يكن زواجًا جنسيًا، وقد يستمر أحد على اللعب والأحضان الحنونة»[4]. ولربما تصورت أن وولف حظي بعلاقة جنسية كما يتصورها أي شخص. لكنه كان قلقًا على صحة فرجينيا. قامت ليّ باقتباس ما كتبت فرجينيا لصديق عام (1912م) «ليونارد أدخلني في سبات عميق»[5]، دون أن تشير ليّ إلى أي مدى كانت فرجينيا مدللة ومتساهلة مع ذاتها، وهي محقة في ملاحظتها بلا شك بأن «هناك خط رقيق بين الحذر والترقب والرغبة في التحكم»، ومما لا شك فيه أن ليونارد كان «حارسًا أكثر من كونه عشيقًا»[6]، كما وصفته ليّ بأنه: «شخص عميق، واضح، وسريع الانفعال ومتحكمًا بذلك بتدريب ذاتي شديد»[7].

لم تتساءل ليّ قط ما إذا كانت فرجينيا ستكون روائية عظيمة دون ليونارد. في وقت زواجها كانت لم تنشر روايتها الأولى بعد. رغم أن موهبتها في الكتابة كانت واضحة حتى في بعض رسائلها الأولى، لكن ليّ لم تثمِّن وجود ليونارد بتقديمه البناء الأساسي لإنجازاتها الأدبية، قد يكون مبغضًا للبشر أحيانًا، متحكمًا، مقترًا ماليًا، لكن يعاب عليها إغفال دوره الذي قام به من أجل فرجينيا، وما فعلته هي أيضًا لأجله. كيف سيكون الأمر سهلًا مع شخص هش مثل

(1) op. ct. p. 326.

(2) op. ct. p. 326.

(3) op. ct. p. 372.

(4) op. ct. p. 328.

(5) op. ct. p. 331.

(6) op. ct. p. 331.

(7) op. ct. p. 331.

فرجينيا التي تعرضت لعديد انهيارات، وانتهى بها الأمر لقتل نفسها رغم كل ما قام به ليونارد من اهتمام، لعبقرية فشلت في إيجاد تفسير للأعمال التي أنجزتها.

كان يمكن أن تذهب حياة فرجينيا من دون ليونارد لاتجاه تدميري في وقت أبكر. افتقدت في تفسير «لي» لهذا الزواج ما قدمه ليونارد وفرجينيا لبعضهم البعض من تواصل عاطفي وفكري، لا نجده في زيجات أخرى، وعادة ما يتم الانفصال لانعدام التكافؤ الجنسي. ورغم أنني وجدت صعوبة في أن أضع يدي على ما هو مفقود في نظرة «لي» لزواجهما، ظهر لي تلميحًا لنصّ رسالة كتبتها ستيلا الأخت غير الشقيقة حول خاطب «لا يمكنني أن أفكر فيه دون أن انتفض، ومع ذلك هو الأقرب ليشفق عليه، الأمر مريع» علقت «لي» هنا بشكل متطفل: «ماذا يمكن أن يكون فعل؟»[1] ولمَ يمكن أن يكون فعل أي شيء؟، وتغيرت مشاعر ستيلا رغم أنها مازالت تعتقد أنه مثير للشفقة. طوال قراءة (فرجينيا وولف) شعرت بلمسة عصرية ومحترمة لنسوية مضحية، ربما يعود لمظهر فرجينيا، ماذا لو كانت فرجينيا الرجل وليونارد المرأة؟ أشك أن كتَّاب السير سيكون لديهم شك حول التضحية الذاتية في الزواج. ومع ذلك رأيت بقناعة أثر فرجينيا على ليونارد حين لقائي به. يعتقد فرويد أن كل المتحضرين هم مازوخيين بشكل جزئي، وبشكل مثالي بالنسبة للزواج الذي يستوجب إفضاء الاثنين لبعضهم البعض، وما يتعاهدا عليه في خيباتهم وعراقيلهم.

التعليلات الحتمية لفرجينيا وليونارد عكست المزاج السائد حول العلاقات بين الجنسين. ومهما كانت عيوب سيرة فرجينيا وولف التي كتبتها «لي»، فإنها لن تضاهي إثارة مراجعات فيليس غروسكورث في ملحق التايمز الأدبي 1980م، للمجلد السادس الذي حوى رسائل فيرجينيا وولف[2]. حاولت فيليس أن تقدم فكرة لا أساس لها من الصحة بقولها: «ذاعت شائعة في القرية أن ليونارد وولف قد تخلص منها وأخفى الجثة» بعد حادثة انتحار فرجينيا. وعرضت فيليس اقتراحًا بالبحث في أحد رواياتها الأخيرة عن يهودي غير مرغوب، ربما كانت «تصف تظلمًا ضد مطبعة هوغارث»، وجد ليونارد وفرجينيا أن النشر أمر مرهق، وربما رأى ليونارد أن فيه نوعًا من التوجه العلاجي لفرجينيا لتحظى بجانب عقلاني في حياتها، لكن ما من شيء يدعم فكرة أن فرجينيا يمكن أن تكون شديدة وناقدة على ليونارد عبر

(1) Lee, **Virginia Woolf**, p. 131.

(2) Phyllis Grosskurth, «**Between Eros and Thanatos**», Times Literary Supplement, Oct. 31, 1980, pp. 1225 _ 1226.

مشهد برواية. بل أن فيليس طرحت نقطة «الفشل الـفني» الذي أعقب رواية «السنوات» - (والتي أصبحت من أفضل المبيعات بأميركا الشمالية -، بسعي ليونارد لإفساد ثقة فرجينيا بنفسها. مثل هذه التكهنات تبدو خبيثة بالنسبة لي، تدَّعي فيليس أن ليس من غير الطبيعي لسياسي رفيع المستوى أن يجد السلم ومناهضة الحرب موضوعيًا في العمل العبقري (ثلاثة عباقرة سذج) توحي بأنه ربما «اضطهد من جانب ميزان الحقائق والحجج» لإن المفترض أن فرجينيا «مسؤولة ماليًا». وفقًا لفيليس فإن ليونارد أخبرها: «ألا تكدح من أجل المضجر روجر»، يعني سيرة روجر فراي التي أخذتها على عاتقها. وكانت فيليس قد وجدت في آخر رواية نشرت لفرجينيا «بين الفصول» تظهر نموذجًا لفرجينيا وليونارد» كمخلوقين حُبسا في حرب أبدية».

كتب جون ليمان الذي كان على معرفة بالزوجين وولف، وعمل كشريك في مطبعة هوغارث، ينكر ادعاء فيليس غورسكوث: «أشعر أن علي الاحتجاج بعنف ضد الإساءة المبطنة ضد ليونارد وولف، والتي قفز بها إلي بيان غورسكورث معارضًا لتلميحاتها، وأبقى ليمان على ما هو واضحًا بقوله: كانت رفاهية زوجته أحد ركائز اهتماماته»[1]. (انتهى مجلدي سيرة فرجينيا بانتحارها). كانت فيليس شجاعة أمام ليمان، وقامت بالرد في الأسبوع الذي تلاه، تقول: «ثقل رؤيتي كانت محاولة للتساؤل عن الاعتقاد الشائع بأن ليونارد كان زوجًا صالحًا. مؤكدٌ أنني سأتعمق حول ذلك، هل يمكن أن أكون قد طرحت أن معاملة ليونارد لزوجته قد عجَّلت بوفاتها؟»[2]. بعد أسبوعين كتب كوينتن بيل لملحق التايمز الأدبي يعارض فكرة فيليس المحورية في سياق تعاملها مع «حجم المراسلات والتي تراجعها ظاهريًا»[3]، بعد ذلك قام نايجل نيكلسون بتبسيط المسألة، وأوضح إنه لم يكن هناك أسس موثقة، أيًا ما كان ادعاء نميمة القرية التي اعتمدت عليه فيليس[4]. ذكرت «ليّ» في آخر ملاحظة في كتابها الضخم أن: «بعض نقاد ليونارد وولف» ألمحوا أن ليونارد «ربما

(1) John Lehmann, **Times Literary Supplement**, Nov.7, 1980. If the reader needs a professional psychiatrist's judgment, see Peter Dally, The Marriage of Heaven and Hell: **Manic Depression and the Life of Virginia Woolf** (New York: St. Martin's Press, 1999).

(2) Phyllis Grosskurth, **Times Literary Supplement**, Nov. 14, 1980.

(3) Cultural Foundations of Quentin Bell, **Times Literary Supplement**, Nov. 28, 1980. p.62 Political Psychology.

(4) Nigel Nicolson, **Times Literary Supplement**, Jan. 23, 1981.

كان بطريقة ما، مسؤولًا عن انتحارها»[1]. في عام 2001م ظهر كتاب: «من الذي يخاف من ليونارد وولف؟»[2]، يقترح بين مزيد من مزاعم أخرى أنه ربما قتلها، استشهادًا برؤية فيليس، دون عودة لمراجع المعارضات المنشورة عن هذا التساؤل برمته.

إن الطريقة التي حول بها الأكاديميون صلاح ليونارد كزوج إلى شيء مختلف تمامًا عما يتصوره أي شخص يعرفهم، دعتني للشك برواية ليّ (والآخرين أيضًا) عن طبيعة صعوبات فرجينيا النفسية. من المحتمل أنها أدرجت فصل «الجنون» بأكمله، بعلاماته الاستفهامية، بقصد أن تصفه أو تضعه داخل وجهة نظرها. هذا الفصل الذي كتبته ليّ بدأ بطريقة غير لائقة (أو هكذا رأيتها)، «لقد كانت فرجينيا امرأة سليمة العقل، أصيبت بمرض نفسي»[3]. ولكن يمكن أن تكون هذه دلالة على أن مرض فرجينيا لم يكن مرضًا يشبه الحساسية أو التهاب المفاصل، بل مرضًا مهددًا لخسارة عقلها وبتكراره أصاب الهدف. لم يكن استخدام «ليّ» لمصطلحات جديدة مثل: «اضطراب ثنائي القطب»[4] تعليلًا يناسب الطريقة التي كان يتغذى عليها هذا المرض ويطغى على إبداعها[5].

بوصفها بـ «امرأة عاقلة، أصيبت بمرض نفسي» يفترض أن ما يُسمى بالصحة العقلية كان قد اتكأ دومًا على خدمات ليونارد الوفي. لقد بلغت محاولة الانتحار، الهلوسة، الصداع، وفقدان الشهية وما إلى ذلك، مبلغًا كبيرًا عند ليونارد، وبعبارة لي: « جعل مرض فرجينيا من أولويات حياته العملية».

كانت استجابة فرجينيا لـ «ضغط إنهاء كتاب» استجابة سيئة، ولم تربطها لي بحساسية فرجينيا العامة للخسارات. ولم تربط أيضًا تلك المآسي المتكررة بانهيارها بعد وفاة والدتها. كما ظهر ليونارد في سيرته بعيدًا عن الجانب النفسي حول انهيارات فرجينيا. ومن غير المنطقي أن تتفق ليّ بأي شكل من الأشكال على أن ليونارد كان «متورطًا بإجراءات

(1) Lee, **Virginia Woolf**, p. 861.

(2) Irene Coates, **Who's Afraid of Leonard Woolf?** (New York: Soho Press, 2001). An interested reader should also consult Natalie Rosenfeld, Outsiders Together: Virginia and Leonard Woolf (New York: Princeton University Press, 2000).

(3) Lee, **Virginia Woolf**, p. 171.

(4) Ibid, p. 172.

(5) Ibid, p. 174.

ظالمة مع أطباء فرجينيا»[1]. اللغز الحقيقي هو كيف تسنى لليونارد أن ينجح مع ما تحمله من مصاعب زوجته، وما دبره من علاج طبي، كما كان ينتظر منه. بالطبع فإن كل التخمينات أُدركت بوقت متأخر، لكن تحت كافة الظروف، بدا لي من غير الملائم أن توصف فرجينيا «بامرأة سليمة العقل، أصيبت بمرض نفسي». كانت فرجينيا محقة حول تحفظها تمامًا مثل ليونارد، حول تأثير علاج التحليل النفسي عليها. نقدها الذي وجهته حول المنهج الفرويدي في فهم الأدب القصصي حمل لمحة ذكاء، كاعتراضها حول تحويل «كافة الشخصيات» إلى «حالات مرضية». وفوق كل ذلك ربما يكون هذا نظامًا فكريًا جديدًا فطن له الزوجان، «تبسيط بدلًا من تعقيد، وإحجام بدلًا من تضخيم»،[2] حول من يمكنه أن يساعدها أكثر مما يفترض من المختصين. وربما يشكك محلل رفيع آنذاك في اللجوء لعلاج التحليل النفسي لشخص غير مستقر كفرجينيا وولف.

كان هناك فصل كامل مكرسًا لما سمته «ليّ»: «الانتهاكات» باستثناء أنه لم يكن هناك أقواس حول العنوان. بينما ظهرت لي متشككة حول تساؤلها عن «الجنون»، إلا أنها بدت ساذجة جدًا في موضوعها عن الانتهاك، ويبدو أن المشكلة بدأت حول تقرير كتبه كوينتن بيل عن فرجينيا:

فنيسا وصلت للإيمان بأن جورج بنفسه كان أكثر من غير واع بحقيقة أن ما بدأ بتعاطف نقي، انتهى ليصبح مناوشة جنسية بذيئة. كان هناك ملامسات وملاطفات في مكان عام حينما كانت فرجينيا في محاضراتها، وقاد ذلك لما هو أعمق، ولا أعلم ما كان ذلك العمق، وبإعجاب الشقيق المولع به، انتقل جورج بسهولة من الجامعة إلى المبيت ليلًا[3].

لكن هذا المبرر أعتقد أنه مشبوه، بالنظر للأدلة الأولية نجد أن فرجينيا كتبت لفنيسا عام 1911م عن صديق مشترك:

لديها رغبة ساكنة للمضاجعة.. مما يقودنا لكشف كافة آثام جورج، يا لدهشتي، لطالما كانت تضمر كرهًا شديدًا له، كانت تقول له: «أوه، أيها المخلوق البذيء».

---

(1) op. ct. p. 185.

(2) op. ct. p.193.

(3) op. ct. p. 43.

عندما يبدأ بملاطفتي. عندما وصلت لغرفة النوم أخرجت دانتيلًا خاصًا بها، ولهثت مثل مُغوية معطاءة. بحلول وقت النوم، شعرت بالتعب، وذهبت للمرحاض حيث لم يكن هناك ماء.

تذهب الرسالة لإشارات أخرى جنسية وتنتهي باحتمال أن أدريان شقيق فرجينيا قد أغوي من قبل صديقهم دانكن غرانت، «أتصور أنها ستكون عربدة عظيمة على النهر هذه الليلة»[1].

قد يري البعض أن بلومزبري أعضاء يزخرفون مبالغاتهم، وهذا ما يصعب تتبعه. ظهرت سعادتهم باستخدام مصطلح: «مضاجعة» كطريقة لصدم بعضهم البعض، وليس بالضرورة أن تعني كما نتصوره جماعًا حقيقيًا. عندما كتبت فرجينيا عن مداعبة جورج لها أمام العامة، ربما عنت أنه يبرهن على تودده وتلطفه. ولم تبرهن على أنه كان مذنبًا لأنه انتهك أدريان بأي إغراءات كانت، ولم تُشر لما نفكر به كـ «عربدة عظيمة» بأنها قد جرت مجرى انتهاك.

أبقت «ليّ» على أن «المحتوى كاملًا يعرض جنسًا صريحًا بموافقة فينسا ولهوها»[2]. لكني أظن أن كل شيء يجب أن يوضع بمنظور قطعي للغة التي كانت تستخدم آنذاك. جميع كلماتهم يجب أن تترجم على ذلك الزمن. ولو كان جورج «مغوي المحارم» فماذا عن دانكن غرانت؟ والحقيقة أن كلاهما لم يكونا مغويين بالمعنى الذي نستخدمه في العصر الحديث. بقيت فرجينيا وشقيقتها على إعجاب بجورج (والذي كان شاهدًا على زواج فنيسا، وأصبح أول ناشر لكتب فرجينيا وولف)، وحين توفي عام 1934م تحدثت الشقيقتان عنه بنحو إيجابي. عام 1904م كانت هناك رسالة من فنيسا لفرجينيا تقول فيها: «داعبني جورج واحتضنني أمام الشركة، ولكن كان هذا هو المتوقع».[3] مصطلح « المداعبة» يجب أن يعامل بحذر هنا، لم تكن فنيسا باستخدامها لمصطلح: «المضاجعة» أي تحرك منها أو من جورج تجاه عورات بعضهم البعض، ولم يعرب أحد في الأدب عن دهشته بأن فنيسا لم تنشأ مع شقيقتها ومصاعبها النفسية. عندما قدمت فرجينيا مذكرات سيرتها الذاتية «مدخل الهايد بارك Hayed Park Gate» قبل « نادي الذكريات Memoir Club» لم تقدم جورج على أنه متهم بكونه «عشيقًا» لها ولفنيسا[4]. بدا أن لي كانت خرقاء للغاية في تعاملها مع هذه

(1) Lee, **Virginia Woolf**, pp. 153 _ 54.

(2) op. ct. p 154.

(3) op. ct. p 155

(4) Virginia Woolf, **Moments of Being**, p. 177.

المادة «لا توجد وسيلة نعرف بها ما إذا كانت فرجينيا ستيفن ـ اسمها قبل الزواج ـ المراهقة مورس عليها ضغطًا جنسيًا أو استخدمت ضدها قوة لممارسة جنس فموي»[1].

البعض الآخر كان أكثر تطرفًا من لي في مسألة إخوتها غير الأشقاء. تقتبس لي من نص من عمل فرجينيا 1939م «ملامح من الماضي Sketches of the Past» التي ينغمس فيها الأخ غير الشقيق جيرالد فيما دعته «ليّ» بـ «الاعتداء الجنسي... في مرحلة الطفولة المبكرة»[2]. (وكان جيرالد أكبر من فرجينيا باثني عشر سنة، أما جورج فكان أكبر بأربعة عشر عامًا): تروي:

كان هناك لوح خارج باب غرفة الطعام، لوح تُسند عليه الأطباق. كنت صغيرة جدًا عندما رفعني جيرالد داكويرث على هذا اللوح، وبدأ باستكشاف جسدي. أتذكر إحساسي بيده تذهب بثبات وحزم للأسفل ثم الأسفل. أتذكر أنني تمنّيت أن يتوقف، تصلبت وتلويت عندما اقتربت يده لمنطقتي الخاصة. لكنه لم يتوقف، وصلت يده حتى هذه المنطقة. أتذكر امتعاضي وكراهيتي لذلك، ما هي الكلمة التي تصف الخرس والمشاعر المختلطة؟ يبدو أن ذلك أمرًا قويًا لأنني ما زلت أتذكره. شعوري بأن هناك أجزاء معينة من الجسم، لا يجب لمسها، ومن الخطأ السماح بلمسها بدا شعورًا غريزيًا[3].

في اعتقادي، يجب أن يعالج هذا المقطع بحذر. ما لمقصود بـ «استكشاف» جيرالد «لمنطقتها الخاصة» قد تحتاج «ليّ» أيضًا أن تضعها في نوع من السياق اللغوي، وهذا ما لم تفعله «ليّ» أبدًا. واقتبست مع ذلك رد فعل جون ماينارد كينز عام 1921م على مذكراتها، بقوله: إن أفضل ما كتبت كان «ذكريات جورج، وأن عليها أن تتظاهر بالكتابة عن أناس حقيقين وتلفق كل شيء»[4].

أظهرت لي شكوكًا حول حادثة جورج وكيفية فهمها، مثل قولها: «لقد تم وصفه كفعل مهدد لحياتها، أدَّى لحزن بالغ وبرود جنسي قادها للجنون» جاعلة فرجينيا كـ «ناجية من زنا المحارم»[5].

(1) Lee, **Virginia Woolf**, p. 156.

(2) Ibid, p. 123.

(3) Virginia Woolf, **Moments of Being**, p. 69. Cf. also Lee, **Virginia Woolf**, p.123.

(4) Lee, **Virginia Woolf**, p.153.

(5) Ibid., p. 123, 124.

وصفت لي لمسات جيرالد كطفل صغير، «ربما تبدو، انتهاكات جنسية»[1]. وتعتقد أن «قصة جورج ونشاطاته الجنسية كانت أكثر ضررًا من ذلك بكثير»[2] كان كوينتين بيل جريئًا بما يكفي ليبقي على أن «فرجينيا شعرت بأن جورج أفسد حياتها قبل أن تبدأ». كانت فرجينيا خجولة بصورة طبيعية في المسائل الجنسية، منذ ذلك الحين كانت مرتعبة ومتجمدة بصورة دفاعية»[3]. وعارض نايجل نيكلسون مدعيًا أن فرجينيا «بالغت في استعادة الموقف»[4].

كاتب سيرة إ.م فورستر، الذي يكبر فرجينيا ببضع سنوات، روى مواجهة جنسية حقيقية لفورستر عندما كان صبيًا صغيرًا خاضها مع غريب. علق ب.ن فربانك بحذر: «إنها قصة مثيرة للاهتمام وأعتقد أن لها أهمية في تطوره لاحقًا»[5]. وهذا لا يشبه ما حدث لفرجينيا، بربط حادثة بصدمة مبكرة في حياتها. قد يعتقد أحدهم أن الأثر الارتجاعي لدى البالغين لأحداث حصلت في طفولتهم أمر مقبول، والتي يجدونها لسبب أو لآخر حدثًا عظيمًا في حياتهم. وليس بأمر جديد أننا نقمع ذكريات لا تخدم احتياجات لاحقة.

كانت سيرة ليّ الضخمة مثيرة للاهتمام، حملتني لقراءتها عدة أيام متواصلة، وبمجرد أن بدأت بها وجدت نفسي معلّقًا حتى انتهيت منها. منذ ذلك الحين انشغلت بقراءة أعمال وولف، ومثلما كانت لدي ردة فعل لسيرة هولرويد حول ستراتشي، قادتني لقراءة كل أعماله التي وقعت بين يدي. ومع ذلك، قادني لقائي الوجيز بليونارد وولف للتشكيك بتفسير «ليّ» لزواج آل وولف، وتجاسرت لأكون ناقدًا حلَّ ما أدخل في حياة فرجينيا من السفاسف من قبل النقّاد الأدبيين. يجب إعادة النظر بعناية فيما تعرضت له من مصاعب نفسية، و«انتهاك» من قبل إخوتها، لكن إذا كانت السير الذاتية مشجعة لقراءة أعمال الأديب، ربما كان ذلك أفضل المأمول. من الحتمي أن تعكس شخصياتنا في الماضي فهمنا الحاضر للعلاقات بين الجنسين. من الجيد أن نخطو إلى الوراء قليلًا، ونفكّر بكليشيهات الحاضر، التي ذهبت أبعد مما يجب، عن الاعتداءات، وتأثير اعتداء الإخوة والأزواج.

كل حياة عظيمة تصبح معيارًا معاصرًا بالنسبة لنا. لكن المعركة القديمة بين الجنسين

---

(1) op. ct. p. 123.

(2) op. ct. p. 124.

(3) Bell, **Virginia Woolf**, Vol. I, p.44.

(4) Lee, **Virginia Woolf**, p. 777.

(5) P. N. Furbank, E. M. Forster: **A Life**, Vol. I (New York: Harcourt Brace, 1977), p.37.

تحتاج للتحطيم قليلًا من قبل الأزواج والإخوة. عانت فرجينيا وولف كما يجدر بأي عبقري، بسبب حساسيتها العالية التي لا تشبه ما نعيشه في الحياة اليومية. أشعر أنني حازم في دفاعي عن ليونارد، ولكن بالتفكير بذلك الزواج، كنت جريئًا بإظهار إخوتها غير الأشقاء. أعتقد أن الأدب حاليًا يظهر نوعًا من الشك حول تحيز المتحدثين لاتحاد الجنس اللطيف، الذين رغبوا بإظهار فرجينيا بطلة معنفة. أعترف أن ردَّة فعلي الفورية لعمل فرجينيا «إلى المنارة - To the lighthouse» بأنها كانت غير عادلة وبقسوة في تصويرها لوالدها، ظهرت بعد ذلك علامات حول ما تشترك به مع والدها. بدا من المزعج تصديق ما قالته فنيسا حول فرجينيا ولأكثر من مرة، «دائمًا ما تأخذ، دون أن تعطي»[1] علّق كليف بيل زوج فنيسا حول عمل «رحلة للخارج» بقوله إن الشخصيات الذكورية كانت غير جذابة:

> **من دون شك أن رؤيتنا حول الرجال والنساء مختلفة تمامًا، لكن هذا الاختلاف غير مهم. ولكن رسم مثل هذه التناقضات الحادة بين امرأة حساسة، لبقة، كريمة، مدركة بدقة، ثاقبة الفكر، وبين رجل بليد مبتذل، ومتورد وقح، فظ وغير لبق، مستبد بغباء. أعتقد أنه أدب مبتذل وليس سيئ فحسب[2].**

أظن أن فرجينيا استفادت من نقد كليف، ونسبت له مرة قولها: «أول شخص يعتقد أنني أكتب بشكل جيد»[3]. التحديات التي وجدتها في سيرة ليّ العظيمة وغيرها من أدبيات وولف، ربما عكست خللًا في أعمال وولف نفسها. أعظم الفنانين، مثل تولستوي في «آنا كارنينا» أبدى تعاطفًا مبدعًا برسمه للجنس المغاير. وأيضًا، ديكنز الذي قد يكون منجذبًا لميل عصره لتعظيم النساء والتي اعتبرت ضعفًا، لكنه انتصر، بصرف النظر عن نقاط ضعفه، وذلك لعالمية سحر العبارات التي كان يستخدمها. لكن وولف رسخت سهوًا أسلوبًا معينًا نحو الرجال، والذي ربما كان خلف نواياها الواعية. لكن كل تلك التعليقات حول ليونارد وفرجينيا وولف، عنونتها بمجرد «ملاحظات» إنذارًا لما ظهر بنحو بارز في المطبوعات.

تعمدت فرجينيا وولف أن تكون غير مفهومة للجيل اللاحق، ونجح دهاء وعبقرية تلك الكاتبة بأن تكون أنموذجًا لفرويدية غير ناضجة، لطالما احتقرتها. مؤلفة ذلك الجدل الفاخر

---

(1) Lee, **Virginia Woolf**, p. 214.

(2) Bell, **Virginia Woolf**, Vol. I, p. 209.

(3) Ibid, p. 212.

في (غرفة تخص المرء وحده) و(ثلاثة جنيهات) تدعم الحركات الاجتماعية التي قد تهدد إنجازاتها الأدبية، فسذاجتها السياسية تركتها عرضة للاستغلال من الراغبين بإظهار نماذج نسوية في إطار ضيق من الاحتجاج الاجتماعي. لقد انتحرت فرجينيا بسبب خوفها من الإصابة بالجنون، لكن كتَّاب سيرتها وضعوا الجنون بين قوسين، ورغبوا بأن يكون الانتهاك هو محور الحديث، فإذا لم يكن من الزوج الدنيء المستبد، فمن إخوتها غير الأشقاء، أو والدها، وربما مجتمعها. كان مصيرها هامًا بقدر أهمية أحد مقالاتها الساخرة، لكن ذلك سيكون هزليًا، وحين يعود الأمر لي، فإنني أرى أن قصتها مأساوية عظيمة، بقدر مأساوية حياتنا.

الفصل الرابع

التراجيديا الأميركية

إن الثقافات الوطنية أكثر قوة مما قد يظنّ أحدهم. ففي أواخر القرن التاسع عشر، كانت نقاشات الشخصية الوطنية مرتبطة بالمفكرين العنصريين. بحلول عام (1939 و1940م) أشاع أنتروبولوجيان ثقافيان هما مارغريت ميد وروث بينديكت، أهمية مفهوم الصفات الوطنية السائدة، لتشجيع تقدم الأهداف الاجتماعية. وسواء تساءلنا عن أهمية الشخصية الوطنية وإقرارها من قبل اليسار أو اليمين، تميل المجتمعات لرسم قيم ومعتقدات عظيمة سائدة، تضع خطًا تحت أي نظام سياسي أساسي. إن أميركا قديمة بما يكفي لاكتساب سمات اجتماعية متعمقة بجذورها بما يكفي لملاحظتها.

لخمس وثلاثين سنة مضت، اعتقدت أن من مهام المنح الدراسية، أن تشير إلى كافة التعليقات الوحشية التي أطلقها فرويد مرة عن أميركا، والتي نُقحت من رسائله المشهورة لأجل تقديم حركة التحليل النفسي للعالم الجديد. لاحقًا، بدا لي مشجعًا أن فرويد كان لديه أشياء مفزعة ليقولها عن البلد الوحيد الذي لاقت أعماله رواجًا إيجابيًا مقارنة بأي بلد في العالم. ومع ذلك، هبط فكر التحليل النفسي عند العامة ليكون بمنزلة تنظير من الطراز العتيق، عندما أسرت صناعة الأدوية النفسية مخيلة الأميركيين، وهنا أتساءل عمّا إذا كان لشكوك فرويد مصداقية حول ردة فعل العالم الجديد لأعماله.

ما من شك أن فرويد قد أثّر تأثيرًا واسعًا على الثقافة الأميركية ككل. المعرض الذي أُرسي له من قبل مكتبة الكونجرس، يرسل الآن لمدن مختلفة، وربما لم يعد لديه الكثير ليضاف للحياة الفكرية، لكنه يعدُّ إثباتًا للنجاح الذي حظي به التحليل النفسي على مستوى الثقافة الشعبية، مثل الأفلام الكرتونية، والمسلسلات التلفزيونية. عرض ألفريد هيتشكوك، في فيلم «المتيَّم ـ Spellbound» حبكة شهيرة عن فقدان الذاكرة، حدثت عقب جريمة مؤلمة توقظ

مشاعر ذنب قديمة، يصبح مسلسل: «الحلم المذهل» مفتاحًا لحل اللغز الخفي، والذي باكتشافه يتحرر البطل لينصرف عن طبيبته النفسية أنغريد بيرغمان.

هذه النسخة الهوليودية الساحرة من أعمال التحرّي، تشبه علاج التحليل النفسي، نوع العلاج الذي يشعر الأميركيون أنهم في منازلهم. لكن هذه الصورة السطحية لأعمال فرويد كانت أكثر تناغمًا مع طوباوية الأميركيين التقليدية عن أي مقصد كان في ذهن مؤسس التحليل النفسي. في طليعة عقد 1890م قام فرويد باقتراح كلمات مشهورة جاءت في نهاية كتابه: «دراسات حول الهستيريا ـ Studies on Hysteria» لينجح في «تحويل الهستيريا البائسة إلى تعاسة اعتيادية»[1]. تجدر الإشارة إلى أنه كان يحمل مجرد أهداف محدودة نسبيًا في مستهل مهنته العلاجية، وبحلول الثلاثينات كان أكثر حذرًا تجاه «التحليل النهائي واللانهائي» لما يمكن إنجازه علاجيًا. كانت ردة فعل الأميركيين نحو فرويد مبنية على تقاليد التحسينية(*) والأمل بإمكانية التغيير.

منذ البدء، كان للمُثل الأميركية مقاصد مضادة لحقائق التاريخ. وقد كفل لهم إعلان الاستقلال الذي أعلنه توماس جيفرسون أهداف «الحياة، الحرية، السعي للسعادة». كما شدد المؤرخون أواخر القرن الثامن عشر، بأن أميركا لم تكن ببساطة منتجًا للمقاصد العقلانية التي وُضعت من قبل الآباء المؤسسين، أميركا هي التي قررت الانفصال عن العرش البريطاني في البرلمان قبل أكثر من قرن ونصف، لتبني تأسيسها الخاص. كان المستعمرون في ذلك الوقت يحاولون إعادة تجديد شرعية المؤسسات القديمة التي أنشئت في أميركا، لذلك كانت الثورة الأميركية في جزء منها تمردية محافظة ضد محاولات التجديد التطفلية من بريطانيا. عندما عاد الأميركيون لجيفرسون ليعبروا عن مقاصدهم العليا، قام بوضعها بناء على مجد الثالوث المقدس «الحياة، الحرية، والسعي للسعادة». ربما بنت أميركا مقاومتها لبريطانيا من نزاع شرعية الأهداف، وكيف أصبح جورج الثالث مستبدًا، لكن المُثل بذاتها شُرحت كمجموعة متماسكة ومتسقة لأغراض أخلاقية.

أؤمن أن مثل هذه المثالية أمر مهم تاريخيًا. فإذا قارن أحد على سبيل المثال: إعلان الاستقلال ومساعيه الثلاثة الواضحة، مع قانون الشمال الأميركي البريطاني، ووثيقة

(1) Studies on Hysteria, **«Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund»** Freud, ed. James Strachey (London, Hogarth Press, 1953 _ 1974), Vol. 2, p.305.

(*) مذهب يؤمن بالتغيير عبر جهود فردية.

التأسيس الكندي الأصلية، سيجد المرء وطنًا متخيلًا يهدف لنيل «السلام، النظام، والحكومة الصالحة». يذهب هذا التباين بين هذه الأهداف وبين التي أعلنها جيفرسون بعيدًا ليرسم بعضًا من اختلاف الميزات الرئيسة حتى اليوم بين أميركا وكندا كنظام سياسي. لم يستمتع الكنديون على سبيل المثال بأي شيء من الحريات المدنية التي اعتادت أميركا عليها منذ نشأتها. في واقع الأمر، أوامر المساعدة التي كان المستعمر الأميركي يلوم البريطانيين عليها، كانت شرعية في كندا حتى إعادة الدستور الكندي مؤخرًا. بدا استدعاء رئيس الوزراء ترودو لقانون تدابير الحرب ضد ثلَّة من الانفصاليين «الكيبيك» مثل كابوس لكافة المتحررين المدنيين. لأميركا كل الحق بأن تفخر بالحرية المستقرة نسبيًا، والتي كفلها الآباء المؤسسون لها.

لكن معيار «الحياة، الحرية، والسعي للسعادة» ترك لنا شيئًا لنرغب به. يكمن هناك بشكل ضمني في أجندة جيفرسون، مستقبل مريب لأسلوب صناعة القيم لتتواءم مع بعضها. إن أميركا مؤمنة بإمكانية السعي لكل الأشياء الجيدة في الوقت عينه، لتتمكن من تحصيل القيم الحياتية معًا. لذلك وضعت معيارًا موجزًا، دون قبول لحتمية المأساة والطريقة التي تتصارع فيها القيم مع بعضها البعض. كان لدى فرويد علم في هذا الشأن، بما أنه كان نموذجًا فاخرًا لثقافة العالم القديم التي تمسكت بتنافر المُثل مع بعضها البعض. كان كتابه: «قلق الحضارة ـ Civilization and Discontents» الشاهد الأخير لإيمانه بأن الإنسان لا يمكن أن يحصل على الحلوّ والمرِّ معًا! كانت رسالته هنا محبطة جدًا لدرجة أن الكثير لم يرغب باستيعاب ما يحاول قوله. لقد اعتقد أن جنسانية الإنسان في صراع مع ذاتها، إذ حتى تصرف الفعل الجنسي غير مُرضٍ في حد ذاته.

أميركا دولة لم تخسر حربًا أبدًا، ولم يعرف أحد تجربة كونها تحت الاحتلال من قبل قوى أجنبية. بناء على ذلك فحضور البشر، كان إلى حدٍّ كبير نتيجة لتخطيط سيئ فاشل. إن تحررنا التقليدي بُني على فكرة أن وجود مؤسسات سياسية اجتماعية مشيدة بدقة أمر ممكن، لدرجة أنها توازن وتنتقد بعضها البعض بطريقة تحييد الشر. جيمس ماديسون على سبيل المثال: إعتقد أن الطموح يمكن أن يصنع ليعطل الطموح بطريقة سياسية ذكية، عبر السماح للقوى الاجتماعية البنَّاءة أن تعمل عملها بشكل جيد. ويمكن للإبداع أن ينجح فرضيًا بهندسة نظام يسمح لفردانية الإنسان أن تزدهر دون عوائق، ويفترض أن يتم ذلك بأسلوب متناغم. هذه المجموعة من المعتقدات متجذرة بعمق، لدرجة أن الأميركيين نقلوها لمشاريعهم الدولية.

كانت الحرب العالمية الأولى حربًا يفترض أن تنهي كل الحروب. قد يبدو تأسيس الأمم المتحدة بديلًا عالميًا للتوازن القديم لقوة السياسة الخارجية، لقد صدقت أميركا أن هذه المُثل يمكن أن تحكم قواتها الأجنبية، عوضًا عن المصلحة الوطنية الشخصية. لا أستطيع استحضار أي قوة عظمى استخدمت معنويًا سياسة عدم الاعتراف بالأنظمة الأجنبية من أجل تعزيز سياستها الشخصية. لعدة سنوات سعت لجنة مجلس النواب لأنشطة غير الأميركيين للكشف عن المخربين الداخليين الذين يعملون لصالح الحكومات الأجنبية. هدف البوريتاني(*) القديم من خلق منارة على التل في أميركا في القرن السابع عشر، استمر في السيطرة على علاقاتنا مع بقية العالم.[1]

عانى الجنوب الأميركي من هزيمة حتمية في دفاعه عن طريقة حياته المعنية. كان العبيد عيبًا مركزيًا في عمل الآباء المؤسسين، وحاولوا إنجاز المسألة من خلال تسوية أدت بالنهاية إلى فشل ذريع في الحرب الأهلية. حتى بعد هذا الصراع الدامي، تدبرت أميركا في الحال أمرها لتصنع أبطالًا قوميين خارجين عن المألوف، أبطالًا حاربوا في كلا الجانبين من الحرب. وليس بالأمر المفاجئ أن أغلب كتّاب الجنوب كانوا منشقين عن الكثير من القيم السائدة للحياة الأميركية.

«ويليام فوكنر» على سبيل المثال عرف أن قوة الماضي، ومجمل التصور المأساوي للحياة يمكن إيجاده في المفكرين الجنوبيين. الذين عرفوا أن حقيقة الفشل تنحصر في أديولوجية خاصة بهم تقدِّس شرعية حزب المحافظين، وبالعودة لجذورهم لديهم توماس جيفرسون إلى جانب حقيقة العبودية. لقد عرف الجنوبيون من البداية أن الأهداف والمُثل يمكن لها أن تتقاطع.

عَلِم الكتّاب الأميركيون الآخرون إلى جانب الجنوبيين قوة كل شيء، تلك القوة التي تتحدى ما سماه ويليام دين هاولس الجوانب «المبتسمة» للحياة. فقد شعر ميلفل بقوة السواداوية، ورغم أن أفضل أعماله لم تكن معروفة في القرن التاسع عشر، إلا إنه حاول أن يكتب عن أصعب جوانب الحياة. هوثورن أيضًا لاحظ كيف كان مستوى الحياة الأميركية مخادعًا. حتى مارك توين أعظم كاتب هزلي، خبِر دومًا أحلك الجوانب الحياتية، الذي

(*) البوريتانية أو التطهرية، هي مذهب مسيحي بروتستانتي. ظهر في إنكلترا معاديًا لحكم الملكة اليزابيث الأولى، وقد هاجرت مجموعة من البوريتانيين ما بين عامي (1630 ـ 1640م) إلى أميركا الشمالية أملًا بعالم جديد قائم على الاستناد على الكتاب المقدس، عرفت هذه الهجرة باسم: «الهجرة العظيمة».

أصبح نبي المرحلة الخطرة للإمبريالية الأميركية في القرن العشرين. دريزر مثال آخر تحدى جانب «النبلاء» من السياسيين الأميركيين. وكتب هيمنجواي أيضًا عن مركزية الهزيمة. كل فنان يقدِّر جانب المأساة في الحياة، لكن وفرتهم الهائلة في قارتنا خلقت نوعًا من التفاؤل، الذي بدا غريبًا لبقية العالم.

تماشت نظرة فرويد ذات البعد الواحد، مع الحياة الأميركية. فقد انغلق الأميركيون على التحليل النفسي لتفاؤله، ورأوا في فرويد أدوات جديدة للتغلب على معوقات الطفولة. لذا رحبوا بالتفكير الفرويدي كأسلوب جديد لإعادة بناء قابلية الإنسان للخطأ، وأن استبداد الطفولة يفترض أن يزول، ويمكن للماضي أن يكون أفضل، ويمكن للإنسانية أن تتحرر بنجاح من علل اللاوعي. (أعتقد أنني أعرف اسم المريض الأميركي، الذي من المفترض أن يصرفه فرويد بناء على عدم وجود لا وعي داخله).

يمكن اكتشاف بعض السمات المحرفة من الثقافات الأميركية، عبر أساليبنا المعتادة للردِّ على تعاليم فرويد. على سبيل المثال، تفاجأت النسويات الأميركيات من ميل النسويات في فرنسا إلى تجاهل الإسهامات الأميركية. مع أن قراءة الأميركيين لما قاله فرويد عن النساء كانت كالعادة من جانب واحد. حصل فرويد على الشجب بكونه مبغضًا للنساء، رغم ذلك، ناضل قبل الحرب العالمية الأولى من أجل الاعتراف بحق النساء داخل جمعية التحليل النفسي في فيينا. وبغضِّ النظر عن مكانة فرويد، صوتت نسبة كبيرة من أتباعه الشباب ضد السماح للنساء بإمساك مناصب عليا، وذلك بعد السماح للجميع بالإدلاء بآرائهم. بعد ذلك تجاهل فرويد معارضتهم، ومضى بالسماح للنساء بالدخول للجمعية. لا أعتقد أنه كان هناك أي مهنية في القرن العشرين، القرن الذي ذهبت فيه النساء قدمًا في مجال التحليل النفسي. ربما برزت النساء في التحليل النفسي خلال حياة فرويد أكثر من الوقت الحاضر. كان التقدم أحد المثل الأميركية التي لم يسهم بها فرويد.

أساءت النسوية الأميركية فهم فرويد ثقافيًا، فلم يكتفوا فقط بلومه دون وجه حق على مشاكلهم في تحقيق المساواة، ولكنهم لم يستطيعوا أيضًا متابعة فصول متقنة من منطق التحليل النفسي حول النساء. عندما كتبت امرأة مثل: «هيلين دويتش» عن الصراع الجوهري بين الأمومة والجنس كمشكلة خاصة لسيكولوجية الأنثى، اتهمها النسويات بالتشاؤم. الأميركيون بالنهاية غير متحمسون لمعرفة حتمية المعاناة، لأن تراثنا قد علمنا أن مُثلنا العليا قادرة على أن تكون إصلاحية. تجرأ فرويد على القول بأن الأنا الأعلى عند النساء تختلف

عنها في الرجال، أعتقد أنه كان يحاول أن يقول شيئًا عما اعتبره تفوقًا أصيلًا لحدس الأنثى وذوقها. لكن الأميركيون منعوا الفكرة الرئيسية عند فرويد، أي: أن الناس يملكون أجسادًا وبأن طبيعتنا الحيوية تعكس شيئًا أساسيًا عن أنفسنا. لكن الاختلافات ليست بالضرورة ملزمة لـ «اللامساواة». مع كل تلك الانتقادات، قاسى فرويد من أجل مقترح قلق الخصاء الأنثوي (حسد القضيب)، واقعيًا لم يفهم أيّ من نقَّاد النسوية أن نظرية فرويد للأنوثة قد صممت لتضع تطور النساء مرتكزًا على مساواة نظرية مع الرجال. إذا كان فرويد مخطئًا بشأنه (ضد القضيب عن النساء)، فهل يكون مخطئًا أيضًا بشأن دور الإخصاء عند الرجال؟. أُنتقد فرويد دون عدل بكونه مخطئًا بشأن النساء تحديدًا. لكن النظرة الفرويدية حول الرجال ربما تصدم الأميركيين لأنه كان ساخرًا بشكل مفرط، في ذهني الآن الفيلم الكلاسيكي «كابتن الجنة – The Captain›s Paradise» والبطل أليك غنيس حينما تكون خطته الأولى والمثلى في الحصول على نوعين مقدسين مختلفين من النساء، في حياة تتدنس بخليط كوميدي عجيب.

قال فرويد أمرًا عن حتمية المعاناة التي لم يُرد الأميركيون سماعها. لم يرغب القرَّاء بتشرب مفهومه عندما كتب عن الماسوشية، أو تمييزه بين تنوع الرجل والمرأة. فقد آمن بأن التحضر يستلزم درجة من الماسوشية، وكانت «عقدة أوديب»[*] بالنسبة له علامة إنجاز حضاري، والتافهون في هذا العالم هم من فشلوا بتطوير مشاعر أوديبية. لدى الأميركيين صعوبة ليس فقط في قبول استمرار المعاناة، بل حتى افتراض فرويد حول اللامساواة. فنحن لا نقبل بسرعة فكرة تقول بوجود أناس «تافهين» وجيدين أيضًا كما ظنّها فرويد. لقد قام بتأسيس تحدٍّ أساسي للمعتقدات المسيحية، لذا لم تكن هناك ضرورة لتعميم المساواة من جانبه. لا يريد الأميركيون قبول حقيقية الهرطقات الاجتماعية. ولا زلنا نتخيل أن الموهبة هي المعيار الوحيد للنجاح.[1]

جزء جديد من تاريخ التحليل النفسي الأميركي في القرن العشرين كان مرتبطًا بنمو سيكولوجية الأنا في منتصف القرن. وأعتقد أن ذلك كان بمجمله تطورًا منطقيًا داخل النظام الفرويدي. كان التحليل النفسي كما تركه فرويد بطبيعة سلبية، وكان لا بد من إنجاز شيء

(*) استوحى سيغموند فرويد هذا المفهوم من أسطورة أوديب الإغريقية، والتي تتلخص أن عرافًا قال لملك طيبة بأنه سيقتل بيده ابنه، في وقت كانت زوجته حاملًا، فلما ولدت أمر الملك بأن تدق المسامير في أقدامه، ويرمى فوق الجبل، ومن هنا جاء اسمه أوديب (صاحب الأقدام المتورمة)، ليعود بعد ذلك ليقتل أباه وهو لا يعرفه، ويتزوج أمه وهو لا يعرفها وينجب ابنة، وبعد معرفته تشنق أمه نفسها، وهو يفقأ عينيه ويغادر مع ابنته، وهذا المفهوم يدل على نقل أحاسيس الطفل الداخلية إلى الخارج من أفكار ومشاعر موجودة في عقله الباطن، وإنما مكبوتة تجاه أمه.

لإدخال مزيد من الإيجابية داخل النظام النظري كما كان حين وفاته. لكن تصحيح الخلل في التحليل النفسي يمكن أن يذهب بعيدًا ليخرج من كلمة المأساة بمعناها الأساسي. على سبيل المثال، هناك معنى واحد يقوله إريك أريكسون عن المأساة، وهي أنها نوع من التأخر في النمو. فمن الممكن أن تكون إنسانًا دون أن ترتدي نظارات وردية. عنى فرويد بمفهوم «عقدة أوديب» أن أي واحد منا ربما تورط حتميًا في وضع لا يقبله، وضع يشمل مجموعة من الحدود لما يمكننا تحقيقه. إن مفهوم اللاوعي بأكمله قد صمم للتأكيد على قلة مدى ما نعرفه عن أنفسنا في وعينا.

على العكس تمامًا من التوجه الأميركي الذي وضع امتيازًا لما تجنيه العقلانية. كان التحليل النفسي بأكمله مقبولًا كطريقة جديدة لتصحيح الأمور، لكن فرويد كان ينوي أن يدرّس نظامه السيكولوجي ضرورة خلق التسويات بين الاحتمالات المثلى، والخيارات التي تفرض التنازل عن فرص معينة. كانت النزعة الأميركية كبش فداء الكتَّاب أو المشاكل بكونها مصدر متاعبنا، كافتراضنا الضمني أن الاختلافات بين البشر لها جذور ثقافية عابرة فقط، وأن هذه الأنماط يمكن أن تتكيف وتتبدل لاتجاه أقوى. لكن فرويد عندما أبلغ مرة عن إحراق النازيين لكتبه، عكس الضوء على التقدم الذي أنجزناه عندما كنا بصدد إحراقه، لكن كتبه التي تدمرت فقط. هذا النوع من القسوة يجتذب الكثير لثقافة العالم القديم، ورغم ذلك، ربما اعتقد أحدهم أن النجاح الذي رافق التحليل النفسي في أميركا، قد عنى أن الأوروبي قادر على تغيير طريقة تفكيرنا. بصورة عامة، استمرت ثقافة أميركا الوطنية بالذهاب بطريقها الخاص دون استماع لما قام العالم القديم بتقديمه.

يقدر الأميركيون التعبير الذاتي العفوي، لذلك تخلصوا مما بدا من ازدواجية في الأخلاقية الأوروبية. تقريبًا كل ما قام هنري جيمس بكتابته مرة عن الصراع بين أوروبا وأميركا لايزال ساريًا. كان باستطاعة فرويد أن يكتب أشياء صادمة من منظور أميركي، ويرسل رسائل عن نفس الموضوع تناقض بعضها البعض، وكان بإمكانه أيضًا أن يمدح شخصًا أمام العامة، ويشتمه أمام آخر في السر. فقد ذكر ميلاني كلاين باستحسان متشكك، وعينه على أتباعه البريطانيين الذين لم يُرد خسارتهم. لايزال العالم الأوروبي الذي قِدِم منه فرويد بأكمله غريبًا عن أميركا. أعتقد أن هناك معنى صادقًا فيما حققه يعقوب لاكان «كعودة» صريحة لفرويد، وذلك عند إحياءه انعكاسًا متقنًا لالتزام فرويد بالنظرة المأساوية للحياة. لم تبدُ الحتمية الفعلية للصراع مفاجئة لتصور يعقوب لاكان، فقد تقاسم إلى جانب فرويد وجهة نظر أوروبية بقيت في خلاف مع وجهة النظر الأميركية على نحو مميز.

وجد الأميركيون صعوبة في تقبل وجهة نظر شكسبير. فمشاكل الملك لير ليست نتيجة سياسة اجتماعية سيئة نحو الهرم. لا يتورط روميو وجولييت بسبب وجود تنافس عائلي محلي، بل إنهم نجمة عشق متصلبة. «ماكبث» أيضًا ليس تفسيرًا لكابوس طموح سياسي ضال. أنطونيو وكليوباترا ليسا مخدوعين بأزمة منتصف العمر الشخصية. أوصلت لنا التراجيديا الشكسبيرية المستوى الأساسي الراسخ للفشل، والذي هو ثناء في الوقت نفسه لقابلية روح الإنسان على الانتصار على المحن. أشك أن فرويد علم بفنّ المسرح الياباني (كابوكي)، لكن هؤلاء المؤيدون يؤكدون إيمانه بوجود بعض المآزق الإنسانية العالمية تتجاوز كونها مجرد خلافات ثقافية.

كان فرويد وحيدًا محتقرًا، واعتمد الأميركيون على منعه، ليس لأنه اتخذ متعة خاصة في الشراب والكحول، لكن لأن ذلك بدا حلًا اجتماعيًا بسيطًا لنزعات الإنسان العنيدة. فنحن نميل للاعتقاد بأن الشر أمر يمكن نفيه. إذا وجد الشريكان صعوبة في الاستمرار معًا، نأتي بـ «الطلاق» السلمي ليحل المشكلة. على ما يبدو أن الطلاق لم يكن مشكلة أكبر من زحام مروري، والبعض الآخر بدا حكيمًا بإلقاءه اللوم على فرويد الذي أتى من عالم حيث الالتزامات أكثر جدية، والعلاقات بين الجنسين أكثر عقلانية، لكن الدعارة والخيانة أكثر تعذرًا داخل الحياة المتحضرة. عاودت هذه الأنواع من المشاكل الظهور على السطح العام، فقد حلَّ سكرتير حرب أميركي عظيم وحدة رمزية، مفترضًا أن السادة لا يقرأون رسائل بريد الآخرين. إن التجسس أمر شنيع قام به الآخرون ضدنا من بنديكت أرنولد إلى أليغر هيز، فالأميركيون لا يورطون أنفسهم في التجسس، لكننا نهتم بجمع المعلومات استخباراتيًا، وقد تستر عنا الكلمات حقيقة ما نعمل.

إذا فكر أحد بالحياة بوجود الاتحاد السوفياتي، يبدو لي من المعجز أن البشر لديهم القدرة على التعاطي مع الظروف الحياتية التي مروا بها. (الدكتور جيفاكو ـ Doctor Zhivago) رواية عظيمة للمؤلف بوريس باسترناك، لأنها تعاطت مع موضوع إمكانية معاناة النفس الإنسانية بصرف النظر عن الثورة، الحروب الأهلية، والستالينية. قاسى الناس في روسيا خلال ما مضى من هذا القرن من دائرة من الصراعات الاجتماعية المذهلة. كبر الأطفال في عالم حيث الخيانة، الخداع، البطولة هي حقائق الحياة اليومية. إذا كانت الأقنعة وازدواجية الأخلاق ضرورية للعبوة، فلتكن أكثر مثالية لتجربة الإنسان بالمجمل عما اقتنع

به الأميركيون. نحن ورثة محظوظون لقارة غنية، لم نواجه أي نوع من الخيارات الصعبة التي فرضت على الناس في الثقافات الأخرى. تجربتنا تعني أننا غير مُعدُّون للتعامل مع مآسي الحياة اليومية التي يعرفها غيرنا جيدًا. نحن نتكلم بلا توقف عن جريمة الهولوكوست، بينما نتحدث قليلًا عن أهوال يوغسلافيا القديمة، أو القبلية الأفريقية.

وبقينا «وطن الإله»، تركنا حظنا الجيد والعظيم اجتماعيًا واقتصاديًا غير مستعدين للتعاطف مع المحن التي يواجهها من هم أقل حظًا منا. حينما تتبدد حرب فيتنام من ذاكرتنا، ربما يريد البعض أن يعتبرها بطريقة ما، مجرد انحراف في صياغة السياسة الأميركية. لكن الروائي العظيم غراهام غرين في رواية (الأميركي الهادئ ـ Quiet American) يأسرنا في كتاب قصير بمزيج البراءة والسذاجة التي قد تقود إلى المصيبة في جنوب شرق آسيا. لقد شيّدنا نصبًا تذكاريًا لحرب فيتنام، اتضح أنه ذكرى لأنفسنا بدلًا ممن عانوا من سياستنا. على افتراض أن الرئيس ليندون جونسون كان يملك أهداف الصفقة الجديدة وتقديم التكنولوجيا الأميركية لذلك الجزء البعيد من العالم، لكن دون أي تفهم للاعتراضات الفيتنامية. بدأت أميركا من موقع قبول حتمية الخطيئة، احتجَّ غراهام غرين على ذلك بقوله: لِم يتكبد هؤلاء العناء وهم يعيشون في عالم يختلف عن عالمنا الخاص؟ لكن الأميركيون لم يألفوا قبول محدودية الذات. عندما كنت طالبًا خريجًا كانت المشكلة العيادية الأكثر شيوعًا لمن خضعوا للتحليل النفسي مع المرشحين المدربين في بوسطن، هي عدم القدرة على إكمال أطروحة الدكتوراه. أعتقد أن المرء قد يشكك في حجم ذكاء الأطباء الشباب بإجرائهم لتلك التحليلات عن الحياة الأكاديمية أو عن حقيقية ما يسمى بعرض ينوون علاجه.

لم يجد الأميركيون الأمر سهلًا في التحليل النفسي لكي يعترفوا بحدود إمكانيات تطوير الذات. فالفكرة الحالية أن تناول الحبوب يمكن أن يحل مشاكل المرء دون أي مراعاة للإنسانية، بيتر كرايمر[1] المقدم الوحيد الذي تعاطى مع محاسن ومساوئ الاعتماد على بعض الأدوية الجديدة، أيضًا ألدوز هكسلي تحدث في كتابه: «عالم ظريف ـ Brave New World) عن اعتماد الإنسان على الأدوية. لكن ليس من أدب يتناول حقيقة ما يحدث داخل الطب النفسي البيولوجي، أو متابعة لأحدث اعتداءات النهج التكنولوجي. قد يشك المرء بأن ذلك ما هو إلا إثبات آخر لما كان اللورد أكتون محقًا بشأنه، **السلطة مفسدة، وقد تنحى**

(1) See, for example, Peter D. Kramer, **Listening to Prozac** (New York: Viking Penguin, 1993.

بالمرء نحو فساد حتمي حينما تكون مُطلقة. وهناك عنصر سلطة في كل أشكال العلاج النفسي، لكننا نجهله.

حتى الأميركيون لم يجدوا قبول حتمية السياسة في علم النفس أمرًا سهلًا. كتاب ب. سكنر «والدن الثاني ـ Walden Two»[1] وسيكولوجية السلوك عامة، يمكن أن يرى كجهد لاستبدال الهندسة بالخيارات الأخلاقية، هذا النوع من السيكولوجية يمكن أن يرى جذابًا للأميركيين خاصة، لأنه يعرض استبدال العلم مقابل صنع القرار الأخلاقي.

في هذا النطاق، لم يتركنا فرويد مع إرث نفعي، فقد مال نحو اعتقاده بأنه قام بحل جميع المشاكل الفلسفية، باستبدال نوع محايد من العلم. وتظاهر بأن الأخلاق هي المعيار الوحيد الذي يحتاجه، وأن القيم الأخلاقية بديهية في النهاية. لذا عرض فصل علم النفس عن التفلسف، وفصل فهمنا عما نحن بصدد عمله وما حصل في الحقيقة. فكلما اكتشف شخص العمق النفسي، كلما اتضح تنازع الآراء المنافسة التي تسعى لحقيقة أفضلية للحياة[2]. وفي فراغ الفلسفة التي تبناها فرويد، أصبح التحليل النفسي نهاية أخلاقية غير معترف بها، ولا عجب أن النزاعات بين مختلف تلك المدارس كانت أمرًا مريرًا.

كان فرويد محقًا نوعًا ما، بقوله: ليس من السهل أن ينجح شخص في إقناع أي شخص بنقطة أخلاقية أخرى. لذلك، يجب أن تكون الأخلاق إلى حد ما قانونية. اعتاد القاضي هولمز على الحديث عن «عجزه عن المساعدة»[3] في الالتزامات الأخلاقية، لأنها كانت في الحضيض، لكنه بعد ذلك خدم في الحرب الأهلية في الجيش الشمالي. ولبقية حياته الطويلة شعر بألم العواقب الأخلاقية لكونه جنديًا في مهمة ضد زملاء سابقين، والذي لم يفهمه جيدًا لكنه آمن به. تغلغل الشك في رأسه، بسبب هذه التهم الأخلاقية، لافتقاره إلى الإيمان بما يبدو الآن سليمًا سياسيًا. لكن هذا التوجه الفكري للقاضي هولمز أصبح بعد ذلك توجهًا أوروبيًا وعالميًا، توجهًا ينفصل عن كثير من المعتقدات الأميركية المقبولة.

يمكن أن يخدم التحليل النفسي كوازع قوي لاتجاهات أميركية معينة ومألوفة. اُستخدم

---

(1) B. F. Skinner, **Walden Two** (New York: Macmillan, 1948).

(2) See Paul Roazen, **The Trauma of Freud: Controversies in Psychoanalysis**, op. cit.

(3) **The Mind and Faith of Mr. Justice Holmes**, ed. Max Lerner (New York: The Modern Library, 1943). See also Albert W. Alschuler, **Law Without Values: The Life, Work, and Legacy of Justice Holmes** (Chicago, University of Chicago, 2000).

نظام فرويد للأفكار في تقاليد وطنية مختلفة اليوم، والتي تتبع ما يحدث في إسهام عنصر شمولي لفكر أحد ما. يبدو أن (DSM-III) و(DSM-IV) مضحكة لبعض المحللين الأوروبيين المتعلمين، بعكس كتب «الاضطرابات الشاذة» التي جلبت القليل من النقد التشكيكي في أميركا. ولازال هناك القليل من النقاش حول ما يعني أن تكون «سويًا». يبدو لي بعض الأحيان أننا عدنا من حيث كنا مطلع القرن العشرين، حينما كان الموضوع المركزي يعتبر موروثًا والتشخيص سريًا. (تحدى يونغ مرة أن التشخيص لا يمكن إجراؤه إلا بعد استكمال العلاج). اعتاد فرويد على اقتباس مقولة هاملت: «هناك الكثير من الأمور في السماء والأرض يا هوراشيو، أكثر مما تحلم به فلسفتك». ربما ذهب التحليل النفسي في أميركا بعيدًا، وبذلك جذب الممارسين المهتمين بمواضيع أوروبا المركزية، والتي ألهمت المحللين السابقين. في ظنّي أن العمل العيادي يتطلب تعزيزًا، وذلك من خلال تقدير كل من المرضى والمحللين للجوانب المأساوية للوجود.

الفصل الخامس

إنكاونتر القديمة(*)

إن التاريخ الفكري يتيم أكاديميًا، بمعنى أن دراسة الأفكار القديمة لم تتبلور لتغري مدراء الجامعات الرفيعة. في أميركا تميل الكليّات على الأقل للرد على الأنماط الحديثة، مما يعني في الغالب دراسة الموضوعات التي تظهر منها الفائدة. في خضم الضغوط السياسية، أجد نفسي أحنُّ إلى تلك السنة التي قضيتها كطالب جامعي في كلية ماجدلين، أكسفورد عام (1959 ـ 1960م). كان من المعتاد هناك أن تدرس فقط التاريخ أو الأدب المؤرخ قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وسمعت أنهم بدأوا مؤخرًا بتسليط اهتمام على بداية الحرب العالمية الثانية. في ذلك الوقت، انبريت غضبًا على تلك الرجعية، خاصة وأن قسم الفلسفة في أكسفورد قادر على أن يعتدَّ بنفسه من خلال دراسة الكتَّاب المعاصرين. وإذا نظرت الآن لماضي تلك التجربة التعليمية، فهي تبدو لي نعيمًا باستقلالها وعزلتها عن العالم الخارجي.

على حدٍّ علمي، فإن تاريخ الأفكار ما هو إلا طريقة قانونية تصف محاولة فهم الحياة الفكرية في الماضي، لكن بناء ما يشكِّل تلك «الفكرة»، يمكن أن يكون موضع شك. لو انطلق المرء بدراسة فصل في دورات الأعمال، أنماط الطبقات الاجتماعية، أو السياسة النقدية، فإن هذه المواضيع تبدو واقعية، وقابلة للنقاش، بينما تميل الأفكار لأن تظهر خيالية، غير مدركة.

لو أن التاريخ الفكري لم يُعرف كمشروع أساسي، جزء منه ربما يبدو موضوعيًا جدًا ليستحق أن يكون أدبًا فريدًا. إن دراسة الأفكار تعني أن الدارس سيتقاطع مع العديد من القطاعات الأكاديمية، دون احترام حدود تلك المجالات التي أُسست على ذلك. فكل عالم

(*) العنوان لاسم مجلة بريطانية «Encounter» انقسم ظهورها إلى حقبتين: الأولى: الحقبة القديمة قبل فضيحة تمويلها من قبل وكالة المخابرات الأميركية، والثانية: الحقبة الجديدة ما بعد الإعلان عن هذه الفضيحة.

سياسي، اجتماعي، أو مؤرخ سيرعى بستانه ومرعاه الخاص. ومن المعروف أن الشخص يعتلي مهنيًا عبر الكتابة لجمهور قليل من نظراءه.

أودُّ أن أعرض هنا مثالًا لما أعتبره بمثابة تسليط للضوء على الحياة الفكرية وسط القرن العشرين. بالطبع من المبكر معرفة كيف ستنظر الأجيال اللاحقة لنا، لكنني أودُّ أن ألفت الانتباه لما حدث. ففي بداية عام 1953م أصبحت تصلني مجلة شهرية استثنائية من لندن (إنكلترا) تعرف بـ «إنكاونتر – Encounter». بدأ انتشارها بنصوص ملحوظة في وقت قصير. عام 1959م، طُبع (16،000) نسخة لكافة إصدارتها. ارتفع هذا العدد إلى(4،000) لكل نسخة في السنة التالية. بحلول تشرين الأول/ أكتوبر 1961م أُعيد طلب طباعتها، فطبع منها (7،000) نسخة أكثر من السنة السابقة. خريف 1966م، أصبحت مجلة «إنكاونتر» تصدر حوالي (40،000) نسخة لكل إصدار. عندما أُوقفت عام 1991م رأيت نعيًا واحدًا ملحوظًا من فرديناند ماونت، ثم من محرر Times Literary Supplement. كانت مقالة قصيرة ألمح فيها ماونت لإشعار بنهاية مجلة إنكاونتر، والذي مع الأسف غاب عني لأنها كانت تصدر من بريطانيا. كانت إنكاونتر مركزًا لكل المثقفين، وهنا أعني إنكاونتر القديمة أيام شبابي.

بصرف النظر عن تقليعاتي الكثيرة في الحياة، والتي لا يحضرني حتى تذكرها، كانت إحداها احتفاظي منذ بداية التسعينات بكافة نسخ إنكاونتر. تنعمت في ذلك الوقت بالعودة لأعداد قديمة، أفتش في مقالات معينة، وأنزع بعضها لأدرجها داخل ملف تصنيفات معينة شخصية، وكنت قد تفحصت كل إصدار في مجموعتي قبل أن أسمح لنفسي بالتخلص منها.

وصلت إنكاونتر لذروة تأسيسها عندما نشرت عددها المائة في كانون الثاني/ يناير 1962م. أشار كتَّاب مختلفون في منشورات أخرى لهذا الحدث، لكن لم يذكر أحد باسمه في الإصدار التالي لإنكاونتر، حتى في إعلانات الغلاف الخلفي للمجلة. يقول أحد العاملين في صحيفة الغارديان: «عندما يبيع مفكر بريطاني ما يقارب ثلاثين ألف نسخة شهريًا، فهذا حدث كبير، ظننا أنه انتهى بتراجع المراجعات الفيكتورية القيمة... والتي ناقشت أفكارًا وشؤونًا حالية بحيوية بالغة» وعلَّق كاتب في صحيفة: «Observer»: «لا أذكر أن هناك مكافئ لإنكاونتر وحضورها في العالم السياسي، الاجتماعي، والفني.. كانت ببساطة من أنجح المجلات برؤيتها وطابعها، حتى أنها تلزمك بقراءتها». كما أبرزت صحيفة: «The TLS»: «بنت مجلة إنكاونتر نفسها كأكثر المراجعات الشهرية المحفزة». وأيضًا: «New

Statesman» كتبت: «إنها مفاجأة مذهلة.. ربما أحيت حفلات كوكتيل نقاشية أكثر من المجلات الأخرى في عصرنا هذا». فقط صحيفة: «Toronto Daily Star» من أميركا الشمالية علَّقت: من بين كافة المجلات، أرى أن مجلة إنكاونتر كانت الأكثر فائدة. تجمع بين الأفق الواسع والجدية والمهنية الصحفية بأسلوب لا يتماشى مع أي توجه لأميركا. ربما هي المجلة الفكرية الضرورية لوقتنا الحالي».

خلال عدد كانون الثاني/ يناير 1962م سمح ستيفن لنفسه كمحرر أن يصدر بيانًا حول «إنجازات وأهداف» المجلة. يقول: إن إنكاونتر نجحت أكثر مما ينتظر منها، وإنه في الأصل كان يأمل بأن يبقي على (10،000) قارئ. لقد نقل تجربة مجلتين غائبتين «Criterion, Horizon» لإنكاونتر، واقتبس تصريح سيريل كونولي في العدد المئة من هورايزون ونشره في مجلة إنكاونتر:

> **لطالما اهتممنا بالأوضاع التي قد تؤثر على نوع الثقافة التي نعيشها. نحن نسعى إلى ملاحظة هذه الظروف المحيطة بالعالم، والتي قد تغير قيمنا. هذه التغيرات التي تحدد مصالحنا في التوتر الحاصل بين الشرق والغرب، بين الشعوب المتقدمة، والشعوب المنبثقة، بين القانون والفحش، بين ثقافتين مختلفتين، صراع الأفكار المتحررة وانحراف المعايير النقدية الإنجلو ـ أميركية والنقد الفرنسي، الفجوة الآسيوية والأفريقية مقارنة بأميركا وأوروبا، ومجموعة من المواضيع التي لامسناها.سياسيًا، حاولت إنكاونتر «أن توفر منصَّة لأكبر قدر ممكن من الخلاف داخل مساحة واسعة من الاتفاق».**
>
> **نتفق أن الديمقراطية في وضعنا الحالي توفر أسس حرية الفرد الملغاة عند الشيوعية والديكتاتوريات الأخرى، وعلى ذلك فهذه الحرية دفاعية ومحافظة... لو تحدثنا بصورة عامة، نحن موالين لأميركا وكذلك لبريطانيا لأننا ندعم الديمقراطية، لكننا ناقدون لأمور عديدة في أميركا تمامًا مثلما في إنكلترا.**

وحده كونور كروز أوبراين كان استثنائيًا، فلم يثق علنيًا بالميل السياسي المعين لإنكاونتر. كتب لصحيفة: «New Standard» في كانون الأول/ ديسمبر 1963م وانتقى مناهضة إنكاونتر للشيوعية، ليدّعي أن المجلة متسامحة في أميركا، وفي نفس الوقت تفرط بقسوتها على الاتحاد السوفياتي. لكن مع ذلك تسامح أوبراين مع ما رأى أنه: «أجندة إنكاونتر الموالية

للرأسمالية»، وعلّق أيضًا: «لقد حُررت ببراعة لا تقل عن أهميتها، كل عدد تقريبًا يحتوي على بعض الأعمال الفصلية الحسنة، معظم الأحيان ليست سياسية».

مقال أوبراين كان بمناسبة نشر كتاب يتألف من مختارات من المجلة. كانت الذكرى السنوية العاشرة لهذه المقتطفات، كتب السير دنيس بروغان مقدمة الكتاب، وظهر مع عدد إنكاونتر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1963م، العدد الذي أُهدي لدور مراجعات المفكرين بشكل عام. صنف بروغان إنكاونتر على أنها مجلة «رأي». وقد لعبت مثل هذه المنشورات (من صحف ومجلات) «دورًا عظيمًا في التاريخ الفكري لأوروبا لما يقارب مائتي عام». رغم أن بروغان استشهد بالقليل من الأمثلة المشهورة، بدا أن في ذهنه اسمًا رئيسًا: «أول مراجعة عظيمة حديثة لذلك النوع الذي تنتمي له إنكاونتر، كانت مراجعة إيدنبرغ». كانت مراجعات إنكاونتر من النوع «التقليدي، المحافظ، المبني على العرض والجدل. وصف بروغان إنكاونتر كعضو معارض ضد خيانة المثقفين، والذي أعطى أوبراين تحديدًا مفتاحًا لاتهام المجلة بكونها مذنبة بذلك النمط المعين من الخيانة[1]. أعاد أوبراين طباعة مراجعة مقالات New Statesman عام 1966م. لكن في ذلك الحين كانت New York Review of Books مطمئنة تمامًا، ثم ظهرت مؤسسة جديدة لرعاية المثقفين وخسرت بذلك إنكاونتر مكانتها الفريدة في الحقبة القديمة.

أول عدد حصلت عليه كان في تموز/ يوليو 1957م ابتعته صيفًا بـ 75 سنتًا، في السنة الأولى بهارفارد. عندما نظرت متأخرًا لأسماء المحررين، تفاجأت بأن سبيندر انضم عن طريق الرفيق كريستول. كانت تلك السنوات ساذجة بالنسبة لي، إذ المقالات هي الأهم بالنسبة لي، ولم آبه لأسماء المحررين. كان سبيندر شاعرًا وصاحب رسائل، لكنني فشلت حينها بربط اسم سبيندر بالروائيين والناشرين الذين شاركوا معه في كتابه: «الإله الذي فشل ـ God That Failed»،[2] العمل الذي كان له أبلغ التأثير في نفسي.

في عدد تشرين الثاني/ نوفمبر 1958م كان هناك تنويه باستقالة كريستول وعودته إلى نيويورك كمحرر لـ Reporter وقد نجح كمساعد تحرير لإنكاونتر عبر مالفين ج. لاسكي. أبقى كريستول على ظهوره الاجتماعي والسياسي، حتى بعد توقف Reporter لزمن طويل.

(1) See most recently Mark Lilla, **The Reckless Mind: Intellectuals in Politics** (New York: New York Review of Books, 2001).

(2) **The God That Failed**, ed. Richard Crossman (New York: Bantam, 1952).

كانت تصدر كل أسبوعين، وتميل للأحداث الحية أكثر من إنكاونتر، إضافة إلى أن مقالاتها كانت أقل شمولية.

عند بداية تعلقي بإنكاونتر، كانت المقالات والمراجعات في صحيفة: «The TLS» لا تزال غير موقَّعة. ولم أكن لأثق بحس المسؤولية لدى المراجعين المجهولين، بأن يحموا الكتب من ميل الكتَّاب الطبيعي لتسوية حسابات قديمة، خاصة في بريطانيا. بينما المراجعات في شمال أميركا تميل لأن تكون ملحقًا للنسخة الإعلانية. يمكن أن يكون البريطانيون مروعين بشكل مخيف لبعضهم البعض.

بالنظر لفهرس عدد تموز/ يوليو 1957م أتذكر ما الذي يمكن أن يتوقعه المرء من إنكاونتر في ذلك الحين. على سبيل المثال نشر و.هـ. أودين قصيدة ومراجعة لكتاب، جيمس بالدوين قام بنشر مقالة، وكانت هناك نشرة لألبير كامو وأخرى معبرة من هيربرت بترفيلد. أيضًا كتب ستيوارت هامبشير، ومورتن وايت في التاريخ الأميركي الفلسفي والبريطاني. وكان هناك مقال بواسطة ماري مكارثي «قضية آرثر ميلر». وآخر عبر ليونيل تريلنغ حول رواية إيما. وكان الأدباء متنوعون في الشأن السياسي، دوايت مكدونالد ربما كان له ظهور في كل إصدار تقريبًا، بينما كان دافيد ريزمان، و أ.ج تايلور ممثلين لليسار. في عدد تموز/ يونيو نشر هيو تريفور - روبر مقالة بعنوان: «ألفية أرنولد توينبي»، وربما كانت هجومًا جدليًا شهيرًا على توينبي (ولم يخرجه ذلك من إصدارات إنكاونتر التالية) كل ذلك كان عامل جذب انتباه للمجلة منذ البداية. احتوى عدد تموز/ يوليو على رسالة للمحرر من فيليب توينبي يدافع فيها عن والده. كانت الرسائل في إنكاونتر أكثر الأمور الملفتة في المجلة، فللرسائل حيوية باقية حتى الآن.

لاحظت لاحقًا على خلفية أول عدد اقتنيته للمجلة، كان هناك بيان نشره مارتن سيكر وفيربرغ، ليمتد في لندن لمجلس الحرية الثقافي في باريس. ينوّه القراء بأن: «كافة الآراء على صفحات إنكاونتر تخص الكتَّاب وليست مسؤولية الناشرين». حينها لم أكن أعلم أي شيء عن ناشر لندن أو منظمة باريس، التي كان رئيسها دنيس روغمنت، وسكرتيرها العام نيكولاس نابوكوف (ابن عم فلاديمير نابوكوف الذي لم يكن مشهورًا ككاتب ذلك الوقت). بعد ذلك بسنوات اكتشفت أن مجلس الحرية الثقافي قد أسس في حزيران/ يونيو 1950م في مؤتمر عقد قبل اندلاع الحرب الكورية، وضم مشاركين أسمائهم كالتالي: إيجازيو سيئون، أندريا مالرو، آرثر كرستلر، جون دو باسو، آرثر شلينزنجر الابن، جيمس ت.فاريل، كارسون

ماكلروس، تينسي وليامز، سيدني هوك، وجيمس بورنهام. وكان رؤساءه الفخريون ممن لمعت أسمائهم مثل: بينديتو كروتش، جون ديوي، كارل ياسبرز، جاك مارتيان، وبرتراند رسل.

عام 1958م كنت شغوفًا جدًا بإنكاونتر لدرجة احتفاظي بكل عدد لهذا العام. في خريف عام 1959م أذكر حديثًا عن إنكاونتر مع طالب استثنائي إنكليزي، في أكسفورد، ورغم كونه في حوالي الثامنة عشرة من العمر، إلا أنه استرسل في نبذة عن الاختلاف بين مراحل لودفيغ فيتغنشتاين المبكرة والوسطى والمتأخرة. حمل هذا الشاب ـ يعمل والده في مجلس وزراء العمال ـ مجموعة تشبه ما أحمله من معتقدات سياسية متباينة، واختلفنا في عدة نقاط. كان آيزنهاور في نهاية فترته الرئاسية، وشعرت بانعدام ولاء لوضع السياسة الأميركية في ذلك الوقت، لكنني كنت مصدومًا على نحو ما، عندما أخبرني ذلك الشاب الإنكليزي بأن المجلة الشهرية التي أُعجبت بها، كانت واجهة لوكالة المخابرات المركزية. كان في جعبة هذا الصديق غرائب سياسية كثيرة، فتصورت أن بإمكاني صرف النظر عن اتهامه لإنكاونتر بسهولة، ذلك الاتهام الذي أصبح حينها جزءًا مرعبًا من حياتي الفكرية.

من يلقي نظرة الآن على تلك الأعداد من إنكاونتر القديمة، سوف يتفاجأ بالجودة المذهلة لها. كان هناك لقاء مع سترافينسكي في عدد تموز/ يوليو 1957م. واصلت المجلة العمل عام 1958م بواسطة لزلي فدلر، جيمس آغي، بيرتلت بريخت، مايكل أوكشوت، جورج شتاينر، وريموند آرون. في السنوات التالية تباهت الإنكاونتر بمشاركين أمثال: جون كينيث غالبيرت، ريتشارد هوفستادر، فلاديمير نابوكوف، جورج كينان، إدموند ويلسون، ك.ب. سنو، تيد هيوز، ليونارد وولف، ك. ويدجود. ربما سيختار غيري مجموعة مختلفة من المشاهير على صفحات إنكاونتر، لكن لم تكن هناك مبادئ لدى التحرير في اختيار الكتَّاب سواء من اليمين أو اليسار، غير أنهم التزموا بإحياء فكري. (إذا وضعنا بالاعتبار أن انتباهي للشعر والرواية أقل مما يجب، وعليه فهذا الاختيار يعكس حدودي الخاصة أكثر من كونها للمجلة).

ربما بحثت أديولوجية إنكاونتر بشكل ساذج. فلم أكن لأرى أوبراين ينقلب ضد إنكاونتر عندما ظهر اسمها لأول مرة في New Statesman. أينما يعيش المرء لا بد من ضيق الأفق، ولم يكن هناك ممن أعرفهم على امتداد المحيط الأطلنطي يتلقى New Statesman بانتظام. ساعدت الحدود الجغرافية بشرح ماهية السعادة عند حصولي على عدد من إنكاونتر، إنه

لأسلوب رائع، بجعله الغلاف يبدو انتقائيًا، وتكتب الصفحات بحبر يليق بها يشبه حبر الكتب.

ظهرت ملحوظة رسمية في الغلاف الخلفي لعدد تموز/ يوليو 1964:

نشرت الصحافة البريطانية والعديد من الصحف الأوروبية والأميركية أنباء حول إعلان من محرري إنكاونتر والسيد سيبل كينغ رئيس شركة النشر العالمي. ولمزيد من الإحاطة ولمصلحة القراء، قمنا بطباعتها هنا بالأسفل. ونرغب بأن نجدد خالص الامتنان لمجلس الحرية الثقافي في باريس، فعطاءاته خلال هذه السنوات هي ما جعل تأسيس ودعم هذه الصحيفة أمرًا ممكنًا. لم تكن هناك لجنة رعاة سخية ومتنورة لتدرك بأن المجلات لا تنتج بواسطة لجان، بإمكان المحررين أن يذهبوا لطريقهم الخاص دون امتنان سوى لأنفسهم (وعاطفتهم فلسفتهم)، وبهذه الروح الاستقلالية نخطط للمضي قدمًا.

منذ ذلك الحين وصاعدًا أصبحت إنكاونتر تنشر عبر صحيفة: «ديلي ميرور»، والذي جعل «توسيع المجلة» أمرًا محتملًا. لم تعد إنكاونتر «مجلة صغيرة» بل «صحيفة عالمية بأربعة آلاف نشرة». وفقًا لما أطلقه البيان الصحفي الرسمي، أصبحت إنكاونتر تُدعم من مجلس الحرية الثقافي في باريس، والتي تأتي عطاياه من مؤسسات خاصة معظمها أميركية...».

كتب سبيندر ولاسكي:

عميق امتناننا للسيد كينغ على شروط دعمه السخية التي عرضها بردِّه على طلب معونة النشر. الإمكانيات الآن جيدة مع زيادة تأثير التوزيع والإدارة، وربما تكون إنكاونتر أول مجلة تقدم مراجعات رفيعة المستوى، لتكون مكتفية ذاتيًا. ليس هناك تغيير في التحرير وسنستمر بتقديم مراجعات أدبية وسياسية كمجلة مستقلة وجدلية بطريقتنا الخاصة.

ولم يكن لهذا التغيير في الدعم أي أثر بالنسبة لي كمشترك، لكن خلال سنوات قراءتي مررت باحتجاجات واستثناءات مختلفة طرحت من مجلس الحرية الثقافي. في عدد كانون الأول/ ديسمبر 1958م طُبعت برقية جماعية أرسلت بالنيابة عن بوريس باسترناك الذي كان مصيره في الاتحاد السوفياتي غير معروف. من الصعب تصور قائمة موقعين بارزين

أكثر كاثوليكية من هذه: موريس بورا، كينث كلارك، ت. س إليوت، إ. م فورستر، غراهام غرين، الدوس هكسلي، جوليان هكسلي، روز ماكولي، سومرست موم، ج. ب بريستلي، الآن برايس جونز، هربرت ريد، برتراند رسل، ك.ب. سنو، ستيفن سبيندر، ربيكا وست، وأنغوس وويلسون. رغم أن هذه البرقية نيابة عن باسترناك، إلا إنها لم ترتبط بمجلس الحرية الثقافي، وقدم عدد كانون الأول/ ديسمبر عام 1960م احتجاجًا رسميًا ضد الحكومة الفرنسية واتخاذها إجراءات دون محاكمات لمنع فنانين ومثقفين معينين من «مجمل الأنشطة المدعومة كالمسرح، السينما، الراديو، التلفاز». حُرم بعض المعلمين الفرنسيين من حقهم بممارسة مهنتهم. وبدا أن إحسان إنكاونتر يقف بجانب الملائكيين، لترتقي لأن تكون أنموذجًا للديمقراطية:

على مجلس الحرية الثقافي أن يحتجَّ ضد معايير الحكومة الفرنسية، وهدفها من منع الفنانين والمفكرين ممن لهم الحق في ممارسة مهنهم. يرى المجلس بأن تلك المعايير لن تؤدِّي إلا إلى نظام صارم وعبودية للفن والفكر. وسكوتهم من شأنه أن يضع كل الحريات العامة في خطر.

ثم بعد ذلك، أرفق في عدد تشرين الأول/ أكتوبر 1961م رسالة خاصة إلى المحافظ ويلي براندت الذي «استعان مؤخرًا بمجلس الحرية الثقافي لجذب انتباه الرأي العام لخطورة ما يعتبره الأصدقاء والمعاونون انتهاكًا لحقوق الانسان، وذلك بإغلاق حدود برلين للاجئين من ألمانيا الغربية». وردًا على طلب براندت بالمساعدة «نشر ثلاثون مفكرًا وقائدًا مدنيًا من أوروبا، آسيا، أفريقيا وأميركا مناشدة بالنيابة عن كفاح براندت ضد بناء جدار برلين». لم يظهر أي منتدى مشابه لإنكاونتر عندما شهد العالم لاحقًا، على سبيل المثال، الوحشية التي وقعت لمن كانت تدعى يومًا يوغسلافيا.

إنكاونتر كانت خارج مختلف القضايا السياسية على سبيل المثال: تابع ثيوودور دريبر كوبا كاسترو، واتخذ موقفه بأن طبيعة نظام كاسترو مفصَّل محليًا، وليس فقط نتيجة للمقاومة الأميركية. عام 1961م دافع سبيندر ولاسكي عن الإنكاونتر ضد احتقار صحافة التايم والتايد: بسبب تغطية دريبر لكوبا تحديدًا، وأصروا على أن:

مؤسسة فورد ليست بأي معنى للكلمة «منظمتنا الأميركية السرية الأم». قدمت على مدى تلك الأعوام دعمًا ماديًا (جميعها معلنة للعامة) للمدارس، الجامعات، معاهد

الأبحاث... الخ، وكانت كريمة بما يكفي لدعم سلسلة من المؤتمرات العالمية التي نظمها مجلس الحرية الثقافي في أكسفورد، برلين، القاهرة، بومباي، طوكيو. نشرت إنكاونتر من وقت لآخر مجموعة من المناظرات والتي حدثت متناسبة مع تلك المؤتمرات.

سبيندر ولاسكي ذهبا في رسالتهما إلى التايم والتايد:

ماذا سيكون الإيحاء بأننا «تبنينا مواقف الحرب الباردة المباشرة، وما من نقد بنيوي من دولتهم الداعمة أو من الغرب عمومًا، يعدُّ يومًا بعد يوم هجومًا على الشرق»، غير أنه افتراء سخيف. لطالما كانت إنكاونتر «مراجعة مستقلة»، و«أنجلو ـ أميركية» لو كنت مساعدًا في تحريرها، ولم نكن لنؤمن بأنها قادرة على حيازة الاهتمام أو الانتشار الذي تملكه الآن، لو لم تكن هناك صفحات دعائية يعرّض فيها كاتبكم. تعد مجلة إنكاونتر مراجعة نقدية، ولم تستثني ثقافة غربية أو شرقية، وسياسة يمينية أو يسارية من النقد في صفاحتنا. وربما غاب عن انتباهكم في عددنا الأخير ما كتبه ب.م.س. بلاكيت الناقد الكبير والموقَّر في أميركا من دفاع عن الفكر الذي ظهر مؤخرًا.

لم يحتوي عدد إنكاونتر نيسان/ لأبريل عام 1961م على «البيان النووي» لبلاكيت فقط، ولكن كان هناك أيضًا «ريتشارد رايت» لجيمس بالدوين، و«جان بول سارتر» لـ أ.ج ايدار، «ما وراء الإيمان» لسيرل كونولي، و«غراهام غرين» لفرانك كيرمود، وأخيرًا «ترسيتي تروبيك» لكلود ليفي ستراوش.

رغم أن صحيفة: «الديلي ميرور»، وليس مجلس الحرية الثقافي من أعدَّ عدد إنكاونتر تموز/ يوليو 1964م، إلا أن الاتهامات حول تمويلها لا تزال قائمة. بحلول آب/ أغسطس 1966م صدر عدد نزاهة إنكاونتر الذي اتخذ منحى خطرًا وسيئًا، وخُصص له عمود في إنكاونتر موقعًا باسم «ر» ومن الواضح أنه يعود إلى غرونوي ريس. لم يكتفِ أوبراين بنشر مراجعته الأصلية لمختارات إنكاونتر، ولكنه عاد لمشكلة في «Washington Post Book Week»، ومحاضرة بجامعة نيويورك. وقد نشرت «نيويورك تايمز» مجموعة من المقالات حول وكالة الاستخبارات المركزية، وذكرت إنكاونتر في عددها الصادر في السابع والعشرين من نيسان/ أبريل 1966م بصفتها أحد مشاريع الوكالة. بعد ذلك، منح التصعيد

السري للتدخل العسكري الأميركي في جنوب شرق آسيا خدمة لوكالة الاستخبارات المركزية، على الأقل بالنسبة لي، بجعله مصدر دعم مالي بغيض.

وبدت التهم الغليظة من صديقي البريطاني في أكسفورد صادقة تمامًا. كان عمود إنكاونتر آب/ أغسطس 1966م موجّه بالأساس ضد أوبراين، الذي تصور أن إنكاونتر تحتل «مركزًا أساسيًا في العالم الناطق بالإنكليزية في النصف الثاني من القرن العشرين، إضافة لكونها دورًا وسيطًا بين الكاتب وبناء السلطة الرأسمالية التي تستحق اهتمامنا الخاص». جاء في اتهام «نيويورك تايمز» بتمويل المخابرات السري الذي أُستؤنف من أوبراين: «جمال العملية يكمن في كتّاب الدرجة الأولى الذين لم يكن لديهم أدنى اهتمام بخدمة هيكل السلطة، حملوا أنفسهم على هذا الفعل من غير قصد».

في آب/ أغسطس 1966م سخر كاتب عمود «ر» من مزاعم وكالة الاستخبارات. كان كما لو أن ج. إدغار هوفر قد أخذ ما سماه السيد أوبراين «النقد السياسي الثقافي». أرسلت الإنكاونتر رسالة تصحيح وإنكار لنيويورك تايمز. كتب مساهمون بارزون في الدفاع عن استقلالية التحرير التي حققتها الإنكاونتر. اتخذ عمود آب/ أغسطس 1966م موقف أوبراين الذي انغمس فيه بنسخة من خطة الراحل جوزيف مكارثي «مطاردة عملاء وكالة المخابرات المركزية لكافة محرري المجلة الشهرية ستيفن سبيندر، إيرفينغ لاسكي، وفرانك كيرمود».

في الوقت الذي ظهرت فيه قصة المخابرات لأول مرة على السطح، فكرت في عنوان عدد نيسان/ أبريل 1963م لإنكاونتر «أصوات كتاب روسيين جديدة»، والذي تزعمه كتاب سوفياتيون بالفعل. واعتقدت أن المجانين وحدهم يمكن أن يصدقوا قصة المخابرات وتمويلها، حتى قدمت «نيويورك تايمز» أول دعم للفكرة. واجه كافة كتاب السوفيات المنشقين خطورة الخيانة لوطنهم في حال عودتهم لأنهم نشروا في صحف الغرب. كان الأدب والسياسة مشمولين معًا في تاريخ روسيا خلال القرن التاسع عشر والعشرين، «دكتور جيفاكو ـ Doctor Zhivago» ظهرت فقط في عام 1959م، لذلك كان باسترناك سعيد بالاستقبال الذي حظي به كتابه في إنكاونتر.

إن ترتيب مجلس الحرية الثقافي لدعم المخابرات المركزية، قد عزز أسوء المخاوف لدى الكتاب الروس الذين ينشرون خارجًا. لأنه على ما يبدو سمحوا لأنفسهم بأن يُستخدموا كبيادق في الحرب الباردة. وبذلك، وضعوا أنفسهم في خدمة عدو بلادهم، دون علم منهم.

خلال إعلان تموز/ يوليو 1964م يفترض بإنكاونتر أنها استقلت عن مجلس الحرية الثقافي، وبالتالي حررت نفسها من مصدر مال المخابرات الملوث. وأي ربط بين المخابرات و إنكاونتر بدا غير محتمل، وأُنكر في عمود 1966م آب/ أغسطس.

أتساءل الآن عما إذا كانت الإعلانات في إنكاونتر عملًا أديولوجيًا أيًا كان نوعه. ركَّزت عيناي خلال تلك الفترة على إعلانات الكتب، لكن من كان يعتقد أن هذه المجلة الفصلية التي تبوأت تلك المنزلة كانت أيضًا مستفيدة من مجلس الحرية الثقافي؟ ربما من الملفت أن شركات مثل الحديد البريطاني، اتحاد الفولاذ، أوليفتي، وفورد كانت تضع إعلاناتها، لكن لا أرى سببًا لماذا لعدم دعم القطاع الخاص شيئًا مستحقًا مثل إنكاونتر. المطبعة الأولمبية في باريس أيضًا اقتطعت لها صفحة إعلانية كاملة، في عهدي كانت الطريقة الوحيدة للحصول على أعمال هنري ميلر الجدلية أن تقوم بتهريبها من مطبعة أولمبيا، التي نشرت رواية: «لوليتا» لفلاديمير نابوكوف عام 1955م. عشيق الليدي تشارتلي كانت متوفرة فقط في فرنسا، وجاءت إلى بريطانيا عندما كنت في أكسفورد، لكن موزع الكتب الأول هناك بلاكويل لم يكن ليمنحها، بل على المرء أن يسأل عنها وتجلب له من تحت الطاولة. (لرئيس كليات سول تحفة ملفتة في إنكاونتر حول طبيعة مثليّي الجنس المزعومة في خداع الحب للورنس). كيف لأحد أن يشتبه بخيانة مجلة إنكاونتر لقضية التنوير والفكر الحر، والكذب أيضًا؟ بدت صلة أشخاص مثل ج. روبرت أوبنهايمر، جورج كينان، أو برتراند رسل، ناهيك عن البقية مطمئنة.

شخص واحد عرفته قالت لي: بأنها ألغت اشتراكها في الإنكاونتر منذ أن أُعلن عن أموال وكالة المخابرات المركزية. أما عن نفسي استمررت بتسلُّم المجلة خلال 1960م، بصرف النظر عن خيبتي مما حدث. مع ذلك، كان لدي انطباع قاطع لم أستطع التحقق منه، بأن نقطة تحول قد حدثت بين إنكاونتر في عهدها القديم، وما صدر منها من أعداد عقب 1966م. على الأقل سيتجنبها كتَّاب معينون اليوم. لم يكن هناك تحول في قائمة المساهمين، وربما لم أتخذ المجلة بجدية كما اعتدت. لكن الساخرين كانوا قادرين على الجدال حول ذلك، ففي فترة تمويل المخابرات حققت إنكاونتر أفضل مبيعاتها.

القصة حول تمويل المخابرات لم تتلاش، فعقب ما يقارب العام اعترف لاسكي بندمه لكونه لم يكن صريحًا بشكل كاف. أثناء ذلك، نشرت صحيفة: «Ramparts» الأميركية أليسارية مقالًا آخر في آذار/ مـارس. وأسوء من ذلك ما نُشر في أيار/ مايو بصحيفة:

«Saturday Evening Post» التافهة دفاعًا عن وكالة المخابرات المركزية. لا يمكن لأحد الاعتراض تجاه الافتراض بأن «الإنجاز الثقافي والحرية السياسية كانت متكاتفة تساند بعضها بعضًا» لكن المؤلف الذي انضم للمخابرات عام 1950م، دبج الجمل التي كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، «وضعنا عميلًا واحدًا في منظمة مقرها أوروبا للمفكرين تسمى مجلس الحرية الثقافي، عميل آخر أصبح محررًا لإنكاونتر».

نشر «أمناء» إنكاونتر «بيانًا» في عدد تموز/ يوليو 1967م. بدت المجلة تشبه الفاتيكان في عزلتها، وقيمتها الذاتية: «يقدم أمناء المجلة أسفهم العميق لما آلت إليه اختلاف وجهات النظر من خطورة تسببت باستقالة اثنين من المحررين السيد ستيفن سبيندر، والبروفيسور فرانك كيرمود اللذين قدما خدمات جليلة للمجلة. وقد نوقشت الآراء ووجهات النظر بإسهاب في الصحافة العامة». لم يكن هناك أي اعتذار أو توضيح وكانت لهجة البيان تلمح إلى أنه ليس هناك من داع ليكون القراء على علم أوسع بهذا الشأن. أعلن الأمناء أن: «لضمان استمرارية المجلة، وافق السيد مالفين. ج. لاسلكي والذي قدم اسهامًا بارزًا خلال التسع سنوات الماضية أن يصبح مساعدًا للتحرير. وعُيّن السيد نايجل دنيس كمساعد آخر». وفقًا لهذا البيان:

> **النقطة الأساسية أن الإنكاونتر منذ تأسيسها عام 1953م، تمتعت باستقلالية تامة في سياسة التحرير، لطالما كان المحررون مسؤولون عما ينشر. كان ذلك قبل 1964م، عندما كانت المجلة تدعم ماليًا من مجلس الحرية الثقافي، بعدها توفر داعمون ماليون من مؤسسة النشر الدولية كما في الوقت الحالي.. الأمناء على ثقة بأن استقلالية التحرير ستبقى كما هي في المستقبل.**

كان الأمناء الذين وقّعوا البيان هم السير وليام هايتر، آرثر شليزنجر الابن إدوار شيلز، وأندرو شورفيلد. مع ذلك، لم يفعلوا أي شيء لتنوير الجيل القادم حول طبيعة المشكلة التي أدّت لاستقالة سبيندر وكيرموند. لا زلت أشعر بالضيق عند قراءة بيان TLS وإشعار نعي إنكاونتر، كانت الهزيمة الفكرية للشيوعية هي سبب بدايتها عام 1953م والذي جعل المخابرات تموّلها ماليًا عبر مجلس الحرية الثقافي.

أذكر كراهيتي للنقاشات حول أيّ من محرري الإنكاونتر، كان على دراية بدعم وصلة المخابرات المركزية. كان لاسكي من مؤسسي مجلس الحرية الثقافي عام 1950م، رغم

إنه انضم للمجلة عام 1958م، واستمر مسؤولًا حتى نهايتها عام 1991م. مع هذا، سأظل أدافع عن الوضع الفكري الخاص الذي حققته الإنكاونتر. لا أعرف المزيد عن أرقام توزيعها، لكنني أفترض أن فضيحة وكالة المخابرات وكيفية التعامل معها قد أثّر بضرر بالغ على توزيعها. استمرت الإنكاونتر كمجلة ملحوظة، وتزايد منافسوها، على سبيل المثال كان هناك «New York Review of Books» والتي أصبحت لاحقًا أكثر تمركزًا في الحياة الفكرية.

نُشر عام 1969م منشور يخصني في إنكاونتر[1]، لم أمازح نفسي باعتبار أن هذا النجاح يقارب خطورة نشر شيء لي في إنكاونتر القديمة. إضافة لهذا، كان هناك خلاف يأتي ويذهب بيني وبين لاسكي حول صلتي بالمقال، وبعدها أوقفت اشتراكي. بعد عدة سنوات، كنت أقتني أحيانًا أي عدد من المجلة، لكن بالنسبة لي فالأيام المجيدة لإنكاونتر والتزامي معها كان شيئًا من الماضي البعيد.

ظهر الكتاب الرائع «المؤامرة الليبرالية: مجلس الحرية الثقافي ومعاناة العقل الأوروبي لما بعد الحرب ـ Liberal Conspiracy: The Congress for Cultural Freedom and the Struggle of the Mind of Postwar 4Europe»[2] عام 1989م. لم يتفحص المؤلف بيتر كولمان الملفات السرية للمنظمة فقط، لكنه التقى المشاركين الناجين أيضًا. فيما اعتبرت المخابرات المركزية إنكاونتر كـ«أعظم مصدر». أنا مدين لقصة كولمان بكافة تفاصيلها التي لن توجد في مكان آخر، لكنني أتساءل ما إذا كان قد خلط الحابل بالنابل؟. فهو يسرد للقرّاء بتفصيل ممل حقبة (1966 ـ 1967م) التي تبعها «الكثير من الألم والحسرة، نجت على إثره المجلة وواصلت الانتشار». مثل هذا القول يجعلني أتساءل ما إذا كانت كل شكوكه واهتمامه بالمراسلة خاصة بين المحررين؟. كولمان كان ينزعج حقيقة من قراءة المجلة نفسها، رغم أنه على علم بكيفية كشف دعم المخابرات، إلا أنه أغفل محاولة إنكاونتر الفاشلة للدفاع عن نفسها.

---

(1) Paul Roazen, **«Sigmund Freud, Lou Andreas-Salome, and Victor Tausk: A Curious Triangle,»** Encounter, October 1969. (Also in Paul Roazen, The Historiography of Psychoanalysis [New Brunswick, N. J., Transaction Publications, 2001, pp. 195 - 204.

(2) Peter Coleman, **The Liberal Conspiracy: The Congress for Cultural Freedom and the Struggle for the Mind of Postwar Europe** (New York: The Free Press, 1989.

هنا شعرت بمأزق، لإن إنكاونتر كانت مذنبة فلم تكذب سهوًا، ولكنها ضللت القراء عن عمد. وفقًا لكولمان، كان المحررون على دراية بالأمر في عام 1964م بعد تحقيق نيويورك تايمز لأنشطة وكالة المخابرات الثقافية، والذي يبرر سعي مجلة إنكاونتر لتسليم عهدتها إلى صحيفة ديلي ميرور. ويضيف كولمان أيضًا، أن مجلس الحرية الثقافي استمر بتسليم إنكاونتر (30،000) دولار حتى أواخر عام 1966م. أما إنكار دعم مؤسسة فورد فهو بمثابة لعبة مخادعة، فبعد عام (1966 ـ 1967م) عندما أوقفت المخابرات دعم مجلس الحرية الثقافي، قامت مؤسسة فورد القابضة بتسلمه.

أشعر بالامتنان اليوم كما لم أكن من قبل للإصلاح الذي صنعته إنكاونتر لنفسها عام 1967م. وعلمت أن إنشاء مجلس الحرية الثقافي عام 1950م هو أفضل طريق تصرف فيه المخابرات أموالها. رغم أن الستالينية كانت تهديدًا خطيرًا، إلا أن المفكرين الغربيين كانوا ساذجين علانية بطاغية السوفيات، فقد غزا الروس المجر أواخر عام 1956م وبقيت الهند محايدة حتى واجهت صعوبات مع الصين. لم تكن الإنكاونتر مجرد مجلة إعلانية. لكن مهما كانت التحذيرات المتفرقة التي ظهرت بين فينة وأخرى، لا يحضرني أي دور سياسي لعبته الإنكاونتر بتحذيرنا لكارثة فيتنام الخطرة. كان لمجلة: «New York Review of Books». حضور في تلك القصة، إذ ذهب إليها بعض من كتّاب إنكاونتر القديمة لاحقًا.

جيسون أبشتاين مؤسس «NYR» الذي استنكر «الدعم السري غير المشروع» من المخابرات، هو بنفسه كان له دور مع لجنة الحرية الثقافية الأميركية. هل يمكن لأي شخصية متورطة وذات مكانة أن تُعفى من هذا الفساد؟ قد يفترض أحد أن سبيندر كان عليه أن يعلم على الأقل ما يحدث في إنكاونتر. قبل ظهور قصة Saturday Evening Post Story، كان بإمكان السير إيزايا برلين (كاتب لاحق لابشتاين) أن ينصح لاسكي قائلًا: «الدور اللائق بإنكاونتر أن يتصرفوا كما لو أنهم فعلوا ذلك عن جهل منهم.. وسيتفهم العقلاء وحسَنِي النية ذلك، أما من يفتقر لذلك فسيواصل تعنته».

أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر 1917م كتب جورج كينان لرئيس مجلس الحرية الثقافي الجديد:

سعدت لأنك تسلمت الرئاسة، هي مؤسسة ذات قيمة، يجب أن يكون لها مكانة دائمة في حياة العالم الغربي. تخبط دعم المخابرات غير مبرر أبدًا، وسبَّب الآمًا

أكثر مما يجب. لم أشعر بأي تأنيب ضمير حول توجه المنظمة. إن هذه البلاد لا تملك وزارة ثقافة، ولذلك كان بوسع المخابرات أن تملأ ذلك الفراغ. وليس من العدل أن يحكم عليها بقسوة لفشلها، ولا يثنى عليها عندما تؤدي أمرًا معقولًا وبنَّاءًا. وربما أُهمل المجلس، لولا تلك الأموال التي أتت له من حسن نية بدون شروط وقيود.

لم أعد متأكدًا كما كنت عام (1966 - 1967م) بحكمي الأخلاقي، وأعتقد الآن أن موقف كينان يستحق أن يسمع بكل احترام.

بقي أمر المحافظة على بقاء الحياة الفكرية وتعزيزها لغزًا، فللجامعات أن تفعل الكثير، لكن مؤسسة مثل الإنكاونتر أضافت شيئًا عظيمًا بمفردها. ربما هذا ما جعل الخيانة المتصلة بتمويل المخابرات أمرًا جديًا.

في مطلع عام 1991م توقفت مجلة الإنكاونتر عن النشر. كتب محررو «TLS»: «يبدو أن البريطانيين قد خسروا مجلة خالدة للأفكار خسارة لا رجعة فيها، منذ المجلة الفصلية في القرن التاسع عشر». على ما يبدو أن وفاة الإنكاونتر كانت إيحاء ساخرًا بأن المجلة المناهضة للشيوعية سقطت، في وقت لم تعد فيه الشيوعية تهديدًا عسكريًا وسياسيًا فعَّالًا: «لم يكن المناهضون للشيوعية جيل منتصف 1950م محط اهتمام الإنكاونتر...». يطابق انطباع «ماونت» ما في نفسي تمامًا حينما قال: «عرضت المجلة لنا الإثارة الفكرية في الخارج. كل شهر تعرض تلك الصفحات المحببة نوعًا من المغامرات والتي لم تكن لتحلم الصحف البريطانية الجبانة والأسبوعيات بنشره في الخمسينات وبداية الستينات». هذه نفس الفترة التي أذكرها الفترة الرائعة لما أسميتها: «إنكاونتر القديمة»، التي لا أشك فيها أبدًا. وفقا لماونت الذي أصبح لاحقًا يكتب كمحرر لـ TLS، فإن الأعداد اللاحقة لإنكاونتر كانت ملفتة دون شك. لكن مهما كان الإسهام العظيم الذي استمرت إنكاونتر بتقديمه للحياة الثقافية، كانت تلك الفترة أواخر الخمسينات وبداية الستينات التي كانت تعني لي شخصيًا الكثير، كأهم سنة في حياتي.

كان هناك تروٍّ بإصدار إنكاونتر شهريًا، فلا يشعر المرء بأنه على عجلة ليقرأ كل شيء قبل أن يداهمه وقت صدور العدد التالي. في ذهني الآن الجدل الذي نشر على صفحاتها حول طبقة النبلاء في القرن السابع عشر، وعمّا إذا كانت ترتفع أو تسقط، وربما كانت هذه

المشكلة صدى لمخاوف معادي الماركسية، ومما يثير الإعجاب أن هذا الموضوع الذي اقتصر على فئة معينة، قد استولى على اهتمام المثقفين والمخربين. وكيف ننسى إدموند ويلسون وفلاديمير نابوكوف، كانوا أصدقاء سابقين، تجادلا بمرارة حول الترجمة الروسية في كلا المجلتين: إنكاونتر وNYR.

أود أن ألحَّ هنا على أن الهدف الرئيسي للتاريخ الثقافي يتضمن وضع المرء لنفسه في وضع من سبقوه في الماضي، ويبحث بضمير متيقّظ، حتى لا يفعل ما فعل كولمان حينما بحث في مجلس الحرية الثقافي، وأغفل إنكاونتر القديمة. فالتلويح براية معاداة الستالينية لن يستنزف من إنجازات المجلة. ذهبت الفترة الجيدة بعد إعلان وكالة المخابرات عام (1966 ـ 1976م)، ولعبت مزايا إنكاونتر دورًا مختلفًا بعد استقالة سبيندر وكيرمود. تحفَّظ مؤرخو الأفكار بشكل ملحوظ حول مسألة نفوذ المجلة، لكنني أزعم أن الإنكاونتر القديمة كان لها تأثير خاص وسيكون من المؤسف نسيان ذلك. على النقيض من المجلات الفصلية المهمة مثل «American Scholar Yale Review Virginia Quarterly» كان هناك شيئًا مثيرًا بظهور عدد جديد من الإنكاونتر القديمة. لا يمكن أن تأمل المجلات الأسبوعية القيمة مثل: «New Republic» أو «Spectator» بالمنافسة مع توسع المجلات الشهرية. حذر «غوته» مرة الشبان لأن يحترسوا من طموحاتهم، التي سيحققونها عندما يصلون لمنتصف العمر. بالنظر للأعداد الماضية من إنكاونتر القديمة، تذكرني كيف أن أصدقائي ناضلوا مرة ضد التدخل الفرنسي في الجزائر. في وقت سابق، كان جيلنا بأكمله مضللًا حول مسألة تآلف ما سميت بالشمولية، لا يحضرني أي شخص تنبأ بإمكانية سقوط الشيوعية مثل بيت من ورق باستثناء كينان. (اعترف لاحقًا بالضرر الذي ألحقه ستالين بالمجتمع السوفياتي القديم). المشهد الوحيد الذي احتفظت به من أعداد إنكاونتر، هو كمية الملل في نقاشات وصراعات حزب العمال البريطاني.

بعيدًا عن المسائل السياسية والاجتماعية، وجدت أن من المطمئن ـ على نحو غريب ـ النظر في إنكاونتر القديمة. كم هو لطيف أن اكتشف (أ. س بيات) هناك، رغم أنني لم أقرأ لها من قبل حتى لفتني عملها (الملكية ـ Possession). كم من المريح أن تغمرني حيوية الإنكاونتر القديمة، كل ذلك بصرف النظر عن الفترة الزمنية، لازلت أقتفي آثار نفس الصبي الذي التقط نسخة الإنكاونتر منذ فترة طويلة في عام 1957م.

الفصل السادس

ثلاثة فلاسفة حللوا فرويد
(فيتغنشتاين، ألتوسير، بوبر)

تُفهرس أعمال فرويد في مكاتب أميركا الشمالية تحت مسمى: «فلسفة»، مما يعني أن الكتب التي نتجت عن أسلوب الفكر التقليدي الذي نجح في إلهامه، تصنّف تحت هذا المسمى أيضًا. بدا اختيار المكتبين الذين قاموا بوضع المراجع الفرويدية تحت تصنيف الفلسفة صائبًا في نظرهم. وعلى سبيل الاستقصاء التاريخي، ومن جانب فلسفي، كان فرويد أوسع اطِّلاعًا وثقافة مما يظهره للعلن. وحينما كان يستعد لاستلام مؤهله الطبي تلاعب أيضًا بكونه استلم شهادة في العلوم الإنسانية متزامنة مع مؤهله.

تذكرنا قراءة كتب مثل سيرة: «لودفيغ فيتغنشتاين، واجب العبقري ـ Ludwig Wittgenstein: The Duty of Genius»[1] لراي مونك، ومذكرات لويس ألتوسير الفاتنة «المستقبل يدوم للأبد ـ The Future Lasts Forever»[2] كيف كانت أهمية شخصية فرويد للتاريخ الفكري والنفسي خلال القرن العشرين. ربما يفترض المرء أن إرث فيتغنشتاين في كل من المرحلة الوضعية المبكرة، بالإضافة لارتباطه مع إبستمولوجيا اللغة الاعتيادية، سيكون منيعًا من الوصول للتحليل النفسي. وقد يظهر ضمن أطر تقليدية الفكر الماركسي الفرنسي أن ألتوسير أيضًا كان خارج دائرة التأثير الفرويدي إلى حدٍّ ما. لكننا سنرى وبطرق مختلفة كليًا، أن التحليل النفسي الفرويدي كان ركيزة لفهم ما قدمه مفكرون مختلفون مثل: فيتغنشتاين وألتوسير.

---

(1) Ray Monk, Ludwig Wittgenstein: **The Duty of Genius** (London: Jonathan Cape, 1990.

(2) Louis Althusser, **The Future Lasts Forever** (New York: The New Press, 1993).

قدم مونك تقريرًا مقنعًا عن حياة فيتغنشتاين، وتشابك موضوع أفكاره مع العالم المحرك له. ولربما أصبح من بين أهم الشخصيات الملفتة الأصلية ضمن الفلسفة التجريبية البريطانية، لكن فيتغنشتاين قد ولد لأغنى العائلات في هايبرغ (فيينا) عام 1889م. كان مونك كفيلسوف متدرب رائع في إعادة الجو الثقافي لمجتمع فيينا القديم. على سبيل المثال: عُرض على والد فيتغنشتاين وهو من نبلاء الطبقة المتوسطة، فرصة لينضم إلى الطبقة الأرستقراطية، لكنه رفض احتمالية إضافة أرستقراطي لاسم «فون» على أساس «إن مثل هذه الإيماءة التلميحية ربما تُظهره كحديث عهد بالثراء». لم يُرد أحد من المحترمين أن يظهر وطنيته في الأيام الأخيرة للإمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، وربما يرى المرء شيئًا من العالم الذي عاش فيه فرويد آنذاك، في كل ما كتبه مونك عن بداية حياة فيتغنشتاين. ظنّت فيينا ـ قبل الحرب العالمية الأولى ـ أنها تقف على شفا جرف هار، وفي الوقت عينه كانت مكانًا شهيرًا وعظيمًا للعديد من مقومات الثقافة الغربية كالفنّ والموسيقى، فضلًا عن الفلسفة وعلم النفس. فقد كانت فيينا ممثلًا بارزًا لإنجازات الغرب، وكان معظم كتَّاب وفناني فيينا يعرفون بعضهم البعض. وتصبح القصة أكثر إدهاشًا عندما يعلم المرء أنها الميلاد الروحي للنازية، وكذلك الصهيونية.

تبدو عائلة فيتغنشتاين موهوبة، تمزقها الانقسامات الذاتية، فقد انتحر ثلاثة من إخوته، وكانت إحدى أخواته تدافع عن آراء فرويد، وحُللت شخصيًا من قبله. يجادل مونك على نحو مقنع بأن كتاب: «الجنس والشخصية Sex and Character» لأوتو فينيغر يمكن أن يكون أداة مركزية لفهم الصراع الذي كان يواجه فيتغنشتاين. كان كتاب فينيغر مصدرًا ملهمًا لفيتغنشتاين، وانعكست العديد من آراءه في كتاباته الفلسفية لاحقًا.

حينما نُصح فيتغنشتاين بالذهاب لكامبردج لأجل الدراسة مع برتراند راسل، كان ذلك بمثابة أمر هائل إن لم يكن مرعبًا بالنسبة له. رغم أن العلاقة بين الرجلين لم تدم إلا سنوات قليلة، إلا أن شخصية فيتغنشتاين المتطلبة تماشت مؤقتًا ـ وبصورة مدهشة ـ مع وصاية راسل وحمايته. ظهر فيتغنشتاين معذبًا بألم كحال البقية في تاريخ الفلسفة، وبالرغم من أن السلطات المدنية لم تدخله إلى مصحة عقلية حينما خرق إحدى الوصايا القانونية الأساسية (كما حصل لألتوسير)، إلا أنه امتلك مزاجًا يتطلب معرفة شخصية به، لتبقى متيقظًا ومنتبهًا لتقلباته المزاجية وطبيعته الجدلية. عزا زملاؤه وأصدقاؤه سلوك (كل شيء أو لا شيء)

وحساسيته العصبية التي كانت حصنه المنيع، أعظم مصدر لقوّته، وفي الآن نفسه كانت نقطة ضعف قاتلة.

امتلك فيتغنشتاين القدرة على نقل أعظم الأساليب الفكرية تجردًا إلى صراعات حياة أو موت واقعية، الأمر الذي جعل التعامل معه شخصيًا أمرًا صعبًا. خلال فترة شبابه اهتم فيتغنشتاين، وبشكل بالغ، بكيف للشخص الخلوق والمحترم أن يعيش، وشعر مرارًا بأنه ملزم على الانسحاب من التواصل البشري، لأجل أن يحقق توازنه الشخصي. رغم أن العديد من الطلاب الذين درسوا أعمال فيتغنشتاين لم يلحظوا هذا الجانب في شخصه، إلا أن مونك قام بإبراز فيتغنشتاين في كل مرحلة من مراحل مسيرته، فقد كان مهووسًا بالمسائل الدينية الأساسية للإيمان، فهو غير قادر على الإيمان أو الكفر، كرجل تعصف به الآلهة. لقد أظهره مونك بشخصية مقاربة لروايات دوستوفيسكي، مثلها مثل أي شخصية في تاريخ الفكر الغربي.

يطرأ جان جاك روسو على المرء حينما يشرع في قراءة كتاب مونك. فوفقًا لمونك كرر فيتغنشتاين فكرة رئيسة من (اعترافات روسو Rousse›s Confessions)، في موضوع أفكاره الفلسفية المدونة قديمًا ألا وهي: «لماذا يقول المرء الحقيقية إذا كان من مصلحته الكذب؟». إلا أن روسو وضع مسألة قول الحقيقة بشكل مختلف قليلًا، بما أنه ناضل ضد كذبته الأولى، لكن السعي للتطهير الروحي عند فيتغنشتاين هي إشارة لروسو، إضافة إلى أن فيتغنشتاين كان يملك قناعة بأنه محاط بأناس يكرهونه. وبدا من الملاحظ بالنظر لحساسيته أنه كان قادرًا على أن يقاتل كعضو في الجيش النمساوي خلال الحرب العالمية الأولى، ثم في الجبهة الداخلية البريطانية في الحرب العالمية الثانية. ورغم كل ما فعله فيتغنشتاين بقي دائمًا مفكرًا معذبًا ومناضلًا ضد الضمير، في حين أن صوت الرب والنقد الداخلي يقومان باختبار روحه من أجل كشف ما إذا كان قادرًا على التغلب على «افتقاره الأخلاقي». وليست مفاجئة أن فيتغنشتاين خلال بحثه المضني على ناشر لأول كتبه كان في «وضع انتحاري خلال خريف 1919م».

وفقًا لمونك فقد عاش فيتغنشتاين «حياة دينية تقية»، على النقيض من الطريقة الهادئة التي ادَّعى فرويد أن لها قدرة على التسليم بالأخلاق، على افتراض أن اعتماده على دوافعه المحترمة أمر ممكن. لكن بصرف النظر عن كل الاختلافات في المزاج، ووجهة النظر الفلسفية كان هناك تشابهات لافتة للنظر بين فيتغنشتاين وفرويد، رغم أنه عاش حياة طبقة

متوسطة تقليدية، محاطًا بعائلة كبيرة، إلا أنه كان مبتلى بالخوف من أن المنافسين المحترمين سوف ينجحون بسرقة أفكاره، ذلك القلق الموجع الذي لطالما ألفه فيتغنشتاين. تدبر كلًّا من هذين المفكرين، وعبر وسائل مختلفة، جمع نفر متحمس خاص بهم كأتباع مخلصين.

عندما عاد فيتغنشتاين إلى كامبردج عام 1929م كتب جون ماينارد إلى زوجته الحبيبة ليديا لوبوكوفا: «حسنًا لقد وصل الإله، التقيته على متن قطار الساعة الخامسة وخمسة عشر دقيقة»، اعتبر فيتغنشتاين نفسه كشخص ذي منزلة غير عادية تمامًا، مثلما كان فرويد يرى نفسه». وكتبت عنه إحدى أخواته: «ليس من السهل أن يكون لك أخ قديس». نبذ فيتغنشتاين ثروة عائلته، وكان ممتلأً بانفعال من النوع الجدي، الذي يفضِّل أن يكون جيدًا على أن يكون ذكيًا، ووجد أن أفضل جانب في التصوف هي القوة التي تمكِّنه من التوقف عن التفكير.

حتما سيتساءل المرء عن إمكانية وجود المزيد من الصلات المباشرة بين فرويد وفيتغنشتاين. ذهب أحد أصدقاء فيتغنشتاين يدعى: «فرانك رامزي» إلى فيينا ليُحلل، لكنه توفي على نحو مفاجئ عام 1930م بعمر ستة وعشرين عامًا فقط. كانت فكرة دراسة الطب النفسي في ذهن فيتغنشتاين، وكان مهتمًا بالتحليل النفسي تحديدًا، بل إنه ذهب بعيدًا ووصف نفسه كـ «تابع لفرويد». وبدت له بصيرة نافذة حول إنجاز فرويد الأساسي كما صرح قائلًا: «كلها تشبيهات ممتازة»، وكان يرى إسهامه الشخصي للفلسفة على نحو مماثل بقوله: «ما نجحت بابتكاره هو تشبيهات جديدة».

إن سيرة فيتغنشتاين الرائعة التي كتبها مونك يمكن أن ترتبط بسيرة ألتوسير الممتعة على حدٍّ سواء، وذلك استنادًا إلى مركزية فرويد، رغم أن التحليل النفسي في فرنسا عنى شيئًا يختلف كليًا عن ماهية ما فهمه فيتغنشتاين، والذي رأى فرويد ضمن أجواء أيام مظلمة للإمبراطورية النمساوية القديمة. لدي إيمان راسخ أنه حينما يتحدث عن فرويد، فهو يعلم ما يتحدث عنه. لكن مع ألتوسير فالمرء يتعاطى مع أجواء روحانية للمثقفين البارسيين، ورغم أنه منظر ماركسي ملتزم، إلا أنه يسلم بفرويد بطريقة جامدة. يستحيل تدوين تفسير ألتوسير لمأساة حياته الشخصية، وربما تعود معظم جذور هذه المأساوية لعدم تلقيه علاجًا طبيًا جيدًا. رغم أنه كان يُحلل لعقود، لكنه لم يعي حتى وقت وفاته عام 1990م أنه قد أُسيئ علاجه طبيًا. (وقَّع أصدقائه لصحيفة: «Le Mode» على رسالة غير منشورة وذلك احتجاجًا على سلوك محلل ألتوسير) في الوقت الذي تقلص علاج التحليل النفسي على هامش الطب النفسي في طب أميركا الشمالية، بقي ألتوسير ساذجًا بشكل لا يصدق حول فعالية

طريقة فرويد، واعتقد ألتوسير أن التحليل النفسي «قادر على علاج العصاب والذهان» والتي كانت على خلاف مع مذهب فرويد الشكوكي.

عام 1980م وبينما يدلك ألتوسير رقبة زوجته، وجد نفسه بطريقة ما، يخنقها حتى الموت. كان تحت تأثير أدوية مختلفة في ذلك الوقت، لكنه لم يعِ التأثير أو الدمار الذي تسبَّبت به لذاكرته وتفكيره. رغم أن ألتوسير عامل الأطباء النفسيين كقساوسة جدد، وكرجل يساري «ملزم بالصمت» لا ينزل لمستوى الباريسي بالغ التهذيب ليشكك بأي افتراض للهيكلة الفرويدية التي اختار أن يتخذها أديولوجية معينة. لكنه دوَّن بعضًا من قيوده الشخصية «للأسف أنا لست روسو». (أنبِّه هنا إلى الرسالة الرقيقة التي كتبها فرويد لوالدة مريض يعاني من الفصام، حاول فرويد أن يطمئن المرأة أن ابنها كان من نوعية جان جاك روسو فحسب). أعدت مذكرة ألتوسير لتكون درسًا قاسيًا لعذابه النفسي الذاتي، لكن الملفت إنه لم يكن ناقدًا لمعتقدات ومصطلحات فرويد.

وحينما وجدنا ألتوسير يكتب «مذكرات شاشة» عن طفولته، كما لو أن أحدًا مثل كارل يونغ لم يعرض أسلوب التذكر المبكر الضروري لخدمة الوظائف الدفاعية لخداع الذات. بينما قراءة متروِّية لكتاب مونك، تجعل المرء يعي ببطء التمزيق الذاتي لفيتغنشتاين، أما مذكرات ألتوسير فلها قوة هلوسة لكابوس واقعي. إن قراءة ألتوسير تشبه مشاهدة ماكبث، حيث يتحرك الرعب سريعًا وعلى نحو فريد. فعندما ينتهي المرء من قراءة (المستقبل يدوم للأبد) يبدو وكأن كل ما حدث، يستحيل أن يحدث بالفعل.

لكن أكثر ما أدهشني اتخاذ ألتوسير نسخة شكلية وجامدة للتحليل النفسي، كحال معظم الباريسيين اليوم، هذه النسخة تطابق المنظور الذي كان فيتغنشتاين قادرًا على الرؤية من خلاله. كان وودي ألن شكوكيًا عظيمًا إذا ما قورن بألتوسير. الذي يخبرنا بملامح جدية بعد وفاة زوجته، أن ما تعلمه حول حب والدته قد فهمه بفضل «التحليل الذي أجري لي».

لم تكن لفيتغنشتاين تجربة تحليل نفسي، وانتهى إلى درجة مذهلة من الموضوعية نحو فرويد، لكن ألتوسير كان متيمًا بالأفكار المجردة لفرويد، حتى أنه خسر قابليته للنقد مرة أخرى. وهذه نقطة ضعف اشترك فيها معظم فلاسفة فرنسا حتى اليوم. حتى عقب الكارثة التي كادت تودي به عام 1980م لم يدرك ألتوسير أن له حق بلوم أسلوب محلله الذي قام بعلاجه.

بدلًا من ذلك قدَّم لنا ألتوسير تفسيرًا مقولبًا عن احتجازه في مصحة عقلية بعد جريمته المروعة، ومن ثمّ خسارة كافة حقوقه الشرعية الطبيعية، ويعرض لنا «آثار المرض على المحتجز» وأن فوكو بنفسه قدم لزيارته مرتين. رغم أن ما سرده ألتوسير مثبت كليًا، لكن يصعب تصديق أن أي شخص يمكن أن يبقى ساذجًا تمامًا بشأن التحليل النفسي والطب النفسي. وبقي ألتوسير مقتنعًا بأن أعماله قد نجحت بالعودة لماركس، كذلك فهمه للتحليل النفسي كان جزءًا من عودة لاكان لفرويد. مع ذلك يعترف ألتوسير:

لم أكن قادرًا على التغلغل في نص وحيد من نصوص فرويد أو مفسريه، حتى على سبيل الفضول (وهي بلا شك هامة جدًا، على أن تلك الأهمية كانت مخلِّصة لي وبقيت كذلك)، بغض النظر عن كل عينات التحليل النفسي الخاصة بي وتجاربي الشخصية (كشخص تعرض للتحليل النفسي). بقي فرويد مثل كتاب قريب لنفسي.

طمأن ألتوسير نفسه بأنه ما من شيء يستحق القلق، «بناء على أن المهم في التحليل ليست النظرية بل الممارسة، (مبدأ ماركسي مادي أساسي)». من الصعوبة تخيل عقل أكثر ديكتاتورية، وعلى المرء أن يأمل ألا يكون ذلك نمطًا للفلاسفة. سمعنا بأن رايموند آرون اتهم ألتوسير مرة بأنه: « نسخة متخيلة من الماركسية»، وأعتقد أن ذلك ينطبق على فرويديته أيضًا، مع ذلك يشك المرء أن ألتوسير كان يقف وحيدًا مع التزاماته الأديولوجية.

ربما يأخذ ألتوسير نسخته عن فرويد كشيء مسلَّم به، لكنها تخبرنا عن شك ذاتي حول بقاءه في الحزب الشيوعي. على افتراض أن (أغبى خطأ في حياة ألتوسير) عندما فشل بقبول دعوة لقاءه مع ماو. بدا ألتوسير فخورًا بتسامحه حول تروتسكي بصرف النظر عن «عادته الغريبة بعدم التواجد في اللحظات الحاسمة في تاريخ السوفيات». لا يبدو هذا المنطق معقولًا بالنسبة لي، حتى لو بدا كذلك للآخرين، ولم أفهم لماذا يطلعنا ألتوسير على شرح «محلل صديق وقديم» لمفاجأته العظيمة، بأن خنق ألتوسير لزوجته كان تعبيرًا عن رغبة لا واعية بقتل محلله. قد يظن المرء أن مثل تلك التفسيرات المضللة كانت تحت مستوى المثقفين الغربيين.

بدا أن الفيلسوف الفرنسي كلما كان أكثر تألقًا كلما كان اتصاله بالتحليل النفسي يفتقر إلى الحس السليم. شكوكية فيتغنشتاين المتحفظة حول فرويد «ضعوها في دماغكم» بدت لي أمرًا مفضلًا عند دوغمائية ألتوسير. بينما عوقب تروتسكي على «عدم تواجده في اللحظة»،

لا يرى ألتوسير أن من اللائق إدانة ستالين لقتله منافسه المنفي في مكسيكو سيتي. تحمل ألتوسير الجدل حول عدم دفاع زوجته عن نفسها. يقول بعد تجربته لعدة أنواع من الأدوية القوية والصدمات العلاجية التي أعطيت له، كيف جعله هذا التصريح: «في يوم ما، وللحد من ذلك، سألتني بكل بساطة لأقتلها بنفسي». وهو تصريح لا يصدق، وفظيع بدرجة لا تطاق، «كنت أرتعش بتشنج لمدة طويلة، لازالت تسبب لي قشعريرة».

ترعبني فكرة أن الأفكار قادرة على أن تسبب الإدمان. من أقوال كارل كروس ألفيني المأثورة الخالدة: «التحليل النفسي مرض نفسي يعتقد نفسه علاجًا» وجه كروس سخريته للجميع عدا فرويد، ربما أتوقع من مؤسس التحليل النفسي أن يشارك بحسه الساخر لهذا الوضع.

توضح فلسفة كلا من ألتوسير وفيتغنشتاين أن من الصعوبة أن نفكر دون تصنيفات أعطيت لنا من قبل فرويد. وتوهمت في نفس الوقت، أن الفلاسفة سيستمرون بمحاولة الإتيان بمصطلحات مع الثورة الفكرية التي بدأها فرويد. حتى أن أسوأ استخدامات التحليل النفسي لم تكن بحاجة للتلميح بأن كل الأجوبة تكمن في ترياق حيوي كيمائي شاف لجميع الأمراض. ربما عرض فيتغنشتاين وألتوسير لأكثر من مسألة معاناتهم، لكن علينا التذكير بأن الفلاسفة ميالون لأن يكونوا حساسين، مما يجعلهم يتصرفون تجاه أعظم معضلات عصرهم على نحو يخالف العادة. في نهاية الأمر، ربما نجح فرويد في تحويل مفهومنا حول الطبيعة الإنسانية، وعلم أن هذا أكبر من أي إنجاز علاجي على المدى القريب.

لذلك عندما يعود المرء بذاكرته للتاريخ الفكري للقرن العشرين، يبرز فرويد كأعظم طبيب نفسي مرموق. أتت منزلة مؤسس علم النفس وبصورة جزئية، من قدرته على إيجاد مدرسة تعنى بأعماله خير عناية بعد وفاته. لكن جزءًا رئيسًا من قوة فرويد يعود لمواهبه الأدبية، فقد كان كاتبًا عظيمًا احتفظ الناس برسائله وهو لايزال في شبابه، وعندما ظهرت كافة رسائله مطبوعة، تسابقوا على شراء أعماله التي قد نشرت قبل.

الإقرار بتفوق فرويد لا يعني ضرورة تجاهل ما ذهب إليه من أخطاء، ومعظمها أخطاء لا تغتفر. فقد اقترح نظريات واسعة، وكان لديه توصيات عملية ملموسة، وكان مصدر حضور فرويد المركزي المهيمن هو المدى الذي وصلت إليه درجة مفاهيمه، والتي لم تشكل مجموعة متناسقة من الأفكار، ولكنها قادته مباشرة لعواقب عيادية. عمليًا نعلم الآن أن

فرويد يمكن أن يعزل هذه النظريات وينتهك بعض أهم مبادئه العلاجية. على سبيل المثال: لم تكن له علاقة على الإطلاق بحياة مرضاه كما يطيب له أن يتظاهر بذلك. أسر فرويد مناصريه الشخصيين بمختلف الأساليب، واستفاد هؤلاء التلاميذ من مرونة فرويد، وتستروا في الغالب عن العالم الخارجي وممارسته الفعلية. وتعاظم تأثير التحليل النفسي عبر ما بناه فرويد من نظام فكري متكامل، ليكون إيحاء دعم ذاتي كما رأيناه مع ألتوسير.

تطلب نجاح فرويد في تاريخ الأفكار جهدًا خاصًا لكي يعطى حقه في بداية أعماله، فقد كان له نقَّاد يهاجمون باقتدار أبرز أعماله الفكرية. لم يحظ هؤلاء الرواد المتشككون بانتباه إلا ما ندر، وربما رفضوا التحليل النفسي دون أدنى معرفة شخصية به، لكنهم عارضوا فرويد على أسس نظرية مختلفة. رغم أن فرويد كان له نجاح عظيم بترتيب مريدين شخصيين له، لكنه لجأ أيضًا لتصنيف التلاميذ الذين عارضوه على أنهم «منحرفون» يجب طردهم من حركة التحليل النفسي. كل تلك النزاعات الأديولوجية كانت بالأصل كشف غطاء للكثير، والتي بغض النظر عن مكانة فرويد في الطب، فقد كان بمثابة مخترع لدين علماني دنيوي. وأصبحت حركة التحليل النفسي «قضية» تتطلب إخلاصًا قويًا وتضحية «بالمنشقين».

مؤخرًا في العالم الناطق باللغة الإنكليزية، تمايل رقَّاص الساعة بشكل متواصل بأن فرويد يحقق رقم مبيعات الروايات، وأصبح من العصري الاعتقاد بالتحليل النفسي كهرطقة غير قابلة للبرهان، أو تصور كان مزيفًا لزمن طويل. وانخفضت سمعة فرويد في الطب كما لم تكن من قبل، ويقع المحللون في عدة دول، كما في بداية القرن العشرين موقع خلاف مع الوضع الراهن لمحترفي العالم.

سمعة فرويد كفيلسوف عالية كما لم تكن من قبل، وربما كانت المواجهة بين مارتن بوبر(*) والتفكير الفرويدي غير معروفة بدرجة كبيرة في تاريخ الأفكار. كان فرويد وبوبر نمساويين، يهوديين، ومن المستحيل فهم أحدهما بعيدًا عن خلفيته الثقافية والدينية. فمن اضطراب العالم القديم المشاهد، ذهبا بشكل مذهل وباتجاه مخالف. رغم أن بوبر لم يتعهد بإعادة النظر في فرويد والإقرار على فكره، إلا أن هناك عديد من الأدلة حول الأساليب

(*) فيلسوف يهودي، درس الفلسفة وتاريخ الفن وعلوم اللغة، شارك في تأسيس الحركة الصهيونية. من أشهر كتبه المقال الوجودي الذي عنونه: (الأنا والأنت). عام 1902م أصبح محررًا لصحيفة: «Die Welt» التي كانت المحرك المركزي للحركة الصهيونية، وفي عام 1925م بدأ بترجمة الإنجيل العبراني للألمانية.

المتشعبة لتفكيرهم الشخصي وكيف واكب كل منهما الآخر[1]. نعلم أنه في ربيع عام 1908م قام بوبر بزيارة لفرويد، وسأله بخيبة عن كتابته لكتاب كان بوبر يقوم بتحريره[2]. في وقت قصير لاحق عندما فكر بوبر بكتابة كتاب نقدي عن التحليل النفسي، كان قد صرف النظر عن ذلك عبر لو أندرياس سالومي، صديقة نيتشه القديمة الذي أتت لدائرة فرويد قبل الحرب العالمية الأولى. من الواضح أن لو قد احتجت بأن التحليل النفسي لايزال مذهبًا شابًا بحاجة للبناء، وبدا ذلك الأمر مقنعًا لبوبر. يستبعد من مؤرخي الفكر اليوم معارضة منزلة فرويد، وأن توصياته العلاجية ليست مناسبة ليوصى بها في هذا الزمن. حتى تابعة مثل لو أندرياس سالومي اتخذت جانبًا مختلفًا عن فرويد بنفسها، وقد أعطاها حرية التصرف وذلك بسبب موهبتها الفريدة والتقليد الأوروبي المركزي والتاريخي الذي قامت بتمثيله[3].

بصرف النظر عن النقاش المتعلق بفرويد. احتل بوبر منزلة كأحد أعظم شكوكي مستبصر، وقد عبَّر بشكل مستمر بأن نوايا فرويد الحقيقية ذهبت أبعد من بساطة علم النفس بذاته.

في ذلك الوقت ادعى فرويد أنه تعب بكل بساطة من كونه باحثًا محايدًا. رغم أن بوبر نادرًا ما تحدَّى فرويد تحديدًا، إلا أن «ولي عهده» القديم كارل يونغ، والذي أصبح محللًا «مارقًا» قام بالرد على نقد بوبر وما سماه يونغ بـ «سيكولوجية التحليل النفسي» الخاصة به. رغم كل اختلافات يونغ مع فرويد، إلا إنه زعم أن بوبر باحث علمي خائب الأمل. واحتج يونغ على تجاهل بوبر لاكتشافاته. وبغض النظر عن كل الانشقاقات بين فرويد ويونغ استمرا بإيجاد مشتركات بينهم، كان لديهم مظهر منهجي علمي متشابه، ولم يكن أي من فرويد أو يونغ ليعترف بسهولة عن المدى الذي اشتبكت فيه سيكولوجياتهم الشخصية في رؤى العالم الكامنة.

ربما يبدو ساخرًا أن بوبر كان يلزمه الاشتباك مع يونغ وليس فرويد، وكان فرويد آنذاك همجيًا خاصة حول المعتقدات الدينية. جزء من التهشم بين فرويد ويونغ كان سببه تساؤل

(1) Martin Buber on Psychology and Psychotherapy: **Essays, Letters, and Dialogue,ed. Judith Buber Agasssi** (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1999).

(2) Ernst Falzeder and Eva Brabant, **with the collaboration of Patrizia Giampieri- Deutsch, eds, The Correspondence of Sigmund Freud and Sandor Ferenczi**, Vol. 2 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996), p. 179.

(3) Maurice Friedman, **Martin Buber's Life and Work: The Early Years, 1878-1923** (Detroit, MI: Wayne State University Press, 1988), p. 172.

ديني وكيف يمكن الوصول له نفسيًا. من وجهة نظر فرويد، كان يونغ ابن قس، متسامح جدًا حول ما يمكن أن يدرس من المعتقدات الدينية المقارنة، والمسيحية بذاتها بدت لفرويد ندًّا عظيمًا.

كان بوبر منفتح بشكل ملفت للتعاليم الدينية، لكنه اشتبه شيئًا في منطق يونغ، والذي حلَّ موضع نزاع مع تعزيز الإيمان الحق. تجادل يونغ و بوبر لأنهما كانا على نفس الخط، بينما انساق فرويد نقيًا لبوبر. كانت المظاهر التي مثلها فرويد وبوبر على خلاف تام مع بعضها البعض، حيث افتقدت أساسًا مشتركًا كافيًا لوضع خلاف ملائم بينهما.

أثبت بيان فرويد التنبؤي ضد الدين أنه لم ينجح بفصل علم النفس عن الفلسفة. ويتضح أن كل ما كتبه يجب أن يفهم على ضوء قيم أساسية معينة، وهو بنفسه حاول أن يعزز معتقداته الشخصية. عرف بوبر بشكل بديهي أن فرويد منظِّر أخلاقي، يشعر بوبر أمامه بأن لديه قليل من المشتركات لإنتاج محادثة محتملة.

غريب بما يكفي، أن أكثر الجوانب المجردة في فكر فرويد تربطه بنيتشه، وكل الكتَّاب السابقين الذين سعوا لبحث كيف للحياة الجيدة أن تعاش، الأمر الذي ساعد بأن تبقى أعماله حية وذي علاقة. بصرف النظر عما حدث مع الطب الأميركي، يلعب المحللون النفسيون الآن دورًا ثانويًا في التحليل النفسي، الذي أصبح أكثر مركزية في أوروبا وأنحاء أميركا اللاتينية أكثر مما مضى. وأصبحت نظريات فرويد والأخرى التي تتبع تلاميذه جزءًا من التعليم العالي الجامعي، حيث يدرس موضوع التحليل النفسي كجزء من الحياة الأكاديمية الطبيعية، وليس فقط للذين يرغبون بأن يكونوا معالجين نفسيين بأنفسهم.

ربما يظهر أن فرويد تألم من تفوقه كفيلسوف، وأنه ازدرى وبشكل خاص نوعية نقد بوبر. لم يتفاجأ فرويد بشأن النزاع بين يونغ وبوبر، حتى لو كانا بالنسبة له أقرب للصوفية. كان يونغ على الأقل مستعدًا ليعترف بصلته الحقيقية للتفلسف، وبشكل خاص لعلم اللاهوت، بينما فرويد كان يحاول الانسحاب بازدراء خالص لتلك القضايا تحديدًا، والتي تتحول فيما بعد لتكون مسؤولة بشكل مناقض عن ضمان حيوي حديث لإسهام التحليل النفسي.

سيكون من الضروري استخلاص تصورات فردية عُرضت من قبل مؤسس نظام عظيم مثل بوبر لنفس الإطار الذي تحدث عنه، ليس عن ممارسة العلاج النفسي بل عن التوجه الأخلاقي المقترح في هذه الحركة الإنسانية. ربما اتفق هو وفرويد على سبيل المثال على التباين الخيالي الذي رسمه بوبر بين الذنب و«مشاعر الذنب». تجرد فرويد من أي ربط

رومانسي لنظرية تفوق الذات، والتي تختلف عن نظرية يونغ الشخصية التي سماها بـ «**التفرد**»، كان لفرويد نظرة متشائمة لنظريات تطوير الذات، ووقف بجانب العلاج الذي يفترض حلًا وسطًا معقولًا بين الشرور والعلم.

لم يحرِّف فرويد تعاليمه إبَّان نجاحه كمساعد علاجي، كما كان ممارسًا عياديًا مجتهدًا. ولم يظنّ أنه على نفس مستوى الأخلاق الذي كان عليه مرضاه. يمكن لمرضى التحليل النفسي أن يتفوقوا، لكن فرويد اعتقد بنهوض نزعة جديدة من المعايير الأخلاقية خارج نطاق علاجه، آخذًا في حسبانه التفاوت والهرمية عند علاجه المرضى العصابيين.

يلمِّح توجه بوبر بأكمله إلى أن المعالج لديه ما يستعمله مثل المريض، الأمر الذي كان بلا معنى عند فرويد. لم يُصمم التحليل النفسي ليكون نوعًا من تكافؤ الفرص. لكن نطاق اهتمام بوبر يسعى لبحث المشاكل الوجودية الأكثر تشويشًا للناس، إذا ما قورنت بعصابيات فرويد المختلفة التي تخصص بها. ربما كان لبوبر أكثر من تجربة نفسية أساسية متناقضة، كطالب شاب بدأ للتو دراساته، مقارنة بفرويد الذي كان متدربًا كطبيب أعصاب ولا يملك إلا القليل عن الطب النفسي.

لعب بوبر دورًا في تطوير ما سمي: «بقوة السيكولوجية الثالثة»، وكانت صلة بوبر مع كارل روجرز عاملًا لأهمية بوبر لمسألة العلاج النفسي. في تبادل بين روجرز وبوبر ربما يتضح للمرء أن كليهما من عالم فرويد الذي يفترض تحليلًا غيبيًا يتعامل مع عصابيين مغفلين تمامًا. ربما تكون عزلة فرويد خداعًا للذات، لكنه لم يدافع أبدًا عن الأخذ والعطاء بين بوبر ورجرز، حتى يونغ غير المعروف عند بوبر كان ناقدًا لآثار القوة التي بنيت داخل أجواء التحليل الفرويدية الأرثوذكسية.

أصبح بوبر واعيًا لبعض الإنسانيات المتشابكة مع التحليل النفسي، تحديدًا في مقترحات هاري ستاك سوليفان، الذي عمل مع الذهانيين وجعل الثقة بالنفس جانبًا رئيسًا لتركيز المعالج. بينما تحدى الآخرون داخل نطاق العلاج النفسي نوعية الأهداف التي كانت في ذهن فرويد. زعم فرويد أن لديه أهدافًا محدودة، مركِّزا على مساعدة المريض ليقوم بخيارات استقلالية. ولم تكن المثاليات كالصحة والأصالة أمورًا مطمئنة لفرويد، ومع ذلك، تنازل معظم المحللين منذ وفاته عن ضرورة التوصل لاتفاق مع جوانب اختار فرويد أن يتجنبها بصمت.

رغم أن المثالية خلف التباين بين ما يبدو صحيحًا كمعارض لما هو «خاطئ» بدت غريبة لفرويد، إلا إنها لم تمنع مدرسته لتكون معنية بوضوح بذلك الامتياز.

أصبحت الفكرة بأكملها عن الفردية (الأنانية)، تملك أهمية أولية للعلاج النفسي. عندما يقرأ المرء مقالات لبوبر ويأتي لمفهوم مثل هذا «التأكيد» من الصعوبة ألا تفكر أنه قد نجح بالتأثير على مهنة الطب النفسي، أكثر ممن رغبوا بالتعلم. إن مفاهيمًا مفتاحية مثل: القلق، التحول اللاوعي بذاته، بحاجة لأن يعاد اختبارها على ضوء تعاليم بوبر. كُتب الكثير مؤخرًا حول ضرورة التبادلية في العلاقة بين المعالج والمريض، رغم أن فرويد لم يحقق أي امتياز من إطار التنظير الأرثوذكسي، لكن تلميذه السابق أوتو رانك توصل لاستخدام بوبر كلغة عام 1928م، حيث ادعى رانك: «أن المرء ربما يختار أخلاق سيكولوجية الآخر نقيضًا لسيكولوجيته»[1] ر.د. لاينغ أيضًا اعترف بمارتن بوبر[2].

غُيِّبت أهمية السياق الاجتماعي الإنساني ضمن الفكر الفرويدي. حتى أنه كان يعبس عند الحديث عن السمات الوطنية، كما لو أن الاختلافات الثقافية ليست ذا أهمية وليس لها مصلحة علمية حقيقية. استجاب فرويد لثقافته اليهودية عبر توق ملحٍّ لتعميم كل اكتشافه، وقد كافح لأجل أن يصل لما وراء حدود بداياته الاجتماعية. مكسب وجود يونغ كطالب كان بالنسبة لفرويد تقدمًا لعالم وثني وتحالفًا مع مسيحي، وخُيِّل لفرويد أنه قادر على تحدي التعاليم المسيحية بشكل آمن. تشارك يونغ مع فرويد في تبرمه من الإرث المذهبي الديني، ورغم أن الدين في النهاية كان المصدر الأساسي لافتراقهم، إلا أنه كان مساعدًا على جمعهم في بادئ الأمر.

كانت عقلية بوبر في عالم آخر بعيدًا عن التحليل النفسي، وقد أظهر مبكرًا وبمرور الوقت كم كان فكره متعلقًا بالوصول لإعلان الشفاء. أحب فرويد أن يعتقد أنه مفوضًا لأعظم المثاليات لدى الغرب، فعند كل مرة يقتبس غوته وشياطينه، يجب أن نتذكر من أين اكتسب كبرياؤه لمناصرة نفسه. ليست الإنسانية على أي حال بحاجة لأن تكون عدوًا للعلاج النفسي، وبسبب محاولات بوبر لإبقاء تقليد المسيح غودو حيًا، بقيت أفكاره حول علم النفس دائمة الصلة.

(1) Otto Rank, **A Psychology of Difference: The American Lectures, ed. Robert Kramer** (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996), p. 231.

(2) Bob Mullan, **Mad To Be Normal: Conversations with R. D. Laing** (London, Free Association Books, 1995), pp. 112, 115, 136.

لم يعلِّق فرويد في العلن على أي من كتابات بوبر، لكنه علم قطعًا المكانة التي حيزت له. (كلاهما فشلا في الحصول على جائزة نوبل) وتبين أن فرويد كان في مكتب استشاراته يقارن نفسه بحاخام هازديك، ويحكي قصصًا هازديكية في إطار ممارساته العيادية[1]. قام فرويد بذكر بوبر مرة واحدة في رسالة تتعلق بردود الأفعال المحتملة لكتاب فرويد «موسى والتوحيد Moses and Monothism». في آخر سنة من حياته في منفى إنكلترا، كتب فرويد لتلميذ مخلص عاش في فلسطين: (مارتن بوبر وعباراته الورعة لن تؤذي كتاب: «تفسير الأحلام Interpretation of Dreams»، كتاب موسى أكثر عرضة للهجوم من اليهود، وأنا مستعد لذلك)[2]. تخلق العلاقة المتبادلة بين بوبر، يونغ، فرويد وعلم النفس الحديث، إلى جانب قضايا طرحت من فيتغنشتاين وألتوسير إضافة ساحرة لفهمنا للفكر السياسي والاجتماعي.

(1) Paul Roazen, **Freud and His Followers** (New York: Alfred A. Knopf, 1975; New York: Da Capo, 1992), p. 408.

(2) Quoted in Yosef H. Yerushalmi, **Freud's Moses** (New Haven, CT: Yale University Press, 1991), p. 115.

الفصل السابع

المنظِّرون

رغم أن هناك مخاطر أن أكون شخصًا غريب الأطوار، إلا أن موضوع النظرية السياسية قد مرَّ بأوقات صعبة كما يبدو لي. كنت مع ذلك مشجعًا لقراءة لكتاب روجر ماسترز الحيوي، كمشروع غريب حول النهضة الإيطالية. لأربعين سنة أو خمسين سنة مضت كانت الفلسفة السياسية من غير ريب أكثر جزء ساحر في العلم السياسي، كمجال رئيسي بمعايير مبنية على التميز العلمي، أما بقية المجال فقد بدا متعفنًا بسبب ربطه بالأحداث الحالية، وصُنف ميدان العلاقات الدولية كأدنى منزلة في القسم. في ذلك الوقت، كان كل قسم أكاديمي يفخر بنفسه بحسب نفوذ نظرياته السياسية، ولم تخلُ أي جامعة لائقة من واحد أو اثنين من الممارسين على الأقل. أذكر أن قسم العلوم السياسية في هارفارد، شعر بتقصيره في عدم استبدال تشارلز ماكلوين بعالم متخصص بالقرون الوسطى.

اليوم وللأسف، تسعى العلوم السياسية لتتماشى مع كونها صوابًا، ولكن بقليل من التبصر. بدا أن الأقسام ارتدت للوراء في تنافسها باستقطاب سياسيين سابقين، أو صحفيين متدربين، ممن دفعوا القادة السياسيين الطموحين للصعود على سلم السلطة، وانخرطوا في نموذج قديم للسلوك السياسي العقلاني المفترض. كان للقضايا السياسية أولوية على امتداد التاريخ الفكري في أميركا، رغم أن الممارسة التقليدية للفلسفة السياسية لايزال يُعهد بها في بريطانيا وأميركا. هنا تختص دراسة القانون الدستوري بكلية القانون إلى حدٍّ ما، وقد كانت مرة جانبًا مطلوبًا لتخصص العلوم السياسية. واختفت الفكرة القديمة عن مثقفي البرج العاجي الباحثين في تاريخ الأفكار تمامًا. استهوت الحرب العالمية الثانية العديد من الأكاديميين لخدمة الحكومة مؤقتًا في قتالها ضد قوات الحلف، لكن في حرب فيتنام قامت وزارة الخارجية بتمويل ترتيبات صغار الأكاديميين المر، الذي ساهم بتآكل استقلال العلوم

السياسية. إلا أن نموذجًا مثل هنري كسينجر، ومستشارين آخرين للسياسة الحكومية، ساعدوا بنقل طبيعة المنهج الأكاديمي ومطامح هيئة التدريس الشابة.

وحول مسائل أخرى، أفسدت الطائفية الأديولوجية مكانة من سعوا لدراسة النظرية السياسية. وتنازعت مجموعة من الطوائف المختلفة على الحق المسموح لها في النظرية السياسية. فعلى سبيل المثال، استمر المحافظون ممن تبعوا ليو ستراوش بتعزيز تعاليمهم منهجيًا وجوهريًا، بينما مالت الفرقة الليبرالية للانجذاب لما اهتمت به أقسام الفلسفة آنذاك، مما يعني أن تاريخ الفكر بنفسه، إضافة للأسس الاجتماعية للفلسفة السياسية، قد تراجع للخلف. سعى الماركسيون من مدارس فكرية مختلفة لأجندتهم الخاصة، وكان للراديكالية الاجتماعية صورتها الخاصة في الفكر السياسي. وكانت النتيجة أن اهتم الطلاب بالنظرية السياسية كما لم يحدث من قبل، واستطاعت الأقسام أن تفلت من دعم المنظِّرين. وبذلك تحول مركز الانضباط من تاريخ إلى مخاوف ظهرت أكثر واقعية.

في ذلك السياق، جاء كتاب روجر ماسترز: «الثروة نهر: ليوناردو دافنشي ونيكولا ميكافيللي وحلم تغيير مسار تاريخ فلورنسا ـ Fortune is a River: Leonardo da Vinci and Nicolo Machiavelli's Magnificent Dream to Change the Course of Florentine History»[1] أتى كنجاح متميز ومرحب به. لامست بعض التعليقات الأولى من كتاب ماسترز حاجة التكتم في عصر النهضة، حيث أُمسك بمكافيللي مرة وعُذب على ما يبدو لتآمره في المكيدة ضد ميدتشي في فلورنسا، ذلك لأن الهرطقة كانت جريمة نكراء في ذلك العصر. كانت أهمية المقاصد الخفية للمنظرين السياسيين ولمدة طويلة موضع خلاف من جانب ستراوش وتلاميذه، لذلك أفترض أن ماسترز ينتمي لذلك الحزب. للأسف كان الستراوشيون متعالين جدًا على الدونية الفكرية المزعومة لتحقيق السير الذاتية، ورغم أننا أحوج ما نكون لسيرة ستراوش، إلا إنه لا يوجد سيرة قد نشرت له حتى الآن. تفسيرات مدرسة ستراوش باختلاف أجنحتها قد كُتبت بالأساس بواسطة معارضي ستراوش، مما يعني أنه شجع المحافظين الجدد إلى حدٍّ كبير[2].

(1) Roger Masters, **Fortune Is A River: Leonardo Da Vinci and Niccolo Machiavelli's Magnificent Dream To Change the Course of Florentine History** (New York The Free Press, 1998).

(2) Shadia Drury, **Leo Strauss and the American Right** (New York: St. Martin's Press, 1999).

مع أنني لم أعِ جيدًا سحر تعاليم ستراوش، إلا أن كتاب ماسترز الجديد كان له جاذبية بعيدًا عن كـونه كتابًا مرجعيًا. أُختير كتاب: «الثروة نهر» من قبل نادي كتَّاب الشهر، ونادي كتاب التاريخ، بالإضافة إلى نادي كتَّاب الجودة الورقية، إذن ليس خفيًا أن هذا الكتاب قد حظي بقراءة واسعة، رغم أن ذلك سيخالف التعميمات التي أظهرتها حول حالة النظرية السياسية ليومنا هذا. لم يكن فحوى الكتاب مشروعًا سريع التلف، رغم أننا سنرى أن بعضًا من النزاعات مشكوك فيها. وظلّ في ذهني تمامًا أن تلاميذ ليو ستراوش - مهما ظننت بسياستهم - إلا أنهم بذلوا الكثير لحفظ الفلسفة السياسية حية أكثر مما كنت أتوقع، وإذا كان من المناسب ربط ماسترز مع ستراوش، فذلك سيضيف بريقًا لإرثه.

موضوع كتاب: «الثروة نهر» يتعلق بوجود ارتباط بين ليوناردو دافنشي وميكافيللي كما افترض ماسترز. تجاهل أدب ميكافيللي التقليدي احتمالية علاقته بليوناردو، رغم ما علمه مؤرخو الفن عن علاقة المفكر السياسي بالفنان. على أي حال، بغض النظر عن غياب توثيق الأحداث الذي كان سيرضي الجميع، استكشف ماسترز محاولة الفلورنسيين في بدايات القرن السادس عشر لتحويل نهر أرنو لطريق لا تكون فيه فلورنسا ميناء وحسب بل ستحرم مدينة بيزا من إمداد المياه. وحتى هذا اليوم، كبُر أطفال فلورنسا مؤمنين بأن بيزا كانت صفقة جيدة لكنها ليست إنسانية، وعلى مدى خمسة قرون تقريبًا كانت المنافسة بين المدن هي ما يهم ميكافيللي كخادم مدني رفيع لحكومة فلورنسا. إن توحيد إيطاليا أمر حديث نسبيًا، ولا تزال الصراعات القديمة بين المدن والمناطق حقيقة للحياة السياسية المعاصرة. لكنني أظن أن عداوة فلورنسا اليوم نحو بيزا تعكس على نحو باهت ضخامة الحسد الكائن في بداية القرن السادس عشر.

يدعو ماسترز العلاقة بين ميكافيللي وليوناردو بـ «العلاقة الغامضة» بينما في الحقيقة ليس هناك أي مدعاة للاعتقاد بأنهم كانوا أصدقاء في الواقع. يزعم ماسترز أنهما ربما «التقيا لأول مرة» خلال عام 1502م عندما كانت طرقهم تتقاطع عند محكمة قيصر بورغيا. لاحقًا بنحو سنة كان كلاهما في فلورنسا يعملان في مشروع لتحويل اتجاه نهر أرنو، والذي أثبت فعليًا فشلًا ذريعًا. قبل عشر سنوات، أمِل ليوناردو أن يجعل نهر أرنو صالحًا، وهذا يعني أن تكون فلورنسا ميناء ويكون وادي أرنو مسقاة. توجهت مصالح ميكافيللي نحو جيش فلورنسا والسياسة الخارجية، ويمكن أن يرى مقترح ليوناردو على أنه محاولة لكسب الحرب ضد بيزا، التي كانت مصدر ضغط هائل لعقود.

بعيدًا عن مشروع أرنو، استلم ليوناردو عمولة من فلورنسا عام 1503 للميلاد ليرسم لوحة هائلة. وقام أحد مساعدي ميكافيللي بوصف مشهد المعركة لتُرسم، وقد وجدت هذه اللوحة في مذكرات ليوناردو. هذا المساعد الذي ساعد ليوناردو هو من طالب بشرعيته من الإرث.

لسوء الحظ انهار ما دعاه ماسترز: «الحلم العظيم لتغيير مسار تاريخ فلورنسا» فقد انهارت الخنادق التي حُفرت لنهر أرنو نظرًا للهندسة الضعيفة، وسوء الطالع الحقيقي. أُلغي المشروع أخيرًا رغم ما كان من ندم حول المال الذي أهدر من أجله. حتى اللوحة الهائلة التي عمل عليها ليوناردو لفلورنسا أثبتت فشلها، فلم تكن مهارات الرسم متزنة، وبالتالي تخلى عن هذا المشروع. يعتقد ماسترز بأن تلك «الإخفاقات» قد تشرح سبب عدم كتابة ليوناردو أو ميكافيللي عن عملهم المشترك. وأن حكمهم وكفاءتهم كانت محل شك بسبب «كارثة» التعاون الذي أعاد تشكيله ماسترز، إلا إنه يعتقد أن هذا قد يعلل عدم رغبة أي منهما لفت الانتباه لما قد حدث من إخفاقات.

دليل ماسترز على اجتماع ميكافيللي وليوناردو ليس إلا دليلًا مبعثرًا في أفضل أحواله، لكنني أظن أن هذه التفاصيل في موضوعه أقل أهمية من الأثر الثقافي العام لكتاب: «الثروة نهر». يمكن للكتاب أن يكون وسيلة لمعرفة المهن المتماثلة لمكافيللي وليوناردو، حتى لو بدت الأسس التاريخية لتعاونهما عام (1503 ـ 1506م) هشّة. يستحيل للمطلعين على دور ميكافيللي أن يتوائموا مع قصة حياة ليوناردو، ولا يتوقع من مؤرخي الفن معرفة ما دخل وخرج من إرث ميكافيللي السياسي. رغم أن ليوناردو كان مهمًا للعلم والتكنولوجيا مثلما كان للفن، إلا أنه شغل مهنة دنيوية مزدهرة، ولم يكن ذلك لمكافيللي الذي كفلت له الكتابة سمعة ثابتة نتجت ربما من وقت الفراغ المفترض لديه، عندما أُبعد من السلطة التي خبِرها قبل ذلك.

أنعش كتاب: «الثروة نهر» عالم عصر النهضة، فتوضح أحد الصور الخالدة في كتاب: «الأمير» لمكافيللي كيف أن الثروة يمكن أن تكون نهرًا هائجًا أو طيِّعًا. نُشرت تقارير من رحلة كولومبوس الأولى في فلورنسا عام 1493م، لكن مضى قرن حتى عُرف عنه أنه وجد قارة جديدة بدلًا من الأراضي الرئيسة لآسيا التي افترضها. بالنسبة للتجار، كون أن الأرض كبيرة جدًا فهذا يدعم احتمالات التبادل التجاري. وبذا تزايدت جاذبية فلورنسا لتكون ميناء

أيضًا. ومن المثير للاهتمام إشارة ماسترز إلى أن خلفية لوحة مونااليزا قد رسمت خلال فترة مشروع أرنو، ولا تحوي النهر فقط بل حتى الحصن خارج بيزا.

لذا بغض النظر عما اعتقدت أنها دولة فقيرة لنظرية سياسية معاصرة، إلا أننا نلحظ أن الكتَّاب غالبًا يسخِّرون أنفسهم لمصالح بعضهم البعض، فقد أنعش ماسترز التقليد القديم للفلاسفة السياسيين الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية تبصرة العامة. أفكر على سبيل المثال كيف كتب كارل بيكر مرة عن (إعلان الاستقلال) و(عصر التنوير)، وكيف سخَّر هارولد لاسكي نفسه في إنكلترا للمصاعب باستخدام أكثر الأصناف تجريدًا. يمكن أن تكون المخاطر كامنة بين مثقفي العامة الذين يخلطون الدراسة بالحياة اليومية، وأسماء مثل: بيكر ولاسكي ميالين لتهييج السخرية من أكاديميي العصر الحديث. كان قلقي من أن ماسترز ربما ذهب بعيدًا في معاملة ليوناردو وميكافيللي كمعاصرين، ليفترض افتراضات منطوية على أحداث تاريخية، وربما سقط في لبِّ مهمة المؤرخ الذي يعرض لنا عالمًا لا يشبه عالمنا. عمليًا، يوضِّح كتاب: «الثروة نهر» عالمًا مميزًا لذلك الوقت. اختار ماسترز على نحو مطلق المسعى القديم الذي يجعل النظرية السياسية مركزية لفهمنا للسياسة. إن سعي التاريخ الفكري كشف غموض التعقيد لما قد حصل أو لم يحصل بين ليوناردو وميكافيللي، ربما يبدو لأول وهلة بعيدًا عن حياتنا اليومية. لكني أشاركه الإيمان بأن تنوير المواطنين أساس حاسم لاستمرار الديمقراطية، ثم في النهاية لا وجود لصلة غير تحصيل تعليم عام جيد.

***

منذ المقال الأول لجان جاك روسو عام 1750م «خطاب حول الفنون والعلوم» استنكر فيه فساد الحضارة الجديدة، واُعتبر بحق أحد عمالقة الحضارة الغربية، ولم يستمر الأمر طويلا حتى أصبح مشهورًا.

في عصر التنوير الفرنسي، كان معاصرو روسو العقلانيين مضطربين حول الاتجاه الذي اتجهت إليه أفكاره. دينيس ديدرو الذي كان صديقًا لروسو، كتب في مساء لقائهما الأخير:

«هذا الرجل يجعلني ضجرًا، أشعر بجانبه كأنني روح ملعونة.. لم أرد لقاءه مرة أخرى، قد يجعلني أؤمن بالجحيم والشياطين». في عام 1776م أي: قبل سنتين من وفاة روسو، دارت شائعة حول وفاته، فكتب فولتير على نحو قاس: **«جان جاك روسو فعل الصواب**

بموته». أُقتبس روسو مرة من الثوريين الفرنسيين على هامش قضيتهم، مما جعل سمعته أكثر خطرًا وتضمينًا بالشر.

نمَّت أعمال روسو تقليدًا مزدوجًا لكل من المدافعين والمعادين. وعلى الجانب الآخر عمل روسو كرائد حقيقي للفردانية الحديثة، الرجل الذي ناصر الحرية غير المقيدة للرأي وحقوق الإنسان. ولأجل الآثار السياسية والاجتماعية المتميزة لكتاباته، فقد اعتبره البعض ديمقراطيًا عظيمًا، رجلًا سعى لأقصى درجة من المشاركة الشعبية في صنع القرار.

وعلى النقيض، اتهمه المعادون بأنه مخدوع بحرية تحرير البشر، وأنه هجر كل الالتزامات الأخلاقية والتعاليم الواجبة. بالإضافة لذلك، منذ نهضة الشمولية في القرن العشرين، تلقى روسو لومًا لاقتراحه التضحية بالفرد مقابل الجماعة بشكل متهور، والذي يعني غياب حرية الفعل وتحرر الوعي.

عزز انقسام الآراء التوسع في الكتابة حول روسو. ولا يزال كتاب: «جان جاك روسو، الشفافية والتعطيل Jean Jacques Rousseau: Transparency and Obstruction»[1] لستاروبينسكي، والذي ظهر للمرة الأولى في فرنسا عام 1957م (وسِّع لاحقًا في طبعة 1971م) وترجم للإنكليزية في 1988م، يعرف كتحفة نقدية مذهلة. الكتاب خصب أكثر من كونه سيرة ذاتية، باهتمام ستروبينسكي الدقيق بأفكار روسو بالإضافة لحياته، فقد نجح هذا الكاتب في كتابة أعظم كتب النظرية السياسية الحديثة.

سلط إسهام ستاروبينسكي للدراسات الحالية عن روسو الضوء على مدى «ملازمة فكرة انعدام التواصل البشري» لروسو، وكيف أن ذلك تركه في حلم مؤقت. مثل هذا الخوف بدأ بعمر مبكر، عندما خبِر روسو صدمة الاتهام الكاذب. فقد أُتهم خطأ بكذبه في إثم تافه، عنى ظلم هذا الحادث لروسو بأن شفافية الاتصال بين البشر أصبحت جنة ضائعة. بالتالي، أصبح روسو مهووسًا وفزعًا بفشل تواصل الناس فيما بينهم، واختباءهم من بعضهم البعض.

كانت النقطة الأساسية لروسو، وفقا لستاروبينسكي، أننا نعيش في جحيم غامض. احتكم كثير من معاصري روسو إلى اعتقاده بأن على الناس استعادة الشفافية التي فقدوها. كان روسو ثوريًا في دفاعه عن المثل العليا للطبيعة الإنسانية الخالدة، التي اضطرت للتحمل

(1) Jean Starobinski, **Jean-Jacques Rousseau: Transparency and Obstruction, translated by Arthur Goldhammer** (Chicago, University of Chicago Press, 1988).

في جو تافه من الثقافة القائمة. وعزم أن يجعل حياته نموذجًا لا تشوبه شائبة بإبعاد نفسه عن أصدقائه السابقين الذين يحملون فلسفة طفيلية لمجتمع انحلالي. اختار روسو إبعاد نفسه من المجتمع وأُعتبر غريبًا في عالم يسعى لأن يكون عارًا على نفسه. يعلل روسو بأن الشفافية إذا كانت ممكنة التحقيق بالإرادة العامة، فعلى المجتمع أن يذعن لها حتى على حساب سعادة الفرد. لكن لو أن الشفافية تتشكل في عزلة الفرد، فالحل إذن الانسحاب من فساد الوجود العام.

قلَّص موقف روسو النظري من شعبيته بين زملاءه الفلاسفة. ولكن حتى من دون استهجانِهم له، كان لروسو أفكارًا خفية حول اضطهاده وتشويه سمعته. ستاروبينسكي لطيف حينما يستحضر تشخيص الفئات، لكنه لا يستطيع تجنب التلميح بأوهام روسو الشكوكية، الشكوك التي كانت جوهرية لمشروع روسو الفلسفي بأكمله. كافح ضد كافة العراقيل بأقصى درجة من الإخلاص الإنساني، وسعى لأن يكون معلمًا للإنسانية، ومتيقظًا للاحتمالات الراقدة. كان يشعر بأن خصومه يمكن تصورهم مثل قوى غير شخصية، أي: مجرد «أشياء ميكانيكية» تحركها «حاجة عمياء».

وجد ستاروبينسكي في روسو رجلًا يبحث عن الخلاص الشخصي. رغم أن عديدًا من مفكري القرن الثامن عشر كانوا بالأساس مهتمين بعلمنة المفاهيم الدينية. في تأمل سيرته الذاتية، نجد أن روسو اقتفى نموذج القديس أوغسطين، لكن الصورة التي قدمها لنفسه كانت مفزعة غير متناغمة، والتي لاحظها ستاروبينسكي بشكل سليم، حينما قال: «تطلب الأمر فرويد للتفكير بمشاعر روسو». يلزم التحليل النفسي أن يكون قادرًا على فهم ولع روسو بتحمل كل أقصى درجات العذاب لاتهاماته.

كان من الواجب أن يتضح لروسو أن أفكاره يمكن أن تسقط في سوء الفهم. لكنه أحب أن يصيغ التناقضات على أي حال. للمهتمين بتاريخ مفاهيم الحرية، سيُذكر روسو على أنه شخص أصرَّ بحماس على أن الاضطراب الداخلي يتداخل مع تحقيق الذات. يقول عن الوعي الحاد بمدى عرقلة «ذواتنا الدونية»: «لم أؤمن قط أن حرية الفرد تتضمن فعل ما يريد، لكن بدلًا من ذلك بعدم فعل ما يودُّ فعله أبدًا». بدا روسو لبعض الحريات الضيقة منخرطًا في حديث وحشي مزدوج، لكن للعديد منا ما هو إلا بطل للطريقة التي أعاد بها تعريف منزلة الحرية بأسلوب سيكولوجي واقعي.

بالإضافة لنص ستاروبينسكي الأصلي، قام بإثرائه بإدراج سبعة مقالات إضافية، كتبت بين عامي (1962 و1970م) والتي تغطي مختلف المواضيع الرئيسة والمشاكل في فهم فكر روسو. في حين لا يوجد نص يحسم الجدل حول منزلة أفكار روسو، ولا يمكنني أن أفكر بكتاب آخر عن روسو، له أصالة مقنعة فضلًا عن كونه منصفًا تمامًا.

***

مثلما ألمحت، أعتقد أن الوضع الحالي لدراسة النظرية السياسية كئيب جدًا. رغم هذا أعرب مايكل والزر مؤخرًا في صحيفة: «Dissent» بأن «العالم الأكاديمي يمتلئ بالكثير ممن يعملون في النظرية السياسية أكثر من قبل». نوعًا ما، أعتقد أن هذه الأرقام دلالة على أن «ذلك الحقل منتعش»، وذهب والزر في زعمه هذا أن ذلك بسبب «قلة التفكير الجاد والنقاش عن السياسة خارج النطاق الأكاديمي».

حسبما أرى فالقصة الحقيقية قصة أخرى. إن السعي التقليدي للنظرية السياسية في الجامعة لم يكن أسوأ من قبل. لو فتح أحد مجلد «العلم السياسي الأميركي» قبل خمسة وأربعين سنة، سيكون هناك مقالات تنويرية مترفة وغنية ثقافيًا، مهمة للقارئ العام، والتي ستزيد عدد الممارسين ليس لتقدمها بل لانحدارها كما أظن. ما من أحد مهتم بشكل جدي في الحياة السياسية الحالية، إلا ويكون منتفعًا من الأسلوب ضيق الأفق الذي ينتهجه الأكاديميون حاليًا في دراستهم للنظرية السياسية. ظهرت جماعات من نطاق الأكاديميين، جماعات معجبة بذاتها، كل واحدة منها تنتهج النظرية السياسية بأسلوب ذاتي يخصها، وأصبح التقدم في الحياة الجامعية يعتمد على إسعاد القلة، بدلًا من اجتذاب جمهور القرَّاء المتعلمين. هناك بالتأكيد متسعو الأفق مثلما كان هناك الماركسيون ضيقي الأفق، والمتسامحون الستراوشيين وكذلك المخربون، فلاسفة حقيقيين وأيضًا متمنطقون، مؤرخون صادقين ومتحذلقين، لكن خارج فوضى تلك الطوائف المتناحرة، كانت كل طائفة قادرة على مكافأة أعضاءها بترقية أكاديمية، وأصبح العلم مجالًا بعيدًا عن اهتمام الطلاب الجامعيين. استمرت حيوية النقاش السياسي خارج النطاق الأكاديمي بغض النظر عن العديد من الأديولوجيات الأكاديمية التافهة التي لا محل لها.

انطباعي أن الوضع في إنكلترا وفرنسا يفوق ما نحن عليه في شمال أميركا. على أي

حال، ستانلي آيلنغ كتب سيرة: «إدموند بيرك ـ Edmund Burke»[1] التي ستهم أي شخص معني بالتاريخ الفكري. رجل إنكليزي مثل آيلنغ بقي متيقظًا بغض النظر عن ركوب التوافه الذي مُني به أسوأ الأكاديميين المتعجرفين، وبقيت هذه السيرة أساسًا لفهم ماضي الفكر السياسي بكل تأكيد. جاءت كلية موريس كرانستون الاقتصادية في لندن مدافعًا آخر ضد التقاليد الأكاديمية الأخيرة، لذا نحن مدينون له ليس لأجل سيرة جون لوك عام 1957م، ولكن لأجل المجلدات الثلاثة عن سيرة روسو التي نشرها عام 1983م. لا تتناسب السيرة مع المطالب التي سماها ويليام جيمس بأخطبوط الدكتوراه، مع هذا لايزال كاتبو السير الذاتية مزدهرين في دائرة الأدب، وإن شعر المنظِّرون السياسيون بأحقية أن ينظروا إليهم بتكبر.

لم يهتم آيلنغ بالفوز بالألعاب الرياضية أكاديميًا، والتي شوَّهت دراسة النظرية السياسية لهذا اليوم. كان أول ما كتبه عن بيرك ليتبعه بنشر مجموعة مراسلاته، والتي ظهرت بين عامي (1958 و1978م) في طبعة تحوي عشرة مجلدات. بغض النظر عما ادعاه الناشر تضليلًا حول السترة، سيرة (إدموند بيرك) لآيلنغ لم تكن «أول سيرة تظهر في هذه الخمسين سنة». كتاب آيلنغ قصير نسبيًا ولكنه جدلي، يقع فيما يقارب 300 صفحة، كنت أميل لأن يكون كتابه أطول وأكثر توسعًا لشخصية مثل بيرك. من الصعب التفكير بأن أي شخص مهتم باللغة الإنكليزية لن ينجذب لعظمة بيرك ككاتب.

كانت فصول طفولة بيرك وشبابه بالنسبة لي مختصرة جدًا. حينما أسس كونور كروز أوبراين جذور بيرك الإيرلندية، كانت بمثابة مفتاح لي لفهم سياسته لاحقًا، كان بيرك ابنًا بروتستانتيًا لأم كاثوليكية. (حتى قيل إن والده اعتنق الكاثوليكية لدوافع مناسبة). دفاع بيرك عن النظام الفرنسي القديم، يجب فهمه على ضوء مصاعب هجرته إلى لندن في عمر الواحدة والعشرين لحماية الكاثوليكية في إيرلندا، (زوجة بيرك وأخته كانتا كاثوليكيتين). بمعايير الإيرلنديين، كان بيرك مخربًا وكان معارضًا بحزم للوضع الإنكليزي الراهن الذي حرم الكاثوليكيين حقوقهم وحرياتهم. إيرلندا في نهاية الأمر كانت بلدًا محتلة، ولذلك كان بيرك متعاطفًا بحكمة للثورة، حتى دوره في السياسة البريطانية كان دخيلًا إلى حدٍّ كبير، رغم أنه اشتهر بجدارة كأعظم منظِّر للمحافظين. في حياته ظهر غريب الأطوار في تفكيره،

(1) Stanley Ayling, **Edmund Burke: His Life and Opinions** (New York: St. Martin's Press, 1988).

وفي أحايين كثيرة غير متزن. وإذا لم يقدم آيلنغ الكثير في تمحيصه لسنوات بيرك المبكرة لتحضيرنا لسنوات رشده المتطرفة، إلا أنه على الأقل لم يتساهل في أي تأملات غريبة ليضللنا بتحليل نفسي مفترض.

عندما كان شابًا في لندن، فاز بيرك بإعجاب صامويل جونسون، لاحقًا عندما أكمل بوزويل كتاب: «حياة جونسون ـ Life of Johnson»، أطلع بيرك عليها (من بين الجميع) لأجل أن يفوز باستحسانه. كان بيرك صديقًا مقربًا لأوليفر جولد سميث والسير جوشوا رينولدز. بمنظور عصره، كان بيرك والمقربون منه مثل مغامرين إيرلنديين عزموا على بناء أنفسهم أسيادًا. بنى بيرك في وقت مبكر تحالفًا مع جناح واحد من حزب ويغ، الذي استلم قيادته من اللورد روكينغهام، الغني وصاحب المكانة العالية. وبدعم من مناصره، ونيابة عن الفصيل المعترف به والناقد على الملك جورج الثالث، الذي خدم كعضو لمجلس العموم لتسع وعشرين سنة.

موقف بيرك الاسترضائي نحو المستعمرين الأميركيين في وقت حرب الاستقلال كان بطوليًا، وجدير بالذكر أن بيرك اتخذ موقفًا ضد ما رآه هو ومن المستعمرين من تدخلات مبتكرة من الحكومة البريطانية في الشؤون الأميركية، كان الناخبون غير راضين عن موقفه لأنه يخالف مصالحهم الشخصية المؤقتة. وكان ذلك بسبب خطابه الشهير دفاعًا عن استقلال التشاورات النيابية، وتبرأ من فكرة كونه عضوًا في مجلس النواب لا يجعل منه عميلًا لإرادة من يمثلهم. لم تكن سياسته شهيرة بقدر كاف، حيث لزم عليه مرارًا إيجاد مقعد آخر له. آمن بيرك بالفكرة القديمة حول الرغبة بمؤهلات ملكية للمصوتين، كانت ثقته في عقلانية الناخبين محدودة، لدرجة إنه في نهاية حياته اعتقد أن جزءًا صغيرًا من مجموع السكان يملك حقًا شرعيًا للتصويت.

رغم أن بيرك مشهور الآن لمعارضته المبكرة للثورة الفرنسية، وإدراكه الاستثنائي للعواقب الدامية لإبادة مجتمع عبر تغيير جذري، كان فخورًا بنفسه، وانتقاداته المتواصلة لانتهاكات وارين سميث في الهند. تعقب بيرك باستمرار إقالة هيستنغز الذي كان حاكمًا عامًا لشركة الهند الشرقية. بقدر ما رأى بيرك أن التبعية ضرورة اجتماعية، وأن الزعماء يجب أن يعزلوا من مطالب الجماعة، إلا أنه ذهب للتعاطف مع الهنود المضطهدين ممن ذهبوا ضحية نظام صممه هيستنغز. كانت لغة خطاب عنيفة جدًا لدرجة أنها أثارت ما سماه: «بثورة مضادة له». أخذ آيلنغ آراءه بشأن الهند، وأميركا، بجدية تامة، على العكس من توم بين الذي

دائمًا ما يسخر من خطاب بيرك المتكلف وتمويهه للمصلحة الذاتية (عرف عن أخ بيرك أنه لم يكن سعيدًا في الهند).

أعطت فصاحة بيرك أدق استقراء مهني، لكن قسوة خطابه عنت أنه لم يحصل على اعتبار جدي لأعلى المناصب العامة في أيامه. كانت وفاة روكينغهام في عام 1782م بداية لنهاية جناح حزب بيرك، وهلكت الأجنحة بأكملها بسبب الانقسامات الداخلية ضد ردة الفعل اللائقة للثورة الفرنسية. في خضم انهيار القواعد السياسية الداعمة له، قبل بيرك انعدام شعبيته عند العامة وعزلته داخل حزبه.

رأى بيرك نفسه كمدافع قوي للمبادئ الدستورية للثورة البريطانية العظمى، تسوية عام 1988م. لسوء الحظ، لم يشعر بحاجة للاستعلام بشأن القواعد الاجتماعية للثورة الفرنسية، أو إلهاماتها الخيالية، بالنسبة لبيرك كان كافيًا أن تنسب هذه الاضطرابات في فرنسا لعواقب مخربين لا مسؤولين، كما سعى لتمييز الوضع الفرنسي عما حصل أواخر القرن السابع عشر في إنكلترا.

تعرُّض الطلاب الأكاديميين المعاصرين لبيرك عرَّضه لنوع كاذب من الاستقامة في داخله. رغم أنه لم يكن فيلسوفًا فنيًا، إلا أنه شرح بعضًا من الأفكار الرائعة في لغة خالدة. على سبيل المثال: وافق على أن الفرنسيين كانوا «مستحقين» لـ «للحرية»، لكنه قلق (مثل روسو) حول «أسوأ ما وجد ألا وهي العبودية، هذا الاستبداد بعواطف عمياء ووحشية».

من بين جميع المصطلحات الفضفاضة في العالم، كانت الحرية هي الأكثر غموضًا، فهي لا تعني العزلة، أو انعدام الترابط، والفردية، وهي ليست حرية أنانية... الحرية التي أعنيها الحرية الاجتماعية. الحرية التي تكون فيها حالة الأمور مكفولة بالمساواة وضبط النفس.. هذا النوع من الحرية ليس إلا مسمى آخر للعدالة، التي لا تتحقق إلا بقانون حكيم تكفله مؤسسات شُيِّدت على نحو سليم.

أدرك بيرك أن الثورة الفرنسية خطرة ليس على إنكلترا فقط، بل حتى على أجزاء من أوروبا. بيع من كتابه: «خواطر حول الثورة الفرنسية ـ Reflections on the Revolution in France» 19،000 نسخة في أول ستة أشهر، وكان لها رواج أيضًا في فرنسا. ومنذ أن رأت الأحزاب الأخرى إلى لويس السادس عشر كنسخة فرنسية لجورج الثالث الارتيابي، اعتبر بيرك نفسه «معزولًا» من حزبه. وبينما هو منعزل في وطنه حصل على تقدير أوروبي، حتى جورج الثالث ثمَّن قدراته الخاصة.

قضى بيرك سنواته الأخيرة (توفي عام 1797م) حزينًا على الوفاة المفاجئة لابنه الوحيد، إلا أنه احتفظ بإمكانياته ككاتب رائع. كتابه: «رسالة إلى ملك نبيل» كانت تحفة بليغة من القدح والذم. في أواخر حياته كان يعاني من عدم استجابة جسدية. بكل أسف، لم يتضح في السيرة اللطيفة التي كتبها آيلنغ، ما إذا كان بيرك يعلم في ذلك الحين أنه واحد من الخالدين في التاريخ الفكري. مع ذلك، بدا لي أن آيلنغ نجح تمامًا في الحصول على المركز المناسب ليجذب النظر لأعمال بيرك، وقد نسج بمهارة الجوانب الخاصة والعامة من قصته. يجب أن يلحظ طلاب النظرية السياسية المحترفون الذين يزدرون أي أفكار «خارج النطاق الأكاديمي» أن آيلنغ الذي أيضًا كتب حياة جون ويزلي، جورج الثالث، إيلدر بيت، وريتشارد برينزلي شرايدن، لم يشغل أي منصب في الجامعة.

***

إن النظرية السياسية عبارة عن مجال معرفة، من الصعوبة أن تكون أصلية، مادام الأدب الثانوي متطورًا ومتسعًا. ورغم أن من يحبون الانخراط في الألعاب المنطقية يسهل عليهم تنظيم ما يشبه النقاشات الروائية، إلا أن الترداد الهزلي للإمكانيات البديلة يمكن أن يعرِّض القليل للخلط بين هذه التمارين العقلية والإسهامات الدراسية الحقيقية. عندما يأتي الأمر لدراسة أي من النماذج العظيمة في تاريخ الفلسفة السياسية، يحتل بيرك منزلة مشتركة مع المؤلفين المسؤولين عن خلق ما سماه ماثيو أرنولد بالثقافة «أفضل ما عُرف في العالم». ينتمي بيرك للنماذج العظيمة في تاريخ الفكر الاجتماعي، وبالتالي فالإتيان بتفسير جديد عنه يشكل تحدِّيًا كبيرًا.

في سياق غرابة التوجهات الجديدة في هذا المجال، أعترف أنني حينما قرأت مقدمة كونور كروز أوبراين لكتاب بيرك: «خواطر حول الثورة الفرنسية» طبعة Pelican Classics، بدت لي مثل وحي. نشأت مؤمنًا أن بيرك كان محافظًا عظيمًا، وخلال شبابي غالبًا ما يُذكر باستحسان من أنصار المناهضين للشيوعية. ومع هذا، وما عرف عن كونور كروز أوبراين بأنه رجل يساري، إلا أنه كان متفهمًا عاطفيًا لبيرك كزميل إيرلندي. فسر أوبراين معارضة بيرك للثورة الفرنسية على ضوء خلفية حياته الإيرلندية تفسيرًا ملفتًا للنظر، فقد رآه أوبراين مهووسًا بالمصير الإيرلندي، وبدا أن مناهضي الكاثوليكية من الثوار الفرنسيين كانوا بمثابة تهديد لأمل بيرك بتحرير المظلومين من الإيرلنديين الكاثوليك. دعم بريطانيا للثورة من منظور بيرك، كان جزءًا خبيثًا بالنسبة لمناهضي ـ البابوية. بينما كان هناك جدل حول ما

إذا كان بيرك متَّسقًا مع دعمه للثوار الأميركيين ومعارضًا الآخرين في فرنسا، لكنني رأيت أن أوبراين قد حوَّل مركز الجذب كليًا لفهم بيرك. في تفسير أوبراين احتفظ بيرك كرجل إيرلندي برابطة عاطفية قوية مع أولئك الذين احتلت أراضيهم، وكانت الكراهية تملأ صدره نحو هيمنة البروتستانت، وأن مجد ثورة عام 1688م قد فُرض على أبناء وطنه الأم.

في سياق معارضة بيرك للثورة الفرنسية، دعا للعودة لإصلاح مبادئ تسوية عام 1688م، والتي من وجهة نظر أوبراين كان لها أسس تتعارض مع الموقف الذي تبناه بيرك. لكن أوبراين كان يقدم بيرك أكثر تعقيدًا عما قد يتخيله أي فرد.

نشأ بيرك مهتاجًا بشأن الثورة الفرنسية، ذلك لأنه أخفى مآرب تحريضية في إيرلندا. كان بيرك عام 1790م متنبئًا حول مستقبل رهبان الدومنيكان، كما كان ونستون تشرتشل حول النازية عام 1930م، وكان أوبراين قد بحث الدوافع المحتملة لبصيرة بيرك الاستثنائية. وفقًا لأوبراين، شعر بيرك بالضغط لأنه أخفى تعاطفه نحو المضطهدين الإيرلنديين من الكاثوليك، وشرح بيرك في رسائله، لماذا شعر بأنه غير قادر على الدفاع عن بابوي إيرلندي متهم علانية.

على مر السنوات علمت أن أوبراين كان يعمل على دراسة شمولية عن بيرك. نشر مقدمة طبعة ماثيو أرنولد الجديدة التي حوت مجموعة رسائل، وخطابات بيرك، إضافة لمخططات أرضية في إيرلندا. عرض أوبراين أيضًا مقالًا يُعنى بهجوم بيرك اللانهائي ضد وارين هيستنغز بسبب تصرفاته حيال شركة الهند الشرقية، يرى بيرك بأنه متهم من قبل المجلس العمومي بسبب سلوكه الاضطهادي ضد الهنود، لكن مجلس اللوردات فشل في النهاية بإدانة هيستنغز. أظهر أوبراين بيرك معاديًا للإمبريالية، بدلًا من التماشي مع سياسته للقرن العشرين. وكانت النتيجة أن أصبح بيرك مهمًا أكثر من الحكمة التقليدية التي يعدُّ المرء نفسه لأجلها.

أخيرًا، ظهر عام 1992م كتاب أوبراين الذي لطالما انتظرناه: «اللحن العظيم سيرة موضوعية لإدموند بيرك ـ The Great Melody: A Thematic Biography of Edmund Burke»[1] أتى العنوان من قصيدة لويليام بتلر ييتس «الحكماء السبعة»:

(1) Conor Cruise O'Brien, **The Great Melody: A Thematic Biography of Edmund Burke** (Chicago, University of Chicago Press, 1992).

المستعمرون الأميركيون، الإيرلنديون، الفرنسيون والهنود هم المخربون، يقف ضدهم لحن بيرك العظيم

يخبرنا أوبراين عن محاولة مبكرة قد أُجهضت لتقديم سيرة تقليدية لبيرك، وبعد محاولات محبطة لإكمالها هجر ذلك المشروع، وعاد بفكرة كتابة سيرة «موضوعية». وفي الحقيقة هناك أمر في كتاب أوبراين الطويل، شيء موسيقي سلس، إن لم يكن فاغنيريان(*). فقد بحث في شأن إيرلندا، والمستعمرين الأميركيين، والهند، ثم فرنسا، وكان الأساس الزمني واحدًا في كل مقطع، خرج وأنشأ من كل ذلك فهمًا ضخمًا لالتزامات بيرك العميقة والتي غالبًا ما كانت طي الكتمان. في النهاية يصل بنا أوبراين لفصل أخير تحت عنوان: «فرنسا، إيرلندا، الهند 1787 ـ 1791م» الفصل الذي يشعرك بانسجام داخلي بين قناعات بيرك المتباينة ظاهريًا.

تضع المقدمة أساسًا رائعًا لرسم أوبراين، وكيف أن الجغرافية التاريخية للقرن الثامن عشر في إنكلترا قد قُيدت بواسطة السير لويس نامير، الذي رأى أن من النظامي أن يصف بيرك كمغامر ومقتنص للفرص، ورجل بلا قناعات جادة. ومن الغريب أن كارل ماركس قد صوَّر هذا الهجوم من أتباع نامير بصورة ازدراء لبيرك. لكن عمل المدرسة الناميريتية لم يكن ليلاحظ بسهولة مثل الماركسية، وواصل أتباع نامير استخفافهم الكبير بتعريض وتعليقات جانبية ضد بيرك.

بعد ما بدأ «اللحن العظيم» بنماذج مركزية لأدب بيرك عبر المائتي سنة الأخيرة، ينطلق أوبراين بوصفه لعلاقة بيرك وإيرلندا. ومثلما لمسنا سابقًا، أن والدة بيرك وزوجته، وأخته أيضًا كانوا جميعًا معتنقين للكاثوليكية، يبدأ أوبراين بتمحيص دليل مغادرة والد بيرك للكنيسة الكاثوليكية لعدم ارتياحه.

كانت قوانين العقوبات الإيرلندية تملك قوة هائلة، ولم يكن باستطاعة الكاثوليك التصويت أو الجلوس في البرلمان الإيرلندي، أو الاعتناق الديني لمن يتزوج من الكاثوليك، لذلك كان هناك صعوبات ظاهرية في ممارسة القانون لوالد بيرك. بدا أوبراين مصيبًا عندما عرَّج على «عمق الرعب الذي أوقعته قوانين العقوبات الإيرلندية على بيرك في شبابه». يركِّز «موضوع أوبراين الأساسي في كتاب: «اللحن العظيم» على انشغال بيرك بإيرلندا رغم

(*) نسبة للموسيقي ريتشارد فاغنر.

رحيله شابًا إلى لندن، إلا أن إيرلندا بقيت تطارده، وليس من قبيل المبالغة إن قلنا ـ طوال سنيّ حياته».

كان بيرك لما يقارب ثلاثين سنة عضوًا للمجلس البريطاني، وباعتقاد أوبراين أنه لم يكن مجرد وفيّ لقضية إيرلندا وحسب، بل إنها «كلفته الكثير كممتهن للسياسية». أسدى بيرك «خدمات سياسية هامة للكاثوليكيين الإيرلنديين»، ورغم أن قصة علاقة بيرك بإيرلندا تعتبر مركز اهتمام أوبراين، إلا إنه قدَّم أيضًا رؤية جديدة لمنظور بيرك حول المستعمرين الأميركيين. رأى بيرك أن موقف بريطانيا تجاه الأميركيين ما هو إلا مثال آخر لانتهاك السلطة. شخصيًا لم ألحظ مدى تأثير بيرك داخل حزب ويغ، لكن «اللحن العظيم» امتلأ باقتباسات كثيرة لبيرك يخرج منها الفرد بقناعة أن هناك من كان يقرأه بالإضافة لأوبراين. رغم أن رؤيتي لبيرك لا تزال ساذجة وتقليدية، أي: أنه كان مفكرًا محافظًا وعظيمًا، لكن أوبراين قد وصف إلى أي مدى كانت معارضة بيرك للاستبداد السياسي مفتاحًا لمسيرته.

من وجهة نظر خارجية، بدت السياسية الإيرلندية في وضع غير اعتيادي مقلوبًا رأسًا على عقب، فعلى سبيل المثال فيما يتعلق بتمرد المستعمرين الأميركيين الداعمين لإيرلندا لأجل الثورة الأميركية كان بالأساس لمسألة بروتستانتية. لذلك نرى بيرك في «اللحن العظيم» داخل سلسلة من التحالفات الصعبة. فقد أُرغم على التظاهر بشأن إيمانه الحقيقي، وفي حقبة الثورة الأميركية كان هناك ثغرة مميزة بين معتقدات بيرك الظاهرية، ومشاعره الحقيقية تجاه إيرلندا. عنى استقلال إيرلندا هيمنة البرلمان الإيرلندي البروتستانتي حصريًا، لذا كان على بيرك أن يكون يقظًا ضد الاحتمالات الممكنة. وهب بيرك نفسه لدعم الحرية الأميركية في نفس الوقت الذي عارض فيه استقلال إيرلندا. ورغم ما علمته عن سنوات بيرك الطوال في مجلس العموم البريطاني، إلا إنني لم ألحظ كيف كان برلمانيًا معارضًا وذو خبرة، ذكيًا، ونشطًا.

على الرغم من أن بيرك لم يمسك بالمناصب العليا العامة، إلا أنه اجتهد وكان له تأثير هائل كمستشار سري للورد روكينغهام. بعد الوفاة غير المتوقعة لبيرك بارتون عام 1782م ذهبت مسيرة الحزب السياسي الخاص به للنهاية. لكن كانت له منزلة نبي في الهند، فرنسا، وإيرلندا. كان تحركه ببحث مخالفات شركة الهند الشرقية بطيئًا، لكن أوبراين يعتقد أن هذا التحرك بسبب «الحقد المركز والقهري» الذي واجهه هجوم بيرك الأخير على وارين

هيستنغز. قلق بيرك حول معاناة الناس في الهند «من الواضح أنها تتعلق بمعاناة الكاثوليكيين الأيرلنديين تحت قانون العقوبات». لا يتردد أوبراين في التوسع حول دافع بيرك اللاواعي حيث يقول: «إن في دفاعه عن استقلال شركة الهند الشرقية إلى عام 1772م، خيانة للشعب الهندي المضطهد، تمامًا مثلما خان والده الشعب الإيرلندي المضطهد، عن طريق التنكر لدينهم».

رغم أن سعي بيرك بأمر هيستنغز بقي لسنوات طوال حتى بدت كأنها شذوذًا ملحوظًا من جانبه، إلا أنه ظهر ثاقب النظر عند اندلاع الثورة الفرنسية. بنهاية عام 1789م لاحظ بيرك إلى أي مدى أخطأ المدافعون عن الثورة الفرنسية. بالنسبة لبيرك كانت الثورة نموذجًا للمشعوذين المبتدئين، والمفتونين بالأديولوجية، الذين أطلقوا العنان لقوة لم يستوعبوها جيدًا. رغم أنه ولسنوات كان ناقدًا للملك جورج الثالث، أضحى بيرك يرى جميع الملوك تهديدًا للحضارة بعينها، وعلى ذلك كان متنبئًا بالطغيان العسكري في فرنسا.

دافع تشارلز جيمس فوكس، وزعماء آخرون في حزب ويغ عن الثورة الفرنسية، وكان بيرك مثل منبوذ في عزلته. وكان قد حذَّر في وقت سابق من حدة الثورة وتهديد حياة الملك والملكة، ولام بشكل أساسي أفكار روسو المجردة، والنكبة الاجتماعية في فرنسا.

مع هذا بدا أن أوبراين غير مدرك بشكل عجيب إلى أي مدى تشابهت فلسفة بيرك مع روسو. فقد ناقش المفكران حرية الإنسان وما تتطلبه من حضور المصادر الاجتماعية والدعم، وأن هذه الحرية قابلة للتصور عبر مساعدة المساعدين الخارجيين. لكن أوبراين عزم على مواصلة ثورته لبيرك على ضوء مسألة إيرلندا، وبأن له مصلحة لا تذكر في متابعة دقة التاريخ الفكري، وكيف شابه بيرك وروسو بعضهما البعض.

أوبراين بنفسه كان كاتبًا بارعًا، بتثمينه لقدرات بيرك البلاغية. لكن ليس على القرّاء أن يمسكوا بـ «اللحن العظيم» متوقعين تقديرًا متزنًا لبيرك داخل تاريخ الأفكار. ربما كان بيرك صديقًا مقربًا للسير جوشوا رينولدز، لكنه لم يلعب أي دور في «اللحن العظيم». حتى أشخاص مثل جيمس بوزويل، أوليفر غولدسميث، وصاموئيل جونسون استحوذوا على جزء قليل في «السيرة الموضوعية» لأوبراين. وإذا كان من المستحيل لأي أحد أن ينسى علاقة بيرك المشوهة نحو إيرلندا، مثلما صورها أوبراين، إلا إنه من الضروري تكملة تفسيره مع تلك البيانات التقليدية التي ترى أن بيرك في سياق الشخصيات القيادية المعاصرة له.

***

لم ينسجم أليكس دي توكفيل مع المنزلة التي يستحقها كمنظِّر سياسي. وهو الذي عُرف على نطاق واسع بأنه كتب أعظم دراسة عملت عن أميركا، لكن المجلدين «الديمقراطية في أميركا ـ Democracy in America» بقيت غير مصنفة، وعلى ذلك صعب تسجيلها في الجامعات. وكفكرة عامة يعدُّ كتابي «النظام القديم ـ The Old Regime» و«الثورة الفرنسية ـ French Revolution» بمثابة تحفة فنية، ومع ذلك ليس من السهل مقارنتها بالأعمال السياسية الأخرى للقرن التاسع عشر، مادام أنها لا تعالج المشاكل المجردة بشكل مباشر. بدا أن أولئك الشخصيات من الكتّاب العظماء، مثل توكفيل بنفسه، قد حصلوا على اعتراف متأخر على أساس أن شفافيتهم جعلتهم مثارًا للشبهة. أما الكتَّاب المجردون الذين اعتمدوا على التأويل، فقد كانوا محط جذب الدارسين بسهولة. ربما يظن المرء أن (مجموعة توكفيل) أحد أكثر المذكرات السياسية الاستثنائية التي قرأتها من قبل، كافية لوحدها لتقنع بعبقريته، إلا أن هذا الكتاب حتى الآن لم يجذب إلا القليل من الاهتمام.

اتضح أنه حتى بعد أكثر من مئة وأربعين سنة منذ وفاته عام 1859م بقيت المواد الأرشيفية الغزيرة دون استغلال. اشتمل أرشيف عائلة توكفيل على 110 صندوقًا كرتونيًا، احتوت ثلاثة وعشرين منها على مراسلاته. بعض من هذه الأدلة التاريخية استخدمت في الطبعة النهائية لأعمال توكوفيل التي ظهرت في باريس مقاربة للكمال. بالإضافة لذلك، احتوت مجموعة أخرى في جامعة يال على جزء كبير من مراسلاتهم الأميركية ومخطوطاتهم، وليس فقط مذكرات رحلات توكفيل وصديقه غوستاف دي بيمونت، بالإضافة إلى مسودات لمراحل مختلفة من «الديمقراطية في أميركا ـ Democracy in America».

أثارت المواد الوفيرة لتوكوفيل بعضًا من الأسئلة المنهجية المهمة، لإن المسألة لا تزال شأنًا غير محسومًا، على سبيل المثال، ما تخبرنا عنه رسائل كاتب لأصدقائه، مساعديه، وعائلته، التي كتبت معارضة لنصوص منشورة لمفكر، فالاتصالات الخاصة يمكن أن تخبرنا على الأقل عن نوايا الكاتب، وأكثر من ذلك، عن الأعمال التي نشرت في فترة حياة هؤلاء المنظِّرين. خرجت (مجموعة توكوفيل) العظيمة بعد وفاته. في الوقت ذاته، قد يتردد المرء في الانتقاص من المكانة العادية التي مُنحت لعمل مثل: «الديمقراطية في أميركا» أو «النظام القديم». إن المنزلة التي يجب أن تمنح للمسودات الأولية للكتب المنشورة تبدو أمرًا محيرًا بالنسبة لي. إذا لا تظهر ذات المشكلة مع الشخصيات الأخرى القديمة، والتي تظهر في الغالب بسبب الافتقار للأدلة المتاحة. فوق كل ذلك، لم يولِ المنظرون

السياسيون اهتمامًا لأهمية تلك الوثائق أكثر من الأعمال العامة. (استغرق أمر إتاحتها وقتًا طويلًا، الأمر الذي أراه بمثابة فضيحة طويلة الأمد. أيضًا رسائل توماس هوبز الذي يعرف كأعظم فيلسوف سياسي في اللغة الإنكليزية، تعد أرشيفًا خاصًا لم يتطرق له ضمن ما نرويه عن كتابات هوبز الرسمية).

أول ما ظهر كسيرة متقنة وشاملة هي «سيرة توكفيل Tocqueville: A ـ Biography»[1] لأندريه جاردين. تُعَّد الصفحة الأولى فقط أو الصفحتين بقراءة غير عادية، فقد أخذ الكتاب مني دقائق لينقلني خياليًا إلى الثقافة الفرنسية، لذلك عندما يهيئ القارئ الضبط الذهني الملائم يصبح الباقي يسيرًا.

رغم أن نسب توكفيل الأرستقراطي بالكاد يذكر، إلا إن جاردين وضح السلالة توضيحًا لا لبس فيه، بتفاصيل لا تنسى. كان للكاتب العظيم سلف نبيل من جهة أبيه، وأيضًا من أمه، إذ أن رفيق وليام الفاتح يعود نسبه لعائلة توكوفيل، وأيضًا كان والده مثاليًا تحت قيادة لويس الثامن عشر. أُعتبر توكوفيل جزءًا من أفضل تقليد الأرستقراطيين الذين «تتطلب الأخلاق عندهم خدمة الدولة، والدفاع عن الحرية للجميع، ونبذ الطاغية». كانت الحركة التاريخية التي شكَّلت الانتقال من المجتمع الأرستقراطي إلى الديمقراطي هي «مركز الاهتمام» في حياة توكوفيل الفكرية. إن الأمم كالأشخاص في نظر توكوفيل كما صاغ ذلك: « تؤثر ظروف الولادة والنشأة على كافة مسيرتهم الحياتية». مفتاح البصيرة له حول الولايات المتحدة كان في مقدرته على تجنب طابع الثورة الأوروبي: «الميزة العظمى للأميركي أنه وصل إلى دولة الديمقراطية دون أن يقاسي ثورة ديمقراطية، وأنه ولد مساويًا دون أن يسعى ليكون كذلك».

رغم أن أكثر أفكار توكوفيل معلومة للجميع في وقتنا الحاضر، إلا أن جاردين ملأ سيرته بمواد جديدة. تزوج توكوفيل في عمر الثلاثين لسيدة إنكليزية كانت أكبر منه بثلاث سنوات من عائلات الطبقة المتوسطة، ورغم أنه كلف العائلة فضيحة إلا أنه نظّم العلاقة التي استمرت لبعض الوقت. لم يحظ الزوجان بأطفال، لكن علاقتهما نجحت بإعطاء توكوفيل الأمان الذي كان بحاجته. من الواضح أن زوجته كانت متفهمة لطبيعته «غير المستقرة»،

(1) Andre Jardin, **Tocqueville: A Biography, translated by Lydia Davis with Robert Hemenway** (New York: Farrar Straus & Giroux, 1988).

وكان جانبها الأمومي قادرًا على التلاؤم مع سمات شخصية توكوفيل كـ «طفل مدلل». من بين العديد من التفاصيل المذهلة التي نتعلمها من سيرة جاردين، أن لغة بيته كانت الإنكليزية.

نجح توكوفيل مع عائلته وزواجه، ولكنه كان متذمرًا بشكل كبير من مهنته، فقد درس القانون منذ عام (1823 حتى 1826م) بناء على رغباتهم. ومن الواضح أنه توقع أن يمضي حياته في القضاء، ثم شرع توكوفيل في عام 1831م إلى جانب صديقه غوستاف دي بيومنت رحلتهم الشهيرة إلى أميركا، والتي تضمنت قضاء ما يقارب تسعة أشهر في شمال أميركا. كانت ذريعتهم للرحلة دراسة كيفية إصلاح النظام الفرنسي لسجن العقوبات. قاموا بتأمين أتعاب هذه الرحلة مما سهل إجازة الغياب الرسمية التي أمنوها. لكن هدفهم من دراسة النظام الإصلاحي الأميركي كان ذريعة لما «سعى توكوفيل لمعرفته من أسلوب حياة الديمقراطية كنموذج مستقبلي لفرنسا».

أُستثني الفرنسيان من كونهم موضع سخرية مثلما شعر الأميركيون نحو البريطانيين. كانت رسائلهم حين عودتهم لفرنسا متممة لما طبع ونشر لاحقًا، وكان لرحلاتهم الفضل في الاتصال بعدة مستويات من المجتمع الأميركي، فقد تمكنوا من لقاء دانييل ويبستر، كون كوينسي آدامز، بالإضافة للرئيس جاكسون. كُتب المجلد الأول «الديمقراطية» في أقل من سنة، ونشر عام 1835م، وعلى الفور أصبح «كتاب العام» في باريس، وقد كان ملحوظًا على نطاق واسع بأنه كتاب كلاسيكي. استغرقت كتابة المجلد الثاني من «الديمقراطية» حوالي أربع سنوات، لأنه كان أكثر تعقيدًا، نشر عام 1840م، ولكنه لم يحظ بنفس الاستحسان الفوري للمجلد الأول. سعى توكوفيل خلال كتابة هذين الكتابين للاستعلام عن إمكانية تأسيس حرية إنسانية في مجتمع قابل للمساواة. كان جمهوره فرنسيًا لذا سعى لـ «إيقاظ الوعي الفرنسي ومواصلة التعليم المدني».

أُنتخب توكوفيل لمجلس النواب عام 1839م، وكان دائمًا يأخذ مهنته السياسية بشكل جاد. اختار مكانته الأديولوجية ليكون في «حزب اليسار» من السُلَّم السياسي، كان خطيبًا ضعيفًا وسرعان ما أصبح شخصية معزولة. وأدرك أنه مفتقر «قطعًا» إلى «موهبة الارتجال» دون أن يعي الضرر المقصود لطموحاته السياسية.

خدم بشكل قصير (لمدة خمسة أشهر) وبشكل نسبي لم يكن ناجحًا كوزير للشؤون الخارجية. عنى اعتلال صحته جراء تحسنه البطيء من مرض السل، إضافة للقوة القادمة من نابليون الثالث نهاية لحياته السياسية، وأخيرًا رفض أن يخدم تحت لواء الإمبراطورية

الاستبدادية. عاد إلى الكتابة بعد تقاعده، وكتب: «مجموعة توكوفيل» و«النظام القديم» في الفترة النهائية لمنفاه الداخلي.

السيرة التي كتبها جاردين متعة للقراءة، حتى أنه من المستحيل وضعها جانبًا، مقارنة بكتاب جان كلود لامبرتي «توكوفيل والديمقراطيتان ـ Tocquville and the Two Democracies»[1] المرهق والذي يتطلب جهدًا من المرء لقراءته حتى النهاية. مع ذلك تلقى كتاب لامبرتي احتفاء يشبه تقريبًا ما تلقاه عمل جاردين. لامبرتي مختص اجتماعي محترف في باريس، لم يزدرِ مواكبة التطورات الأكاديمية في أميركا الشمالية كما فعل العديد من المثقفين في بلاده. في الواقع، كان الفرنسيون خائفون قليلًا من كونهم معرضين لخطر خسارة سيطرتهم على أدب توكوفيل الثاني، وذلك بسبب الاهتمام الكبير به من جانب أميركا. رغم أن «مجموعة توكوفيل» و«الديمقراطيتان» قد كتبت لقراءة صعبة، على الأقل مقارنة بسيرة جاردين التي كتبت بلا أكاديمية، مع ذلك أعتقد أنني تعلمت قدرًا هائلًا من لامبرتي. مع أنني وجدت أن عزله للديمقراطية من نصوص توكوفيل الأخرى أمر غير ملائم، إلا أنه بنى (إلى جانب المفسرين الآخرين) أن المجلد الأول كُتب كدراسة للمجتمع الأميركي، بينما المجلد الثاني كان مراجعة للديمقراطية بشكل عام.

يعتبر لامبرتي «الديمقراطية» الذي يؤكد توق توكوفيل للحرية وكراهيته للثورة «كأعظم عمل سياسي للقرن التاسع عشر». على نحو لافت استفاد لامبرتي من استخدام مواد توكوفيل الموجودة في أرشيفات جامعة يال. لو افترضنا أن لامبرتي محقًا بأن «الديمقراطيتان» تعدّ «من بين أفضل الأعمال الفلسفية السياسية» كان اجتهاده في المسودات الأولى، الملاحظات، المراجعات، الهوامش، والرسائل أمرًا مسوغًا.

فجأة اعتدلت جالسًا في ثلثي الكتاب عندما اقتبس لامبرتي من نص توكوفيل المنشور بذاته:

> **أرى أغلبية لا حصر لها من الرجال، يطوفون باستمرار سعيًا خلف الملذات التافهة والمبتذلة، رجال غدوا بأرواح مذنبة. كل واحد منهم منسحب لذاته غير واع بمصير البقية. فالبشرية بالنسبة له، مجرد أطفاله وأصدقائه الشخصيين. أما بقية المواطنين فهم قريبون بما يكفي، لكنه لا يلحظهم، يلمسهم ولا يشعر بأي شيء. كان وجوده**

(1) Jean-Claude Lamberti, **Tocqueville and the Two Democracies, translated by Arthur Gold-hammer** (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1989).

لنفسه، ومع أنه ربما حصل على عائلة، إلا أن المرء لايزال بإمكانه أن يقول عنه أنه لم يجد موطن أسلافه.

على هذا النوع من الرجال أن يقف قويًا، بسلطة حماية تكون وحدها مسؤولة عن تأمين مسرّتهم وحماية مصيرهم. هذه السلطة مطلقة، ومدروسة التفاصيل، منظمة، بعيدة النظر، ورقيقة. أو ربما تميل للسلطة الأبوية، إذا كانت الأبوية تعدُّ أعبائها لحياة الرجل، لكنها على النقيض تبقيهم في طفولة أبدية. ترغب هذه السلطة أن ترى المواطنين يمتعون أنفسهم، دون أن يفكِّروا بشيء غير متعتهم. من المبهج أن ذلك نجح في إسعادهم لكنها تريد أن تكون الوكيل الوحيد والقاضي عليهم. تعد أمنهم، قوتهم، وتمدهم بضرورياتهم، تسهل متعتهم، تتدبر مخاوفهم الرئيسية، توجه صناعتهم، تضع قواعدًا لوصاياهم، تقسم إرثهم، لما لا تريحهم من عناء التفكير وقلق العيش؟.

يبرز هذا الاقتباس المهم والمثير في كتاب لامبرتي بتباين حاد لبقية أسئلة مسودات توكوفيل الأولى، هذا بغض النظر عن احترامي لإنجاز لامبرتي العلمي، إلا أن الكلمات في «الديمقراطية» جعلتني أتساءل ما إذا كان من المنطقي أن تعير كامل الانتباه إلى العمل العظيم بذاته؟. أعتقد أنها تصنف في نفس مسار سيرة جاردين، في وسط الكتابة البديعة للكتاب، يتبين لنا أنها تفيض بإبهام مع بقية السرد الأنيق الذي قام ببنائه.

إن موازنة حياة وعمل كاتب عظيم، هي مشكلة قديمة في تاريخ السير الذاتية. بينما لا أتوقع أن يفضل أحد سيرة جاردين على الأقل الجيل القادم، إلا أن كتاب لامبرتي هو الوحيد المقارب لنصوصه، وأرى أن نقاش لامبرتي حول «الديمقراطية» سيكون جزءًا دائمًا من المؤلفات العلمية الأدبية. وبالتأكيد إذا أضفنا قراءة كتاب جاردين سيساعد هذا بإحياء توكوفيل بطريقة كانت صعبة قبل ذلك.

يقف توكوفيل كشخصية عظيمة في تاريخ الليبرالية الحديثة، لقتاله ودفاعه عن الفردية دون خلطها مع حب الذات أو الامتثال. وكما صاغها لامبرتي «قبِل توكوفيل مبادئ 1789م لكنه رفض روح الثورة». ولا تزال حقيقة باقية أننا نواجه مأزق إصلاح التناقضات التي عانى توكوفيل منها، ولهذا السبب بقي شخصية معاصرة من غير ريب.

***

بقي فرويد خارج الشريعة التقليدية لدراسة النظرية السياسية، لأسباب عجزت عن إدراكها. مؤسس التحليل النفسي أكثر عرضة للتجاهل كمؤلف لأفكار غبية، بغض النظر عن حقيقة أن نطاقًا واسعًا من المنظِّرين الاجتماعيين فيما مضى من هذا القرن تأثروا به. بقيت أعمال فرويد طي النسيان، لدرجة أنه لا يتوقع من طلاب النظرية السياسية أن يكونوا على علم بأعماله. ليست المشكلة مجرد تساؤل حول الفترة القصيرة بعد وفاته عام 1939م، وانجذاب مفكرين مختلفين للعلوم والمعرفة المتصلة بالفكر السياسي للقرن العشرين.

في هذا السياق بدا لي أن كتاب: «فرويد والتحليل النفسي السياسي Freud and the Politics of Psychoanalysis»[1] كتابًا مذهلاً وهو للمؤلف جوزيه برنر، منظر سياسي إسرائيلي درس بالخارج. لن يجد القارئ في هذا الكتاب حزبية أديولوجية، فقد وضع برنر فرويد داخل وضعه الاجتماعي اللائق. إن كان هناك من نقطة واحدة تستحق التحري، فهي قبول برنر المفاجئ لحجة فرويد «أنه نشأ بلا دين»، والذي حدا به لتقليص العناصر اليهودية لفكر فرويد. من ذائقة شخصية، أرى أن برنر كان ساذجًا جدًا بنظرته لنجاح فرويد في خلق «علم عالمي للعقل»، بدلًا من أن يرى حاجة فرويد للعالمية، كدفاع ضد ضيق نشأة فرويد الدينية.

ليس من الضروري الدعاية بالنيابة عن أي جزء من التحليل النفسي لنراه كمذهب يتطلب أمانة علمية في تاريخ الأفكار. من المُسلَّم به عمومًا أن فرويد كان أعظم عالم نفسي للقرن الماضي، ومهما كانت أخطاءه متعددة سيبقى كاتبًا مذهلًا. إن نجاة ما يقارب خمسًا وعشرين ألف رسالة خلال ثوران الحرب العالمية الأولى والثانية، ما هي إلا شاهد على قدراته ككاتب رفيع لا يمكن تجاهله شرعيًا. ولذا سيقلص حجم مجلداته التي تحوي رسائله، مثل (الطبعة الأصل) التي حررها جيمس ستراتشي.

أُحيط اسم فرويد بعدد هائل من الأدب الثانوي، وبالرغم من برنر افتقر للشرعية المهنية للمنظرين السياسيين، إلا أنه لم يتعامل مع المادة كهاو. يتحرك برنر ببراعة بين المستندات المتعددة، ورغم هذا لديه وجهة نظره الخاصة للحاضر. كان «فرويد والتحليل النفسي للسياسة Freud and the Politics of Psychoanalysis» إضافة مرحب بها، ونأمل أن يتبعها

(1) Jose Brunner, **Freud and the Politics of Psychoanalysis** (Blackwell, Oxford, 1995).

مستقبلًا أعمال أخرى من فلاسفة سياسيين من يجرؤون على المخاطرة بالسخرية وأخذ فرويد وأتباعه بجدية.

***

يتعامل علم السياسة مع فكر التحليل النفسي كربيب مزعج. على الرغم من أن هارولد لازويل كسر الجليد المهني أولًا منذ سبعين عامًا مضت. وكما أشرت في المقدمة أن القضية ليست في غرابة اهتمامنا بالتحليل النفسي أو عدمها. بين المنظِّرين السياسيين الذين آمنوا بأنهم مفكرون أرستقراطيون لمهنتهم، كان كل ما يندرج تحت فرع المدرسة الفرويدية لا يحصل على تقدم مهني أرفع من دراسة دقيقة لمفكر من دائرتهم. على سبيل المثال، أي شيء يفيد أقسام الفلسفة سيكون مفيدًا تلقائيًا لعلم السياسة.

أذهلني س. فريد ألفورد بمخالفته للحكمة التقليدية المتلقَّاة. فقد ألَّف في السابق «النرجسية: سقراط مدرسة فرانكفورت ونظرية التحليل النفسي وميلاني كلين والنظرية النقدية: تحليل سياسي، فني ومنطقي بناء على نظريتها التحليل ـ نفسية ـ Narcissism: Socrates, the Frankfurt School, and Psychoanalytic Theory and Melanie Klein and Critical Theory: An Account of Politics, Arts and Reason Based on Her Psychoanalytic Theory»[1]. يحدث ألا أتفق كثيرًا، إن لم يكن تمامًا، مع ما ناقشه ألفورد، لكنني اعتبره بالمجمل سياسي استثنائي، ممن يملك خلفية جيدة عن فكر التحليل النفسي الحديث.

في آخر كتب ألفورد «الذات في النظرية الاجتماعية، تحليل نفسي لتركيبتها في أفلاطون، هوبز، لوك، رولز، وروسو ـ The Self in Social Theory: A Psychoanalytic Account of Its Construction in Plato, Hobbes, Locke, and Rousseau»[2]، وكما طرح في عنوانه، يهتم هذا الكتاب بتحويل الضوء والمفاهيم التي يمكن أن تلقيها نظرية التحليل النفسي على الذات. يختلف هذا عن كتابه الأخير الذي برهن فيه على درايته بفكر ميلاني كلين، هذا الكتاب يبحث في مفاهيم يعقوب لاكان وهاينز كوت. أثر لاكان كان هائلًا في الحياة

(1) C. Fred Alford: **Narcissism: Socrates, the Frankfurt School, and Psychoanalytic Theory** (New Haven, Yale University Press, 1988) **and Melanie Klein and Critical Theory: An Account of Politics, Arts and Reason Based on Her Psychoanalytic.**

(2) C. Fred Alford, **The Self in Social Theory: A Psychoanalytic Account of Its Construction in Plato, Hobbes, Locke, Rawls, and Rousseau** (New Haven, Yale University Press, 1991).

الفكرية الفرنسية الحالية، وكاوت هو من أنشأ حركة «سيكولوجية الذات». ولا تزال النظرية السياسية تستوعب التحديات المختلفة التي قدمها لاكان وكاوت.

يمرّ المرء في قراءته لكتاب: «الذات في النظرية الاجتماعية» ببعض الملاحظات الرائعة، بالتالي يجب أن يكون طموح وسعي المؤلف محط إعجاب القارئ. بدا فصليّ أفلاطون قويان ومبنيين بشكل جيد كأدب ثانوي. لكن المشكلة مع الكتاب ككل هو افتقاره لوحدة مفهوم كافية.

لماذا كان أفلاطون، هوبز، لوك، رولز، روسو على هذا الترتيب التاريخي المحدد؟. لم يبرر ألفورد سبب اختياره لكتّاب معينين ليقوم بدراستهم. في ظني لو أن ألفورد أراد أن يبرهن على وجهة نظره المتشككة ـ بأن هذه المفاهيم للذات قد حملها مفكرون سياسيون سابقون، فإذن يمكننا اكتشافها عبر أدوات التحليل النفسي المطلعة على رؤى نفسية ـ ثم بعد ذلك ربما يُنصح بأن يلتزم بكاتب واحد ويسعى في مسألته بعمق. كما لو كانت مجموعة من المقالات غير المرتبطة، ترتبط عميقًا بمصلحة ألفورد في دراسة لاكان وكاوت. وبدلًا من أن يعمل ألفورد على نصوص الكتّاب الكلاسيكيين باستخدام فكر التحليل النفسي الحديث، كان في الغالب يقدم المهم على الأهم، حتى بدا أن لاكان وكاوت أهم ما يشغل ألفورد.

يستحق ألفورد تهنئة من الأعماق لأفكاره التي كان يدرسها. تمنيت لو أنه تمهل قليلًا واستخدم معرفته للنظرية السياسية وثقافته في مسائل التحليل النفسي، وذلك ليتحرّى باهتمام أكثر، ويجعل قرّاء النظرية السياسية يتبعونه بسهولة، موضحًا مدى أهمية التحقيق في هذا المجال. احتوى كتاب: «الذات في النظرية الاجتماعية» على العديد من القفزات من هنا وهناك، وذلك لتمكين المبتدئ من تكوين منطق لما هو بصدد فهمه. أؤكد على هذا لأنني أتشارك مع مصالح ألفورد مفاهيميًا. شخصيًا أتمنى له الخير وآمل أن ينجح في مشروعه الخاص بزيادة قابليتنا المهنية لأهمية الثورة الفرويدية في تاريخ الأفكار المسؤولة عن فهمنا لتقليد النظرية السياسية بأكملها.

***

«والتر ليبمان، الأممية في جيل إحصاء الحرب ـ Walter Lippman: Cosmopolitanism[1] in the Century of Total War» لمؤلفه د. ستيفن بلوم، كتاب جيد

(1) D. Steven Blum, Walter Lippmann: **Cosmopolitanism in the Century of Total War** (Ithaca, Cornell University Press, 1984).

ورصين حول موضوع مهم. يمكن القول إن سمعة ليبمان الآن تحت غيمة، ويعود ذلك جزئيًا إلى تقاعده من الصحافة قبل وفاته عام 1974م، فقد عانى العديد من الكتاب من رفض مواقفهم حين وفاتهم، ونتيجة لذلك بدأت مذكرات كتاباتهم بالتلاشي. لكن في حالة ليبمان المشكلة العامة كانت مضاعفة بظهوره عام 1980م بسيرة ذاتية مرخصة عبر رونالد ستيل «والتر ليبمان والجيل الأميركي ـ Walter Lippmann and the American Century» رغم أن ليبمان ائتمن ستيل على كتابة سيرته، بعدما فشل ليبمان بالعمل بنجاح مع ريتشارد روفر، إلا أن عدم إعجاب ستيل بموضوع هذه السيرة، ظهر في صور عديدة من الكتاب.

يستلزم أي كاتب لسيرة رسمية أن يكون مقيدًا، بأن يتأثر بمطالب الموضوعية والإخلاص. في حالة ستيل، قد يظن المرء أن كونه صحفيًا يكتب في الشؤون الخارجية، يعني أن يفتقر للخيال الذ ي يعينه على تقدير جديّة كتب ليبمان.

يلحظ بلوم بعناية أن ليبمان كان أكثر فخرًا في السابق، رغم إيمانه بأن كتبه وصحيفته كانوا مترابطين بشكل واضح، إلا أنها كانت أكثر أهمية في السابق. يعتبر بلوم كتاب ستيل «سيرة ذاتية متميزة» ويعتقد أنه قدم «التحليل الأمثل لكتابات ليبمان حول الشؤون الدولية». ربما ضعف هذه السيرة، يكمن في رأي ستيل بأن ليبمان بالكاد يستحق أن يناقش أمره كفيلسوف سياسي.

مجموعة رسائل ليبمان التي صدرت مؤخرًا، (فيلسوف العامة: رسائل مختارة لوالتر ليبمان) قام بتحريرها جون مورتون بلوم (ليس مقربًا من د. ستيفن بلوم). سعت تلك المجموعة بشكل ضمني لتصحيح الانطباع غير المتزن الذي تركه ستيل حول ليبمان. لكن في اختياره من بين تلك الرسائل البالغ عددها (1020) رسالة، مال بلوم لاختيار المراسلات السياسية أكثر من كونها مختصة بالمصلحة الفكرية. مع هذا ألمح د. ستيفن بلوم في كتاب: «والتر ليبمان» إلى تبادل رسائل بين ليبمان والاقتصادي السياسي فريدريتش فون هايك، هذه هي المادة التي عزلت من كتاب «فيلسوف عام ـ Public Philosopher» لمحرره جون مورتون بلوم، والتي تخلى عنها د. ستيفن بلوم لأنه عمل بحوثه من أوراق ليبمان الموجودة في جامعة يال. بحث د. ستيفن بلوم في أرشيف ليبمان بصورة شاملة لأجل أن تتضح للطلاب الآخرين في التاريخ الفكري. لكن كتابه يثبت قناعة بأن مكانة ليبمان كمفكر لا تزال قيد الإنشاء.

ليست المسألة أن ليبمان كان كاتبًا للكتب. قمت بفحص مكتبه وظهر لي أنه ترك الاعتماد على الكتب ووجد وقتًا للتفكير بنفسه، وذلك بعدما حصل على تعليم ممتاز وارتباطات شخصية مع رجال مثل ويليام جيمس، غراهام والاس، وجورج سانتيانا. هناك أيضًا شخصيات أخرى في تاريخ الأفكار أجازت لنفسها الاستغناء عن مواكبة الأدب التنظيري. فقد رفض ليبمان الحياة الأكاديمية للعلوم السياسية كمهنة أساسية.

الميزة الأساسية لدراسة ستيفن بلوم حول ليبمان أنه يأخذ كتبه بجدية تامة، ومع هذا لا يدرسهم بتحذلق. وظهرت بالفعل العديد من الأعمال حول أفكار ليبمان، لكنها ليست بجودة هذا الكتاب. أظهرت سيرة ستيل قدرًا بالغًا من المعلومات غير القيمة حول حياة ليبمان الخاصة بالإضافة إلى صحيفته، مع هذا هو أول كتاب يعيد الاعتبار لأعظم كتابات ليبمان على ضوء هذه المادة الجديدة.

ولربما استدعى القراء كتابًا رائعًا حول ليبمان: «رجال القدر ـ Men of Destiny» وربما ناقشه بلوم. لكنه بالمجمل أنجز عملًا يستحق التقدير، وأوضح للجيل الجديد كيف كان ليبمان شخصية محورية. إنها لسعادة بالغة أن تحظى بفرصة إعادة قراءة بعض عبارات ليبمان النقية غير المعتادة، رغم أن بلوم لم يثقل الكتاب بتساؤلات عديدة.

قدم بلوم إسهامًا حقيقيًا بتأكيده على استمرارية واتساق كافة أعمال ليبمان. فقد بدأ بنشر الكتب عام 1913م، ولم يكن من الصعب إيجاد مراحل مختلفة في فكره، إن لم يكن تباينًا صريحًا في العديد من خلافاته. لكن بلوم يعلم أن اهتمامه كان مرتكزًا على مشكلة نمو النظرية الديمقراطية، ومن الملفت أنه وجد مواضيعًا عديدة مشتركة في كتب ليبمان.

كتب بلوم ملاحظة حول رواية: «بيت النبي ـ The House of the Prophet» للكاتب لويس أوكنيكلوس أثبتت لي أنه بالأساس على الطريق الصحيح. يلاحظ بلوم أن «أوكنيكلوس مزج بين كونه روائي مميز، ومحاميًا لليبمان وقدم إسهامًا عظيمًا. إن من يهتم بأمر ليبمان لن يهمل هذه الرواية، التي يُزعم أنها أعظم بحث لصورة رجل خلف الكلمات». يعزز كتاب بلوم، على نحو بديع، فهمنا لمفكر أرى أنه من أهم المنظرين السياسيين الأميركيين في القرن العشرين.

***

يتقاطع الصمت في قصة تاريخ وتطور فكر التحليل النفسي مع إسهامات فروم الشخصية.

فالحركة التي عُرفت يومًا بـ «الفرويدية الجديدة» كانت تقريبًا في طي النسيان. إلا أن أفرادًا من هذا الفكر المنظم والأسلوب القوي ـ مثل هاري ستاك سوليفان وكارن هورني ـ نجحوا بكسب تقدير داخل التيار الرئيسي للتحليل النفسي، ولكن ولعدة أسباب مختلفة بقي فروم منبوذًا في العراء[1].

بغض النظر عن اعتقادي بأن تجاهل فروم تُعدُّ مسألة تاريخ فكري، وقد طرحتها في الفصل الأول. أزعم أن ما من كتاب لمحلل نفسي ـ باستثناء فرويد وكتابه: «قلق الحضارة» ـ كان له أثر كبير على مجالي في العلوم السياسة، مثلما كان تأثير كتاب فروم: «الخوف من الحرية» 1941م. لم يكن ذلك الكتاب ركيزة للتعليم المحترف لطلاب السياسة فقط، بل كان له تأثير واسع ضمن مجالات أخرى مثل علم الاجتماع الأنتروبولوجي، وعلم النفس العيادي. مع ذلك، لا يعي معظم الطلاب المبتدئين بالأثر الخطير الذي يمكن أن يحدثه كتاب بين العلوم الاجتماعية.

عندما خصصت «الخوف من الحرية» للقراءة لأول مرة عام 1955م لمرحلة الماجستير في القسم السياسي بجامعة هارفارد، بدا مناسبًا أن يدخل ضمن تقليد قبلي للفكر الاجتماعي. قام فروم بتحريف معين لفهمنا للحرية ـ أي: أنها ليست تحررًا سلبيًا من القيود الخارجية ولكنها تحرر إيجابي من العواطف الداخلية أيضًا. أعتقد أن جان جاك روسو قد تطرق إلى شيء مماثل، عبر تصوره لـ «دفع» البشر ليكونوا أحرارًا. لم يطل الأمر حتى أدركت المعنى من «الخوف من الحرية»، وذلك عندما قدم السير إيزايا برلين محاضرته الشهيرة الافتتاحية في أكسفورد «مفهومان للحرية» والتي يمكن أن تعدُّ اتهامًا للمكانة التي حظي بها فروم[2]. لكن شكوكية برلين حول ما يسمى بالحرية الإيجابية قد منحت منطقية فروم مكانة بارزة داخل الفكر السياسي.

في الوقت الذي كنت أعد فيه مشروع تخرجي، وعيت بأن فروم قد كسب أعداءًا فكريين ليس فقط ضمن النظرية السياسية غير الماركسية، ولكنه أثار من البداية عبر كتاب: «الخوف من الحرية» أشد أنواع العداء داخل التحليل النفسي. كارل مينينغر، وأوتو فينخيل كانوا عدائيين بشدة ضد فروم. أعيد هنا سطرين من نقد مينينغر في صحيفة: The Nation

(1) But see Daniel Burston, **The Legacy of Erich Fromm**, op. cit.

(2) Isaiah Berlin, **Four Essays on Liberty** (London, Oxford University Press, 1969), pp. 118 - 172.

«كان إريك فروم مختص اجتماعي بارز في ألمانيا. لكنه كتب كتابه وكأنه يعتبر نفسه محلل نفسي»[1]. كذلك قام فينيخل بربط اتهامه لفروم بنفوره الشخصي من أفكار كارن هورني[2].

والغريب أن سمعة فروم وصلت لثقل بالغ في فترة ما سمي: «بالعقد المتطرف» في الستينات، على الأقل في شمال أميركا. مالت التزامات فروم السياسية ـ في مسألة نزع السلاح النووي على سبيل المثال ـ لإلقاء ظلالها على إسهاماته المبكرة للمشاكل التي أسستها العلوم الاجتماعية، حتى تذييله القوي لـ «الشخصية والعملية الاجتماعية» في كتاب: «الخوف من الحرية». أصبحت التزامات فروم كـ «داعية سلام» ملحوظة أكثر (على الأقل في العلوم السياسية) عنها في كتبه الجادة مثل: «رجل لذاته» 1947م أو «المجتمع العاقل» 1956م.

نجح فروم بترويج كتاب: «فن الحب» 1957م نجاحًا مذهلًا جعل كثير من المثقفين يشككون بجديته، فقد بدا فروم وكأنه واعظ دنيوي مقارب لنورمان فينست بيل. كان للاشتراكيون العنيدون مثل: (أدورنو الذي ظن بأن فروم يحتاج لأن يقرأ عن لينين) تأثير مقنن على فروم مثلما كان للفرويديين الأرثوذوكس، بعدها خطت سمعة فروم نحو مزلق متهور مثلما كانت عليه في منتصف الخمسينات. ولأوضح تصورًا وحيدًا، فقد حُملت لي عشر مقالات كنت قد نشرتها عن فرويد (متضمنة مقالًا وحيدًا عن فروم) في صحيفة: «التحليل النفسي الدولية»، على أنها اتهام لفروم[3]. قام أحد الاجتماعيين مؤخرًا بوصف هبوط وانهيار مكانة فروم[4]. هربرت ماركوس(*) الذي قام بإيذاء فروم كان له اهتمام قليل

---

(1) Karl Menninger, «**Loneliness in the Modern World**», The Nation, Vol. 154 (March 14, 1942), p. 317.

(2) Otto Fenichel, **Psychoanalytic Remarks on Fromm's Book Escape From Freedom in The Collected Papers of Otto Fenichel**, Se ond Series (New York: W. W. Norton, 1954), Ch. 19, p.271.

(3) Frederick Wyatt, **Review of Sigmund Freud, ed. Paul Roazen, International Journal of Psychoanalysis**, Vol. 54 (1976), pp. 488 _ 491.

(4) **and Fall of Erich Fromm**», op. cit.; Neil McLaughlin, «**Why Do Schools of Thought Fail? Neo-Freudianism as a Case Study in the Sociology of Knowledge**», op. cit.; and Neil McLaughlin, «**Nazism, Nationalism, and the Sociology of Emotions: Escape From Freedom Revisited,**» Sociological Theory, Vol. 14.

(*) كان ماركوس من بقية من ظلوا أصدقاء لإريك فروم بعد إقصاءه، لكن هذه الصداقة كانت متأرجحة، فقد زعم ماركوس بأن رفض فروم لنظرية الليبدو لفرويد هو بمثابة تجريد للتحليل النفسي من أهم مفاهيمه. وانتقد فروم أهم =

بالتحليل النفسي العيادي، لكن اتهامه لفروم أُخذ على محمل جدي، وبقيت أعمال ماركوس حية في الجامعات ولا تزال توزع كطبعة مجموعة.

من وجهة نظر تاريخ الأفكار، والذي هو اهتمامي الخاص، هناك شيء خاطئ في الأسلوب الذي عومل به فروم اليوم. صحيح أن كتبه قد ترجمت جيدًا على ما يبدو، وفي بعض أنحاء العالم مثل إيطاليا وألمانيا على سبيل المثال تتوفر كتبه بسهولة في أكشاك كتب المطارات، ربما أكثر من توفرها في مقر عمل أي محلل نفسي. لكن ربما يعود هذا لشجاعة فروم المبكرة في الإشارة لسقطات منهج فرويد[1]، الأمر الذي ساعد على غياب الدعم الذي يستحقه من الدوائر العيادية. من النادر أن يُنوه بكتاب مثل: «اللغة المنسية» 1951م، بل إن العديد من مثقفي اليوم لا يلحظون أن فروم كان يتدرب كمحلل، وأن نظرياته كان لها أثر مهم للعمل العيادي. فقد اعتادت النسويات على سبيل المثال تجاهل ريادته في مراجعة نظريات فرويد النسوية. ومهما كانت الكيفية التي ازدهر بها مجال التاريخ الجغرافي للتحليل النفسي مؤخرًا، فقد تلقى نقد فروم لأرنست جونز في كتاب: «مهمة سيجموند فرويد» 1959م اهتمامًا لا يذكر.

ربما لم يعتلي فروم مكانًا عاليًا كما اعتلاه في أميركا الشمالية، ولم تنخفض تلك المكانة حتى الآن. لكن بصورة عامة بقي تجاهل مرتبة فروم كأحد رموز تاريخ التحليل النفسي أمرًا حقيقيًا. هذا التجاهل الحالي واضح جدًا رغم أن «الخوف من الحرية» «رُوجع بحماس من قبل شخصيات فكرية عامة وشهيرة، مثل مارغريت ميد، آشلي مونتاغ، ودوايت ماكدونالد»[2]. ليس لزامًا أن تكون متعصبًا بحماس لصالح فروم لتمنحه الموقف الذي يستحقه. كان هناك بالطبع أوجه قصور سياسية، اجتماعية، وسيكولوجية للكيفية التي بنى عليها فروم وجهة نظره. لكنه أنتج طريقة مبنية على النظر للأشياء، هذه النظرة كان لها أثرًا بالغًا ومؤثرًا. نجح فروم في تغيير أسلوب تفكير الناس، وربما كان ذلك سببًا لكراهيته. في ظني أن مجلد رسائل فروم الباقية قد ساعد بإيقاظ الناس للقوة الفعلية لعقليته. على كل حال، يستحق فروم اعترافًا بجهده وما أضافه من أعمال لقيمة التحليل النفسي.

***

= مفاهيمه. وانتقد فروم أهم كتابين لماركوس: «إنسان البعد الواحد» و «الحضارة والرغبة» مظهرًا صدمته من الأثر الفرويدي، وأفكار ماركوس غير المنطقية لرجل المستقبل.

(1) Paul Roazen, «**Fromm's Courage**,» in Fromm, ed. Mauricio Cortina (Northvale, N.J., Aronson, 1996). This essay of mine also appears in my Psychology and the Psychology of the Unconscious (London, Open Gate Press, in 2000).

(2) McLaughlin, «**Nazism, Nationalism, and the Sociology of Emotions**,» op. cit., p.

كتب مايكل أغناتيف سيرة قيمة لإيزايا برلين، الذي توفي عام 1997م عن عمر متقدم ناهز الثامنة والثمانين، وهو منظِّر سياسي التقى برلين في العقد الأخير من حياته[1]. لو كان كاتب السيرة كاتبًا متواضعًا ربما ضاعف حجم كتابه الضئيل لضعف صفحاته. يلامس سرد أغناتيف القارئ الذي يجد نفسه ملمًا بروابط جديدة بين عمل برلين وحياته. أحد أكثر العوامل إثارة تأتي في نهاية الكتاب عندما يدخل برلين المستشفى للمرة الأخيرة، ويلتقي بكاتب سيرته ليتأكد من أن الكتاب الذي اتفق عليه لن يخرج للنور مادام برلين حيًا، لئلا تغدو خيانة له. كان برلين ذكيًا ليعلم أن كتَّاب السير غالبًا ينحون عن اتفاقاتهم حتى من دون قصد منهم. لكن برلين اختار كاتب سيرته بحكمة، ومن المحزن أن نرى أنه شكك في النهاية بحكمه السابق.

قبل أكثر من أربعين عامًا بدأت بالقراءة لبرلين لأول مرة، كانت كتاباته متوفرة في نشرات متفرقة ومغمورة في الغالب. كان محظوظًا جيدًا بأن وجد الفيلسوف هنري هاردي ـ الذي أتم بحث تخرجه في كلية هارفارد الجديدة ـ والذي جمع مقالات برلين ضمن سلسلة مجموعة ليتاح توفرها بسهولة. يشير التعليق الختامي في السيرة التي كتبها أغناتيف إلى أن الكتاب الجديد لمحاضرات برلين في الرومانتيكية، قد حررت من قبل هاردي، ولايزال العمل جاريًا على بعض المجلدات التي تحوي رسائله، لذا يبدو أن برلين قد برز من كتبه المنشورة بعد وفاته.

أصبح أغناتيف صحفيًا ناجحًا، وبدأ سيرة برلين الذاتية بكلمات باهرة، وما يعني له لقاء برلين في غرف النادي في لندن. نجح هذا الكتاب من البداية حتى النهاية في إيقاظ الذاكرة لما كان عليه برلين في أفضل حالاته. بقي مقال دراسته لفلسفة تولستوي التاريخية من أشهر مقالاته. نشر المقال لأول مرة بصورة كتاب عنوانه: «القنفذ والثعلب ـ The Hedgehog and The Fox». لكنني لست متأكدًا من صحة افتراض أغناتيف بأن الغرض الوحيد من هذا الكتاب هو: «أن نطاق عمله ربما يجعله يبدو مثل ثعلب يعلم الكثير، وفي الواقع هو بمثابة قنفذ يعلم شيئًا كبيرًا». بإمكانات أغناتيف أعتقد أنه لم ينجح في الإفصاح عما يعنيه «ذلك الشيء الكبير»، رغم نجاحه بإظهار أمثلة على مواهب برلين كثعلب في تاريخ الأفكار.

أُلحق بالكتاب ملحق لعظماء ومشاهير تشرف برلين بلقائهم، مثل فرجينيا وولف، فرويد،

(1) Michael Ignatieff, **Isaiah Berlin: A Life** (New York: Metropolitan Books, 1998).

فيتغنشتاين، فيزمان، سترافينسكي، بيكاسو، فضلًا عن لقاءه بالرئيس كينيدي ورؤساء وزراء بريطانيين. يستحق برلين أن يوجه له اهتمام لأنه حظي بلقاء كل هؤلاء الأشخاص، وأقواله البليغة تخبرنا ذلك. كان برلين يزيد في حديثه ومناقشاته، وكتاباته في سنواته الأخيرة التي كان تملى عليه بانتظام، ما هي إلا انعكاس لتحرك عقليته بحرية. فهو يملك قدرة موسيقية ليسمع اللحن المركزي لمواضيع مفكرين سابقين، ولهذا السبب تميزت أعماله عن معاصريه الذين ربما ضاعوا في ذكائهم الخاص.

بالنسبة لي كان أكثر الفصول تأثيرًا في سيرته ما يتعلق بزيارات برلين عام 1945م لموسكو ولينينغراد. أعتقد أن السبب الذي جعل برلين يختار أغناتيف ككاتب لسيرته لإن كلاهما يملكان خلفية روسية. ولد برلين في ريجا لاتيفا، لكن عائلته فرت من بتروغراد عام 1920م لمنفى في إنكلترا. ظهرت في صحيفة: «الإنكاونتر» أربعة مقالات لبرلين تتحدث عن ميلاد النخبة المثقفة الروسية في الثلاثينيات والأربعينيات، كما لو كان «عقدًا استثنائيًا»، تلك المقالات هي ما أسس اعتماد برلين كمؤرخ لتاريخ روسيا الفكري. عندما عاد برلين بعد الحرب العالمية الثانية، لم يعد لجذوره فقط، بل إنه التقى الناجين العظماء من تقليد القرن التاسع عشر، بوريس باسترناك، وآنا آخماتوفا. كان باسترناك لم يكتب (الدكتور جيفاكو) بعد، عندما كان مقربًا من برلين، لكن آخماتوفا (كان برلين يقرأ شعرها بصعوبة) كانت آنذاك رمزًا للروح الروسية التي لا تقهر، وقد كتبت قصائد عن برلين بعد لقاءاتهما التذكارية.

أضعف فصول سيرة أغناتيف هي التي لامست حياة برلين الخاصة. وقع برلين في الحب مرة واحدة في أربعينيات العمر، بامرأة متزوجة بأطفال، وأصبحا زوجين سعيدين لأربعين سنة. بدا من غير اللائق أن يحقق أغناتيف بعمق، وبرلين مات منذ مدة قصيرة. شخص مثل برلين الذي أبلغ في الكتابة عن آلام وحتمية المأساة الإنسانية، من المؤكد أنه صادف خيارات صعبة في حياته الخاصة، رغم هذا لم يسع أغناتيف خلف هذه الانهيارات العرضية. لاحظ أغناتيف غرابة في برلين «لكراهيته الأبدية لفرويد»، يطرح ذلك على لسان المتسائلين عما إذا كان برلين قد «قرأ بالفعل الكتب التي تطرق لها بشكل واسع». لكن ربما أعتقد أن برلين كان مهانًا بعمق من نظرية فرويد حول الانحراف، والآثار المترتبة للأكسفورديين في زمن برلين.

كان أغناتيف محقًا بإلقائه الضوء على مدى إثارة محاضرات برلين، والتي من أجلها أصبح أستاذًا نشطًا في أكسفورد. قدم برلين عام 1959م محاضرة في غرفة العشاء بكلّيتي

حول العدو الأكبر لماركس باكونين، ذهبت بعد ذلك لشراء وقراءة إ. هـ كار وكتابه الكبير عن باكونين. كان هناك القليل مما كتبه كار «عدو برلين» مقارنة ببرلين، والتي ضاعت نسبيًا عندما قرر برلين أن يكتب للنشر. لكن أغناتيف يخبرنا عن مدى ضجر برلين من الدروس الفردية، فيفوت القارئ الأثر الذي حصل عليه من حاول الدراسة معه. يمكن أن تكون «منصة باغنيني» كارثة مقالاته، ولم تمض سنوات حتى أصبح معلمًا لي، كنت محظوظًا بما يكفي لأن ألتقيه قبل سنتين من وفاته.

كان أغناتيف متزنًا ومقنعًا في عرض نقاط قوة برلين وليبراليته المميزة المناهضة لليوتوبيا، وكيف أنه ثمن التعددية في تقليد جون ستيوارت مل. وكان محقًا أيضًا عندما رسم خطًا رفيعًا بين برلين وأفكار هربرت ماركوس، بالإضافة لحنة آرندت. كان ماركوس في عين برلين تافهًا لشعوذته الهيغلية، والتي ربما قادت لتمويه أعظم الجرائم السياسية للقرن العشرين.

أما في حالة آرندت فقد اختلفا في نهجهم للصهيونية، بينما اشتبهت هي (بخطأ أو صواب) مساعدة برلين بالتخطيط للهجوم على أيخمان في القدس عام 1962م، قام بعد وفاتها بالإشارة إليها كمفكرة أخذت أكبر من حجمها، وأكد أن اتصالها بهايدغر نجح بتقدم الحرب العالمية الثانية. (لم يسع أحد حول تلك الآثار المترتبة على هذه الاحتمالية)، أحد آخر أعماله العامة كانت طلبًا لصالح حركة «السلام الآن» في إسرائيل. إن اختلاف برلين وآرندت في ولائهم لليهودية هو موضوع منفصل تمامًا.

كان برلين مصرًا على أن أكثر الجرائم وحشية للقرن الماضي قد أُرتكبت لأجل المثل العليا الرنانة، ولهذا السبب ميّز بدقة بين ما سماه الحرية السلبية التي تعارض الإيجابية. ماركس مثل فرويد كان متحمسًا جدًا لتحقيق ما سماه روسو مرة: «دفع البشر» ليكونوا أحرارًا. وقف برلين ضد هذه التسمية وميَّز بين الحرية التي تأتي من قيم أخرى محتملة مثل: «العدالة» و«المساواة». إن المفكرين الذين يلعبون بأفكارهم قد ينتهي بهم الأمر مثل هايدغر، وأنصار هتلر، وجماعة ستالين من المتعلمين المدافعين عن قضايا معينة. انتهى برلين بتمثيل أفضل ما في التقليد البريطاني، الذي ربطه بأعظم خط فكري غربي. قدم لنا أغناتيف حياة برلين العملية ببراعة، وتألقت سيرته بمحاولات الجمع بين إسهاماته الخاصة للفكر السياسي والاجتماعي.

الفصل الثامن

فيتنام والحرب الباردة

بقيت حرب فيتنام أسوأ الكوارث الأخلاقية في حياتي كمعاين للسياسة. لازلت أتذكر في صباي صمود الفرنسين في ديان بيان فو، وبدا فشل الموقع العسكري لنجاة قوات الحماية ضد التمرد الداخلي، إلى حدٍّ كبير شأنًا فرنسيًا. لكن بعد ذلك، وفي الأيام الأولى من رئاسة كينيدي، كانت أسماء بعض أمراء اللاومسيين متشابهة مع بعضها بغرابة، ثم واصلت بعض الأسماء بالظهور في نشرات الأخبار. كان ذلك في منتصف عام 1965م عندما أصبحت فيتنام مركز اهتمامي السياسي. بعدما هزم ليندون جونسون السيناتور باري غولدوتر عن طريق الخدعة، دخلت أميركا عام 1964م للحرب خلسة. لازلت أذكر كيف يبدو السفر في المطارات، حيث يشاهد المرء لأول مرة الجنود على حين غرة يسافرون جيئة وذهابًا. كنا في حرب فعلية دون دراية الرأي العام. الأشهر الأولى من عام 1965م حاضرة في ذهني تمامًا، لأنني شعرت حينها أن ذلك خطأ فظيعًا غير أخلاقي وربما إجرامي، لكنه سيكلف أميركا عشر سنوات للخلاص مما بدأه جونسون. (بمرور الوقت غدت حرب الجنوب الآسيوي موقعة أكثر دقة من كونها حرب فيتنام، لكن النسخة المصغرة قد علقت). شعرت بالانزعاج حينما شاهدت نصبًا تذكاريًا لحرب فيتنام، كان النصب مهدى إلى الأميركيين الذين لقوا حتفهم هناك، وليس للفيتناميين. (من أسوأ النقاشات التي سمعتها ضد الحرب، إنها كانت ستقوم بتجزئة أميركا، إذ لا يمكن التذرع بأنانية وطنية بشكل أكبر من ذلك).

تصاعد اهتمامي الكلي في الحرب الفيتنامية عائد إلى حقيقة أنني قضيت سنوات عدة في قسم السياسة بهارفارد. كان لأساتذة قسمي تاريخ في المشاركة بشؤون سياسات أجنبية في واشنطن، حتى قبل بداية الحرب الباردة، وضع الأكاديميون أنفسهم على أمل بالخدمة العامة ولو بشكل جزئي. تحت رئاسة فرانكلين روزفلت، اتبع محامون موهوبون نموذج

التزام فيلكس فرانكفورتر بالشؤون العامة، اختاروا العمل السياسي، وخلال الحرب العالمية الثانية أُستدعي المهنيون لتلبية الواجب الوطني والمشاركة في منظمات مثل (OSS) التي تسمى الآن بوكالة المخابرات المركزية، ووزارة الخارجية. بعد ذلك، دعا كينيدي أشخاصًا مثل آرثر شليزنجر الابن من قسم التاريخ. وأيضًا ماك جورج بندي من القسم السياسي. (كانت الجامعة من وجهة نظري «مسيّسة» قبل أن تبدأ حركة احتجاج الطلاب).

درست مرة فصلًا في السياسة الخارجية عند بندي، ومثل الآخرين ما كان لي إلا الإعجاب ببراعته غير العادية ووضوحه. (عمل كعميد للكلية بكفاءة تتجاوز حدود كفاءتي) كانت فترة قصيرة حتى انضم هنري كسينجر لفريق «نيكسون» عام 1968م، لكن النمط كان واضحًا في ذلك الوقت، لم يكن القسم في شبابي معنيًّا بصناعة جمهور عام فقط، لكن الجو كان من النوع الذي كما لو كنت محاطًا بشباب طموحين عينهم على الإعلام والسياسة الوطنية الأميركية، لا المنح الدراسية ومكاتب العمل. بدا لي ذلك الحين أنني عشت فترة انتقالية لطبيعة الحياة الجامعية التي كنت مرتبطًا بها بثقة. وحلَّت الانتهازية السياسية محل الهدف المثالي من الزمالة، الذي كنت أعتقد أنها شكل العالم الذي عشت فيه. أحد أسباب سعادتي بالانتقال لكندا عام 1971م أن جامعة يورك كانت خارج إطار تدبير قرارات سياسية عالية، شعرت بأنني عدت إلى جذوري، عندما كانت الجامعات تُعنى بالتعليم والكتب.

عندما ظهرت دراسة حول الأخوة بندي، تحاشيت قراءتها في البداية، لكنها وقعت في يدي أخيرًا، بدت كما لو أنها على قيد الحياة. خطرت في ذهني ماكبث، أظن أنها المسرحية الوحيدة لشكسبير التي ترتبط مع «لون الحقيقة ـ The Color of Truth»[1] لكاي بيرد. الرعد والبرق في الهواء، والساحرات يتآمرن في قصر مفتوح حول موعد لقاءهما التالي، بدا القصر هو المكان اللائق لتبدأ فيه حكاية فيتنام، بهواء قذر ووسخ يملأ افتتاحية القصة. لازالت المسألة تبدو لي مسألة قتل وخيانة أيضًا. من أكثر الجوانب إيلامًا في حرب فيتنام الطريقة التي توقَّف فيها الأصدقاء القدامى عن الحديث لبعضهم البعض. ربما تبدو هذه مسألة سهلة مقارنة بالخراب الحقيقي الذي لحق بمن عاش في الجنوب الآسيوي. لكن إذا كنت سأكتب من جانب ضمير أميركي فإن أحسن المشاعر كانت أسوأ الجوانب فيها، فلم تكن قراءة كتاب عن حرب فيتنام بالأمر البسيط. كانت وثائق البنتاغون عبارة عن مجموعة من الوثائق

(1) Kai Bird, **The Color of Truth: McGeorge Bundy and William Bundy - Brothers in Arms** (New York: Simon & Schuster, 1998).

الضخمة التي يمكن للمختصين مثل روبرت ماكاغارا أن يقيموها. لم يكن ماك جورج (الذي عرف بـ «ماك بندي») جزءًا من عالمي، لكن أخاه «بيل» كان حاضرًا مهنيًا في ذهني.

تسببت حرب فيتنام باضطراب في حياتي أكثر مما يعقل. كنت قادرًا بسهولة على التملص من مشكلة التجنيد بسبب عمري، وكان تأجيل المدة العسكرية ممكنًا عبر العمل في مدرسة الخريجين. لكن تظاهر الطلاب ضد تصعيد الحرب، وإيمان الشباب بأن هارفارد متورطة بقوة في صناعة الحرب، قد عطَّل عمل الجامعة في نقطة واحدة عام 1969م.

ربما يصعب التصديق في يومنا هذا، لكن شرطة الشغب حضرت وطوقت مرة ميدان هارفارد بالغاز المسيل للدموع، كان يتصاعد في سماء هارفارد فوق الميدان وبالإمكان رؤيته على بعد أميال، وهشمت النوافذ، وجرح المتظاهرون. مهما كان من سبات للدوغمائية، سمحت لنفسي بالتفكير في ذلك الحين بأن حرب فيتنام تمثل تحديًا لكل شيء، إذا ما استثنينا الحرب الأهلية في الثلاثمائة سنة الأخيرة، حينما وقعت الجامعة في انقسامات. ربما كنت معزولًا من أصدقاء قدامى لا يقدِّرون بثمن بسبب حدة الجدل السياسي، لكنني لم أذهب بعيدًا لدرجة الإيمان بأن علينا إعادة النظر في كامل أصول الحرب الباردة مثلما فعل جيل لاحق من المؤرخين الثوريين. (بقيت الحكاية الستالينية بالنسبة لي جرمًا مركزيًا) ولأضع كل أوراقي القديمة على الطاولة، عندما كنت طالبًا قيد التخرج علمت أن المجلس الياباني حتى بعد إلقاء القنبلتين النوويتين كان لايزال مقفلًا وبحاجة لتدخل شخصي من إمبراطور اليابان للاستسلام عام 1945م، كما سنرى هذه المواضيع متعلقة بتقسيم كاي بيرد في «لون الحقيقية»، العنوان جاء من ماك جورج بندي، ومقاله في عام 1967م «الرمادي هو لون الحقيقة».

رغم أن التدخل الأميركي في حرب فيتنام بالكامل بدا لي مثل كابوس مريع، ومشاركة أشخاص مثل ماك جورج بندي بمثابة تحريف مخيف للقدر، لكن تفسير كاي بيرد كان تفاؤليًا بشكل ملحوظ. يخبرنا في مستهل مقدمته كيف سمع عام 1972م لأول مرة بشخص يدعى بندي، والذي شغل مرة منصب مستشار الأمن القومي لكلًا من الرئيس كينيدي إلى جانب جونسون، ومتحدثًا بجامعته في ولاية مينيسوتا. كان بيرد حينها في الواحدة والعشرين من عمره، لكنه أُعتقل لسنتين ونصف لإقفاله مدخل مركز مشروع التجنيد. كان بيرد بطلًا أكثر مما كنت عليه، إذ اكتفيت بصرِّ أسناني والتصويت في اجتماعات أعضاء هيئة التدريس في هارفارد، بأسلوب بدا غريبًا لمعظم الأعضاء الكبار في قسمي.

كانت هناك أوقات في السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة عندما تفكَّرت مليًا فيما إذا كنت مصيبًا في استلامي للمناصب التي استلمتها. لدرجة أنني وصلت إلى عدم الثقة بدوافع هؤلاء الذين ساعدوا بقيادة قضية ضد الحرب في هارفارد. بدوا مثل انتهازيين يحاولون نيل سلطة أكاديمية مثل الآخرين، وبقيت قانعًا بما كنت عليه سياسيًا.

كان صعبًا عليّ أن أبدأ بقراءة كتاب كاي بيرد، لإن اسم بندي كان في ذهني كشخص كريه جدًا. يخبرنا بيرد في مقدمته عن لقائه لأول مرة بماك جورج بندي من أجل (لون الحقيقة). كانت كلمة: «هاليبرستام» هي الوحيدة التي تشرح استهجان أمه. في عدد شهير من مجلة: هاربر عام 1969م ثم في عام 1972م حصل كتاب: «الأفضل والألمع ـ The Best and the Brightest»[1] لدافيد هاليبرستام على أفضل المبيعات، الأمر الذي دمر سمعة بندي صحفيًا. لا يعني هذا أن بندي عندما غادر البيت الأبيض عام 1966م لم يكن قادرًا على الوقوف على قدميه كرئيس لمؤسسة فورد. لكن هاليبرستام خاصة في مقالته في هاربر، كان قد وصف مهنة بندي بأساليب كانت ممتنعة في هارفارد ذلك الوقت. أذكر أن بروفسورًا كبيرًا وخبيرًا بالحرب مثل بندي، اتسعت عيناه عندما مررنا ببداية مقال هاربر، إذ كان بندي في ذلك الوقت لا يُمسّ، لربما خلَّف ذلك انقسامات وانعدامًا للأمن، لكن من نعمة الله أنه ذهب بنفسه.

كتاب بيرد لا شأن له بالأسلوب الشيطاني لهاليبرستام، بل بدلًا من هذا يعطينا تفسيرًا لمعلومات مزاجية، تافهة أحيانًا، عن حياة ماك جورج بندي وأخيه ويليام. كان ويليام شخصية سياسية منعزلة أكثر من جورج، واستمر في العمل للحكومة السياسية (مدة أطول) وكل ذلك بدأ من الأب، هارفي هوليستر بندي الذي عمل مرة لوزير الحرب الأميركي العظيم هنري ستيمسون. ساعد ماك جورج بندي ستيمسون بكتابته، وكان مؤلفًا مشاركًا في كتاب مذكرات ستيمسون (ويبدو أن بندي هو من قام بكل العمل الكتابي). مرة تلو أخرى، يخبرنا بيرد أن منظور ستيمسون للعالم هو الذي اجتاح فكر بندي أخيرًا. ربما كان ستيمسون جمهوريًا لكنه عارض بشراسة الانعزالية وسياسات التهدئة التي قادت إلى إعادة اتفاقية فيفيل تشامبرلين المشهورة «السلام لزماننا» من ميونخ. يفترض أن الأخوة بندي كانوا منقادين للدعم في حرب فيتنام خشية أن يتعاونوا في ميونخ مرة أخرى. لكن بيرد لم يذكر أنه في زمن اتفاقية ميونخ كان هناك من استقالوا من العمل السياسي بدلًا من المشاركة في

(1) David Halberstam, **The Best and the Brightest** (New York: Random House, 1972).

سياسة مصيرية غير حكيمة. بدا أن الأميركيين بعكس البريطانيين، ليس لديهم تقليد مؤسس لأناس يضحون بحياتهم العامة مقابل أسباب أخلاقية. يقول بيرد: «لو أن رئيسًا قرر أن يرسل عساكر دون زوبعة، فليس لديهم خيار سوى المضي قدمًا»، لكن المشكلة لم تكن فقط «الزوبعة» بل المسؤولية الديمقراطية، والذي ربما تضاعفت باستقالة رئيسه. وبلغ به أن يتهرب في الدفاع عن بندي ليدعي أنه كان مجرد ترس في صناعة سياسة لطالما دافع عنها، يبدو لي هذا مساو تقريبا لدفاع آيخمان.

هارفي بندي الذي حضر المدرسة الأخلاقية الشرقية أو الغربية ثم يال، التحق بهارفارد قسم القانون في وقت لاحق، وعمل كاتبًا للقاضي هولمز. كان هارفي بندي أميركيًا أصيلًا بزواجه من عائلة براهمين الشهيرة في بوسطن. ذهب ابنيه إلى غروتون قبل أن يُدرجوا في جامعة يال. يعطينا بيرد تفسيرًا بسيطًا للخلفية التعليمية لماك وبيل بندي. رغم أن بيل بدا أقل إثارة من أخيه اللاذع ماك، إلا أننا نملك فكرة عن الكيفية التي أصبح عليها ماك جريئًا، ولعب لاحقًا دورًا واثقًا على منصة العالم. تزوج بيل من ابنة العميد (القاضي) أتشيستون، وأصبح متخصصًا في التشفير خلال الحرب، أما ماك فقد كان موكلًا كمساعد شخصي للأميرال المدبر الذي كان متزوجًا لأعز أصدقاء والدته. تخرج بيل من هارفارد قسم القانون، قبل أن يواصل مسيرته في وكالة المخابرات المركزية، ولاحقًا في وزارة الخارجية. لكن ماك ذهب للتدريس في جامعة هارفارد، حيث التقى وتزوج مسؤولة القبول الشابة في رادكليف والذي صدف أنها كانت مقربة من العائلة.

لم يتكبد ماك العناء ليصبح عام 1953م من تحت رئيس هارفارد نيثان بسي كعميد للكلية. أمضى بيرد وقتًا كبيرًا باحثًا عما فعل وما لم يفعل بندي، بمنصب أعضاء الحزب الشيوعي أو المتعاطفين معه في هيئة التدريس. كان ذلك قبل وصولي لهارفارد بقليل. لكن هناك أمر غريب فيما يكتبه بيرد، بحيث لا يقرأ وكأنه عمل مطّلع محنّك، فقد أورد أحكامًا شاذة حول عمادة بندي من جانب أولئك المراقبين المحايدين. ولكن عدم ارتياحي الأساسي حول اختيار بندي لمصادر هارفارد جاء مما قاله عام 1965م. في ذلك الحين كان بندي مستشار المخابرات أو الأمن الرئاسي منذ بداية عهد كينيدي. (ليس خبثًا مني لكنني كنت أستمتع بالكيفية التي أساء بها جونسون معاملة بندي).

يتفق الجميع على أن عام 1965م كان نقطة تحول في تدخل أميركا لحرب فيتنام. على سبيل المثال: أتذكر بوضوح شديد في حزيران/ يونيو 1965م عندما عاد بندي مرة أخرى

إلى كامبريدج لإلقاء خطبة (في بيتا كابا)، وأُستجوب من قبل لجنة الطلاب أمام مجموعة كبيرة من أعضاء هيئة التدريس المهتمين في قاعة المحاضرات الجديدة. لا يمكنني أن أنسى هذا الحديث عندما طلب طالب جريء أن يعرف تحديدًا كم من الكتائب العسكرية ستُقحم في الحرب، ثم أعطى أرقامًا مقترحة؟، هز بندي رأسه بالنفي في إشارة إلى أن هذه الحرب لن تكون على هذا المقياس الكبير، وقد وصلنا إلى هذه الأرقام وربما تجاوزناها خلال الخريف. شعرت مطولًا أن بندي قام بكل ذلك عمدًا وربما بإحسان، ولم يعلم أن الأمور سوف تتصاعد، لكن ما كان عليه أن يؤكد علنًا أن ما من داع يثير القلق. ذكرت هذه الحادثة لأن لها معنى خاص في نفسي، بما أنني شعرت بالخيانة من أستاذ سابق، بالإضافة لاستعادة اجتماع قاعة المحاضرات الجديدة. مع هذا، لا يظهر هذا الاجتماع في (لون الحقيقة) إطلاقًا عدا في جملة تعود لتقرير مجلة التايم. كم من المزعج أن بيرد اعتمد بسذاجة على لقاءات مقربين قلة من أعضاء هيئة التدريس، وبالتحديد البرفسور «مناهض الحرب»، والذي اعتبره بندي إلى جانب آخرين مثل ثعبان يمشي على العشب. كان على بيرد قطعًا أن يخاطب العديد من الأعضاء الآخرين في الهيئة، وكان من الواجب تقصي خلفية الأعمال التمهيدية القديمة، بدلًا من الوقوف على تغييرات بعض أسماء هارفارد.

بداية عام 1966م ذهب بندي لمؤسسة فورد بينما ترك خلفه «أخاه» الذي سيقاتل الحرب لثلاث سنوات أخرى. كان بيل محررًا مؤسسًا لمجلة: «Foreign Affairs». بدا أن ماك بندي قد رمى بنفسه لمشكلة العلاقات العرقية بضمان ذاتي أنه أحضر مرة للجنوب الآسيوي. لكنه لا يملك في رصيده أعمال محلية جيدة، حتى لو افترضنا أنها تعدل كارثة ما حدث في فيتنام. وأصبح الأمر ساخرًا أن كلا الأخوين قد تورطا في (عداء متواصل) مع كسينجر ضد قرارات نيكسون ـ فورد. كان كسينجر على خلاف مع مراوغة الأخوين بندي، وكتب ذلك بأسلوب مذكرات شيطانية ليبقي المؤرخين منهمكين بمتابعة ما يحدث، حتى خرج قلة مهتمون بالحقيقة.

مات ماك بندي 1996م في عمر السابعة والسبعين (كان بيل أكبر منه بسنتين) وكان يعلم عن مرضه حتى توفي عام 2000م. لكن رغم أن كلمة: «تراجيديا» تأتي في آخر جملة من الكتاب إلا أن «مأساتهم كانت بالفعل مأساة أميركية غريبة». أتساءل ما إذا كان بيرد قد ضرب مثلًا في كتابه وحول ما كتبه. المأساة لا تعني خطأ وجب ألا يحدث، باستثناء أن يحدث في أميركا. ربما يقلل المشهد الواقعي من معنى المأساة لهذا المستوى الدنيوي. من

الواضح أن ماك بندي، في سنواته الأخيرة اعتاد على الشرب بإفراط، ولم يأت ذكر لذلك من هنا وهناك. بدلًا من ذلك أعطانا بيرد نسخة طاهرة ونقية للأحداث. مهنة ماك بندي في عين من شاهده، بأنه فاشل وربما شارك بنفسه في هذا الحكم، مؤكدًا أنه شعر بهزيمته أكثر من أولئك الذين تمتعوا بقدرات قليلة أو نوايا أقل طموحًا.

يتناقض (لون الحقيقة) لبيرد مع (الأميركي الهادئ) لغراهام غرين الذي أشار لهاليبرستام بينما لم يذكره بيرد. فهم غرين كيف أن براءة وسذاجة الأميركي تعني أن أفضل النوايا يمكن أن توصل لنتائج اجتماعية وسياسية مريعة. افتقر بايل الأميركي الهادئ إلى حس الشر والخطيئة، التي جعلها غرين أساسًا لوجود الإنسان العاقل. أعتقد أن ليندون جونسون، في أفضل حالاته، آمن أن بإمكانه نقل سلطة وادي تينسي الضخم للجنوب الآسيوي. لكن ذلك العالم الآسيوي كان بعيدًا عن مرأى أولئك الذين سعوا لإصلاح الأشياء عبر حلول الصفقة الجديدة.

مسرحية ماكبث هي المثال الوحيد على تنوع المآسي الممكنة. إن المشكلة، كما أراها، أن بيرد يشبه كثيرًا بايل بطل رواية غرين. ولو أن البيت الأبيض كان ممتلأ بالعاملين الثقة، ممن هم على قناعة ومعرفة بكيفية إدارة العالم، لم يكن لحرب فيتنام أي وجود. لم تكن الحرب مأساة كلاسيكية، ولم تكن بسبب فشل مسيرة ماك بندي بأبعادها المأساوية، أما معالجته لسنواته الضائعة في البيت الأبيض، فتلك مسألة أخرى. بيرد الذي رأى أن الحرب الباردة كانت بأكملها خطأ غير ضروري، إضافة لقرار إلقاء القنبلتين الذريتين، لم يغير رأيي في (لون الحقيقة) على الأقل. حاجج تيلفورد تايلور بأن الأميركيين بمعايير محاكمة نورنبيرغ، قد ارتكبوا خلال حرب فيتنام جرائم تخصهم، وتستحق أن تناقش من قبل بيرد. يصور نهج بيرد المحترم صحة شك غراهام غرين بأن الأميركيين يفتقرون لحس الحدود التي يمكن أن تُمكنهم من تحكيم الإمبراطورية التي يعملون بها.

يبدو بايل سطحيًا ومحدود التفكير ليكون شخصية مأساوية تراجيدية. كلا من الأخوين بندي كانا غير مؤهلين بالنسبة لكسينجر، وما ذلك إلا دلالة على نقاط الضعف المركزية في سمات النهج الأميركي لسياسة العالم. ربما غدت حرب فيتنام صراعًا أخلاقيًا مؤلمًا بالنسبة لي، لأن التملص من التجنيد كان سهلًا جدًا، فكنت أتلقى تأجيلات أثناء دراستي، حتى أصبحت كبيرًا بما يكفي لأكون مناسبًا للعسكرية. لكن الإحباطات التي رافقت تلك الحرب بدت جنونًا. كما أسلفت، كان واضحًا بالنسبة لي في ربيع عام 1965م أن التدخل الأميركي

في الجنوب الآسيوي بدأ خلسة. وبعدما انسحب الرئيس جونسون عام 1968م من ترشيح إعادة انتخابه، فقدنا الكثير ممن فقدوا للأبد. أصبح ريتشارد نيكسون رئيسًا، والحرب التي اعتبرتها ليست مجالًا للفوز واصلت الانزلاق. عام 1969م تطفلت الحرب بشكل مباشر على حياتي، ومنذ ذلك الربيع، حينما قُبض على أكثر من مائة طالب في هارفارد في المبنى المركزي للجامعة، واستدعاء رئيس الجامعة نيثان بسي شرطة كامبريدج لطردهم، أصبحت مسألة تخص نشأة المدينة. بعد ذلك أُعلن الإضراب وسرعان ما أصبح ظاهرًا أن المجتمع الأكاديمي ينهار. توقف أحد أساتذتي القدماء ـ عرفني لعشر سنوات ـ عن الحديث معي لأنني كنت متعاطفًا جدًا مع أولئك الطلاب. كان غاضبًا جدًا على الفوضى الجامعية لدرجة أنه أصيب بنوبة قلبية أهلكته. ولطالما كنت قلقًا حول ما إذا كنت مصيبًا أو مخطئًا خلال تلك الأزمة. عام1997م أعاد روجر روزنبلت كل شيء للحياة من خلال سرد روائي رائع في كتابه: «تفكك قادم Coming Apart»[(1)] للأحداث التي حصلت في ذلك الربيع.

في ذلك الوقت كنت أنا وروزنبلت أعضاء هيئة تدريس صغار، لكننا لم نعرف بعضنا البعض. كان يعتبر نفسه دخيلًا بشكل نسبي، لأنه قدم لهارفارد كخريج، مع هذا يعترف بأنه «صبي بشعر أشقر» أمسك بمنصب إداري في المقر الجامعي، وخدم في لجنة الانضباط التي أقرت التعامل مع أي عقوبة تقع على الطلاب المتورطين.

لم يبدُ أن روزنبلت تعذب من مأزق هؤلاء الطلبة. يقول: إنه اعتاد ألا يقرأ الصحف في تلك الأيام، كان معارضًا للحرب مثل كثير ممن عرفهم. في النهاية، قام بإيقاف ستين شخصًا لدورهم في العصيان المحلي، وكنتيجة لذلك وجد روزنبلت نفسه أقل شعبية بين الطلاب. ومثل معظمنا فشل في إثبات نفسه في منصب بهارفارد، لكنه ترك الحياة الأكاديمية ليكون صحافيًا حرًا. بعد ثلاثين سنة، تواصل مع العديد من الأشخاص الذين عمل معهم خلال تلك الأوقات العصيبة المضطربة، وبيّن أن «عاطفتهم بدت حية كما كانت في الأصل» بقي هذا حقيقيًا بالنسبة لي أيضًا.

بالطبع هناك مشاكل في مذكرات روزنبلت. فقد بذل جهدًا غير كاف ليضع مشاكل الجامعة في سياق عسكري أو سياسي. فهو يصف الصراع الخطير الذي بدأ في شتاء

(1) Roger Rosenblatt, **Coming Apart: A Memoir of the Harvard Wars of 1969** (Boston Little Brown, 1997).

1969م خلال دورة تدريبات الضباط، والتي بلغت أوجها بتصويت هيئة التدريس بإنكار الانتماء لهم. كانوا بائسين فكريًا على أي حال، وأخذوا من ربع وقت الطالب الأكاديمي. كانت دورات تدريب الضباط بمثابة رمز للتورط في الحرب. ونمت الروابط بين هارفارد والحكومة الفيدرالية لدرجة أن الطلاب آمنوا بأن إعاقة الجامعة تعد بالنسبة لهم إنجازًا سياسيًا.

وفي الوقت الذي كنت فيه مرعوبًا من فكرة احتلال الطلاب للمبنى ونهب ملفات سرية، شعرت بالوقت نفسه أن قرار مساءلة الشرطة المحلية كان يجب أن يصدر من أعضاء هيئة التدريس وليس من الإدارة فقط. ما حدث كان أمرًا محبطًا، لم تقم شرطة كامبردج بإخلاء المبنى وحسب، لكنهم لاحقوا وضربوا الطلاب، وصُعب عليّ أن أرى الضرر الجسدي الذي تعرض له الطلاب دون أن أشعر بالحماية الأبوية. لم يكن روزنبلت متفاجئًا بردَّة فعلي، التي شاركني إياها الآخرون، لكنه ترك بعضًا من التفاصيل الرئيسة. فورًا وبعد فضِّ الاعتصام، قام الطلاب بإلصاق نسخ من شعارات تهديد على الأشجار في حديقة هارفارد. بحسب العميد (المؤرخ فرانكلين فورد) كانت هيئة أعضاء التدريس خارج السيطرة في تصويتها ضد دورات تدريب الضباط، واقترح علي عميد كلية القانون إيجاد سبيل للتحايل على قرار أعضاء هيئة التدريس، وتوجيهها للرئيس بسي، بهذه الطريقة كان عميدنا يضعف من قرارنا كهيئة تدريس. وقد ذُهلت حينما كتب رسالة، وترك للطلاب أمر العثور عليها.

انقسمت هيئة التدريس إلى نصفين، تجمع ليبرالي كان على خلاف مع المحافظ. (ظهر أيضًا تجمع متطرف صغير). وكنا في الاجتماعات نصوت بالوقوف حتى تكون التعهدات عامة. رأى روزنبلت نفسه كعضو للمجموعة الليبرالية، لكنه بدا وكأنه محافظ في كتابه: «تفكك قادم». كان أمرًا مذلًا أن «كل مجموعة قد تكونت من أشخاص هم ببساطة لا يحبون أعضاء المجموعة الأخرى». بدا روزنبلت منزعجًا قليلًا بالتعقيدات الأخلاقية، ويصف تلك الأحداث كثيرًا كشيء دخيل في مسيرته. ملأ الكتاب أيضًا بأسماء أشخاص أُقحموا لاحقًا (مثل آل غور وتومي لي جونز) الذين أصبحوا من المشاهير لاحقًا. نقطة لصالحه أنه ناقش خلافًا مهمًا، إن دراسة السود قد بدأت في هارفارد عام 1969م، ولمن يود القراءة في تاريخ نمو التصحيح السياسي في الجامعات «تفكك قادم» هو الكتاب الأنسب للبداية.

أودُّ أن أنازع في بعض ما صرح به روزنبلت عن اجتماعات أعضاء هيئة التدريس، والتي ربما تطعن في تقييمه لقلة من الأشخاص الرئيسيين. على الجانب الآخر، لا أذكر صراحة

بعض مما روي، وأميل لأمنحه قرينة الشك. منذ أن بدأت بقراءة «تفكك قادم» لم أستطع أن أضعه جانبًا حتى أنهيته. أحيانًا عندما أعود لميدان هارفارد الآن، أستطيع تصوير نوافذ المحل المحطمة، والغاز المسيل للدموع (الذي ذكرته من قبل) يتصاعد في أفق المنطقة بأكملها، غيمة عظيمة تلك التي يمكن أن ترى من المدن المجاورة. لو أن روزنبلت لم يكتب هذه القصة المقنعة، ربما يتساءل أحدهم ما إذا كان ذلك مجرد كابوس شخصي يخصه؟.

كتاب آخر رائع ومعدل قراءته عالٍ جدًا: «الثقافة والحرب الباردة، وكالة المخابرات المركزية وعالم الفن والرسائل - The Cultural Cold War: The CIA and the World of Arts and Letters»[1] كتبته فرانسيس ستونر ساندرز، خرج في البداية في بريطانيا تحت عنوان أكثر تحريضًا: «من دفع لبايبر؟ - Who Paid the Piper» لا ينبغي للقارئ إرجاء قراءة الكتاب لمبالغاته، خاصة افتتاحية البيان المكارثي «خلال قمة الحرب الباردة، وعدت الولايات المتحدة بمصادر ضخمة لبرنامج سري للدعاية الثقافية في الغرب الأوروبي». لم يحاول الكاتب أن يحسب كم من الأموال التي ضخَّتها وكالة المخابرات لتساعد منظمة مثل مجلس الحرية الثقافي، أو أي جهود لوكالة المخابرات المركزية للحفاظ على «ثقافة الحرب الباردة»، كل ذلك نقطة في بحر إذا قُورن بالمصروفات الخاصة بالبنتاغون. طريقة ساندرز في افتتاحية الكتاب، هي إشارة إلى حدٍّ ما، للميل الضمني في سردها. كتبت في المقدمة:

> **من قاد لإسقاط رئيس الوزراء الإيراني مصدَّق عام 1953م، والإطاحة بحكومة أربينز في غواتيمالا عام 1954م، وقضية خليج الخنازير[*] المشؤومة عام 1961م، وبرنامج فينكس سيئ السمعة خلال حرب فيتنام. كان حصيلته التجسس على عشرات الآلاف من الأميركيين، ومضايقة المرشحين الديمقراطيين في الخارج، وتدبير اغتيالات للكونجرس لتنكر هذه النشاطات، كل ذلك بعمليات ترقى بفن الكذب لآفاق جديدة.**

---

(1) Frances Stonor Saunders, **The Cultural Cold War: The CIA and the World of Arts and Letters** (New York: The New Press, 1999).

(*) في الخامس عشر من نيسان/ أبريل عام 1961م انطلقت أول غارة أميركية على قاعدة جوية كوبية، كانت تلك محاولة فاشلة من وكالة المخابرات المركزية لقلب النظام على كاسترو، وقد استعانت في هذا الغزوة بمجموعة من الكوبيين المنفيين، عرفت هذه العملية بغزوة خليج الخنازير.

أما نص الختام يذكرنا بوكالة المخابرات وخطاياها:

نفس الأشخاص الذين قرأوا دانتي، ذهبوا إلى يال، تلقوا تعليمهم في الفضيلة المدنية لتجنيد النازيين، وتلاعبوا في نتائج الانتخابات الديمقراطية، منحوا تخديرًا لمواضيع غير مقصودة، مثل فتح بريد آلاف من المواطنين الأميركيين، أطاحوا بالحكومات، ودعموا الدكتاتوريات، دبروا الاغتيالات، وقاموا بهندسة كارثة خليج الخنازير.

خليج الخنازير كان خزيًا سياسيًا، خطأً كوميديًا تقريبًا، لكنني مع هذا أتساءل، على أي أساس استحقت أن تكون «كارثة» ولا أفهم لم سردت ساندرز أزمة الصواريخ الكوبية كواحدة من حماقات «الإمبريالية الأميركية»؟. ومن غير الواضح كيف يُتوقع من مراقب مستقل أن يقرّ برأي عن زحف السوفيات لهنغاريا عام 1956م، أو الغزو الفرنسي البريطاني للسويس، ودور الفرنسي فيما بعد الحرب العالمية الثانية في الجزائر، أو أي قوة عظمى غير أميركية. في الواقع، أزعم أن أي قوة عظمى تطمح لحكم إمبراطوري، يحتمل أن ترتكب أعمالًا وحشية تبدو مريعة في العزلة، دون أن تبررها.

الأميركيون بعد الحرب العالمية تعهدوا بتحدٍّ في نطاق لا مثيل له في تاريخ العالم، الدولة التي تملك خبرة محدودة في الشؤون الخارجية، ولا تملك خدمة مدنية مهنية، تعهدت بمقاومة العدوان من أحد أكثر الدكتاتوريات الوحشية في العالم. الآن بعد تراجع جوزيف ستالين والاتحاد السوفياتي من الذاكرة، ربما يصعب على الجيل الجديد تقدير ما سعت له الولايات المتحدة لمحو هذا التهديد. لن أفصِّل في نجاح سياسة أميركا في حفاظها على أوروبا من انهيارات وشيكة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. سيكون ذلك أمرًا مبتذلًا لأي شخص، الأمر الذي كان مرة موضع نقاش ثمين.

قبل أن آخذ بالاعتبار أن ذلك الكتاب جيد أو خلاف ذلك، يجدر بي أن أضع المزيد من أوراقي على الطاولة. أغرقت الكاتبة في سرد طريقة التمويل السري من وكالة المخابرات المركزية لمنظمات ثقافية مختلفة، بما في ذلك إرسال أوركسترا بوسطن خارجيًا للقيام بجولة في الخمسينيات. المؤسسة الوحيدة التي ركزت عليها ساندرز هي مجلس الحرية الثقافي، وخصوصًا إنشاءها للمجلة الشهرية: «إنكاونتر» والتي بدأت بالصدور عام 1953م. لكن القارئ لن يرى روعة وسحر مجلة الإنكاونتر في أسلوب السرد الذي انتهجته. فضائح

عام (1966 ـ 1967م) المرتبطة بطريقة دعم وكالة المخابرات المركزية لمجلة الإنكاونتر ماليًا، عنت كما سنرى، نهاية فعلية للدور المركزي للحياة الثقافية في الغرب. لكن ساندرز تجاهلت أن تبين ذلك، حتى في التعليقات الورعة الأخلاقية من أحد مؤسسي New York Review of Books، وكم من كاتب للإنكاونتر ذهب للنشر في تلك المجلة الأخلاقية الأسبوعية.

ساندرز لم تبدأ كتابها بالتذكير بالفوضى التي كانت عليها أوروبا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وكيف تشكل الوضع المشبوه لأعظم موسيقيي ألمانيا، بما أن العديد من المشاهير مضوا إلى تسوية سياسية، فيلهلم فرتنغلر، إليزابيث شوارزكوف، هربرت كارايان، جميعهم كانت لديهم تدخلات سياسية بغيضة مع هتلر الرايخ الثالث. مالفين لاسكي الذي انتهى به الأمر ليكون أطول من خدم بالتحرير لمجلة الإنكاونتر، قد وضع أول بصماته على منصة عامة لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

كان «الكومنفورم» «مكتب الإعلام الشيوعي» وسيلة ستالين للحرب السياسية، والذي حلَّ محل المعروف جيدًا «الكومنترن». جذب مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية، بعضًا من ألمع مثقفي أميركا النموذجيين للعمل الاستخباراتي، ولم يكن مفاجئًا فالعديد من ألمع قادة المستقبل الأكاديميين بدأوا بداياتهم من هناك. وأكثر من قليلهم استقروا في العمل الحكومي. وقد نجح مكتب الخدمات الاستراتيجية عبر الاستخبارات المركزية التي أنشئت عام 1949م بتشريع من الكونغرس.

على الرغم من أن ساندرز تميل لنظرة متشائمة تجاه جورج كينان، الذي بدأ بعرض أسباب سياسة الشمول، إلا أنني أعتقد أنه يستحق أن يقف كأحد أعظم أبطال الحرب الباردة. في شبابي، سخر الكرملين من إيمانه الراسخ بأن الاتحاد السوفياتي سينهار أخيرًا إذا انتهى من مدٍّ نفوذه خارجيًا، واعتبروا ذلك جانبًا من جوانب التصوف الديني للمزعوم كينان، والذي أصبح من أعظم مؤرخي القرن العشرين في العلاقات الدبلوماسية مع السوفيات. بدأت ساندرز بتبرير كينان لتمويل وكالة المخابرات الأميركية مجلة الإنكاونتر، على أساس أن كينان شعر بأن غياب وزارة الثقافة في الولايات المتحدة فتح الطريق لمعادلة جهود السوفيات في الحرب الثقافية. تلقى كينان نقدًا واسعًا لأنه «قدم مفهوم الكذب الضروري كعنصر حيوي لدبلوماسية ما بعد الحرب الأميركية». أتساءل ما إذا كانت ساندرز تعتقد أن كينان بمنصبه العالي في وزارة الخارجية وتدبيرها السياسي، كان ملزمًا بأن يفكر مثل البابا

المقدّس! أظن أن من العبث أن تشرح الحتمية البائسة للكذب «الضروري» لأعظم القوى السياسية. لو كانت ساندرز سويسرية بدلًا من بريطانية، ربما دعت لتراث فضيلة حيادي، لكن حتى السويسري تحول خلال الحرب العالمية الثانية لإثبات كيف أن الحياد يمكن أن يكون تافهًا أحيانًا، ويمكن للدول الصغيرة أن تستمتع بالترف الأخلاقي، لكنه يستحيل ذهنيًا لقوى العالم العظمى.

لبحث مساعي وكالة المخابرات المركزية الثقافية، تطلب أن أعود للخلف بالذاكرة، فقد انجذبت مجموعة مذهلة وكبيرة من المثقفين لإغراء الماركسية، وبنهاية الأربعينيات ظهر أن السوفيات الذين أنجزوا أول قنبلة ذرية لهم في صيف 1949م كانوا في طريقهم لمعركة عقلية وعاطفية مع العالم الغربي، دون أن يُعلم ذلك نسبيًا. وضع كتَّاب مثل: (آرثر كوستلر، إغناسيو سيلون، ريتشارد رايت، أندريا جيد، لويس فيشر، ستيفن سبندر) خبراتهم مع الشيوعية في كتاب: «الإله الذي فشل ـ The God That Failed» 1949م في ذلك الوقت بدت تلك الأسماء أقلية نسبية بين المثقفين. كان يمكن إعدام هؤلاء الشيوعين السابقين لفقدانهم الإيمان المتعصب بعقيدة الماركسية، وأساسًا لن يخضع متَّزن سياسيًا بحسِّه السليم لهذه الحركة. لكن الحرية كينونة متزعزعة، والديمقراطية أمر نادر حتى الآن، والاستراتيجية الشاملة لقتال السوفيات كانت إلى حدٍّ ما نظامية. أما الغزو الكوري الجنوبي من الشمال، فضلًا عن كشف التجسس النووي السوفياتي، الذي أثبت نجاحه في بريطانيا وأميركا، بدا وكأنه رسمي من الصليب العام. اقتبست ساندرز من آرثر شيلزنجر الابن قوله: «لِم تبدُ مساعدتنا للذين وقفوا بجانبنا أمرًا غير معقولًا؟ فمن بين جميع نفقات وكالة المخابرات المركزية بدا تمويل مجلس الحرية الثقافي أكثرها نجاحًا واستحقاقًا». في تلك الأيام، أول الخمسينيات، كان الاتحاد السوفياتي يصرف أضعافًا للدعايات الثقافية في فرنسا لوحدها، أكثر مما فعلت أميركا في العالم كله.

الأدوات التي اختارت أميركا أن تقاتل بها ضد السوفيات كانت مؤسسات زائفة أوصلت المال في اتجاه رسمته وكالة المخابرات المركزية. يعرف آرثر شيلزنجر الابن وإيزايا برلين هذه المسألة جيدًا، دون حاجة لإعلان وكالة المخابرات المركزية تمويلها للعديد من المحافل الثقافية التي شاركوا فيها أو شارك فيها أحد أصدقائهم. أما رؤساء مجلس الحرية الثقافي، الذين قادوا مجد مجلة الإنكاونتر فلم يعلموا رسميًا عن مصادر المال.

ترسم ساندرز صورة بيانية لشخص مثل نيكولاس نابوكوف المدير الغني بزيجاته

الخمس المتعاقبة، والرهباني مايكل غوسلون الذي تحول من كونه مسؤول الشؤون الثقافية للحكومة العسكرية الأميركية، ليجنّد داخل وكالة المخابرات المركزية. توم برادين، إيرفين كبريستول، مالفين لاسكي، دوايت ماكدونالد، ريموند آرون من أشهر الشخصيات البارزة في الحكاية التي سردتها ساندرز ببراعة. سبيندر (الذي بقي أحد محرري الإنكاونتر حتى وقت الفضيحة، وتداول تمويل وكالة المخابرات المركزية لهم). اتضح أنه كان رئيسًا صوريًا بائسًا، وكان عليه أن يعرف ما يدور حوله منذ البداية، لكن الضجة التي حدثت بعد ذلك تنمُّ عن عدم وعي وسذاجة. (على الرغم من أن ساندرز حملت الكثير من التحيز البريطاني ضد الأميركيين، إلا أن من الخطأ التفكير بأن حيازة أميركا لسجلات بول روبسون «يمكن أن يعتبر تصرفًا تخريبيًا» أو أن دانتيل هاميت، بمساعدة عشيقته الغنية ليليان هيلمان يمكن أن يقال عنه «مات فقيرًا» ـ أشارت ساندرز أيضًا لأموال المثقفين البريطانيين الذين دعموا الإنكاونتر).

كتاب ساندرز: «الحرب الثقافية الباردة» امتلأ بتفاصيل مذهلة مثل قصة عام 1977م في نيويورك تايمز وتدخل وكالة المخابرات المركزية بتمويل ألف كتاب. بعض من هذه الكتب كانت مهمة بشكل غير عادي مثل كتاب «الطبقة الجديدة» ميلفن ديلاس. هناك أيضًا موضوع خطير حول كيفية إتمام هذه العملية، لكنني أعتقد أن علينا دراسة المشكلة العامة لدور الأسرار في المجتمع الديمقراطي، ومتى تكون مبررة أو منتقدة. أعتقد أن التقليل من السرية قد يكون هدفًا سياسيًا هامًا، لكن في الغالب تميل ساندرز إلى التلميح بأن كل الأسرار الديمقراطية غير شرعية. الرسامين (من الجناح اليساري) الموسيقيين، بالإضافة للمفكرين، هم أكثر المستفيدين من سخاء الحكومة الأميركية.

عرضت ساندرز مثالين مزعجين لقدرة القوى على محو المقالات المقدمة في الإنكاونتر. لكنها مثل الآخرين الذين كتبوا في تلك المسألة، ومع اهتمامها بما يدور خلف الكواليس، لا يبدو أنها قرأت الإنكاونتر بنفسها، والتي نشرت انتقادات متعددة لسياسة أميركا الخارجية. ذهبت أموال المخابرات المركزية لمنشورات أخرى من ضمنها Partisan Review, Kenyon Review, Hudson Review, Sewanee Review, the Journal of the History of Ideas, Daedalus. ربما رغب طلاب فترة الحرب الباردة التي استمرت لأكثر من أربعين عامًا، بالاطِّلاع على كتاب ساندرز، ليروا المثقفين الذين أُستضعفوا من الصراع السياسي المركزي للمنطقة.

بول غودمان وكونور كروز براين هم أبرز من أُتهم في العلن حول تمويل الإنكاونتر من وكالة المخابرات المركزية، ثم عُززت تلك الادعاءات عام 1966م عبر مقال نشرته نيويورك تايمز. كما نوقش من قبل، انشغلت الإنكاونتر بإيجاد مصادر سائغة للدعم، لكن الوقت كان متأخرًا بالفعل، فقد فعل سبيندر، لاسكي وكريستول، ما بوسعهم للدفاع عن استقلال سمعتهم عندما واجهوا أول قصة لأخبار دعم وكالة المخابرات المركزية. وقد نشرت رسالة موقَّعة من قبل جون كينيث غاليبرت، كينان، روبرت أوبنهايمر، وآرثر شاليزنجر الابن، يعلنون الاستقلال عن مجلس الحرية الثقافي دون إنكار صريح لدور المخابرات المركزية. المقال الذي ظهر في ويست كوست رامباستين كان القشة التي قصمت ظهر البعير، فكل ما قاله أوبراين غدا مثبتًا، وبقي لاسكي في مكانه كمحرر للإنكاونتر. قدَّم سبيندر استقالته (إلى جانب فرانك كيرمود). عندما ذهبت زوجة سبيندر لجمع متعلقاته من مكتبه في المجلة وجدت أن «خزانة مقفلة قد حطمت»، مثل هذه الإشكالات لا تصل لأفضل معايير العدل البريطاني، لكنها لا تزال تافهة عندما تقارن بالصراعات المهلكة التي جرت خلف الستار الحديدي.

قامت ساندرز بعمل جيد بتقسيم قائمة هؤلاء الأشخاص داخل مجلس الحرية الثقافي، الذين علموا أو كان من اللازم أن يعلموا عن تمويل وكالة المخابرات المركزية. تعرض العديد من الأبرياء للخطر من «العالم الثالث» والعالم السوفياتي أيضًا، ممن اعتقدوا أنهم وصلوا للسلطات المحايدة في الغرب. نشر جاسوس من المخابرات المركزية مقالة بعنوان: «أنا سعيد لأن وكالة المخابرات المركزية لا أخلاقية»، وفي ذلك الربيع عام 1967م وضعوا «عميلًا» ليكون محررًا للإنكاونتر. لشرح مثل هذا الطيش الظاهر من جانب موظف المخابرات، رأت ساندرز بأن شخصًا من داخل المخابرات كان يريد استخدام الفرصة ليتعدى على اليسار اللاشيوعي.

كان هناك ضحايا حقيقيون لما حدث، وربما كان المثقفون مفسدين بأموالهم أو قوتهم مثل أي آخرين. لو أُجتث المغفلون، والمنافقون أيضًا، مثلما كان في Partisan Review، (كانوا بالكاد يملكون أياد نظيفة) ونشروا إخلاء أخلاقيًا عن ضرر دعم الحكومات الخفي للمجلات. بعد كل ذلك، لم يتع سبيندر أو يقرأ أي إصدار من الإنكاونتر (والتي استمرت حتى 1991م وليس عام 1990م كما ذكرت ساندرز) ومنحت لقبًا عام 1983م. أنهت ساندرز كتابها: «الحرب الثقافية الباردة» بملحوظة صحافية مفادها أن: «مؤيدي الحرب الباردة كانوا أيضًا بمقياس آخر ضحايا». معظم من تتبعتُ مسيرتهم المهنية، كانت مجلة الإنكاونتر

بالنسبة لهم محطة متواضعة للمزيد من النجاحات. وبقيت العلاقة الصحيحة بين الأموال العامة والثقافة الخاصة مشكلة نادرة، لا يُتطرق لها. (رغم أن كندا لديها المجلس الكندي ولجنة الإعارة العامة، إلا أن أميركا لم تضع مكافئًا لذلك. تعدُّ ميزانية دفاع كندا من بين أدنى معدلات حلف الشمال الأطلسي، والفضل يعود لمظلة الجيش الأميركي). النقاش حول قائمة الأفعال الشريرة ـ المعترف بها ـ والتي ارتكبتها المخابرات المركزية، لن يحل المعضلة التي علينا أن نواجهها. رأيي أن كتاب ساندرز: «الحرب الثقافية الباردة» يجب أن يكون بداية للسعي في مذكرات المستقبل.

الفصل التاسع

المثقفون والمنفى

لا يمكنني تخيل معظم الشخصيات البارزة في الفلسفة الاجتماعية الحديثة تعمل بشكل جيد على الإطلاق في أي محيط جامعي. فأمثلة مثل ميكافيللي، هوبز، روسو، جون ستيوارت مل، ماركس، جميعهم أبلوا بلاء حسنًا دون انتساب للجامعة. سيجموند فرويد الذي أعرف مسيرته جيدًا لم يتخذ غير منصب ثانوي في جامعة فيينا، وابتكر أدوات أخرى ليحقق تأثيرًا لتعاليمه. لذا، لا أرى من المنطقي توقع ظهور الأعمال الهامة والأصلية ابتداء من داخل النطاق الأكاديمي.

لو أننا انتبهنا إلى الفترة الأخيرة، وناقشنا ما حدث خلال الجيل الأخير، وتبديل الثغرة بين متعلمي العامة والمثقفين الجامعيين، سنرى أن إطلاق الأحكام أمر مبكر جدًا. كتاب آلان بـلوم: «انغلاق العقل الأميركي ـ The closing of the American Mind» 1987م لا يعني أن رفض مثقفي العامة يعدُّ خطوة إلى الوراء، ومع هذا، من الخطأ أن نعتقد أن الجناح اليساري بكتَّابه مؤهل لحصد نجاح يتلوه إعجاب. عُرف جون كينيث غالبيرث بشكل واسع في المجتمع الأكاديمي قبل أن ينشر: «المجتمع الغني ـ The Affluent Society»، ولم ينجح بعدها إلا في مرحلة واسعة النطاق أعقبت نشر الكتاب.

من الصعب التعميم علانية حول شيء غير متوقع وغامض كظهور موهبة. بالنسبة لي، ليس هنالك من سبب لأتوقع انطلاق هذه النبوءة الاجتماعية من داخل النطاق الأكاديمي. تكالب أصدقائي على قراءة «الحريق مرة أخرى ـ The Fire Next Time» لجيمس بالدوين في مدرسة الخريجين، كما حدث لـ «الحس السليم ـ Common Sense» لتوم باين في أواخر القرن الثامن عشر. ورغم أن بالدوين وباين كانا كليهما من داخل المحيط الأكاديمي، لكنهما لم يكونا في المكان اللائق.

باعتقادي يجب أن يكون هناك فجوة بين ما يحدث في الجامعات وفي المجتمع العام ككل. فلا أرى أي سبب يحتم على أصحاب التعليم العالي التقليل من شأنهم لأدنى قاسم مشترك. نحن نسيء لطلابنا عندما نحول جامعاتنا إلى مراكز تدريب للحياة. فقد سقط التعليم الثانوي في المدارس الثانوية في عمله التعليمي، تحديدًا بسبب التلهف البالغ لإرضاء المطالب العلمية والفورية ذات الصلة الوثيقة بالهدف. وكانت ثمرة ذلك أننا قمنا باستغلال فرصة فريدة لخداع الناس، كي يفصلوا أنفسهم عن خلفياتهم الثقافية الضيقة. يفترض بالجامعة أن تمنح متنفسًا غنيًا مثاليًا. لسنوات قليلة في ذلك الوقت، كان من الممكن أن تأتي وتنهل من أفضل ما قيل وقُدم في الجامعات عن الحضارة الغربية، لذلك أنا ممتن لطراز البرج العاجي القديم.

مشروع كهذا غير قابل للتطبيق في ظل الظروف الحالية، لكنني لازلت أعتقد أننا يجب أن نفعل أفضل ما بوسعنا. في كندا، حيث قمت بالتدريس هناك، كانت السياسة الإدارية للجامعة مهما كانت التغييرات (لكن بالأساس ليس لها معنى) تقضي بأن معدل الدرجة المطلوب، يعادل سياسة التسجيل المفتوح. لذلك لم تكن الجامعات الكندية تستقطب الطلاب للتقليد القديم من الفكر الغربي، أكثر مما تدخلهم ضمن المجتمع الأميركي الشمالي، فهناك مجموعات جديدة من المهاجرين متحمسين لإرسال أبنائهم إلى الجامعات. وبالرغم من أن الأساتذة ربما يكونون مدربين لمعالجة أعظم مشاكل الفكر الإنساني، إلا أنهم انتهوا إلى ممارسة تعليم القواعد الأساسية للقراءة والكتابة.

في غضون القرن الماضي كان التوظيف الكلي للجامعات أمرًا انتقاليًا، وأصبحت النتائج تلقائيًا أفضل من السابق. حدسي يقول إن الطلاب الذين تخرجوا من أفضل المدارس الثانوية القليلة في السبعين والثمانين سنة الماضية، هم أفضل تعلمًا ممن تخرجوا من الجامعات في الوقت الحالي. ورغم أن الجامعات والمعاهد تقدم اليوم خدمات منزلية لم يتوقع أحد تحقيقها، لكن المحيط الفكري الجامعي في الغالب غير مساعد ليعد لنا كتَّابًا قادرين على الوصول لأعظم مشاكل المجتمع ككل.

لا تزال الجامعات تُقدم إلى أعضاء هيئات التدريس تفرغًا ورواتبًا يجب أن نكون شاكرين عليها للغاية. هذا تحدٍّ أيضًا لمحاولة إعادة تشكيل المحتويات الأساسية للتعليم العام للطلاب المعدَّين إعدادًا سيئًا للحياة الفكرية. بالدعم العام الشحيح للجامعات

أصبحت كندا تزخر بعدد هائل من الطلاب، وأراض جامعية مختلفة كبيرة. أعتقد أن التعليم الجامعي في أميركا قد وصل لعدد هائل من الشباب، والتساؤل عمّا إذا نجحنا حقيقية في المهمة الأولى للتعليم العالي، هي قصة أخرى.

أتمنى ألا تكون لانطباعاتي صدى يشبه نواحهم على انحدار وسقوط التعليم العالي، لكن بالنظر للمهام الاجتماعية لا أجد سببًا خاصًا ليبحث الأشخاص المبدعين حقًا عن الحياة داخل الأسوار الأكاديمية، باستثناء الأمن الضروري الذي لا تزال تقدمه الجامعات. أعتقد من غير المعقول أن نفترض أن جيلًا من المثقفين نزحوا للجامعات، وانسحبوا في أماكن أخرى. لدينا نصيبنا من التعساء داخل النظام الأكاديمي، وبعض الأشخاص الأذكياء الذين أعرفهم لديهم نطاق واسع من المخاوف العامة، وقد يجدون أنفسهم في النشر، القانون، الخدمات العامة، وأي مكان آخر.

إن المثقف الجامعي الحقيقي من خبرتي الخاصة مثل طير نادر جدًا. فنحن نعمل القليل لتشجيع الفكر، التفكير التعليمي داخل الحياة الجامعية، ولسوء الحظ معظم جمهورنا العصري أصحاب التعليم العالي يعملون على غرض مناقض لأهداف الإبداع والبحث. أكاد أرتعد من فكرة الخبرة البائسة لعمل جميع لجان الجامعات تقريبًا.

أظن أن قدرًا كبيرًا من التهمة الموجهة لحالتنا الثقافية في «آخر المثقفين ـ The Last Intellectuals»[1] لراسل جاكوبي أتت من نظرته الضيقة للنشاط الإبداعي أكثر مما تميل نفسي لتبنيه. فعلى سبيل المثال صدمني بعدم ذكره لغراي ويلز على الإطلاق. أعتقد أن المنصب الذي كان يشغله ويلز كأستاذ مساعد في الشمال الغربي ليس هو نجاحه العظيم على المستوى العام، بل عزمه على ترك بصمته في العالم المعرفي الصارم. رأيته في مناسبة يضايق أصحاب عربات التفاح، ورغم هذا لا يوجد لويلز مشكلة في أن يحول الكتب الأكثر مبيعًا إلى إسهامات جادة للفكر العام. ذكر جاكوبي اسم والتر ليبمان مرة واحدة كنوع للشخصية العامة التي يقدرها من الماضي، لكن أظن أن ويلز كان خلفًا مستحقًا ومتميزًا بالكامل. كاتب مثل جوناثان شيل، والذي لا أشاركه الكثير من سياسته، سيخدمنا للإجابة على سعي جاكوبي حول المثقفين المستقلين والموجهين للعامة. ربما كان الروائيان توني موريسون و د.م. توماس ليسوا مؤهلين كـ «شباب»، لكنهم مثقفون أتاهم إلهامهم خارج

(1) Russell Jacoby, **The Last Intellectuals: American Culture in the Age of Academe** (New York, Basic Books, 1987).

الحياة الأكاديمية. وأيضًا، لم يرد ذكر سي. فان ووردار من قبل جاكوبي، وذلك يعد تناقضًا، إذا نظرنا لسنوات امتياز ووردار الماضية.

بقدر ما أنا معجب بالتحدي الذي لاقاه جاكوبي في كافة كتبه، إلا أن الكثير من نقاشه في: «آخر المثقفين» قد برز من داخل حدود الطائفية اليسارية. مبديًا تحسره البالغ من فشل نقد الماركسية الذي سيغطي سلم أغراضه الاجتماعية. وليس من قبيل المفاجأة أن يخرج محبو الدين العلماني خارج الموضوع.

لكن من الغريب أن تتذمر من فقدان كتَّاب مقبولين لدى العامة، في وقت تكون فيه الجامعات طموحة ديمقراطيًا أكثر مما مضى. تُدرَّس حاليًا يوميات إدموند ويلسون في العلن، وقد كان هذا الفعل بالكاد يكون آمنًا عندما كان على قيد الحياة. أتذكر عندما درَّس سنة واحدة في هارفارد لم يقم أحد من الطلاب بإضافة مقرره للتخرج، بل أن كتبه لا تستوقف أحدًا كما نفعل مع أولئك المؤلفين المتوفين. هل يمكن لأحد أن يتخيل لايتون ستراتشي يتعامل مع طلاب السنة الأولى لدينا، ويكتب نثره اللذيذ؟ على حدٍّ علمي، لا يمكن أن نحصل على كعكتنا ونأكلها أيضًا. تعهدنا بتوفير أرقام استثنائية لأشخاص ذوي تعليم عالي، وبعض من هؤلاء الأشخاص ممن يملكون المصداقية، قادرون على أن يكونوا مثقفين مبدعين بحد ذاتهم.

تظهر الأصالة في تصدعات المجتمع، فالعمل الإبداعي يخلق لنفسه الشهرة بأساليب غير متوقعة. من المفاجئ بالنسبة لي أن لدينا حياة في الجامعات كحياتنا، لكن لا أتصور أن يتوقع أحد أن منزل الإبداع الوحيد هو الحياة الأكاديمية. مع ذلك، وصل ستيفن جاي غولد لجمهور عريض كغيره من الشخصيات القديمة، وقد كان أستاذًا بدوام كامل في الجامعة ولم يكن كبيرًا في السن.

كان لكندا مشاكل خاصة على سبيل المثال، وبدت فضيحة وطنية أن البلاد بأكملها لا يوجد فيها إلا عدد يسير من المراجعين في الصحف التي تصدر بانتظام. من المستحيل أن نتصور ثقافة حيث يكتب فيها الناس كتبًا دون حاجة لصدى إيجابي، ومع هذا لا يمكن لأي كاتب في كندا أن يعتمد على أي مرجع معتمد لمراجعة الآراء. مع كل الحبر الذي سكب على الثقافة المحلية للدولة الكندية، لم يبتكر أحد بعد وسيلة ملائمة لإعطاء الصحف أفضلية لتعيين طاقم بدوام كامل أو جزئي ليكونوا متخصصين في مراجعات الكتب.

في هذه النقطة كندا أسوأ من أميركا، حيث الكتب تميل لأن تكون مسموعة بشكل جدي من المراجعين. وهذه ليست مسألة سكانية، ففي المقابل، يلقى الأدب لدى بريطانيا العظمى رواجًا واسعًا أكثر من أميركا. ليس بزمن بعيد، وربما لا تزال تلك حقيقة، أن ما يعادل الكتب المنشورة في لندن كل عام، هو كل ما نُشر في أميركا بأكملها. حدث لي هذا شخصيًا، فعندما تباع كتبي في إنكلترا تُراجع على الفور من مجموعة من Sunday Newspaper والأسبوعيات الأخرى من قبل مجموعة من المراجعين الثقاة. لايزال لإنكلترا ثقافة وطنية متماسكة أكثر من كندا وأميركا، والنجاح الأدبي في بريطانيا في تصوري مشتق من البناء الطبقي الذي لم تفعل الجامعات إلا القليل لتحدِّيه.

ثقافة العالم القديم أكثر ثباتًا ورسوخًا ونخبوية. فمن أجل أن تكتب بنجاح للجمهور كل عام، على المرء أن يعي أن هناك من يقرأ. لكن بما أن لدينا تعليمًا ديمقراطيًا في هذه القارة، وحاولنا أن نجعله متاحًا على أوسع نطاق، تزامن ذلك مع كونه صفقة غير جيدة، فلدينا خريجي جامعات بالكاد يعرفون القراءة والكتابة، وقطعًا لا يستحقون الكتابة عنهم.

لدينا أيضًا مجتمع أكثر انفتاحًا بلا حدود ضيقة في النماء الاجتماعي، كما الحال عليه في القارة الأوروبية أو في إنكلترا السيدة تاتشر. على النقيض، أطفالنا من عوالم مختلفة وحياة مختلفة، تربوا إلى حدٍّ كبير على الاستجابة للمؤثر الاجتماعي ذاته. على الأرجح أننا سنواصل توقع القليل منهم ثقافيًا ولن نشجع الشباب بشكل كاف لينطلقوا لأي اتجاه منحرف «نخبوي». لكنهم سيكونون أقل عرضة للمعاناة وعذاب العزلة وسوء الفهم الذي يأتي مع العمل الإبداعي، وسيخسرون بالطبع نشوة الأصالة أيضًا. ولطالما التزم مجتمعنا في هذا الجانب من أميركا الشمالية بمزايا إيجابيات النظام.

كونك مختلف مشكلة تقليدية، ولا أرى أي تغيير حول ذلك في الجيل الأخير. ما من مثقف حقيقي يمكن أن يكون «محترفًا» بنجاح أو مشتتًا من اسمه الفريد مهما كانت الضغوط الديمقراطية داخل مجتمعنا. ومن غير الممكن هندسة الإبداع عبر سياسة اجتماعية معدة، لكن للمرء أن يفعل أفضل ما يمكن أن يفكر فيه دون تصورات مسبقة. مع هذا لايزال ممكنًا أن نعرض لطلابنا نموذجًا من التفكير والتعلم. بصرف النظر عن أي هراء تُقيِّدنا الثقافة به، كأن يكتب المرء بشكل مباشر ومنفتح قدر ما أمكن.

كان بإمكان سقراط الهرب من أثينا بدلًا من أن يشرب الشكران لكنه اختار خلاف

ذلك. جيمس جويس عاش بعيدًا عن موطنه الأصل إيرلندا، واستمر يسمع مذكرة النفي في مسرحيات شكسبير. عندما عبَّر المواطنون في (كوريولانوس - Coriolanus) على موافقتهم بنفيه، رد كوريولانوس سريعًا:

شعاركم مشترك بالطبع، كم أكره أنفاسكم

أُقدِّر حب مستنقع تفوح منه رائحة عفنة

ها هي جثث قتلى لرجال لم يدفنوا

هذا يعكِّر صفوي، أطردتكم!

أنتم باقون بلا يقين

دعوا كل شائعة واهنة تهز قلوبكم

أعدائكم يؤمنون بريشتهم

لايزال لديكم قوة، كم تهوون اليأس

تطردون من يدافع عنكم، وفي نهاية المطاف

لا يُرى جهلكم

لا تفعلون شيئًا للإيمان بأنفسكم

وعدوكم لايزال يلقاكم الأكثر

ذاب أسرى للأمة

حدث هذا دون تفاخر، باحتقار

لأجلكم أدير ظهري للمدينة

فهناك لازال عالم في مكان آخر[1].

مثل هذه العاطفة القوية تعطينا شعورًا بأن هذا النص لا يفهم إلا بشكل جزئي في القرن العشرين. في وقت مبكر، كان من المنطقي إن يقدم المنظرون السياسيون اقتراح دولة طبيعة.

---

(1) III, iii.

مفهوم الوجود ما قبل ـ الاجتماعي يقول: إن البشر إما انحلوا من عصر ذهبي كما في فكر روسو، أو أن المجتمع المتحضر كان مهددًا من ثورة بربرية كما يراها هوبز. نسخة لوك من الدولة الطبيعية محفوظة من الليبرالية، فمؤسسو الديمقراطية الأميركية على سبيل المثال، يقترحون سحب ولائهم لجورج الثالث، وفي المقابل يؤسسون مجتمعًا جديدًا خاصًا بهم. «في البداية» ناقش لوك «كل العالم كان أميركا» كانت الفكرة هو أنه لو كان هناك مجتمع سياسي يشعر بالطغيان، فالبشر بإمكانهم الرحيل، وحل العقد الاجتماعي ثم إعادة بناء نظام جديد بمجموعة مختلفة من القوانين. إذا خان القادة ثقة أتباعهم فالانتقال السلمي يمكن أن يؤسس سبيلًا لنظام مختلف معًا.

تخفي مثل هذه الأساطير خلفها ديمقراطيات حديثة. رغم أن أكثر العوامل المخيفة لتاريخ القرن العشرين، كان تلاشي الترف الاجتماعي في الأوقات الماضية. ظاهرة اللاانتماء فريدة وحديثة من نوعها، ظاهرة أجبرتنا على إعادة التفكير في كافة المفاهيم السابقة للمنفى عندما سحب النازيون الجنسية من المواطنين اليهود الألمان، ثم طردوهم خارج حدود البلاد، هذا هو معنى المنفى بالمعنى الروائي. من لا ينتمي لدولة الآن يمكن أن يعطى المواطنة دون أوراق رسمية. مع ذلك، علَّمنا هتلر درسًا لم نرد سماعه، فقد تلاشت دولة لوك الطبيعية تحت ظروف الحياة العصرية، فإذا سحبت الدولة جنسية مواطنيها، لن يكون هناك أي مكان للذهاب إليه. يتضح هنا أننا أكثر اعتمادًا على الدولة من حريتنا كما يحلو لنا أن نعتقد. ويجب علينا ألا ننسى محنة الشعوب النازحة والقوارب المحملة بالبشر ممن لا يملكون حق الرسو، لقد غير اللاجئون والمعتقلات نظرتنا عن المنفى. فمن يجبر على الخروج من بلد، سيتبعه شيء مختلف عن مفاهيم المنفى القديمة. إن التكنولوجيا الحديثة تفيدنا بأن المساحات الخالية التي وجدت سياسيًا تميل لأن تكون غير موجودة الآن.

تغيرت الظروف أيضًا بصورة روحانية. فكافة الأنشطة الثقافية تتضمن نسخة من المنفى الداخلي، وانسحاب من المجتمع المحيط. إذ لا يشعر الأشخاص المثقفون مع أتباعهم بضرورة التوصل لتفاهم حول حاجة تحدي أشخاص آخرين. على سبيل المثال، تعتبر إنكلترا فترة القرن السابع عشر، أعظم فترة للفلسفة السياسية في اللغة الإنكليزية، فقد دفعت الصراعات الاجتماعية الأساسية التي أدت إلى حرب أهلية بالمفكرين للحصول على ما وراء تفاهات الوجود، وشجعت على إعادة النظر أساسًا في الحياة الاجتماعية. إذا كانت أميركا الشمالية فقيرة نسبيًا في الفكر الاجتماعي والسياسي مقارنة بالغرب الأوروبي، فذلك

ربما عائد لثروة هذه القارة التي تعني إمكانية تهرُّب الناس من إعادة النظر في الظروف الاستثنائية التي سمحت لهم أن يكونوا كسولين فكريًا بشكل نسبي.

في نفس الوقت هناك شيء مختلف في نوع الانفصال الذي يميل إليه المفكرون المبدعون في وقتنا الحالي، ميكافيللي على سبيل المثال كان موظفًا حكوميًا رفيعًا لبضع سنوات، وقد كتب تحفته الفنية عندما طرد إلى المرعى. وعندما شعر بأنه قادر على طرح تحدي لجميع الأفكار السياسية السابقة، أصر على انفصال جذري بين أخلاقية المسيحية والضرورة العامة لعقل الدولة، وكان بإمكانه أن يدعو لسنوات خبرة سياسية عملية. أهدى «الأمير» للقادة السياسيين الأحياء، ثم اقترح أفكارًا قد تبقى معلنة مثل نصيحة الشيطان. تقريبًا بعد 500 سنة من الآن، كانت أحد علامات اندفاعه مع الفكر السياسي المعاصر عندما كتب بالإيطالية بدلًا من اللاتينية كرجل نهضة. وقد كان على وفاق مع عصره ثم عارضه بعد ذلك، في ظاهرة قلما نراها في زمننا الحالي. قد يكون أمر ماهية الجمهور الذي يتوقعه الفلاسفة الاجتماعيون المعاصرون في ذهنهم أمرًا محيرًا. فشخص مثل حنة آرندت يجب أن تكون استثناء، فقد نفيت من ألمانيا وتقاليدها الثقافية، وأصرت أن تعاقب أرضها، في نفس الوقت الذي حاولت تجديد نوعية فكرها الفلسفي. احتقارها لأيخمان في كتابها بتسميته: «تفاهة الشر» كان موجهًا لأسفل مستوى من سمات التفكير، ليس فقط للعقل البيروقراطي، ولكن للدولة المدمرة للمجتمع الشامل بوجه عام.

ظروف الحياة الحديثة قد دمرت بدهاء إمكانية تشكيل أفكار اجتماعية أساسية. لذا يميل المفسرون للاعتقاد بأن التقليد الأعظم للفلسفة السياسية، والذي بدأ من الأغريق الأقدم قد حانت نهايته. إن فكرة وفاة الفكر السياسي قد عُرضت بتكرار في منتصف القرن الماضي، خاصة من أولئك المسؤولين بشكل أكبر عن نهايته. فقد قامت نقابة العمال الأكاديمية بتقسيم علم الاجتماع، الفلسفة، علم النفس، التاريخ، والسياسية، لأجزاء مستقلة حتى لا يكون الفكر الاجتماعي متمايزًا لأسلافنا.

أضيف للفكر السياسي الحالي نوع من الدفء، فكما يحلو للكتَّاب أن يعتقدوا بأنهم يعملون في التقليد الأعظم، بينما في الواقع هم يكتبون لبعضهم البعض. فلا يعلقون على الشخصيات البارزة في الماضي للقرون الماضية، بل بدلًا من ذلك يسهبون في الاندفاعات الأخيرة للحياة الاجتماعية الأكاديمية. ولو احتج أحدهم على شكل الولاء لنقابة العمال الأكاديمية، فالأسئلة العظمى ستهمل، وربما يخاطر أحد بجريمة مفترضة للنخبوية. لم

يخاطر هوبز بالسماح لعمله أن يقود لمطالب الحياة اليومية. منطقه المعقَّد فُهم على نحو سليم بأنه تهديد للقوة الكائنة. وقد نقله لفرنسا عندما ألَّف «التنين ـ The Leviathan»، ومثل ميكافيللي الذي سبقه، كان يشجب إزعاج سلام المثقفين، وكلاهما تحمل أمر السمعة البغيضة.

لكن لغاية القرن الماضي، كان الناس يتوقعون دعمًا يأتي من هؤلاء النقَّاد. يتطلب الإبداع دعمًا اجتماعيًا، والمجتمعات العصرية تجعل من الصعب تخيل مشروع ناجح في خطوط الفكر السياسي والاجتماعي القديمة. قد يكون من المؤلم أن تكون مختلفًا، والإغراء بكونك متكيفًا للانسجام يقوِّض احتمالات الانفصال. ربما يكون ثورستين فيبلين، المفكر الوحيد الأميركي الشمالي المعروف خارجيًا بكل تأكيد، كتب مرة في المكانة الخاصة لليهودي كدخيل طبيعي، وهو الذي كانت له أسوأ المهن الأكاديمية التي يمكن أن يتخيلها المرء. عرف في البداية كيف يمكن أن يكون الانفصال مؤلمًا ومرغوبًا بالوقت نفسه. اُتهم فيبلين بأنه يكتب لصالح التفوق الفكري لليهود ردًّا على وعد بلفور. وخشي فبلين من دولة يهودية قد تمحو التهميش الذي كان بمثابة مفتاح لأصالة اليهود. مثل هذه الفكرة من الصعب الأخذ بصحتها «سياسيًا»، لكن فيبلين كان قد سخر من فكرة قبوله اجتماعيًا.

ربما يكون المنفى الداخلي صعب التحقيق. فقد صاحبت جهود تعليم شريحة من المجتمع درجة غير مسبوقة من شبه تعليم القراءة والكتابة. ونجحنا بتقديم أكثر من جيل من الطلاب ممن لم يحلموا بقراءة الصحف اليومية. نعلم أن المتحضرين الألمان الذين بقوا في بلادهم رغم معارضتهم الداخلية للنازية، يمكن أن ينجوا بشهادة على مشاركتهم في التقاليد الفكرية التي زودتهم بسند من الماضي، والتي أشك أنها ستكون ممكنة اليوم. (رواية «دكتور جيفاكو» لباسترناك، بدت مثل المعجزة المثبتة لنجاة الحضارة الإنسانية الروسية الرفيعة بصرف النظر عن السنوات الستالينية). أعلنت مدام ستيل بعد الثورة الفرنسية بأن «الحرية عتيقة، والجديد هو الاستبداد»، إن مثل هذه الحكمة تميل لأن تكون على خلاف الحكمة المألوفة لهذا اليوم، مما يعني أن التاريخ يتحرك باتجاه تقدمي. مما يضمن بطبيعة الحال تنويرًا وانسجامًا عظيمًا. تأثير التلفزيون وهوليوود يمكن أن يضعف الأفكار لأدنى مقام. من المزعج أن تسافر لأوروبا وتجد نفس الأفلام تعرض إعادة في المنازل، إن استحالة التجاوز من ثقافة مشتركة، لا يبدو لي أملًا سعيد.

أنا أكثر ترددًا في الكتابة عما يعنيه المنفى للأدباء الصارمين. شخص مثل فلاديمير

نابوكوف على سبيل المثال، نجح في الانتشار بأكثر من لغة، والفضل يعود لماضيه الأرستقراطي الذي ساعده على التكيف في العمل خارج وطنه، ويمكن أن يكون ذلك حادثًا، أو مجرد ثناء على الضرائب الباهظة للكتاب هنا، فبعد نجاح لوليتا بوقت قصير ذهب للعيش في سويسرا.

إدموند ويلسون هو مثال آخر لمن انتزع قوة من التقاليد الداخلية التي تخالف ما يحيطه. بقي مفتونًا بأميركا القديمة، أقل اندفاعًا تجاريًا وأكثر التزامًا بالأهمية الباقية للكتب العظيمة. ختم صديقه المفضل ف. سكوت فيتزجيرالد روايته «غاتسبي العظيم» بدلالة غنائية لعالم مفقود.

الحنين يمكن أن يدرس، ويمكن أن يكون سهلًا نسبيًا وعلى نحو رخيص. لكن التعارض بين القديم والجديد يمكن أن يكون بذاته مصدرًا للإبداع. ما كان على نابوكوف أن يشرح حسيًّا ما شعر أنه يواجهه في هذه البلاد، رغم أنه كتب سيرته الذاتية «ذاكرة ناطقة ـ Speak Memory». لم يكن جوزيف كونراد بحاجة للجوء للوضوح لجذوره البولندية ليعلمنا على الأقل بمصدر واحد لعمق بصيرته. بدا من غير المعقول تقريبًا أن كونراد قادر على أن يحقق بلغته الثانية البساطة والإبداع والعظمة كما في لغته الإنكليزية. مع ذلك، ليس غريبًا أن نتذكره في: «اللورد جيم ـ Lord Jim» وموضوع الخيانة، المرتبط بنبذه من بولندا، ومعاناة بولندا التي تركها خلفه.

المنفى حتمية مأساوية، ومثل هذا العجز يميل لأن يكون مقومًا أساسيًا للقوة. في شبابي، بدا أندريا جيد خارج المألوف ولكن على نحو خاطئ، في: «فيلوكتيتس ـ Philoctets» وصف الناسك الساقط نفسه وكيف يسخِّر نفسه ليكون شيئًا أعلى من الآلهة. كما قال إدموند ويلسون في: «الجرح والقوس ـ The wound and the Bow» سوء حظ جزيرة فيلوكتيتس مكنته من أن يحظى بالكمال لنفسه. هي فكرة حديثة نسبيًا كما أعتقد، أن يرتبط المرض بالإبداع جنبًا إلى جنب بشكل حتمي. مفهوم أن المرء لا يمكن أن يحظى بالبصيرة دون معاناة اشترك فيها توماس مان إلى جانب سيجموند فرويد، وكلاهما قد خبِرا المنفى. عندما سئل توماس مان لدى وصوله لكاليفورنيا قبل الحرب العالمية الثانية، كيف سيتدبر أمره دون ثقافة ألمانية، فرد سريعًا: «أنا الثقافة الألمانية».

ومع هذا، عاد إلى أوروبا بعد نهاية الحرب. أما في حالة فرويد، فقد كتب رائد الفكر

الحديث مرارًا عن مشاعره بالغربة في فيينا، وهو حقيقي إذ أن سمعته في الخارج كانت دائمًا متقدمة بكثير عما حصل عليه من احترام في مدينته، وتبجيل من مدينته التي أتى إليها طفلًا صغيرًا. جلس هناك طويلًا حتى بعدما أصبحت فيينا غير آمنة، وفقط بسبب علاقاته الخارجية استطاع الخروج منها عام 1938م لإنكلترا الآمنة كما قال: «لأموت في الحرية».

لا يتماثل النفي السياسي مع النفي الروحي، وكونك دخيلًا لا يعني بأي حال ضمان إبداعك. تعطي العديد من الخبرات الإنسانية البشر المرهفين مشاعرًا بالانفصال. واعتادت أن تكون عملًا معلنًا للتعليم الجامعي لتعزيز الانفصال. مفهوم البرج العاجي بأكمله هو أن يكون التعليم ظاهريًا ليس له صلة بالحياة اليومية. كان في المتنفس الثمين للتعليم العالي فرصة لمساعدة الطلاب المنفصلين من خلفياتهم الثقافية المؤقتة والحتمية. فجلب الطلاب كي ينهلوا من أفضل ما قدم وقيل مما يخالف الحياة التي خبروها، ليس بالأمر الشائع والشعبي لهذا اليوم. إن خسارة هذا النوع من المنفى ربما تكون على حساب أجيال المستقبل.

الفصل العاشر

المنهجية

أحد أكثر المواضيع الفكرية جاذبية ليومنا هذا تتعلق باستخدام علم النفس الحديث في دراسة التاريخ. كيف يمكن رسم الأفكار من خلال العمل العيادي على مرضى مضطربين ليكونوا مساعدين على فهمنا للحياة السياسية والاجتماعية الماضية والحالية؟. وما مدى إنسانية الأفكار النفسية التي تليق بمنهج دراسي علمي، لتكون ذات أهمية لجميع طلاب المجتمع؟.

كان روبرت ج ليفتون أستاذًا في جامعة «يال»، ثم في كلية جون جاي في نيويورك، ثم أخيرًا في مستشفى مدينة كامبردج. قضى ليفتون عقدًا من الزمان يستكشف الحدود بين سيكولوجية التحليل النفسي والتاريخ. كما ادعى في مقدمة مجموعته التي حوت مقالاته «التاريخ والبقاء الإنساني ـ History and Human Survival»، بأن «الحدود التي وضعها الانضباط التقليدي الأكاديمي، أو مطالب الفكر التقليدي، لا تتماشى مع مخاوف أو انجذاب عقل لآخر»[1]. وبانغماس تام في التحليل النفسي المعاصر وعلم الاجتماع الحديث، نجح ليفتون في تجاوز العقبات الصعبة للتبادل متعدد الاختصاصات.

نشر ليفتون كتابًا مهمًا ومؤثرًا عن الإصلاح الفكري في الصين، ومجلدًا آخرًا عن الناجين من هيروشيما (والذي ربح جائزة الكتاب الوطني)، وكتاب عن الماو تسي-تنغ والثورة الثقافية الصينية. إلى جانب دراسة حول دور رمزية الموت في عصر السلاح النووي. أصبح ليفتون واحدًا من أكثر الكتّاب إنتاجًا في هذا المجال، حيث درس الحيوية النفسية للإنسان وارتباطها بالعالم الخارجي.

(1) Robert J. Lifton, **History and Human Survival** (New York: Random House, 1970).

المقال الأبرز في الكتاب كان تفسيرًا لأفكار ومشاعر الناجين من قنبلة هيروشيما. عمل ليفتون داخل إطار التقليد الفكري لفرويد كملاحظ للشأن الإنساني، حيث رحل بنفسه إلى اليابان، وقابل الناجين من هذه الكارثة. بالإضافة لتفسير ردة الفعل النفسية لهؤلاء، أبرز ليفتون بعضًا من الأفكار الاستفزازية، وكيف أن مجرد وجود الأسلحة النووية كان لها أبلغ الضرر على علاقتنا بالموت ورمزية الخلود، وكيف تداخل ذلك مع احتمالات نجاحنا في التعامل مع تلك الأسلحة الجديدة.

ذهب ليفتون كـ «مؤرخ نفسي» لعدة اتجاهات في هذا الكتاب. فعلى سبيل المثال احتوى الكتاب على قسم ممتع عن الشباب الياباني الذي لعب دورًا ملحوظًا في التمرد الشبابي الذي اجتاح العالم الصناعي في وقت واحد. وبما أن اليابان لديها ادعاءات بأنها تملك طلابًا مناضلين، وجامعات متنازعة، كانت جهود طبيب نفسي لفهم شباب تلك البلاد محل ترحيب.

في مرحلة ما في اللعبة، ربما يظهر نوع من الشك بأن علم النفس الحديث يجب أن يتعلق بالسياسة والحياة الاجتماعية. سواء كتب أحدهم عن التأثيرات النووية للهولوكوست، أو الدافع وراء ثورات الشباب، أو العنصرية أو السير الذاتية والتي كان لها تأثيرها في القرن السابع عشر، أو مقدمة في زماننا هذا، فالمشكلة ليست فيما إذا كان المرء بحاجة للاعتماد على المبادئ النفسية، بل كيف يعمل عليها المرء، وما هي المسالك التي تنجح في الغالب. برز ليفتون من داخل التقليد الفرويدي، واعيًا بالحيوية النفسية للفرد، ومتمرسًا في الحياة الاجتماعية، كأكثر العاملين بروزًا في المجال النفسي والتاريخ.

أثنى العديد من الناس على مزايا التعاون متعدد الاختصاصات في المجالات الدراسية، ومن المؤكد أن المرء سيجد العديد من المشتركات بين مجالي التحليل النفسي والتاريخ. على سبيل المثال، يسعى كل من المحلل والمؤرخ لإعادة بناء الماضي على أسس دلالية مبعثرة في الروح العلمية، والتي تتفق كثيرًا مع الطبيعة الموضوعية للمادة المتناولة.

في أوائل القرن العشرين تحفَّظ المؤرخون نوعًا ما حول التنظير الاجتماعي المهيب لفرويد وأتباعه القدماء، ربما يعود ذلك جزئيًا لتأثير إريك إريكسون، وقد يعزى ذلك لنمو أهمية دافع اللاوعي في كافة العلوم الاجتماعية، حيث أبرز المؤرخون قابلية استثنائية للاحتمالات الكامنة في عمق المنظور النفسي.

يلزم أن يكون هناك اتجاهين للعلاقة بين التحليل النفسي والتاريخ، حتى يُحقق العمل متعدد الاختصاصات بعضًا من أهدافه. كلّ منا يأمل خلال دراسة فرع مهني آخر، أن نتحرر من ضيق الأفق لخلفياتنا التعليمية، ثم بعد ذلك يجب على العامل التحليلي الموجه أن يتوقع التغيير ويوسع نطاقه عبر تواصل دقيق مع المؤرخ، وعلى الأخير أن يستحضر أفكاره التي بلورت مسبقًا ليقدمها على ضوء رؤى التحليل النفسي.

يوضح «تفسير التحليل النفسي للتاريخ - The Psychoanalytic Interpretation of History»[1] بعضًا من المشاكل الرئيسة الموجودة في هذا العمل. يتوقع المرء من هذا العنوان أبعد من مسألة نجاح مجموعة مقالات كتبها كتّاب مختلفون، بل إن أحد المصاعب التي تخص استخدام الأفكار الحيو - نفسية في العلوم الاجتماعية، قد أتت من التوقعات السحرية للعاملين في هذا المجال. في تصديره لهذا المجلد، أشار المؤرخ ويليام لانغر إلى أن: «المرء بإمكانه أن يستقصي شخصية الرجال من الماضي فقط إذا كان هناك قدرًا عظيمًا من المراسلات، ومواد سيرة ذاتية، وتسجيلات مقربين». رغم اعتياد الطبيب على العمل مع مرضى قادرين على اختصار وتصحيح تفسيرات المحلل، بينما لا يملك المؤرخ دليلًا حيًا (محفوظًا لزملائه وضميره المهني)، إلا أن طالب التاريخ يملك ميزة التناقض. يميل معاصرونا لأن يكونوا على دراية تامة بالمصطلحات النفسية، حتى إذا خدعوا أنفسهم خدعوها عبر هذا الإطار الجديد، بينما الشخصيات الماضية تميل لأن تكون دفاعية من أجل المفاهيم الدينية والميتافيزيقية. كما أشار لانغر في حال وجود تسجيل تاريخي ذي نفع «يميل لأن يكون ذا قيمة خاصة لأنه لم ينجز لأجل المحلل، ولكن لحاجة دنيوية، أو أغراض عملية».

يُتوقع أن تترك هذه المقالات مجتمعة انطباعًا متفاوتًا. ربما لعدم معرفته بالنزعات الأنجلو أميركية، والتطورات القارية. كانت مقالة رونالد جريمزلي «التحليل النفسي والنقد الأدبي من منظور تاريخي» رائعة. كذلك تعد دراسة: «أدولف هتلر ومعاداة السامية» لروبرت ج. ل. وايت دراسة مذهلة، وذلك لتأثير الشخصية الديكتاتورية على أسلوبه وقناعاته السياسية. أيضًا مراجعة بيتر لوفينبرغ لثيودور هرتزل تعد مثالًا رائعًا لاختيار حكيم

(1) Benjamin B. Wolman, ed., **The Psychoanalytic Interpretation of History** (New York: Basic Books, 1971).

من الكاتب لموضوع سيرة ذاتية، هذا الاختيار الذي أوصله بعيدًا ليشرح نجاح استخدام المفاهيم النفسية في فهم القائد السياسي.

هناك مأخذ واحد على جميع المقالات تقريبًا، ألا وهو افتقارها النسبي لبعد القيم الأخلاقية العصرية. في الغالب يميل التحليل النفسي لأن يُستخدم أحيانًا دون قصد، لأجل شرح الشاذ والمنحرف، في حين أن التوافق واللافردية جديرة أيضًا بتحقيق الحيوية النفسية. هل من السليم وسم هتلر وستالين بعلامات نفسية بدلًا من المصطلحات القديمة والصريحة للشر والانحراف؟ هل السعي للسلطة لدى الديمقراطيات هو «طبيعي» نفسيًا، أم أن السياسيين الغربيين العاديين ليسوا على قدر بأن يوصموا بعلامات نفسية مثل تلك الشخصيات التي كان لها ضرر سياسي استثنائي على معاييرنا الأخلاقية؟ إذا لم يأخذنا التحليل النفسي والتاريخ لأي ذكرى فكرية، فبإمكانه على الأقل أن يساعدنا بتوسيع خيالاتنا، شريطة ألا نستخدم نظامًا مهنيًا آخر لإعادة تأكيد ما نسلم بصحته عبر مصطلحات جديدة.

***

«يتولى نوع جديد من الرجال قيادة أكثر الشركات المتقدمة فنيًا في أميركا. على النقيض من قتال الغاب الذي مارسه الصناعيون في الماضي، لم ينقاد هؤلاء الرجال لبناء أو رئاسة إمبراطوريات، بل لتنظيم مجموعات ناجحة. بخلاف من يسعون لتحقيق الأمن، فهؤلاء متحمسون لفرصة المغامرة والتوصل لاتفاقات... ويزعجه ذلك القائد الصناعي الجديد القادر على إدراك أن عمله هو لتطوير ذهنه وليس قلبه».

المقطع اللافت للنظر من «الرجل اللاعب ـ The Gamesman»[1] يلخص انحراف مايكل ماكوبي الجديد من «رجل المنظمة» القديم وتصورات «الحشد الوحيد» للشخصية المتحدة. قبل ثلاثين سنة انطلق المحلل النفسي ماكوبي في دراسة لأنواع الشخصيات التي تدير شركات التقدم التكنولوجي الأميركي. تحدث إلى مئتين وخمسين مديرًا لاثني عشر شركة كبرى، ثم عمل دراسة مستفيضة لشركتين متعددتي الجنسيات خدمت كنموذج لغيرها من الشركات.

تتضمن خلفية ماكوبي ارتباطًا وثيقًا مع إريك فروم، فقد توسَّع واستمد الكثير من مفاهيم

(1) Michael Maccoby, **The Gamesman** (New York: Simon & Schuster, 1977).

فروم الرئيسة. اهتم ماكوبي تحديدًا بإيجاد تأثير الشخصية والعمل على بعضهم البعض، بما أن كل منظمة ومجتمع لديها «بناء نفسي» يحدد أدوارًا مختلفة لأنواع من الشخصيات المختلفة - فقد تبقى نوعية معينة من الناس في مستوى معطى، وتفشل إذا رفعت لمستوى أعلى، بينما تصل نوعية أخرى للقمة. عندما بدأ ماكوبي دراسته علِم أن النهج التقليدي العيادي قد يقدم نتائج مضللة، لذلك قام باعتماد طريقتين استخدمتا من قبل علماء الأنتروبولوجيا الثقافية، وهما الملاحظة الفعَّالة، والمناقشة واسعة النطاق. إن الاختلافات الشخصية بين المدراء - من حيث دوافعهم، سماتهم، قيمهم - هي من تحدد النمط الإداري، وبالتالي يمكن كشف المستوى الذي سيرتفعون له على السلم الهرمي. يكشف ذلك من خلال لقاء مدته ثلاث إلى عشرين ساعة تتمحور حول استبيان شامل، وتحليل الحلم، واختبارات رورشاخ.

يستطيع المدراء - وفي بعض الحالات زوجاتهم وسكرتيراتهم - التعاون في هذا المشروع. فهم أيضًا يريدون معرفة دوافع المدراء الناجحين، لأنهم يشعرون بعدم الارتياح وأن عملهم يسير بطريق ضيق، فهم يملكون خواصًا مفيدة مهنيًا، على حساب إمكانيات الشخصية الواسعة.

اكتشف ماكوبي أربعة أنواع أساسية للمدير، كل منها تشمل تعريفًا لمجموعة سمات شخصية. ربما من المفاجئ أنه لم يجد «الحِرَفيِّ» المتطلع للكمال الذي في الأساس ينافس نفسه، ولا «مقاتل الغاب» الذي ينافس كل واحد على حدة، ليصل للقمة بعد ذلك. على الأقل في الشركات التي أجرى عليها دراسته، وجد ماكوبي حاجة ماسة - في كل شيء - للثقة والترابط. علاوة على هذا، وجد أن «رجل الشركة»، الذي صنع إنجازه في الخمسينات ببدلة رمادية، يقبل الآن دورًا بيروقراطيًا ويتوقع ألا يذهب أبعد من الإدارة الوسطى.

يفترض ماكوبي أن نوعًا جديد من الرجال «الرجل اللاعب» الذي هو عنوان الكتاب، قد تولى قيادة معظم الأعمال الابتكارية اليوم. ويبدو سلَّم الشركة الأعلى في شركة إلكترونية كبيرة، أرجح أن يوجد فيه اللاعب الخبير. رغم أن جون. ف كينيدي لم يفِ قط بجدول الرواتب، بدا أنه النموذج الأمثل للتصنيف. مفتونًا بالبراعة، ومحبًا للمخاطر المحتسبة. يمتاز اللاعب الخبير بحل المشكلات، ورباطة الجأش تحت الضغط. هو منصف ومنفتح لكن تعزوه القناعات، تسمح له استقلاليته وابتكاراته بالتكيف بسهولة لتغير الأسواق والتكنولوجيا. من الضروري أن يحشد الفرق الفائزة، وليفعل ذلك يجب أن يدعم ويغري ويستجيب لحاجات إنسانية مختلفة. وحينما تكون مغامراته لغرض الإنتاج، فالتعاون

ضروري بالنسبة له. ويوضح ماكوبي أن روح التعاون في العمل ليس بالضرورة أن تعزز اهتمامًا حقيقيًا في المنزل.

بعدما أدار ماكوبي الجولة الأولى من لقاءاته، دُعي من قبل صديق لزيارة بوهيميان غروف مكان تنفيذي شمال سان فرانسيسكو. يحط رؤساء الشركات رحالهم هناك في اجتماع غير رسمي جانب البحيرة، يحضره مسؤولون حكوميون، رجال الجيش، رؤساء الجامعات، وبعض من نجوم السينما. تصوّر رفاقه أن إجازة أسبوعية في ذلك المكان هناك ستسمح لماكوبي برؤية التنفيذيين في جو قد يشجعهم على التعبير عن دوافعهم الطبيعية.

بيَّن ماكوبي عقب زيارته: «لقد كان مجتمعًا ذكوريًا بالكامل، برزت نوعية من الفتوَّة الرجالية التي تشجع على تبولك تجاه أقرب خشب أحمر». تجري كل سنة مسرحية يأخذ فيها الرجال أدوار النساء. المسرحية التي رأيتها كانت مليئة بسخرية ضد ـ النسوية وإسقاط كوميدي على الفصل التنفيذي بين المنزل والعائلة. مثلما قاله رئيس شركة «ACI» عن ابنه بأنه أبلى بلاء سيئًا في منصب نائب رئيس العلاقات العامة، وحينما يخبره الرئيس بأن لا منفعة منه يقول: «أنا سعيد لأن والدتك ليست على قيد الحياة، لترى فشلك»، يرد الابن «لكنها على قيد الحياة، رأيتها هذا الصباح» يرد الرئيس: هل هذا صحيح؟ «بضحكة عالية يرد الابن: حسنًا، ليس من المتوقع أن أكون على دراية بكل صغيرة تحدث هنا».

تحمل هذه القصة بالطبع من المبالغات الشيء الكثير، على الأقل، لأغلبية من قابلهم ماكوبي. منذ البداية أراد ماكوبي أن يفهم ثمن حياة الشركات التكنولوجية على حساب الحياة العاطفية للمدراء. في ذلك الحين تطوع بعض من المدراء للمشاركة في الدراسة تحديدًا بسبب إيمانهم بأن عملهم سبب فشلهم كأزواج، وآباء، وهم متحمسون لإيجاد سبب لذلك. منذ أول وهلة يتضح النطاق الواسع للاعب الخبير، فهو يخبرنا عن علاقة المدراء بعملهم وأيضًا عن حياتهم الشخصية، ومشاعرهم تجاه المشاكل الاجتماعية والسياسية، بالإضافة لاهتماماتهم ومثلهم العليا.

إلا أن ماكوبي وجد أن اللاعب الخبير يفتقر لفهم الذات العميق ويبدي اهتمامًا أقل للعواقب الاجتماعية لعمله. وجد ماكوبي أن روح المنافسة متهيجة في كل الشركات التي قام بدراستها، رغم روح التعاون والمثل العليا. اكتشف أيضًا أن كل نوع من المدراء متحفز بشكل مختلف «فالحرفيين لهم اهتمامهم ومتعتهم في بناء وتحسين المعايير، ومقاتل الغاب

يسعى للسلطة على الآخرين حتى لا يُحطم من قبلهم، ورجل الشركة الذي يخشى الفشل ويسعى للقبول، واللاعب الخبير بمجده وحاجته للتحكم».

يختم ماكوبي بقوله: «بالنظر لنظامنا الاقتصاد ـ اجتماعي، بحافزيته ومطامعه، وتوجهه للسيطرة والقدرة على التنبؤ، وتقييمه للسلطة والهيبة فوق العدالة والتنمية الإنسانية الإبداعية، فلربما كان هؤلاء اللاعبون بجودة ما نتوقعه من المدراء المتعاونين». قلِق ماكوبي من تزييف تقييم الأنظمة الاجتماعية من جانب دورها بحشد الطاقات الإبداعية لأنواع مختلفة من البشر. يظن ماكوبي أن معظم المدراء الذين قام بدراستهم ليسوا عصابيين لكنهم غير متمرسين، ويرى أن انتشار عصبة اللاعبين عرض من تضليل المجتمع، عوضًا عن كونها موضوعًا لغضب أخلاقي. طالب ماكوبي بنوع جديد من الشركات، النوع الذي يشجع على جودة النزاهة، إضافة للأساسيات الأخرى، حتى لا تصبح المهنة تسليتنا الكبرى.

***

ليس بزمن بعيد عندما انبهر المحللون «الأرثوذكس» بالطبعة الرابعة لكتاب مورتيمور أوستو الذي عنونه ب ـ «اليهودية والتحليل النفسي Judaism and Psychoanalysis»[1]. كان كارل يونغ من أقدم وأجدر من أشار لبعض الصلات بين اليهودية والتحليل النفسي. اختار فرويد يونغ المسيحي ليكون خليفة له، لأن مؤسس التحليل النفسي رأى أن تكون حركته خالية من أي جذور يهودية.

إن فشل التعاون بين فرويد ويونغ قد عزز من عزيمة فرويد بتقديم أفكاره كجزء محايد من المعرفة، وذلك لُتفهم مستقلة عن وضعها الثقافي. استمر البحث عن عالمية الانتشار للتحليل النفسي حتى بعد وفاة فرويد عام 1939م. أُنتقد مارتن بيرغمان بحدَّة لجرأته بعدما نشر مقاله عام 1974م «موسى ونشوء هوية فرويد اليهودية». بدا لبعض المهرطقين أن وضع فرويد في سياق ديني للإرث اليهودي هو بمثابة مسار فكري جديد. حينما أعدت قراءة مقال بيرغمان الآن وجدت أن جهده كان جهدًا مسؤولًا للتصالح مع جانب من عقلية فرويد التي مال معظم طلابه المنطقيين في حياته للتقليل منها. لم يسعى فرويد لتحرير نفسه من حدود البدايات الضيقة فقط، ولكنه انتقد أيضًا طبيعة الأخلاقيات المسيحية. من دون شك كانت

(1) Mortimer Ostow, ed., **Judaism and Psychoanalysis** (New York: KTAV Publishing House, 1982).

هناك رغبة دفينة داخل فرويد لاعتناق المسيحية، كما ألمح بيرغمان، لكنه سعى من خلال رشده أن يستبدل المسيحية بصورة أخلاقية أعلى وأكثر تفوقًا.

يعترف أوستو في مقدمة مقاله بالعنصر الصوفي في مهنة التحليل النفسي. ويحتج أيضًا بأن «بناء مجتمع التحليل النفسي القديم، يتكون من طائفة أو على الأقل من طائفة علمانية منشقّة إن لم تكن دينية»، مثل هذا الاقتراح هو الطريقة المثلى للاقتناع بمنطقية التسجيلات التاريخية. من الغريب جدًا أن فرويد والمحللين القدماء كانوا مترددين بشأن يهوديتهم. كان هناك زمن عُومل فرويد وأتباعه في الماضي كمنطقيين، بشر يعانون من تهمة التدنيس. أوستو أيضًا كان مدركًا لقيود آراء فرويد الشخصية في المسائل الدينية، دون أن يضمّن ذلك بقلة احترام لجهود فرويد الرائدة.

يقترح أوستو تقديم خبرة إكلينيكية للنظريات المعروفة حول التحليل النفسي واليهودية. فالدراسات المعاصرة يجب أن تُظهر السلوك اليهودي «ليس بتحديد التاريخ القديم فقط، ولكن بخبرات حالية وتاريخ لاحق».

تُصور المقالات التي كتبها أوستو وجايكوب أرلو دراسات تحليل - نفسية إكلينيكية، وتميل أيضًا لـ «تطبيق» التحليل النفسي للأزمات الاجتماعية والحركات السياسية. لا يصف أوستو كل نهج مفاهيمي بوضوح ليكون له أسسه الإكلينيكية. من الصعب تلخيص مجلد من المقالات المختارة، لكن أهمية موضوع تلك المسألة ربما يساعد في التغلب على العقبات المعتادة. يعطينا أرلو في مقال: «تقديس النبي» تفسيرًا للإنعاش القادم من الإلهام الصوفي للمهمة، والتي تقارن بحالة الهوس الخفيف. ويضيف ريتشارد روبنشتاين منظورًا لاهوتيًا في مقاله: «معنى القلق في الحاخامية اليهودية»، فيطرح السؤال عن أهمية شخصية الأم القديمة. يجب على المؤرخين والأطباء أن يكونوا مرتاحين لأنه لم يعد هناك حاجة (كما أخبرنا أوستو عندما درس في معهد نيويورك للتحليل النفسي) بأن يكون هناك «اتفاق من رجل خفي ألا تناقش في التحليل النفسي اليهودية، باستثناء إذا أراد أن يشرح للمريض المتدين أن تدينه هو علامة عصابية».

***

استمرت الحالة المقلقة للتحليل النفسي، إلى درجة أن ممارسة التحليل النفسي أصبحت متأثرة بأفكار فرويد وأتباعه، وأصبحت القضية على نطاق اجتماعي ونفسي

واسع. ويحسب لراسل جاكوبي أنه حاول في اللقاءات بالإضافة لكتابيه: «فقدان الذاكرة الاجتماعية ـ The Social Amnesia»[1] و«قمع التحليل النفسي ـ The Repression of Psychoanalysis» استعادة الأيام الخوالي من التحليل النفسي عندما كان زعماؤه يعلمون مثقفيهم بخلاف البيئة المحيطة. لا أعتقد أن جاكوبي مستعد بشكل كاف ليواجه مبادئ فرويد السياسية المحافظة، لكنه محق قطعًا في كشفه للانحدار العام في الحيوية المهنية. فقد كان التحليل النفسي حرفة في يوم ما، وهو الآن في الغالب مهنة يعتمد تقدمها على تسلسل منظم من التشكيك في الحياة العقلية.

رغم ذلك، كانت بذور التوافق المطلق موجودة طوال الوقت. لدى فرويد تاريخ من النزاع مع من دعاهم بالمهرطقين، وهو ليس مبرأ من ظهور الأرثوذوكسية البليدة. بما أن المؤرخين الثقافيين تغلبوا على عقبات مفاهيمية لفهم ما احتج عليه كارل يونغ، ألفريد أدلر، وأوتو رانك، على ذلك تكون المعرفة قياسية لأن الاعتراضات المنصفة للنظرية والتقنية الفرويدية قد عبَّر عنها باحترام في الماضي. كانت سياسة يونغ مريعة في الثلاثينات، لكن العلاج قصير ـ الأمد الذي بدأه في العشرينات قد لقي تحسنًا حتى يومنا هذا. إريك فروم أيضًا لديه سمعة تحتاج الآن لإعادة النظر. كتاب جاكوبي: «القمع في التحليل النفسي» هو في رأيي أكثر تسامحًا مع الاختلاف وأكثر انفتاحًا للبدائل الأديولوجية من كتابه الآخر «فقدان الذاكرة الاجتماعية» الذي التزم فيه بقراءة هربرت ماركوس لتاريخ التحليل النفسي.

ربما يستحق الأمر أن نستدعي ما حدث لمن ينتمون لليسار سياسيًا في الخمسينات، حينما انجذب بعض من شخصيات الحرب الباردة البارزين لعوامل التحليل النفسي. باعتقادي أن نظريات فرويد قد تخدم المحافظين، الليبراليين، إضافة للراديكاليين المتطرفين وأغراضهم، فقط إذا اعترفنا بالنطاق العريض من المعاني النظرية للتحليل النفسي، لنصبح قادرين على الاستفادة من مفاهيمه بأفضل ما يمكن.

لقد نما إجماع حول أهمية منزلة فرويد العظيمة في فكر التحليل النفسي للقرن العشرين. ومن المهم في حكمنا أن نؤكد على مدى اختلافه عن أفكارنا الخاصة. وسواء كان مخطئًا أم مصيبًا، فقد وضع بعض التحديات الأساسية للفكر الأخلاقي الغربي، ولهذا برر جاكوبي

---

(1) Russell Jacoby, Social Amnesia: **A Critique of Conformist Psychology from Adler to Laing** (Boston, Beacon Press: 1975); Russell Jacoby, **The Repression of Psychoanalysis: Otto Fenichel and the Political Freudians** (New York: Basic Books, 1983).

لفت الانتباه لأهمية «تعاسة الحياة اليومية» عند فرويد. لن تخدم ذاكرة فرويد تجاهل كيف كانت بعض مواقفه واستنتاجاته مزعجة وكريهة بعمق. بقدر ما نرى فرويد رجل زمانه، إلا أنه من الأفضل أن نعتبره مصدر انفصال وجودنا نحو مجتمع اليوم.

***

كتاب جون ديغنز: «روح السياسة الأميركية الضائعة The Lost Soul of American Politics»[1] كتاب مهم يهدف لإعادة تفسير كافة الفكر السياسي الأميركي. لكنه ابتدأ بسلبية عندما سعى لدحض وجهات النظر التي قدمت من جون روك وغاري ويلز. يعارض ديغنز مفهوم بوكوك القائل بعدم تقدير المؤرخين للتجانس الميكافيللي الذي قد يوجد في فكر الأب المؤسس، كما رأى أن ويلز غالى في أهمية التنوير الأسكتلندي في أميركا. ولأجل فهم الماضي السياسي الأميركي يقترح ديغنز أن نعود للكتّاب الأوائل مثل بيري ميلر، لويس هارتز، وريتشارد هوفستادر. يعرض لنا ديغنز كيف مرت أميركا باتفاق أديولوجي جمعي، نتج عنه امتزاج جون لوك وإنغلاند الجديدة المحافظة، بدلًا من تميز الحضور الأميركي وعنايته بفضائل الإنسان المدنية التي عرضها بوكوك. نوّه ديغنز على غياب كبير للفضائل المسيحية، فبالنسبة له، الليبرالية والكالفينية هي المواضيع الرئيسة في الثقافة السياسية الأميركية.

يصنف ديغنز كباحث جيد، وتعدُّ إشارته من أفضل ما قدم علماء النظرية السياسية الأميركية، ومع هذا يتساءل المرء ما إذا كان الكتاب يصفعنا بمبالغته الشديدة. إن موضوع أهمية ميكافيللي لأميركا وما حظي به من تقدم لهو أمر رائع، وأعتقد أن ديغنز قد تحدى «الإطار الميكافيللي» بجدية تبلغ صدمة اللاأخلاقية في كتاب: «الأمير» والتي تزن ثقل قناعات ميكافيللي الجمهورية.

وبقدر ما ذهب إليه غاري ويلز الصحفي الموهوب ببراعة، والذي كان لكتبه تأثير بسبب أسلوبها القوي، ربما يكون ديغنز محقًا في اعتقاده أن فكر الطلاب الأميركيين قد ضلل بآراء بوكوك وويلز، لكن النهج البديل الذي عرضه قد يغفر للقارئ ظنه بأن ديغنز ذهب في كتابه لمقارعة أمر اتضح له أخيرًا عدم جدواه.

(1) John P. Diggins, **The Lost Soul of American Politics: Virtue, Self-Interest, and the Foundations of Liberalism** (New York: Basic Books, 1985).

مهما بدا ثقل تنظيم الكتاب، إلا أن متابعة اهتمام ديغنز للنصوص التي يدرسها أمر ممتع. فهو مهتم ليس فقط بالفترة الثورية، ولكن بالكتابة عن المؤمنين بفلسفة التعالي، دي توكوفيل، هنري آدامز، ميلفيل، ولينكولن.

لقد أذهلني رؤية الأفكار الأميركية السياسية تُعامل بعناية في سياق علمي تقليدي ممثلة بميلر، هارتز، وهوفستادر. إن أعمال ديغنز المبكرة على سبيل المثال كتابه عن رد أميركا على موسوليني، ودراسته لثورستين فبلين، هي من وضعت له اسمًا، لكن كتاب: «الروح الضائعة للسياسة الأميركية» كان تأكيدًا واعترافًا به كمفسر رئيسي للفكر السياسي الأميركي.

***

ربطت سمعة كوتون ماثر لمشاركته في محاكمات سحرة سالم في الستينات. كان على أي حال، متعلم جيد، مجادل ضليع بالدفاع عن الأرثوذوكسية المتزمتة. حافظ على مراسلات ضخمة، وكان كاتبًا لعديد من النزاعات ضد من اعتبرهم مفتقرين للإيمان. كان كوتون مداهنًا للسلطة ومتلهفًا لإسعادها، إلا أنه عانى من مشاعر العزلة والتجاهل. أصبح لنزاعاته العامة وتدويناته الخصبة شهرة بقدر تعصبه الأعمى، ورغم أنه يستحق الثناء لريادته في الحملة المبكرة لاستخدام التطعيم ضد الجدري، ألا إن التاريخ يذكره كشرير.

شكَّلت النزاعات بين المحللين النفسيين جزءًا من اللاهوت الحديث، وقد حصل ك.ر. إيسلر على منزلة كوتون ماثر الحديثة، فهجماته القديمة على «الهرطقات» و«الانحرافات» المختلفة حملت سمعة سيئة تمامًا مثلما فعل في ختمه للكثير من أرشيف فرويد خلال التفتيش النزيه للقرن الحالي. وجه إيسلر النار ضد يوليوس فاغنر - يورغ(*) في كتاب: «فرويد شاهد وخبير: مناقشة عصاب الحرب بين فرويد وفاغنر - يورغ Freud as an Expert Witness: The Discussion of War Neuroses Between Freud and Wagner-Jauregg»،[1] الذي صدر عام 1986م، وهو أحد زملاء فرويد النمساويين أصبح عام 1928م

(*) طبيب أعصاب وطبيب نفسي نمساوي، عرف بميوله النازية خلال الحرب العالمية، حصل على جائزة نوبل في الطب عام 1927م، أبرز أعماله كانت تتعلق بعلاج المرض النفسي عبر استقراءه للحمَّى، لكن لم يكتب له النجاح. واصل بعد ذلك العمل على إثبات أن التطعيم ضد الملاريا فعَّال في علاج الشلل الجزئي، هذا العمل هو ما أهَّله لحصد جائز نوبل.

(1) Kurt R. Eissler, **Freud as an Expert Witness: The Discussion of War Neuroses Between Freud and Wagner-Jauregg, translated by Christine Trollope** (Madison, CT: International Universities Press, 1986).

أول أخصائي نفسي يربح جائزة نوبل. أُتخذت الإجراءات الرسمية للتحقيق بشأن سلوك فاغنر - يورغ خلال الحرب، وذلك بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بصفته رئيس مؤسسة الطب النفسي في جامعة فيينا. طُلب من فرويد الشهادة على نهج فاغنر - يورغ من جانب ملائمته للمرضى، وقد عبّر فاغنر - يورغ في سيرته عن امتعاضه تجاه موقف فرويد.

رغم أن كتاب إيسلر تميز بضخامة حجمه وتنظيمه الغريب (حوى ما لا يقل عن تسعة ملاحق) بتحيز أديولوجي واضح: «رغم إنني لم ألتق فرويد قط، إلا أنه حي بداخلي ولايزال بيننا. إذا كان هناك من يدين بفهمه، ومهنته، وربما بقاءه الجسدي لشخصية واحدة، فليس هناك نتائج أخرى محتملة». فكانت الحصيلة أن أشار المحلل النفسي النمساوي هارولد ليوبولد إلى مراجعة للطبعة الألمانية الأصلية لهذا النص الذي ظهر في طبعة دار سيجموند فرويد، فقام إيسلر بحذف انتقائي لأجزاء مهمة وخطيرة من البروتوكولات الرسمية دون إشارة لوجودها.

هناك عدد لا بأس به من التحريفات المشوهة الهامة لخيانة إيسلر للأهداف اللاهوتية التي كانت في ذهنه. في نقطة ما، شهد فرويد على أن فاغنر - يورغ أغفل الاستفادة من التحليل النفسي كعلاج لعصاب الحرب، ثم أضاف فرويد بسخرية أنه من غير الممكن أن يطالب فاغنر - يورغ بأمر لم يتمكن طلاب فرويد من فعله. تختلف الجملة المترجمة عن النسخة القديمة من الإنكليزية التي تقول: «لا يمكن أن أطلب منه، بإمكان تلاميذي أن يطلبوا أقل من ذلك» لا يقدر إيسلر على تقدير تعقيد فرويد، يعتقد حرفيًا أن الجملة غير منطقية وتثير احتمالية خطأ الاختزال.

من السهل الضحك على إيسلر وأديولوجيته الجوفاء، على سبيل المثال شهد فرويد أن: «كل عصابي لديه غاية موجهة بشكل مباشر لأشخاص محددين، قد تختفي فجأة في جزيرة البحر الجنوبي، أو في وضع مشابه، لكن هناك سبب لذلك». علّق إيسلر بعد ذلك تعليقًا أعوجًا: «ربما يُشك بنمط البحر الجنوبي وملائمته لكافة العصابيين». لم يستطع إيسلر استيعاب فهم فرويد لأسس القواعد الاجتماعية للمعاناة، بالإضافة إلى أنه لم يدرك النوعية الخاصة للأخلاق عند فرويد. عندما أتى أحد المرضى لفرويد - كانت له علاقة غرامية خارج نطاق الزواج - يشكو ضعفه مع زوجته، وفقًا لتقرير معتمد قام فرويد بتهنئة المريض قائلًا: «أنت الآن رجل محترم». فوّت إيسلر نقطة هامة، وبدلًا من ذلك اقتبس بحماقة من فرويد: «هذه أول علامة صادقة رأيتها فيك». وعندما قام فاغنر - يورغ بوصف مريض

على أنه «ليس أهلاً للعلاج» أبقاها إيسلر في نطاق: «عبارة لا تليق بطبيب»، بتجاهل سافر لتعليقات فرويد المشابهة وربما كانت أسوأ منها بكثير. قام بنقل التسلط الذي كان موجودًا في الطب النفسي القديم للتحليل النفسي في بداياته، حتى أن إيسلر كان متلهفًا جدًا لتخليده وتجميله.

لا يعدُّ إيسلر مؤرخًا يعتدَّ به تمامًا، بصرف النظر عن امتياز وصوله لمصدر المواد الموجودة في أرشيف فرويد ومحاولته إنكار نوايا فرويد النبوية. إنها السمة المتشددة للدين التي استمر إيسلر يدافع عنها بحماسة لسنوات، وحينما أشار لطبيب نفسي قديم يدعى: «إرنست كريتشمير»، يخبرنا إيسلر أن: «الجدال ضد كريتشمر يتطلب كتابًا». ربما من يقرأ «فرويد شاهد خبير» سيميل لنسيان حملة إيسلر القيمة التي قام بها نيابة عن ممارسة المحللين غير المختصين. نوّه إيسلر في مستهل كتابه، أن محللًا متوفى أعد ورقة عن فاغنر - يورغ، ربما يحمل هذا الاقتراح حسًا علميًا بشرط أن ينجز بانفتاح ذهني، دون الأخذ بنظريات إيسلر اللاهوتية والمؤسفة بشكل استثنائي.

***

جذبت حالة «الطفلة م» قدرًا هائلًا من الشعبية التي أثارت مجموعة من التعقيدات الأخلاقية الحقيقية، من بينها، ما هي طبيعة تقنيات الإنجاب الحديث؟ وما هي الحدود التي يجب أن تهيئها هذه الحالة الإنسانية؟ حرضت حالة «الطفلة م» الأم البديلة ماري بيث وايتهيد للتراجع عن العقد الذي وقعته مع ويليام وبتسي شتيرن، الأب الشرعي وزوجته. حملت ماري بيث بطريقة غريبة عبر التلقيح الصناعي، مع تأمين بالدفع لاحقًا، لذلك ليس من المستغرب أن يحدث مثل هذا الجنون. وقد أحسن موراي كيمبتون الوصف حينما قال: «لقد ابتاع آل شتيرن لأنفسهم بقرة، وأنجبت لهم علبة من الحليب».

أحد شذوذ حالة «الطفلة م» أن الأم الحامل وُصفت بأنها «أم بديلة» مثلما يحدث اليوم، في حين أن بيتسي شتيرن التي أملت وخططت لتبني الطفلة، نجت من وصمها بتأجير الأرحام. إذا كان يُشك بتعهد وايتهيد بهذا العقد، فمن المؤكد أن سلوكيات الأطراف الأخرى «الأفضل تعليمًا» مشكوك فيها.

تستحق فيليس تشيسلر في كتابها: «رباط مقدس، إرث الطفلة م - Sacred Bond: The

Legacy of Baby M»[1] الثناء على تصوير ماري بيث منذ البداية على أنها ضحية انحياز طبقي وإعلامي. لم يُسلط الضوء على البلاغ المبكر لحقيقة أن ماري بيث كانت ترضع الطفلة لما يزيد عن أربعة أشهر، قبل أن تأخذ الشرطة الطفلة منها بناء على أوامر المحكمة. ولم يدرك أحد إلا قلة أن ويليام شتيرن قد سجل محادثة تليفونية هددت فيها ماري بيث بحياتها وحياة الطفلة أيضًا. قُبض على ماري بيث بطريقة مؤلمة، وجمدت أموالها قانونيًا وكانت على وشك خسارة منزلها لصالح البنك أيضًا. لاحقًا ندم البعض ممن واجهوا صعوبات الحضانة لوقوفهم الدرامي ضد ماري بيث.

خلال معاناة «الطفلة م»، تدخل آل شتيرن بصفتهم زوجين من الطبقة الوسطى، وقاموا بتقديم إيجابيات الاستقرار للطفلة بما يتماشى مع وضعهم الاقتصادي والاجتماعي. من البغيض أن يستدعى من يسمون بالخبراء لتقييم كفاءة البالغين نسبيًا، ففي المحاكمة الأولى التي عقدها القاضي: كانت ماري بيث «غير مستقرة نفسيًا» لرفضها التخلي عن الطفلة.

إن كتاب تشيسلر هو ثمرة نشاط حملتها لأجل قضية ماري بيث، فقد رأتها تشيسلر بأكملها قضية حضانة. قامت المؤلفة أيضًا بربطها بمعاناة الأمهات في المحاكم التي تتوصل لقرارات متحيزة لصالح الآباء المسيئين. يمكن للقراء أن يباركوا استعداد وجاهزية تشيسلر للدفاع عن ماري بيث كبطلة غير جذَّابة إلى حدٍّ ما، ويمكن للمرء في الوقت عينه أن ينشق عن بعض الأديولوجيات التي ابتكرتها تشيسلر.

يبدو أن تشيسلر لا علم لها بأي نماذج أخرى خاصة تلك التي تحدث بين الطبقات الوسطى، حيث يُظلم الآباء والأطفال بحكم الحضانة التي تحكم لصالح الأمهات دون وجه حق. وربما كانت على حق بأن حالة «الطفلة م» مشابهة لنزاعات الحضانة الحالية، وأنها ربما توحي بـ «محاكمة ساحرة»، لكن موقف تشيسلر الشخصي من الممكن أن يكون أكثر إقناعًا لو أن تفسيرها العام أعطى فروقات بسيطة لأمثلة تناقض فرضية برمجيتها التي سعت لتعزيزها.

لا يعد كتاب: «رباط مقدس، إرث الطفلة م» كتابًا جدليًا، وبالكاد يلامس المعضلات الفلسفية التي زودتها بنا تكنولوجيا الإنجاب الحديث. تكتب تشيسلر كما لو أن لجنة

(1) Phyllis Chesler, Sacred Bond: **The Legacy of Baby M** (New York: Times Books, 1988).

وارنوك البريطانية، أو دراسات مركز هيستنغز في نيويورك ليس لهم أي صلة. بعد كل ذلك، تقرر مصير «الطفلة م» على أساس ما ظهر بأنه «الأجدى لمصلحتها». قد تكون أخلاقيات الطب كابوسًا معنويًا، لكنها الآن تقف بصفنا أكثر من الماضي.

إن كتاب تشيسلر، مهما لحقه من قصور، إلا أنه كُتب بعاطفة لصالح قضية مفيدة. وقد اكتمل الكتاب بعدما طعنت المحكمة العليا بحكم القاضي بصلاحية العقد الأصلي، لكن قبل أن تنجح ماري بيث في الحصول على حقوق زيارة معقولة. نحن بحاجة لأن نولي مزيدًا من الاهتمام إلى مدى ودرجة نجاح الدولة في حماية الأم من عنف الرجل جسديًا، اقتصاديًا، وحق الحضانة. إساءة معاملة الأطفال والتمييز الجنسي أمور واقعية، وقد استخدمت تشيسلر حالة «الطفلة م» لإلقاء الضوء على كل هذه الأمور. رغم أن ماري بيث بدت ساذجة على التلفاز، لكن المهم بالنسبة لي أن تشيسلر ومناصريها كانوا مدركين جيدًا ليجدوا فيها ما يستحق الإعجاب.

احتجت تشيسلر بعقلانية فيما يخص وضع التبني، موضحة أن استسلام الأمهات الشرعيات يعني «معاناة بالغة وأبدية». ومع هذا، لا أظن أن أحدًا يريد الانتماء لعالم يلقي اللوم على الأم، لتؤكد بأن منطق حجتها يمكن أن يتوسع ليشمل الإجهاض أيضًا. لا بد أن تشيسلر بكونها طبيبة نفسية مرت بتجربة عيادية تخص عواقب إجهاض الحمل، لكنني أشك أن نضاله ضد ما سمته «انحياز تأييدي للأب ومعاداة للأم في مجتمعاتنا» نابع من اهتمام أديولوجي، لكنها أمسكت عن استكشاف تلك المنطقة الحرجة.

تفاجأ بعض من النسويات اللاتي شاركن في قضية «الطفلة م» بوجود أسمائهن إلى جانب الفاتيكان، والتي أصرت طويلًا على أهمية الكرامة الإنسانية، والتنديد صراحة بما يمارس من أمومة بديلة. وفي ظني أننا كلما أدركنا المشاكل التي بين يدينا، كلما زاد احتمال تحقيق التعاليم الأخلاقية التقليدية.

***

فيليب بومبر مؤرخ فكري دقيق، متخصص في الفكر السياسي الروسي للقرن التاسع عشر والعشرين، قدَّم في كتابه: «بناء العقل والتاريخ، أعظم خمسة مفكرين في التاريخ النفسي -

The Structure of Mind in History: Five Major Thinkers in Psychohistory»[1] تفسيرًا متوازنًا ومقبولًا للزمن الفكري لـ «التاريخ النفسي» الذي بدأ من فرويد، إريك أريكسون، نورمان أو براون، هربرت ماركوس، وروبرت ليفتون. في منطقة تملؤها التحزبات كان بومبر قادرًا وبشكل استثنائي أن يعطينا موجزًا متينًا يقيِّم فيه كل هؤلاء الكتَّاب.

يقدم بومبر لمحات موجزة نسبيًا لكل مفكر قام بدراسته، ولا أظن أنه استاء في دراسته للطريقة التي بنيت عليها أعمال فرويد. رغم أن مفكريّ ما بعد ـ الفرويدية توصلوا لطرق مهمة من منظور «كلاسيكي»، إلا أن بومبر يتعامل مع هذه الإسهامات دون أي جدل. ولا يحتفي بالإنجازات المبكرة، أي: إنه لم يكن مهنئًا ولا مشوهًا.

في حقيقة الأمر، تمنيت لو أن بومبر كان أكثر انفتاحًا حول عيوب كل مفكِّر قد كتب عنه. على سبيل المثال، هل يُكتفى بمقارنة مخطط إريكسون الجيني بعقدة أوديب الفرويدية، دون النظر في نقاط الضعف الكامنة في وجهات النظر؟ بومبر رجل نزيه ومحترم، أخلص في فهمه لعمل كل كاتب تناوله بالدراسة، لذلك من العصيِّ ألا تسأله عنهم، وما يعتقد عنهم بالفعل؟ يصف الفصل الذي يتناول خلاف ماركوس/ براون شخصين كانا على خلاف تام مع بعضهما البعض، لكن صوت هذه الحرب الأديولوجية قُمع أكاديميًا من حيث لا يُعلم. مع هذا، لا يحضرني أفضل من تلخيص بومبر لأعمال ليفتون، فقد نجح في فصل وحيد يسير باستخلاص جوهر آراء ليفتون الخاصة.

المحظوظون منا من أُتيح لهم القراءة لكل هؤلاء الرجال، وكيف تعاملوا مع أسلوب ورثة فرويد نفسيًا وتاريخيًا، فكتاب بومبر لا يقدم أكثر من تقديم عمل بخلاصة جيدة. إنصافًا لريادية إريك فروم، أظن أنه استحق تعاملًا خاصًا، يميل الأطباء خاصة لتقدير الأسس التي اختلف فيها فروم عن النظرية «الأرثوذوكسية» رغم معاناة سمعته وقدرته الرائعة للوصول إلى ما هو أعلى من هياكل السلطة التنظيمية وجذب عامة الناس. حقيقة أن فروم لم يحصل إلا على لفتة من إشارة عابرة جعلتني أشك أن بومبر لا يلتفت للأديولوجيات العاطفية التي من أجلها أُقصي فروم من مراجع حديثة ومتعددة. الآخرون مثل إريك إريكسون، خافوا بالطبع من مصير طرد فروم، والذي أثّر على جهودهم في إبقاء روابط رسمية مع

(1) Philip Pomper, **The Structure of Mind in History: Five Major Figures in Psychohistory** (New York: Columbia University Press, 1985).

قوة «الأرثوذوكس». ولطالما صدمت بهجوم ماركوس غير العادل على فروم، الأمر الذي يستحق إعادة نظر من جديد.

أولئك الذين انغمسوا في العمل العيادي سيجدون ضالتهم الموثوقة في بومبر ليدلّهم على الأبحاث التي نمت بشأن آثار التحليل النفسي على الفكر الاجتماعي والتاريخي. لا يسعني التفكير بعمل أفضل لمبتدئ يبدأ في هذا الجانب، رغم إنني تمنيت أن بومبر قد سأل أسئلة متينة لكل من قام بدراستهم. في رأيي الخاص أن «التاريخ النفسي» كتقليد عصر هو مهم بما يكفي، وقد بُني بشكل كاف ليتلقى نقدًا أكثر مما رغب مزاج بومبر في تقديمه. مع هذا، نقول إن كتاب: «بناء العقل والتاريخ» قد قدّم رأيًا متساهلًا، إلا إنه يعدُّ إضافة قيمة للأدب.

***

يستحق كتاب مايكل ج كيني: «آلام أنسل بورن: شخصية متعددة في الثقافة الأميركية ـ The Passion of Ansel Bourne: Multiple Personality in American Culture»[1] اهتمامًا كبيرًا، لما قدمه المؤلف من علاج لمشكلة تشخيص «متعدد الشخصية» في المجتمع الأميركي. يعد كيني ملمًا بأفضل أدبيات ما يسمى بالتشظر الذهني، فهو يتحرك بخفة بين دلائل التاريخ، الطب النفسي، النقد الأدبي. مع ذلك، وجدت نفسي غير مرة، فاقدًا للمسار البنائي للنقاش، ولم يساعد الغياب الغريب لأسماء الأعلام كافة في الفهرس بإصلاح الأمر. مع إحاطة كيني الواسعة، وطبيعة منطقه المتطور، إلا إنه جعلني أتمنى لو أن أحدًا قد أصرَّ على تفرقة الأصول عن الفروع.

يبدأ كيني باستكشاف مفهوم «الذات»، ويحاول فهم الفردانية كجانب من الثقافة الاجتماعية، إضافة لكونها مصطلحًا في علم النفس الطبي. فهو يرى اضطراب تعدد الشخصية من منظور علماء الأنتروبولوجيا، زاعمًا بأن «تعدد الشخصية مجاز ثقافي محدد، وليس اضطرابًا عقليًا شائعًا». يتعامل كيني مع خبرات اقلاب لافتة، ظهروا كأعجوبة في زمننا ثم صنفوا تحت فئات الأمراض النفسية. وبما أنه يقدم تاريخ حالة موثقة من ماضي الخبرة الأميركية، قام بتفسير مادته باعتباره «مصطلح الكرب» الأميركي. إلى حدٍّ ما، يستحق

(1) Michael G. Kenny, **The Passion of Ansel Bourne: Multiple Personality in American Culture** (Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 1986).

الكتاب أن يُقرأ لالتزام كيني بأن فكرة تعدد الشخصية «هي نتاج صناعة اجتماعية، وليست نتاجًا طبيعيًا لعمليات نفسية حتمية».

قام بتوثيق قصة ماري رينولدز التي ظهرت مطبوعة لأول مرة عام 1816م، حيث فرض على القراء متابعة تفاصيل عميقة لما بدا وكأنه هيستريا، دون وجود أي عوامل عصبية قد تفسر حالتها. وساعد تقرير سيلاس وير ميتشل عن رينولدز بانتشار شهرتها بين علماء النفس أواخر هذا القرن. بكل أسف افترض كيني أن القراء قد أرعوا انتباهًا بالغًا لنصِّه إلى درجة أنه ما من داع لتذكيرهم بما بدأ في خاتمته.

ويخبرنا أيضًا بالقصة الدرامية لأنسل بورن، النجار الذي قاسى الثورة عام 1857م، والتي حوَّلته لواعظ متجول على مدى عشرين سنة. تحول مرة أخرى دون سبب واضح، حتى أنه فقد هويته واتخذ له اسمًا آخر. بعد أن تنبه إلى التغيير الجديد الذي لحق به، أُصيب بفقدان ذاكرته. جذبت الحكاية ويليام جيمس الذي كان على وشك إنهاء كتابه: «مبادئ علم النفس ـ The Principle of Psychology». افتتن الأميركيون بمفهوم الذات الخفية، وكان جيمس من قراء سيجموند فرويد المبكرين.

تحليل كيني لعودة جورج بيلو يوفر مواد أكثر عن النهج الأميركي المميز لتعدد الشخصية مثل الفكر الروحاني أواخر القرن التاسع عشر. وفي محاولة لوضعها في منظور مشكلة عامة لتحقيق ذات سوية «حقيقية»، أعاد كيني بناء ما كتبه علماء أعصاب مهمين (أمثال مورتون برينس). ومن الغريب أن مؤلفات كيني المثيرة للإعجاب حقًا، لا تحتوي على أي مرجع وحيد لأعمال إريكسون، أو للآخرين الذين أسهموا في نظرية الهوية في التحليل النفسي. ربما دُعمت حجة كيني عبر مفهوم هيلين دويتش للشخصية «الكأنّية ـ as if»(*).

أراد كيني أن تُفهم الحالات التي درسها كـ «نتاج مشترك بين طبيب ومريض». وقد أصاب من دون شك باعتقاده أن شكل الاضطراب النفسي يأخذ تأثيره عن طريق اكتساب اصطلاح ثقافي محدد للكرب يساعده في ذلك الظروف المحلية.

***

(*) تصف هيلين دويتش من يتصفون بهذه الشخصية على أنهم سلبيين في الغالب، وتفتقر علاقاتهم لاتصال عاطفي حقيقي، وعادة ما تكون جوفاء وخالية من المعنى الحقيقي. تتشارك هذه الشخصية ميزات مع الشخصية الحدِّية Borderline personality.

يعدُّ كتاب وايتلد رايبزينسكي: «انتظار نهاية الأسبوع ـ Waiting for the Weekend»[1] كتابًا مذهلًا لتناوله حالة الخواء الحديثة. فالمؤلف هنا يغرقنا بأفكار حول اختيار وقت الفراغ، ولا يربط أنشطته بممارسات البلدان المختلفة، بل بالعصور القديمة أيضًا.

إن أفضل إسهام لرايبزنسكي نجده في تفاصيل أصول نهاية الأسبوع الحديثة، فسيادة هذه العادة الاجتماعية جديدة نسبيًا. كما يشير إلى أن نهاية الأسبوع صناعة، أي: أنه فترة بناء إنساني، فمنذ بدء الخليقة كان للرقم سبعة خصائص سحرية. يتخذ اليوم السابع في الأسبوع وقعًا شعبيًا كيوم مريح نستطيع فيه بناء حياتنا مع أخذنا بالحسبان الراحة والعمل.

حتى القرن التاسع عشر كان العمل الأسبوعي عبارة عن ستة أيام، وكان يوم الأحد هو اليوم الوحيد للراحة. يوم الأحد هو يوم الشعائر الدينية والراحة. مع تزايد توفر التدخين، الشاي، التبغ، وأمور القراءة، ازداد الضغط لتوفير وقت إضافي للراحة من العمل. ومادامت الاحتفالات العامة ممنوعة يوم السبت، أصبح الاثنين وقت راحة لـ اللادينيين. ثم أصبح السبت نصف عطلة، وبدأ الناس في السبعينات يتحدثون عن قضاء وقت الأسبوع.

الطريف أنه في عام 1879م وفي نفس الوقت الذي كان فيه رئيس الوزراء ويليام غلادستون يفرض ضرائبًا عالية على الخمور في إنكلترا، وجدنا السجلات القديمة تحوي استخدامًا لكلمة «نهاية الأسبوع». إذ كان وقت الراحة بالنسبة للطبقات الوسطى سهل المنال.

تقوم ثقافتنا بتعريف وقت الراحة ومكان قضائها أيضًا. على سبيل المثال، يحدد رايبزينسكي كمهندس معماري كافة المعلومات حول المنزل، مُظهرًا كيف أن المعدل الطبيعي لبيوتنا ازداد توسعًا مع ازدياد وقت الراحة. كما أنه يميل لتقدير دور البيوت الثانوية في البلد.

يفصح رايبزينسكي عن مخاوفه الأخلاقية، فهو قلق من استعباد نهاية الأسبوع لنا، وجعله عادة تُملي وتُقيد تجاربنا في قضاء وقت الراحة والدوافع الإبداعية المرتبطة به. حيث يوضح أننا بتنظيمنا الشديد لأنشطة نهاية الأسبوع، يقع وقت الراحة فريسة لمعايير الامتثال التي تصبح سمة من سمات الحياة المبتذلة.

يؤمن رايبزينسكي بأن وقت الراحة أقدم من الحضارة، وعلى هذا الأساس هو على

(1) Witold Rybczynski, **Waiting for the Weekend** (Toronto: Penguin, 1991).

خلاف معه. يشرح (انتظار نهاية الأسبوع) بالتفصيل لماذا أُستخدم نهاية الأسبوع دليلًا للعادات الاجتماعية الحالية. فيخبرنا قصة تزايد شعبية دور السينما، والتقارير المذهلة لقضاء الناس إحدى وعشرين ساعة أسبوعيًا أمام أجهزة التلفاز، ويرثي حال قلة ـ حوالي ما نسبته 18% ـ لازالوا يقرأون الصحف اليومية في كندا.

يلاحظ أيضًا أن العمل الأسبوعي لخمسة أيام لم يكن ذا إنتاج لحركة العمال التي عانت للحصول عليه نتيجة للكساد، حيث طالب المجتمع بوقت للراحة مقابل وقت قليل للعمل. ولم يُشر رايبزينسكي لعالمية عطلة نهاية الأسبوع، فالإسرائيليون والعديد من اليابانيين لا يتقيدون بعطلة نهاية الأسبوع.

رغم أن كتاب: «انتظار نهاية الأسبوع» يستحق الإعجاب، وأشارك المؤلف همَّه باستنفاذ الخيار في كل من العمل ووقت الراحة ـ إلا إنني أتساءل ما إذا قد نقل بيانًا متزنًا للحالة الراهنة. لا أعتقد أن معظم أصحاب الطبقة الوسطى يتحملون حياة الكدر والشقاء الذي يلمِّح له. وأشك أن هناك مزيدًا من المتعة في العمل أكثر مما يسمح به، أو أن معظم الأشخاص قد حصلوا على قدر جيد من المرح في اكتسابهم لمعيشتهم.

لا يندفع الناس نهاية عطلة الأسبوع لينسلُّوا من قواعد العمل الرتيبة، وأتصور أنه من المستحيل فهم معظم الأنشطة الترفيهية، إلا إذا رأينا كيف تخدم وتعزز وتسيِّر قدراتنا لنكون مبدعين في العمل. من الغريب أن رايبزينسكي وفي عصر يسمى بالتحرر الجنسي، يكاد لا يذكر شيئًا في كتابه عن هذا الدور. ومن المستغرب بالطبع أن يستشهد المؤلف بفرانسيس بيكون وكتاباته عام 1925م «أنقى ملذات الإنسان، هي خير انتعاش لروحه» حينها كانت البستنة هي ما في ذهن الفيلسوف العظيم.

ظهر العديد من الوسائل المتعددة ـ بعيدًا عن المخدرات والكحول ـ التي نستطيع من خلالها الابتعاد عن نمط الحياة اليومي، والعودة بشعور الكفاءة والفاعلية المعززة. مع هذا، ربما يظن المرء أن موضوع الجنس لم يكن ليرتد تحت بساط مفاهيمي.

تماشيًا مع قلق رايبزينسكي حول فرط تنظيم الخبرة الحديثة، يمكن أن يشار إلى أن بعضًا من كتيبات الجنس الحالية متزمتة جدًا لدرجة تحويله لشكل من أشكال العمل، فعلى أحد أن يؤدِّي، أو يتحمل مخاطر كونه غير طبيعي. لست بصدد اقتراح كتاب اختار المؤلف ألا يكتبه. لكنني أشير إلى حدود النقاش الذي طرحه. وأن اختياره الفصل بين الجنس والراحة أمر يحتاج لشرح.

تلقَّى موضوع الراحة اهتمامًا أقل مما يستحق. وعلى ذلك، كان رايبزينسكي محقًا في إجلال أعظم المنظرين لهذا الموضوع، مثل ثورستين فابلن، الذي أشاع مفهوم «الاستهلاك الواضح» في القرن العشرين. بينما كان فابلن يميل للسخرية من إشكالات الطبقة الوسطى، لم يكن في نية رايبزينسكي أن ينازعه، فقد اهتم بتحذيرنا بضرورة الإبقاء على منطقة نكون فيها ممارسين لخياراتنا بشكل هادف.

رغم أن رايبزينسكي محق بلا شك في تفكيره بأن أي شخص عاقل سيسعى لتطوير ذاته في ممارسة انفرادية، إلا إنني أظن أنه لم يبتعد في نقطته كثيرًا بما أنه استبعد الجنس. وقد يمتد كل ما كتبه حول سمات اللعب الحقيقي ليشمل الجنس أيضًا. من الحسن أن نثني على الكسل كغاية بحدٍّ ذاته مثلما فعل المؤلف، طالما لم نعزل أوجه الخبرة مثل الجنس الذي لايزال قائمًا في وقتنا هذا.

***

تعتبر (فرويد، مذكرات باريس ـ Freud: The Paris Notebooks)[1] لمات كوهين بمثابة رواية قصيرة أرى أنه من العصيّ تجاهلها. إلى جانب كتَّاب العصر الحديثين، مثل سيمون دي بوفوار، و د.م توماس، رسم كوهين تصوّرًا خياليًا عن وضع المحلل والمريض، مستندًا تحديدًا على تاريخ فرويد. تدور الرواية حول ابن أخ فرويد من إيطاليا يدعى (روبرت) الذي يصبح محللًا يمارس التحليل في باريس. كانت ذكرياته مع عمه سيجموند في أشهر احتضاره في لندن مشاهدًا مؤثرة في الرواية. تركِّز الرواية على مسألة الضدين الموت والحياة، إلى جانب الجنس، تمامًا مثل نظريات فرويد.

روبرت فرويد الذي يعيش حياة محبطة وفارغة كمحلل نفسي متزوج، ولديه حبسة الكاتب حتى مع مريض غير اعتيادي. يكسر روبرت الحواجز بما يكفي ليقع في حب شقيقة زوجته، تلميحًا بأن روبرت يسير على خطى العائلة، ويتصرف كما لو كان فرويد الذي شاع عنه علاقته بأخت زوجته مينا.

الطريف هنا أن زوجة روبرت وقفت عاجزة عند اكتشافها لما حدث، بعد ذلك قام روبرت بحلاقة ذقنه مثل فرويد، وترك مهنته كمحلل، وانتهت الرواية بنهاية سعيدة للجميع.

(1) Matt Cohen, **Freud: The Paris Notebooks** (Toronto: Quarry Press, 1991).

شاهدنا في هذه الرواية ذات الحبكة الجيدة، تسلية غير عادية، مثل تعقيد حياة روبرت مع أحد مرضاه المدمنين.

لا يتحرك كوهين من منطلق وهمي، ويجسد المحلل خارق للعادة نوعًا ما. لكنه على النقيض يبحث عن الإنسانية المشتركة بين روبرت وأولئك الذين سعى لمساعدتهم. على عكس الطبيب النفسي في رواية: «رقيق هو الليل ـ Tender is the Night» لفيتزجيرالد. لم ينغمس روبرت فرويد بتلك المتع، لكنه بشكل عام كان متحررًا مما كان مستهجنًا.

ذلك العمل كان مفتاح موهبة كوهين، لدرجة القدرة على التحرك من العالم الداخلي لشخصية إلى أخرى دون إعلان عن تغيير قد حصل، ويأتي ذهابًا وإيابًا، لذلك لا يتضح تمامًا من أين بدأت القصة. لكن ذلك لم يكن مشوشًا بالنسبة له، وعوضًا عن ذلك نجح في حبس القارئ وتشويقه، وهنا تكمن قوته ككاتب. لعب الكوكائين دورًا رئيسًا في القصة، ونعلم أن فرويد قد استخدمه في الحقيقة بقدر أكثر مما كان جيدًا له. قام أحد مرضى روبرت وقد كان مدمنًا للكحول بتقديم المخدرات له، ليؤلف نصًا سرياليًا مميزًا. أجد هذه الرواية «فرويد، مذاكرات باريس» ناجحة نجاحًا لا نزاع فيه.

***

بدا لي كتاب: «الذاكرة والرغبة ـ Memory and Desire»[1] تحفة روائية، كتبتها الروائية البريطانية ليزا أبيغنانسي، التي التزمت في كتابتها بالأدب الواقعي. شدني الكتاب عبر كل صفحة من صفحاته التي بلغت 568 صفحة، حتى إنني لم أقرأ شيئًا آخر دون أن أكمل «الذاكرة والرغبة».

تبدأ القصة في باريس أيام الثلاثينيات، تدور حول طبيب نفسي يدعى: «الدكتور جايكوب جاردين»، وهوسه الجنسي بحبيبته السرية سيلفيا. تسعى ابنتهما كاثرين للتعامل مع مخاوف طفولتها، وهي بطلة النصف الثاني من الرواية، التي تقع في مدينة نيويورك الحديثة.

يقبض الألمان على فرانس خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تأخذ الشخصية دورًا في حركة المقاومة السرية، فنرى تغييرات غير متوقعة، فأولئك الذين كانوا ضعفاء وغير قادرين على الحب الطبيعي خلال أوضاع السلم، يتصرفون الآن ببطولة في معارضة النازيين.

---

(1) Lisa Appignanesi, **Memory and Desire** (New York: Dutton, 1992).

تأخذ «الذاكرة والرغبة» القارئ في عدة تحولات مفاجئة. فالماضي الأوروبي بتاريخه المحكم والغني يقابله تفاهة نسبية لحضارة العالم الحديث، متمثلة في هجرة بعض من الشخصيات بعد الحرب. هذا الكتاب بمثابة بيان لاستمرار الماضي بإحياء نفسه في الحاضر، وكيف يُشكِّل تاريخ الفرد ما نحن عليه. تصوّر هذه الرواية أيضًا انغماس الأشخاص بقصصهم، بينما يسعى آخرون لتجاوز بدايات مصاعبهم. تبدو القصة نوعًا ما، قصة تحرِّي حيث يحاول الأشخاص كشف حقيقة أصولهم. عدد من الشخصيات مبنية في الحقيقة على رموز تاريخية، (فالأميرة ماتيلدا) هي في الحقيقة مبنية على الأميرة ماري بونابرت، أحد محظيات فرويد في آخر حياته، وهذا مثال رائع للمثقف الأوروبي الذي يعرف أهمية الصداقة الحميمية.

لا يبدو أي شيء في هذا الكتاب مفتعل أو في غير محله. فأي قارئ معجب بـ (الامتلاك) لـ أ.س بيات سيستمع بقراءة «الذاكرة والرغبة». تحمل رواية ليزا أبيغنانسي نوعًا من المقارنة، مع موضوع د. م توماس في روايته: «**الفندق الأبيض**». رغم أن أبيغنانسي تفتقر في كتابتها لقدرة توماس وألاعيبه الفنية، إلا أن مشهد الحياة الذي صورته بدا لي أكثر حقيقة وعمقًا. لن تذهب بنا الرواية في عالم التحليل النفسي الباريسي وزمن مقاومة الحرب فقط، ولكننا سنؤخذ لبيئة أغنياء أوروبا الأرستقراطيين، جامعي الفنون، والصناعيين. هي رواية ممتدة وتقليدية بشخصيات تحبها، وأخرى قد تكرهها. مع هذا، تبدو الكاتبة متعاطفة نحو كافة الأشخاص المكافحين. نلحظ أن أبيغنانسي تملك نهجًا عقليًا سليمًا تجاه وضع الإنسان، وذلك من خلال المشاحنات العاطفية في الرواية. وبصرف النظر عن كل الحكايات الحزينة التي تملأ الرواية، نجحت في إبقاء القارئ في مزاج متفائل، لأن هناك نهاية سعيدة، لا أوصي بهذا الكتاب بصورة بالغة.

***

الفضول الإنساني حول التنوع الجنسي يعني أن خلاصة المعلومات العلمية الأخيرة التي نشرت في كتاب: «التباين الجنسي ـ Heterosexuality»[1] عبر ويليام ماسترز، فرجينيا جونسون، وروبرت كولودني، يفترض أن تغيظ مخيلة أي شخص تقريبًا. صُدم العالم

(1) William Masters, **Virginia Johnson, and Robert Kolodny, Heterosexuality** (New York: Harper Collins, 1994).

بكتابات كبار الكتاب مثل جونسون وماسترز، بصفتهما معالجين جنسيين، حينما أوصيا بالاستعانة بشركاء بديلين لمساعدة الناس في التغلب على أي مصاعب جنسية يعانون منها (كلاهما يملكان تجربة زوجية فاشلة). إن مثل هذه الوسيلة غير المألوفة والتي يُعمل بها تحت ذريعة أغراض علاجية، بدت للعديد من الناس شكلًا مقنعًا من الدعارة، وقد نبذ الكتَّاب هذا المقترح بعد انتشار الإيدز في عصرنا الحالي.

هذا المرجع مثلما هو معلن، كتاب عصري وشامل، يدور حول الحب بين الرجل والمرأة، المتعة المخفية، الصحة، والرفاهية، وقد مُنح الشرعية من قبل فريق من الباحثين والمعالجين الجنسيين. الكتاب مليء بالمعلومات القيمة ليس فقط حول الاختلال الجنسي، بل يتجاوز ذلك لأمور الإجهاض، منع الحمل، الإصابة بالإيدز، الشيخوخة، ليشكِّل موسوعة حقيقية من شأنها أن تقيد نطاقًا واسعًا من القراء المتحفزين.

لكن المشكلة أن المؤلفين قد واصلا بنوع من التسطيح الحر وتجاهل للفروقات الدقيقة، الأمر الذي أظهر افتقارهم الشديد للتنوير الروحي الذي نجح أليكس كومفرت بتحقيقه. احتوى كتاب: «التباين الجنسي» على درجة من الظرافة العالية، فعلى سبيل المثال، تُعرض رسالة تحذيرية بحروف كبيرة ومائلة مفادها «من الخطير تجربة المكنسة الكهربائية على قضيبك، فقد بُلِّغ عن إصابات خطيرة جراء هذا الفعل».

ولم يفلت المؤلفون من حشو واضح، من الصعب فهم ما يرمون إليه في سردهم، كقولهم: «المشكلة الرئيسية في القذف المبكر هو أن الرجل يقذف بسرعة كبيرة». وفي سعيهم للانعزال والانفصال، ظهر أنهم أغفلوا سر وعفوية الجنس، فيذكرون على سبيل المثال أن وضع المرطب يمكن أن يكون أداة لزيادة الوعي الحسي، لكن من الذي يحتمل أن يستفيد من تلك النصيحة في غمرة شغفه، «من الأفضل تدفئة إناء بزيت أو مرطب في حوض ماء ساخن».

جدير بالذكر أن كتاب: «التباين الجنسي» لا يحمل أي ادعاءات متطرفة حول فوائد العلاج النفسي الجنسي الاحترافي. وضع المؤلفون تقييمًا متواضعًا حول ما يمكن تحقيقه عبر زيارة متعددة لعيادة «متخصص»، ودافعوا عن إيجابيات الشريكين اللذين يعتمدان على «المساعدة الذاتية».

يعي مؤلفو هذا الكتاب أهمية «مشاكل العلاقات»، مؤكدين على أن مثل هذه الأسئلة

«هي مركزية جدًا، وأن التعامل مع المشاكل الجنسية بمعزل عن إقحام الأمور الأخرى هو أمر لا جدوى منه». لذلك قاموا بتحويلها لمقترح «مدة وجيزة للعلاج النفسي الجنسي».

إن الفشل في تكريس اهتمام خاص إلى الجنس الفموي، لن يخدم قضية التنوير الجنسي. حتى المبتدئ يمكن أن يفهم أهمية دور فتحة الشرج أو البروستاتا، دون أن يخصص لها قسم منفصل. فإذا كانت مثل هذه الأمور قد قُلِّصت من حيث المبدأ في نص يدور حول التغاير الجنسي، فأعتقد أنها تدعم دون قصد نمطية قديمة، وخوفًا من «الانحراف» وكونه يحمل مسمى الشواذ.

***

حاول رجل حكيم مرة أن يخبرني، أن هنالك طريقتين فقط للتجاوب بعقلانية حيال كتابات كيرت إيسلر، إما أن يضحك منها المرء أو يغضب. لم يكن لنا بديل كوميدي للأسف، نحن الذين هوجمنا من إيسلر في الماضي. ولسوء حظ التحليل النفسي، برز إيسلر لعدة سنوات كافية كرئيس مؤسسة لمؤسسة أرشيف فرويد، التي تحث الباحثين لمتابعة ما ينشر.

تبدو جميع كتب إيسلر ملفتة، لكنها لا تعادل كتاب: «ثلاث شواهد من الظلم ـ Three Instances of Injustice»[1]. اعتنق إيسلر لسنوات عديدة الفكر الأرثوذوكسي الرجعي فيما يخص سيكولوجية الإناث، وتزامن سقوطه كرئيس لإدارة أرشيف فرويد مع الجدل المرتبط بإلحاح جيفري مايسون[2]، على أن حماية إيسلر تقتضي إيمانه بأن فرويد كان جبانًا ومخطئًا في نبذ نظريته الأولى، بأن العصاب يمكن أن يعود لإغواء جنسي في الطفولة.

وبما أن إيسلر أصبح معتنقًا للإصلاح السياسي، فقد كرس النصف الأول من هذا الكتاب لقضية إليزابيث مورغان ونزاع الحضانة مع زوجها. بدا إيسلر مثل دون كيشوت يكتب نيابة عن المرأة التي يراها بطلة، ويصيح مطولًا حول مخاطر الاعتداء الجنسي، والتهمة المقدمة ضد زوج مورغان جراح الفم. في ازدراء واضح للمحكمة، اختارت مورغان الذهاب

(1) K. R. Eissler, **Three Instances of Injustice** (Madison, CT: International Universities Press, 1993).

(2) قام كيرت إيسلر بتعيين جيفري مايسون رئيسًا لأرشيف فرويد بعد وفاته ووفاة آنا، وتمكن مايسون عام 1980م من الوصول إلى كافة أرشيف فرويد ومراسلاته وأوراقه التي لم تنشر، ليتوصل إلى أن فرويد قد نبذ نظرية الإغواء الجنسي من أجل تقدم التحليل النفسي.

للسجن، بدلًا من الإفصاح عن مخبأ الطفل. لست في وضع يسمح لي بالتفكير مليًا بحيثيات الصراع بين مورغان ووالد الطفل، وكذلك إيسلر. لكن مما يظهر لي أن إيسلر قد عاش في عالم أبيض أو أسود.

ما يثير القلق أن إيسلر قادر على الدعاية لصالح وجهة نظر آنا فرويد، التي تقدِّس ما نصّ عليه في القضاء الأميركي حول ضرورة وجود «أب سيكولوجي» تكون له الكلمة العليا بشأن حقوق الزيارة للآباء في إجراءات الحضانة. والمعضلة الكبرى أنه يزدري القانون نفسه بكافة التعقيدات الإجرائية الضرورية له. من المعروف جيدًا أن القواعد الرسمية تساعد بشكل فعَّال على التمييز بين الديمقراطية الدستورية والاستبداد. يأتي ازدراء إيسلر لعمل محاكمنا من سعيه للاعتماد على شاهد سيكولوجي متخصص. فقد انخرط في سياق حملته لصالح مورغان، بنوع من التحليل النفسي مع المشاركين في النزاع القانوني الذي ساهم في إعطاء اسم فرويد مكانة مشكوكة بين الأجانب المحايدين. ليس لدى إيسلر أدنى شك بشأن الكيفية التي شرّع بها الملك سليمان، ولهذا يستبدل «الشك» بدليل قطعي، الأمر الذي كان كافيًا لتسوية تجزئة وودي آلن أيضًا. ولم يأت ذكر مبدأ: «المتهم بريء حتى تثبت إدانته» على لسان إيسلر على الإطلاق.

يخبرنا إيسلر عن موقفه الأخلاقي العالي، بما فيه شجبه لعقوبة الاعدام، معارضته للعنصرية، حماسه لحقوق الإجهاض، وأخيرًا احتقاره للرئيسين جورج دبليو بوش ورونالد ريغان، وربما يفترض المرء أن إيسلر مولع بفطيرة التفاح. يتوجه إيسلر فجأة نحو النوع الثاني من الظلم، فنجده يسهب حول صعوبة القانون والتحليل النفسي، مما يعيدنا لأساسيات الدفاع الجذري عن فرويد. يوجه إيسلر في النصف الثاني من الكتاب هجومه تجاه فكرة يفترض أنها قُدمت ابتداء من كارل غوستاف يونغ، وهي أن فرويد كان لديه علاقة غير شرعية مع أخت زوجته مينا. من المثير للغرابة كيف أن أيسلر يعتبر كل ذلك ظلمًا ثقيلًا، لكنه مع هذا يواصل زعمه دون أن يذكر أسماء كتَّاب العصر الذين قدَّموا الكثير لتخليد فكرة سوء تصرف فرويد الجنسي. وحدث أن أتفق مع خاتمة إيسلر العامة حول فرويد والحياة الجنسية، لكن ربما لم أقتنع بتقديم القضية بصورة مغرضة.

الظلم الثالث يقع على ظلمه لنفسه، حيث يتطرق فيها لمشكلة «المعالج الشرير»، وكيف اضطر للتعامل مع مرضى قد قرأوا قصصًا عنه، وأبدوا خلافًا مع سياسته التي تتعلق بسريته الشهيرة ووصوله لأجزاء لم تزل مختومة من أرشيفات فرويد. (حافظ إيسلر على سيطرته

حتى وفاته عام 1999م، بعدما سلّم إرث آنا فرويد لمكتبة الكونغرس، ولطالما بدا خليفته الذي حلَّ محله كمدير لأرشيفات فرويد متحفزًا جدًا لإرضائه). في كتاب: «ثلاث شواهد من الظلم» صوَّر إيسلر نفسه يواجه مأزق هجوم المدافعين عن الأرثوذوكسية، مثلما فعل بيتر جاي، واليزابيث يانغ ـ بروهيل. دافع إيسلر عن جانيت مالكوم رغم عدم استخدامه لاسمها، كان كتابها: «في أرشيفات فرويد» عن دعوى مايسون القضائية ضد مالكوم، والتي أثارت تعاطف إيسلر، والقوة الكامنة داخل التحليل النفسي الأرثوذوكسي.

يُقرأ كتاب: «ثلاث شواهد من الظلم» ليصدق به. فمن شأنه أن يضيف ذخيرة للراغبين برفض منطق التحليل النفسي، بناء على أسس علمية. إن فكره الملتوي يشبه تمامًا غريبي الأطوار، فهنا إيسلر على سبيل المثال يتوقع «اليوم الذي يصبح فيه العالم خاليًا من الجرائم، بسبب عدم وجود أشخاص مستعدين ليكونوا ضحية لجريمة». لن يرغب أحد قراءة هذا الكتاب، إلا إذا أراد فهم كيف تبدو مهنة التحليل النفسي حرجة، وكيف لإغراء العظمة أن يصبح مغويًا.

***

كتاب جاك سالوتا: «المنهج النفستاريخي، النظرية والتطبيق ـ Psychohistory: Theory and Practice»[1] هو دراسة رصينة ودقيقة لمصطلح «النفستاريخي» والتي تستخدم حاليًا على نطاق واسع، فهو علم قائم بذاته لا يحتاج لأن يوصل بآخر. يركز سالوتا بشكل أساسي على المواضيع المنهجية، ويعطي مساحة واسعة للنقاش من النقاد والمناصرين على حدٍّ سواء. يلعب فرويد دورًا نظريًا مركزيًا في هذا الكتاب، بالإضافة لذلك، أفرد المؤلف فصلًا كاملًا لأعمال إريكسون، وفصلًا آخر يتناول فيه تطورات ما قبل المرحلة الفرويدية، وتغطية شاملة للأنا السيكولوجية، المدرسة البريطانية، المفسرين البريطانيين، وعلم النفس الذاتي لكوهوت. بدا أن سالوتا في صف مناصري المنهج النفستاريخي، بمراجعاته للدراسات الأساسية التي درست إيجابيات وسلبيات إيجاد حقل أكاديمي فرعي، وذلك بدمج التاريخ إلى جانب علم النفس. سيجد القارئ الجديد في هذا الموضوع موجزًا منصفًا لكافة القضايا الأساسية التي ارتبطت بالمنهج النفستاريخي.

وقد بدت لي بعض التحفظات على النهج المفاهيمي لسالوتا تحفظات سليمة. وعلى

(1) Jacques Szaluta, **Psychohistory: Theory and Practice** (New York: Peter Lang, 1999).

هذا النحو أتساءل، إلى أي مدى تحمَّل الجدل القديم حول اعتبار التحليل النفسي فنًا معارضًا للعلم مسألة المنهج النفستاريخي؟ إذا نظرنا لإنجازات فرويد من جانب إنساني، لا يعني ذلك أنها تضعف الروابط التاريخية، بل يفترض أن تكون مطمئنة لأولئك التقليديين الذين يرون كتابة التاريخ مهمة، بدلًا من كونها علمًا ثابتًا. ربما كانت استعارة فرويد لمسمى التحليل التطبيقي (والذي لم يحاول سالوتا إحياؤه) غير صالحة وربما مضللة. على سبيل المثال تمسك إريكسون برأيه أن المحلل النفسي لديه ما يتعلمه من المؤرخ والعكس صحيح، طالما أن التحليل النفسي والعلوم الاجتماعية تتحرك وتتفاعل مع بعضها البعض، من السهل تقدير ما الذي يمكن أن يفعله المنهج النفستاريخي لتوسيع آفاقنا جميعًا.

لا أظن أن أعمال إريك فروم الرائدة تستحق أن تُنحَّى من دراسة سالوتا. ولو افترضنا أن إسهامات المنهج النفستاريخي لا تؤخذ على محمل الجد، ولا يتطرق لها في الغالب، إلا أنه ما من مؤرخ استطاع التقدم دون أن يأخذ في حسبانه كافة الإنجازات المركزية لحقل التحليل النفسي. لكن انقطاع مجلة: «Psychohistory Review» عُوِض بشكل جزئي عبر إنشاء مجلة نصف سنوية «Psychoanalysis and History»، ولذا علينا الحذر من الحاجة الدائمة لتعزيز إيجابيات المنظور النفستاريخي.

***

رغم أن هناك القليل من المحتوى النظري للتحليل النفسي ليحضر المرء نفسه له، إلا أن مختلف البلدان استمرت بتوفير تقاليد علاج نفسي محلي مستقل. فعندما تخطر فرنسا ببال امرئ يأتي اسم لاكان في ذهنه ربما أسرع من اسمي كلاين ووينيكوت اللذين نهضا في بريطانيا. على جانب آخر، كان للأميركيين علم نفس الأنا، وفكر كوهوت حول الذات. أما الإيطاليون فكانوا منفتحين ومتقبلين لنزعات أديولوجية واسعة ومختلفة. لكن المرء يقف موقف شك مع الألمان، وما ميز التحليل النفسي هناك حتى اليوم.

يحوي كتاب: «مستقبل التحليل النفسي The Future of Psychoanalysis»[1] على مجموعة من المقالات التي يمكن أن تساعدنا بالبدء في فهم طبيعة بعض من أهم مفكري التحليل النفسي الألمان. يفتتح المحرر يوهانس كريميروش بجزئية غاضبة تدور عن هرمية

(1) **The Future of Psychoanalysis, ed. Johannes** Cremerius, translated by Jeremy Gaines (London: Open Gate Press, 1999).

وسلطوية بناء الاتحاد الدولي للتحليل النفسي. وقام بحشد حجج مختلفة، كانت كلها صحيحة للأسف، على سبيل المثال كيف أن التدريب في المعاهد يشابه التعاليم الدينية داخل كنيسة منظمة. وتمسك بأن التحليل النفسي مهدد بعجزه عن التواصل المستمر مع الأسئلة الفلسفية، السياسية، والاجتماعية المتحررة. فوق كل ذلك، يمكن تعقب أزمات التحليل النفسي من جانب إصرارها على مسمى: «حركة» وتخبطها في تحقيق آمال فرويد بخلق علم جديد.

كان هناك جزء سُكت عنه في موضوع كريميروش، وهو إلى أي مدى ساهمت قوة التحليل النفسي الأميركي بتحديد شهرة المحللين النفسيين الألمان على نطاق واسع. ربما أن هناك روابط حتمية بالنظر لدور أميركا فيما قبل الحرب العالمية الثانية، ومساعدتها في إعادة بناء ألمانيا. لكن كآبة التحليل النفسي الأميركي للوقت الحاضر قد أثرت على المحللين الألمان، على عكس فرنسا، على سبيل المثال، حيث تدبر لاكان إبقاء التحليل حيويًا عبر وصله بالفلسفة، الأدب، والحياة الأكاديمية الجامعية. بينما على النقيض، سمح الألمان لأنفسهم لأن يصبحوا معنيين بدقة بجوانب العلاج النفسي لمظاهر الطبقة الوسطى.

وفي الوقت الحاضر يعاني الألمان بدرجة كبيرة، وذلك بعد أن قلَّص التأمين الصحي العام كرمه السابق مع المحللين. مرّت العديد من تلك المقالات على مشاكل المدفوعات العامة، وكيف أن خفض تكاليف الجلسات الأسبوعية يعارض التوقعات التقليدية المقبولة. (في الوقت الحالي، تعد أونتاريو ـ كندا أكبر داعم سخي للتحليل النفسي طويل الأمد) وربما تمنى المرء أن يكرّس أحد هؤلاء الكتّاب الرفيعين الثمانية في كتاب: «مستقبل التحليل النفسي» نفسه لبحث المشاكل الفريدة من نوعها في ألمانيا.

اضطر المحللون الألمان للتعامل مع الفصل الاستثنائي والمروع في تاريخهم المرتبط بالعصر النازي. وما يجعل القصة أكثر تعقيدًا هو تعاون المنظمات المنافسة في الحرب بطريقة بغيضة، وربما تشير أصابع الاتهام لأي واحد من أسلاف حركة التحليل النفسي. لكن الأحداث السياسية للقرن الماضي قد حرمت الألمان من أن يستمتعوا بترف التسلية المستمرة التي لقيها الأميركيون أو البريطانيون. الأمر الملفت أن اسم كارل أبراهام مؤسس معهد تدريب برلين كأول معهد يبنى بعد الحرب العالمية الأولى، لا يأتي ذكره في كتاب: «مستقبل التحليل النفسي».

مع ذلك، نلحظ أن المستوى الفكري في كافة المقالات، هو مستوى مرتفع على غير

العادة. فقد كانت الأفكار المطروحة عالمية، وقد تكررت أسماء مثل أدورنو، هوركهايمر، فروم، ميتسشيرليخ، وهابرماس مرات عديدة. ويتضح أن مؤلفي: «مستقبل التحليل النفسي» واعون بمخاطر العلمية الكاذبة، إضافة للمخاطر المرتبطة بالبراغماتية في شمال أميركا. أعاد هؤلاء الكتاب ذكرى عصر عقلانية التحليل النفسي، والنهج العيادي الذي يأخذ بالحسبان القيم الرواقية المتحضرة. نما التحليل النفسي قبل مائة سنة كجزء مرتبط بأفضل ما في الحضارة الغربية، وإذا كان مؤلفو: «مستقبل التحليل النفسي» ممثلين له بأي شكل من الأشكال، فقد برهنوا على أن التحليل في ألمانيا بدا حيًا ويسير بشكل حسن.

***

لم يكتب أحد حتى الآن تاريخ التحليل النفسي في بريطانيا، على النقيض مما عُهد به للدول الأخرى، مثل ألمانيا، فرنسا، أميركا، وروسيا. ومع غياب أي نظرة شاملة، رُحب بكتاب توم هاريسون الذي نبهنا على وجود محاولات رائدة لاستخدام مجموعات العلاج النفسي- Group Therapy لجنود الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية. تعدُّ الجهود الجديدة من المحللين مثل: ويلفريد بيون، جون ريكمان، و س.فولكس في بناء مجتمع علاجي جنوب بيرمنغهام جهودًا أسطورية، عوضًا عن كونها مدروسة. يعود الفضل في ذلك لتوم هاريسون وخمسة عشر سنة من البحث والكتابة، فقد أنقذ تاريخًا من الجهود العلاجية المبتكرة في نورثفيلد.

على الرغم من كافة المؤلفات التي تناولت التحليل النفسي في أميركا، هناك شخصيات قديمة جذبت الانتباه مثل تريغان بورو، وج.ل مورينو، وذلك لأن اهتمامهم بالمجموعات العلاجية كان سابقًا لما حدث في نورثفيلد. وكان هناك في بريطانيا، ويلفريد تروتر وويليام ماكدويل ممن اهتموا بسيكولوجية المجموعات. بول شيلدر أيضًا كان مهمًا ومؤثرًا في فيينا ثم في أميركا، رغم عدم وجود اسمه في أي مؤلف أدبي. منذ أن كان ريكمان شخصية رئيسة في نورثفيلد، كان له تحليل مطول مع ميلاني كلاين، التي شرح هاريسون بعضًا من آثار أفكارها. إضافة لذلك، اتضح أن جوشوا بيرير كان رائد مجموعات العلاج النفسي البريطاني لما قبل الحرب العالمية الثانية، والذي شرع في عمله عبر مبادئ استقاها من تركيز ألفرد إدلر على أهمية المجتمع. تأثر فولكس بعدة شخصيات مثل كيرت غولدشتاين، نوربرت إلياس، والأميركي بورو. (رغم تأكيد هاريسون على أهمية النسب ودوره لكافة المحللين، لا يبدو أنه على دراية بأن فولكس قد حُلل من قبل هيلين دويتش).

الطب العسكري الذي اجتذب تاريخه اهتمامًا عرضيًا، هو بحد ذاته موضوع جذاب، فمشكلة الروح المعنوية أمر عصيب في زمن الحرب. بصرف النظر عن حقيقة أن تشرتشل أخذ نظرة خاطفة على التجارب التي قامت على أسس نفسية خلال حاجة الحرب العالمية الأولى لاختراع حديث. يخبرنا هاريسون أيضًا كيف «سعى الأطباء النفسيون الذين شاركوا في الحرب لطرق تشجيع وتدعيم الجنود بدلًا من الإهانة والتخويف». حاول ريكمان أن يبني كفاءات المرضى، باتخاذ خطوات عملية للتعامل مع الصدمات الحديثة. فقد كانت اضطرابات المقاتلين تحديًا حقيقيًا للمعالجين النفسيين الذين اعتادوا على معالجة المرضى انفراديًا.

سيجد القارئ هنا عدة أسماء لأهم المعالجين النفسيين البريطانيين الأوائل، ممن سقطوا للأسف في غياهب النسيان، أمثال: دينيس كارول، إيمانويل ميللر، إ.أ بينيت، مارتن جيمس، وتوم ماين. أجرى هاريسون عدة مقابلات مع مرضى وموظفين كانوا مشاركين نورثفيلد. استلزم استخدام العلاج النفسي لهزيمة العدو مجموعة من الإجراءات التقنية الحديثة. لم تقد النظريات المتنافسة بين فولكس وبيون لاختلاف منهجي فقط، ولكنها قدمت لاحقًا في معهد جماعة المحللين وعيادة تافيستوك[1]. كانت المثالية والاعتمادية من أبرز المشاكل الأساسية الإكلينيكية في نورثفيلد. عندما يحين الوقت لرصد جزء من تاريخ التحليل النفسي البريطاني، سيكون هذا العمل الذي أجراه هاريسون إضافة ثمينة لحكاية ليست أقل غرابة من الوقت الحالي.

***

حصلت على كتاب فيليب روبوفيتس - سيتز[*] «رؤية كوهوت الفرويدية-Kohut›s-Freudian Vision»[2] أملاً بأن تساعدني على توضيح الغموض العالق في ذهني حول سبب انعزالية وجدلية فكر السيكولوجية الذاتية لكوهوت. التقيته مرة وحيدة كانت في بداية

(1) Tom Harrison, Bion, Rickman, Foulkes and the Northfield Experiments: **Advancing on a Different Front** (London: Jessica Kingsley, 2000).

(*) محلل نفسي نمساوي - أميركي يعرف بإنشاءه لعلم نفس الذات self psychology. كان كوهوت في البداية مخلصًا للنظرية التقليدية للتحليل النفسي، رفض بعد ذلك نظرية فرويد حول الأنا الأعلى، والأنا والهو ليطور أفكاره الخاصة حول ما سماه: «بالأجزاء الثلاثية tripartite للذات».

(2) Philip F. D. Rubovits-**Seitz, Kohut's Freudian Vision** (Hillsdale, NJ: The Analytic Press, 1999).

الستينات، ولم يقدم أي تصوّر بأنه يمكن أن يصبح قائدًا لحركة بأي حال من الأحوال على خلاف مع القوة الداخلية للتحليل النفسي. ذهبت آنا فرويد معي في منتصف الستينات لتقليد كوهوت أعلى وسام كنمساوي أصيل، رغم أنها تعتبر عمله «معاد ـ للتحليل النفسي». في اجتماع لجمعية التحليل النفسي في تورنتو بدايات التسعينات، بدت آنا أورنشتاين تحاول جاهدة أن تتصالح مع الآثار المترتبة على عمل كوهوت، لكن آنا ـ ماري ساندير ظلت ترفض بثبات قبول غصن الزيتون الذي عرض عليها للسلام. ولهذا بقيت أتساءل عما كان يحدث؟.

يساعد كتاب «رؤية كوهوت الفرويدية» المرء لأن يبدأ بفهم خلفية معظم أعمال كوهوت الأصيلة. فالقارئ يحتاج لقدر عظيم من الصبر ليندفع خلال المائة والستين صفحة الأولى لهذا الكتاب، لأن روبوفيتز ـ سيلتز اختار أن يقدم مسألة إخلاص كوهوت المستمرة إلى جانب نظريات فرويد. يُفتتح الكتاب بنسخة من محاضرات كوهوت حول سيكولوجية التحليل النفسي التي كانت تقدم لمرشحي معهد التحليل النفسي في شيكاغو من (1958 حتى 1960م). أعاد روبوفيتز ـ سيتز هيكلة تلك المحاضرات بصعوبة، واستهلكت تقريبًا النصف من كتاب: «رؤية كوهوت الفرويدية». كنت على ثقة بأن وجود كوهوت الحيوي قد غرس الكلمات بمعنى أكثر أهمية، لذلك وجدت نفسي مشفقًا قليلًا على من رُشحوا قبل أربعة عقود، وخضعوا لتدريب سريع على ملامح فكر فرويد. لكن لا يسعني إلا أن أتساءل لماذا نخضع الآن لمثل هذه التجارب القاسية؟ رغم أن الفكرة لم تخطر على بالي، وأنا أقلِّب بعناء صفحات تلك المحاضرات، إلا إنني أدركت متأخرًا وجود محاولة لإضفاء الشرعية على أوراق كوهوت الفرويدية. ولم أكن لأتوقع أن أحدًا سيعترض على مدى تعمق كوهوت في فكر التحليل النفسي.

يُعرض لنا في الفصل الثاني مقالًا كتبه كوهوت وروبوفيتز ـ سيتز عام 1963م، عنوانه: «مفاهيم ونظريات التحليل النفسي» مرة أخرى، لا يوجد شيء جديد هنا، أما الفصل الثالث فيحتوي على موجز قصير لـ «منهج كوهوت لنظرية فرويدية مركبة». الجزء الأهم في الكتاب يأتي في الفصل الرابع «مفاهيم كوهوت حول النرجسية والسيكولوجية الذاتية، على ضوء النظرية الفرويدية». لكن روبوفيتز ـ سيتز لم يفصح أبدًا عمن ينازعه.

لم يذكر اسم يونغ قط من قبل روبوفيتز ـ سيتز، رغم أنه ظهر في أحد أهم المقالات في قائمة المراجع. كان بول فيديرن محللًا نمساويًا، انتقل لاحقًا لشيكاغو في فترة تواجد

كوهوت هناك، لكن لم تكن هناك كلمة عن فيديرن رغم أنه حاول العمل، إلى جانب يونغ، على تصور يسعى لتبني الذات. إريك إريكسون عبر أيضًا دون أن يشار إليه، رغم أنني أذكر تمييز كوهوت لإريكسون كـ «مليء بالأفكار». من المؤكد أن المؤرخين الفكريين مهتمون بالتناظر والتشابه بين إريكسون وكوهوت، تمامًا مثل يونغ (وفيديرن) أو كوهوت. استشهد روبوفيتز - سيتز بأعمال هيربرت سيلبيرر كما لو أنها سابقة تحليلية لكوهوت، أغلب الظن إنه لم يكن على دراية بسوء الفهم الشخصي بين فرويد وسيلبيرر.

خطر أيضًا ببالي أثناء قراءتي للفصل الرابع، أن أوتو رانك وكارن هورني كانا متوقعين لفكر كوهوت. لكن التاريخ الفكري لا يشابه الموالاة المنظمة، وروبوفيتز اختار أن يمشي مستقيمًا بطريق ضيق. من الجيد أن تكون في منصب لتعلم أكثر عما يجرى خلف الكواليس وعن معاناة كوهوت لتقديم عمله الأصلي. ربما ظنّ امرؤ أننا نحتاج لوقت طويل حتى نتمكن من مناقشة كل تلك المشاكل دون خوف غير مبرر من العزل الفكري. وبذلك يخدمنا كتاب: «رؤية كوهوت الفرويدية» ليذكرنا مرة أخرى بمركزية مشكلة النسب، والشرعية في تأريخ التحليل النفسي.

***

لطالما كان موقف برونو بيتلهايم أكثر شهرة وانتشارًا بين عامة القراء من المحللين المحترفين. فقد نجح في كتابة سلسلة من الكتب المهمة والمثيرة التي جذبت اهتمامًا عالميًا واسعًا. لكن سمعته أصبحت طي النسيان بعد انتحاره في سن كبير عام 1990م. تبِعت الدعايات القاسية حول اعتماده على الإيذاء الجسدي والنفسي في المدرسة العلاجية في جامعة شيكاغو، فحصًا دقيقًا لسيرته الذاتية، لدرجة أن شهرته العامة السابقة أصبحت في حالة يرثى لها.

ميزة كتاب بول ماركوس: «حكم في وضع متطرف: برونو بيتيلهايم، معسكرات الاعتقال النازية والمجتمع الجماهيري - Autonomy in the Extreme Situation: Bruno Bettelheim, the Nazi Concentration Camps and the Mass Society»[1] تركيزه على دراسة إيجابيات وسلبيات جدل بيتيلهايم حول معسكرات الاعتقال النازية، وما يجب

(1) Paul Marcus, **Autonomy in the Extreme Situation: Bruno Bettelheim, the Nazi Concentration Camps and the Mass Society** (Westport, CY: Praeger, 1999).

أن تخبرنا عنه وعن الحياة في مجتمعات جماهيرية. وسَّع بيتيلهايم أيضًا نظرية تقليدية في التحليل النفسي، الأمر الذي لطالما كان غير كاف عندما يأتي الأمر للاعتراف بالدور الاجتماعي الكامل للقوة خارج التنمية الفردية. لا يمكنني التفكير بالتحليل النفسي، بما في ذلك فرويد، الذي أولى اهتمامًا لدور المربيات ومدبرات المنزل في تنشئة الأطفال، دون أن أجازف بتخمين أن أكثر الأطفال قد نشأوا تحت رعاية أشخاص في تاريخنا البشري من غير آبائهم الأصليين. بصورة عامة، بقي تعامل المحللين النفسيين مع المجتمع وعلم النفس مشكلة جدلية. ابتداء باشتراكية ألفرد أدلر، فأي انتباه للواقعية الاجتماعية يُقابل بالنبذ كـ «مجرد» علم اجتماع، وأصبحت تلك طريقة قياسية في التعامل مع كافة من يسمون بالمنشقين مثل إريك فروم، وكارن هورني. بدأ بيتيلهايم تجربته الشخصية كسجين، للتعامل مع معاناة الحفاظ على الفردانية تحت وطأة أحداث القرن العشرين، وربط ذلك بتوصيات حول علاج الشباب المضطربين بعنف.

معظمنا سيتعاطف مع ما سماه ماركوس «خطر البيروقراطية المجهولة، وتحديد توجه وسائل الإعلام والرقابة التطفلية في تقويض استقلالية وتكامل الفرد». أسهم التقدم التكنولوجي بجعل الدفاع عن الخصوصية وتقرير المصير أكثر صعوبة تحت ظروف الحياة العصرية. (شعرت بمرح عند قراءتي اقتباس ماركوس لبيتيلهايم حول نموذج «المدير في مجتمعنا، الذي يجعل الأقل منه ينتظر قبل الدخول عليه لرؤيته» وهذا ما فعله بيتيلهايم عندما قابلته مرة) إن التوافق مع المعايير الاجتماعية يمكن أن يصبح مميتًا، اقتبس ماركوس جملة مشهورة من كتاب: «القلب المطلع 1960م» لبيتيلهايم «تنميط المرء لأسلوب حياته، لا يعني أن الآخرين يملكون خيارات حرة، حتى لو لم يكن هناك ما يجبر الفرد صراحة». وقد يطغى تأثير «الخبراء» على تجربتنا الداخلية الصادقة. في رواية هيمنغواي: «لمن تقرع الأجراس» تنام البطلة خارجًا في إسبانيا الرومانسية، وتحلم بنجم هوليودي جميل، أصبحت بذلك رمزية موحدة، وذلك بعد ذوبان المناطق الخاصة والعامة في العالم الحديث. حذر جون ستيوارت مِل وآخرون مما قد يحدث للحرية الشخصية تحت الضغوط الملتزمة، وقد تكلم فروم عن «الالتزام الآلي» وكيف أن شبه الذاتية يمكن أن تعوض عن خسارة العفوية. في ظنّ بيتيلهايم أن المواطن داعم دون وعي للنظام الذي يسلب منه حكمه الذاتي. بذلك أصبح المستهلكون مشاركين في السيطرة الاجتماعية عليهم.

دافع ماركوس عن بيتيلهايم، واتهم تيرانس دو بري الذي قال بأن السلوك المرضي في

معسكرات الاعتقال لم يصل لخسارة الاحترام الذاتي. لكن دو بري كان محقًا بأن تأثير الذات الدراماتيكي والمقاومة البطولية القديمة كانت الخيارات الوحيدة للبقاء إنسانًا في المعسكرات التي تحدث عنها بيتيلهايم. أخطأ بيتيلهايم في توجيه اتهامه للضحية، والتقليل من مدى التعاونات الخفية، الترابط الاجتماعي المتبادل، والمعارضة الجماعية للنازيين الآسرين. يركز تفسير ماركوس على جوانب من جدل بيتيلهايم التي تعترف بأساليب الحفاظ على الإنسانية تحت ظروف معسكرات الاعتقال. (لم يقصد بيتيلهايم وصف حياة معسكرات الموت، لأنه كان مسجونًا قبل أن تحول المعسكرات لمعامل إبادة). كان ماركوس عادلًا في تقديمه لنقاشات المنتقدين لبيتيلهايم ومدى تجاهلهم للعالم الذي عاش فيه السجناء كعالم «عديم الخيارات».

وكان منصفًا في تقديمه لبعض جوانب التعاطف عند بيتيلهايم، مثل تصريحه بأن: «ملايين البشر، كالقوارض، تسير بنفسها للموت بإرادتها» وتلك كانت «الخطوة الأخيرة للاستسلام لغريزة الموت». في زمن مضى كتب دويستوفيسكي عندما يهان المرء يصبح من المستحيل الاحتفاظ بإيماننا بكرامة الإنسان العادي. لكن بيتيلهايم ادَّعى أن السجناء في المعسكرات تراجعوا، وأصبحوا كالأطفال، وبالتالي أصبحت القيم على عاتق قوات الأمن الخاصة. يعطي ماركوس بعضًا من المساحة لأقسى منتقدي بيتيلهايم، حيث يخبرنا: «أحترم حجة بيتلهايم اليهودية السلبية، تعليقاته على ما يسمى بعقلية الغيتو، وهجومه على آنا فرانك ليست إلا أمثلة لأسوأ أساليب بيتيلهايم التحليلية». ليس بالأمر المفاجئ أن بيتيلهايم كان أحد المدافعين عن حنة آرندت وأطروحتها المثيرة للجدل «آيخمان في القدس». كان ماركوس قادرًا على إيجاد منطق بصير وقيِّم في آثار بيتيلهايم حول «اللاشخصي، الملتزم، الأناني، والضغوط غير الإنسانية» في المجتمع الجماهيري.

لا أعتقد أن ماركوس ذهب لمناقشة القيود الصارمة لفكر المجتمع الجماهيري فقط، ولكن لاستكشاف أن منهج بيتيلهايم للعلاج النفسي بحاجة لإعادة دراسة. من المفاجئ لي أن ماركوس كرَّس اهتمامًا محدودًا لكتابات بيتيلهايم حول علاج الأطفال واليافعين. ففي نهاية الأمر، ظنّ بيتيلهايم أنه وجد سبيلًا لاستخدام البيئة البناءة لبناء البشر داخل المدرسة العلاجية، لتكون معارضة لما تخصص فيه النازيون من تعذيب للبشر. برأيي أن ماركوس كان بإمكانه أن يقدم الأفضل بتوسيع نقاشه في هذا الاتجاه، بدلًا من إظهار جاذبية بيتيلهايم عبر مقارنته بأفكار ميشيل فوكو الحديثة وكيف يمكن أن يصبح «المجتمع التأديبي» «تطبيعًا»،

أجد صعوبة في الإيمان بأن بيتيلهايم يحذو هنا حذو فرويد. بالنسبة لي، فكرة فوكو بأننا: «يجب أن نجعل أنفسنا كعمل فني» تقارب أفكار الفاشية حول «العدوان» أكثر من فكرة بيتليهايم الدفاعية الليبرالية للقيمة المطلقة للحرية. لكن ماركوس قدم خدمة حقيقية لأنه أخذ تنظير بيتيلهايم الاجتماعي بجدية، والذي قد يساعد بإعادة تأهيل المفكِّر الذي ظهرت أفكاره لتغرق في سلسلة من الفضائح. أؤمن بأنه مع كل تلك الحدود الخطيرة غير المنكرة لكتابات بيتيلهايم، إلا أنه يستحق أفضل مما حصل عليه مؤخرًا. فقد ولَّد عبر أعماله وأدبه الثانوي توضيحًا للمشاكل الرئيسية للمنهجية الواسعة في استخدام المفاهيم النفسية لفهم السياسة.

الفصل الحادي عشر

حنة آرندت

واصلت سمعة حنة آرندت الصعود دون توقف تقريبًا منذ وفاتها عام 1975م. المجلد الضخم لرسائلها مع معلمها القديم كارل ياسبرز[1]، ماهو إلا امتداد لرسائلها المتوفرة. وخرجت بالإضافة لذلك، الكتب المكونة من نماذج عرضية[2]، وغدا الأدب الثانوي حول آرندت ضخمًا بشكل مروع[3]. وبالأساس عُرفت في حياتها عبر كتاب: «أسس التوتاليتارية ـ 1951م The Origins of Totalitarianism»، ونشرت كذلك بعضًا من المؤلفات الملفتة. لن أنسى جدلها المتفجر في مقالها المنشور في Dissent شتاء 1959 «تأملات على ليتل روك»(*) والذي يبدو أنه صيغ ضد الرئيس آيزنهاور، إلى جانب المحافظ فوبوس، كما

(1) **Hannah Arendt/Karl Jaspers Correspondence 1926 - 1969**, ed. Lotte Kohler and Hans Saner, translated by Robert and Rita Kimber (New York: Harcourt Brace 1992).

(2) Hannah Arendt, **Essays in Understanding 1930 - 1954**, ed. Jerome Kohn (New York: Harcourt Brace & Co., 1994).

(3) Hannah Arendt: **Critical Essays**, ed. Lewis P. Hinchman and Sandra K. Hinchman (Albany: State University of New York Press, 1994). See also Margaret Canovan, The Political **Thought of Hannah Arendt** (New York: Harcourt Brace Jovanovich, **1974), Stephen J. Whitfield,** Into the Dark: Hannah Arendt and Totalitarianism (Philadelphia: Temple University Press, 1980), Maurizio Passerin d'Entreves, **The Political Philosophy of Hannah Arendt** (New York: Routledge, 1994), Larry May and Jerome Kohn, editors, Hannah Arendt: **Twenty Years Later** (Cambridge, MA: Hannah Arendt 205 MIT Press, 1997), Craig Calhoun and John McGowan, editors, **Hannah Arendt and the Meaning of Politics** (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1997), Dana R. Villa, **Politics, Philosophy, Terror: Essays on the Thought of Hannah Arendt** (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999).

(*) كتبت آرندت هذا المقال بعد سنة من نشر صورة لطلاب سود يدمجون في مدارس البيض في (ليتل روك) ويحيط بهم طلاب غاضبون من البيض. انتقدت في هذا المقال قرار المحكمة والرئيس آيزنهاور بإلغاء الفصل العنصري في التعليم الثانوي، بزعمها أن الفصل العنصري شأن اجتماعي لا يجب أن يدخل تحت دائرة النطاق السياسي. وقد قوبل هذا المقال بنقد حاد، إذ كيف يمكن لها كواحدة من أكبر نقاد معاداة السامية أن تدعو للفصل العنصري في المدارس الأميركية بوصفها دخيلة على تلك الثقافة.

وضحت تحفظها حول تفويض المحكمة بإلغاء الفصل العنصري في المدارس. ولا شيء يمكن أن يوازي عاصفة الغضب التي فجرها كتاب «آيخمان في القدس Eichmann in Jerusalem» عام 1963م، والذي ظهر في البداية عبر صحيفة: «النيويوركر»، وقد عنونت تفسيرها لمحاكمة آيخمان بـ «تقرير عن تفاهة الشر»، الأمر الذي جعل بقاءها في الذاكرة أمر حتمي. أعتقد أن القليل منا يمكن أن ينازع في حقها بأن تكون من بين أهم المنظِّرين السياسيين للقرن الماضي. (بعد وفاتها ميَّزها السير إيزايا برلين، في مسح مجلة: «TLS» كأحد المفكرين المبالغ في تقديرهم، وسوف نعود لمنشأ الاختلاف بين آرندت وبرلين).

استمرت مكانة آرندت ترتفع بين الأكاديميين، وانخفضت في المقابل مكانة كارل ياسبرز في أوقات حرجة وصعبة. رغم أنه تدرب كطبيب نفسي، وكتب مرجعًا خالدًا في علم الأمراض النفسية، وقد طبع عدة مرات، لكنه لايزال مع ذلك لم يعط حقه كاملًا، واقتصر موقفه في هذا المجال على المتخصصين في تاريخ الطب النفسي، الذين لم ينجحوا حتى الآن في أن يشرحوا لعامة القراء لماذا يهمنا ياسبرز اليوم. كتب ياسبرز مجموعة من الكتب الأخرى عن تاريخ الفلسفة بالإضافة إلى مواضيع أخرى مثل: «إثم حرب ألمانيا»، لكنه كشخصية رمزية لم تكن له تلك الهيمنة داخل تقليد الفكر العالمي التقليدي.

مثلما اتضح في الرسائل بين آرندت وياسبرز، بدا وأنها تكن له أقصى احترام وتبجيل. ظنّ محررو مراسلات آرندت ـ ياسبرز أن ياسبرز كان أحد اثنين من «الممثلين الرئيسين للفلسفة الوجودية»، والتي نشأت في ألمانيا عام 1920م ـ وكان الآخر مارتن هايدغر. لكن هايدغر استمر بجذب الانتباه أكثر من ياسبرز. قد يعزى نجاح هايدغر على الأقل إلى مساعدة آرندت بتعزيزه، فقد كانت متنكرة جزئيًا من ياسبرز، ووجهت التزامها نحو هايدغر. بدأت الرسائل بين آرندت وياسبرز عام 1926م وانتهت بموته عام 1969م. قامت آرندت بتصحيح انعكاس نهج مفهوم العصر العتيق على ياسبرز، وكيف أن المعلم والتلميذ يجب أن يكون بينهما ترابط. لكن أحدهما كان يولي اهتمامًا خاصًا لكل مناسبة يظهر فيها اسم هايدغر هنا. ليس لأن الشابة آرندت كانت مرتبطة عاطفيًا مع هايدغر فقط (والذي كان متزوجًا ولديه طفلين)، ولكن المراسلات التي قاموا بتبادلها قد صدرت في وقت متأخر. جدّدت آرندت الأنس بهايدغر عقب الحرب العالمية الثانية، بصرف النظر عن كونه عضوًا في الحزب النازي حتى عام 1945م، وعندما شاهدت هايدغر بعد الحرب لم تخبر ياسبرز أي شيء حول اللقاء، والذي بدا صادمًا أكثر لأنهما بحثا مشكلة هايدغر وتوجهه السياسي المؤسف وارتباطه بالفلسفة.

مصير ألمانيا، كثقافة وبلاد، هي الموضوع الوحيد الملفت في رسائل آرندت وياسبرز. وهي التي هربت من موطنها الأصل بعد مدة قصيرة من سيطرة القوة النازية، وقضت بعد ذلك سنوات عديدة بلا جنسية حتى أصبحت أميركية عام 1951م. تزوج ياسبرز من يهودية وبقي في ألمانيا خلال الحرب، بعد ذلك غادر إلى بازل، في سويسرا. أظهرت آرندت اهتمامًا مبكرًا بقضايا اليهود، رغم أن أطروحتها كانت عن القديس أوغسطين.

قبل أن تهاجر إلى الولايات المتحدة عام 1941م، عملت آرندت لمنظمة صهيونية في باريس، واستولت صدمة هتلر على جل تفكيرها مثلما حصل لرفاقها اليهود، وجعلت المشكلة اليهودية نقطة مركزية لتفكيرها.

ليس كما حصل في القرون الماضية عندما كان من الممكن أن تظهر الدولة كعدو للحرية الإنسانية، استنتجت آرندت أن تفرد أحداث القرن العشرين، هو المدى الذي أصبحت فيه السياسة المصدر الأساسي للحرية. كانت اللاجنسية ظاهرة فقط في الآونة الأخيرة، وقادت التجربة آرندت إلى تقدير ليس فقط ما خسرته في ألمانيا، ولكن ما حصلت عليه لاحقًا كمواطنة في أميركا. كانت هي وياسبرز ـ بصرف النظر عن المرارة التي مروا بها ـ في أوقات تطورات معينة في الولايات المتحدة ـ مقتنعين أن أميركا قد حفظت مصدر أمل لمستقبل الإنسانية، إلا أن مشكلة الهجرة بقيت مركزية في ذهن آرندت.

من الصعب ألا تفكر بأنها أدركت أن الانكسار في حياتها، والذي كان نتيجته النفي من ألمانيا، هو انعكاس لأكبر تحول في تاريخ العالم. فلم يكن علو السيطرة النازية تغييرًا ثوريًا فقط داخل بلدها الأصل، ولكنه على نحو دقيق كان ضربة صادمة للثقافة الغربية ككل. لقد اختارت البلد الأعلى تعليمًا في وسط أوروبا، وبشكل طوعي نموذجًا لا مثيل له من الهمجية، وأعدت أفضل العقول في العلوم السياسية الألمانية نظامًا دستوريًا يستطيع هتلر استخدامه لتسهيل نجاحه الانتخابي. باعتقادي أن كلًّا من آرندت وياسبرز قد عانا من ندوب دائمة جراء الآثار المترتبة للهتلرية على الفكر السياسي.

فورًا وبعد الحرب العالمية الثانية اعتمد ياسبرز على آرندت في شحنة من المؤن. وكتب لها حول تاريخ معاداة السامية خوفًا من أن تعتقد أنه فاشيًا بشكل كلي. (يركز كتابها «أسس التوتاليتارية» على مقر اليهود في الثقافة الحديثة، مثلما يركز على مفهوم الشمولية بذاته). كان كلًّا من آرندت وياسبرز مرعوبين بالطريقة التي انهار بها نظام جامعة ألمانيا إلى ذليل في وجه السلطة النازية القادمة.

لم تعرض لياسبرز أي سند فكري على الإطلاق، فقد قام بمراجعة عمله عن علم الأمراض النفسية، وبقيت هي معادية لفرويد بشراسة، وقد يتساءل المرء عن اعتقادها الحقيقي في إسهاماته النفسية الدقيقة، والتي كانت بشكل مؤكد لا فرويدية. اعتمد ياسبرز على آرندت لتدبير شؤونه الخارجية في البلاد الناطقة باللغة الإنكليزية، وكانت تعمل في الواقع كوكيل أدبي لياسبرز، تقدم مشورتها بخصوص عقود الكتب، وتقترح شركات نشر بديلة، وبالمجمل ساهمت بإبقاء روحه عالية حول مستقبل كتابه خارجيًا.

يعلِّق آرندت وياسبرز في الغالب حول الكتَّاب المعاصرين في كتبهم: تشيزلاف ميلوش، جان بول سارتر، ألبير كامو، إجنازيو سيلون، وهم قلة من كثرة تحدثوا عنهم كمعارف شخصيين. أحيانًا يتبادل كلًّا من ياسبرز وآرندت آرائهم حول المفكرين السابقين مثل إسبينوزا، أو ماكس فيبر (الذي عالجه ياسبرز أحد المرات). رأت آرندت أن مهمتها الخاصة هي إبقاء ياسبرز على اطِّلاع بالأحداث الحالية الأميركية، وكانت شرسة تجاه دوايت آيزنهاور، فهي في الغالب تراه على ضوء هايدنبيرغ الألمانية. بعد ذلك، كانت لها بصيرة حول نوعية الرئيس ليندون ب. جونسون الكارثية، المتورط في قيادة الحرب في الجنوب الآسيوي. تشارك كلًّا من آرندت وياسبرز معتقدًا جرمانيًا حول الأهمية المركزية للتقليد الفلسفي الأصيل، والذي يمثل بالنسبة للخارجيين صفعة للدوغمائية، إن لم يكن الغطرسة. قد ينتقلون من المسائل الدنيوية، حتى لو كانت ملحوظة، إلى مستوى عال من فلسفة إيمانويل كانط، كما لو أن أي إنسان متحضر يجب أن يفكر في الفئات المفضلة لديه. كانت (رسائل آرندت لزوجها الثاني هينريك بلوخر فكاهية في الغالب، لما يتشاركان فيه من شوفينية جرمانية، هي في الحقيقة شكل من أشكال المناطقية)[1].

بالنسبة لي، أعلى نقطة في كتاب المراسلات بين آرندت وياسبرز كانت حول محاكمة أدولف آيخمان. حتى قبل أن تبدأ آرندت بتصوير آيخمان «مثل كارثة تمشي على الأرض.. بكل ترهاته الفارغة». بحلول عام 1946م أشار ياسبرز نحو النازيين بقوله: «تفاهتهم الكلية، تفاهتهم المبتذلة». كانت أعمال آيخمان بالنسبة لهما «خارجة عن مفهوم ما هو أخلاقي وإنساني»، لذا فـ «الأسس الشرعية لهذه المحاكمة» بدت في أحسن الأحوال «مشكوك فيها». ويظن ياسبرز أن خطف إسرائيل لآيخمان من الأرجنتين كان غير قانوني. تمسك

(1) Within Four Walls: **The Correspondence Between Hannah Arendt and Heinrich Blucher, 1936 - 1968**, ed. with an introduction by Lotte Kohler (New York: Harcourt, 2000).

ياسبرز برأيه أن المحاكمة «تصور خاطئ في جذورها»، وأن الأحداث بذاتها يجب أن تُطرح «خارج نطاق أي سلطة قانونية لأي بلد». كانت القضية بالنسبة لياسبرز تهمّ الإنسانية جمعاء، واعتبر أن الإجراءات السياسية تعارض المسألة القانونية. كانت آرندت «أقل تفاؤلًا من ياسبرز حول الأسس القانونية للمحاكمة، لكنها تساءلت عما إذا كان لإسرائيل الحق في الحديث عن كافة اليهود في العالم». وتكهنت بأن أحد أكبر دوافع إسرائيل كان تأمين دفعات إصلاحية من ألمانيا.

أثار كتاب: «آيخمان في القدس» ضجة في المحيط اليهودي حتى في وقت ظهوره في النيويوركر عام 1962م. (كانت آرندت صريحة بحيوية حول نجاحها الإعلاني، والتكريمات العديدة التي حصلت عليها لاحقًا). ومنذ الوقت الذي بدأت تفكر في آيخمان، بُهرت بـ «الدرجة الكبيرة» التي «ساعد اليهود بتنظيم دمارهم الشخصي». في شهادتها عن المحاكمة شددت على «حقيقة إسهام اليهود» في محرقة يهود أوروبا. وحول الجدل الذي طال هذا الكتاب، شعرت آرندت بأنها عالقة ومحاصرة، فعلى سبيل المثال: عندما نشر غيرشوم سكولم رسائلهما المتبادلة، شكّل إخلاص ياسبرز دعمًا لآرندت ضد نقد شوليم القوي. وأُخذ احتجاجها على أنه اعتداء على «وجود» اليهود والصهاينة، وكان على آرندت أن تدافع عن نفسها ضد هذا الادعاء المزعوم بأنها وبصورة ضمنية أخرجت هتلر وقواته الخاصة خارج جريمة المحرقة اليهودية. بالنسبة للكثير، تبدو آرندت مثل برونو بيتلهايم[1] في سياق التحليل النفسي[2]، الذي كان يلوم الضحايا لتدميرهم لذواتهم.

كانت سمات السخرية التي تتحلى بها آرندت محل تقدير لدى ياسبرز، وعلّق مرة عليها يصفها: «النمط الذي يعتب عليك الناس، ويدعونك بلا قلب، بارد، ساخر، عالِم بكل شيء، مُبغض للجميع». لم يكن لآرندت ولا ياسبرز منظور حول ذواتهم، أو معنى الفكر التقليدي حول ما قاموا بتحقيقه، فعلى سبيل المثال: وجد ياسبرز نفسه مبهورًا عام 1964م بقصيدة شكسبير (العاصفة)، وظنّ أنه من الملائم إضافتها، وحتى لو كان «يستطيع أن يدونها». لم يكن لياسبرز أن «يحقق عمق شكسبير». بالكاد يعتقد المرء أن تلك النقطة قد بلغت التنازل الشرعي من جانب ياسبرز، لكنه لم يأخذ نفسه على محمل الجد، وكذلك فعلت آرندت.

(1) لتفصيل أوسع حول رأي برونو بيتلهايم انظر الفصل العاشر. (المنهجية).

(2) See Paul Roazen, **Political Theory and the Psychology of the Unconscious** (London: Open Gate Press, 2000), «The Rise and Fall of Bruno Bettelheim,» pp. 124.

مع ذلك، كان ياسبرز وآرندت معنيّين بأكثر المعضلات الأخلاقية المركزية للقرن العشرين. فقد قاما بتطبيق أفضل محتوى للفكر الغربي على المشاكل الأخلاقية لعصرنا، ولذلك شكّلت مراسلاتهم الخاصة بينهم قراءة رائعة ومجزية.

***

قبل جيل مضى كان لمؤلفات ماري مكارثي أعلى المبيعات، واعتبرت أشهر روائية وكاتبة للقصة القصيرة، ناقدة سياسية حادة، وربما كانت شهرتها في كتابة السير الذاتية المميزة. ربما صمدت شهرة مذكراتها المؤثرة: «ذكريات الصبا لفتاة كاثوليكية ـ 1957م ـ Memories of a Catholic Girlhood»، و«كيف كبرت ـ 1989م ـ How I Grew» لمدة مؤقتة بعد نشرها لـ «المجموعة The Group»، والتي بدت عام 1963م صورة فاضحة لفصلها في فاسار. حتى الآن، بعد سنوات قليلة من وفاتها عام 1989م، بدا من النادر أن تكون مشهورة بين جيل الشباب اليوم. زعمت مرة بأنها فتاة يتيمة، وأن المسؤولين عن رعايتها حاولوا إلصاق شريط على فمها ليلًا، وفي أفضل الأحوال بقيت لاذعة وشريرة، لا تنسى. علّقت عام 1980م عبر برنامج: Dick Cavett حول ليليان هيلمان بقولها: «كل كلمة كتبتها هي كذبة، حتى حرفي «و» و«أل»، ردت هيلمان برفع دعوى تشهير وقدرها 2.225000 والتي تنتهي فقط عند المدعي. قد يعتقد المرء أن تألق مكارثي في الإنكليزية العامية، كان أساسه التنافس مع هيلمان، وأن ذلك قد ضمن لها البقاء في الذاكرة.

لاحظنا على الجانب الآخر، أن آرندت التي توفيت مبكرًا عام 1975م، أصبحت أحد أشهر المنظِّرات الاجتماعيات للقرن العشرين. عام 1995م كان هناك خمس ندوات دولية جدولت لمناقشة أعمال آرندت. رغم أن حفنة من الفلاسفة المتميزين رفعوا اعتراضات على كفاءة آرندت في الميتافيزيقيا الروحية، واحتج بعض المؤرخين على تعاليها وخلطها للحقائق لتتلاءم مع أجندتها الأديولوجية المختلفة، وما من رأي من آراء الأقلية قد ردعت الأكاديميين الصغار من نشر جهود تشرح خصوصيات وعموميات تنظير آرندت المعقّد. ربما بدت الصداقة الحميمية بين تلك المرأتين مستغربة، كانت مكارثي صلبة وذات لمسة أسلوبية خفيفة، بينما آرندت كانت بلا إحساس كحال فلاسفة الألمان التقليديين الذين أتت منهم. رغم أن هناك عدد من الفقرات المكتوبة التي لا تنسى في رسائل آرندت لمكارثي، كانت صديقة آرندت تصاحب (ناقدًا أدبيًا يدعى ألفريد كازين)، ساعد في «نقل» مؤلفات آرندت المنشورة للغة الإنكليزية. هناك كتاب: «بين صديقتين: رسائل حنة آرندت وماري

مكارثي - Between Friends: The Correspondences of Hannah Arendt and Mary McCarthy 1949 - 1975»[1] يصف التقارب الحميمي في هذه العلاقة. قامت آرندت بتعيين مكارثي وصيّة أدبية، ووضعت مكارثي في ذهنها استبدال وصيتها الأدبية إليزابيث هاردفيك بآرندت إذا دعت الحاجة.

كاتبة سيرة مكارثي كارول برايتمان، كتبت عام 1992م مقدمة رصينة لذلك التفسير المبهر للتحالف الأدبي بين كاتبتين متذمرتين من استهلاك الشهرة لوقتيهما، لكنهما لم يمانعا من الدخول في صراعات آراء العامة المختلفة. عندما هزمت مكارثي الغيورين من نجاحها الإعلاني، كانت آرندت هناك كصديقة منحازة لجانب مكارثي، وعندما تحول مثقفو اليهود الموالين للصهيونية ضد آرندت - بسبب أفكارها في كتاب: «آيخمان في القدس» والتي تدين استجابة اليهود للتهديد النازي بتدميرهم لذواتهم - نشرت مكارثي مقالًا تستنكر فيه ديكتاتورية آرندت. (كان ذلك طابعًا للسياسة الأدبية، قامت آرندت بإرسال ردٍّ مفصل لمكارثي تهاجمها عبر صحيفة: «Partisan Review»، وبكل أسف لا ترد هنا تلك الصفحات الأربع الموثقة).

كانت العلاقة بين المرأتين كما تقول برايتمان: «في ظاهرها غير محتملة». مكارثي التي ترعرعت في الأصل بمدينة سياتل، أميركية كفطيرة التفاح الأميركية، تقول: إن آرندت تكره الأنبياء، بينما آرندت ألمانية المولد، والتي هربت ابتداء إلى فرنسا عام 1933م، ظنَّت بنفسها أنها حاملة لواء الثقافة الألمانية التقليدية الروحانية بأكملها، التي دُمرت بصعود النازية. بغض النظر عما بدا أنه عدم توافق بينهما، ازدهرت العلاقة العاطفية بين مكارثي وآرندت. ركَّزت رواية راندل جرل: «صور من المعهد Pictures From an Institution 1954»[2] على كلا المرأتين، عبر منظور يوضح أوجه الشبه بينهما. وهذا المجلد الضخم من مراسلاتهما، والذي ساهمت مكارثي بطباعته، يسجل حكاية الإخلاص والتفاني طويل الأمد فيما بينهما.

جزء من المتعة الخاصة في قراءة: «بين صديقتين» يأتي من وصف لقاء مكارثي وآرندت، وتشارك النميمة حول أهم معاصريهما اللامعين. غُيب في هذا الكتاب ذكر أميركيين (مثل: روبرت لويل، سول بيلو، وترومان كابوت)، وأجانب مثل: (سارتر، سيلون، ريموند آرون،

(1) Between Friends: **The Correspondence of Hannah Arendt and Mary McCarthy 1949-1975**, ed. with an introduction by Carol Brightman (New York: Harcourt Brace, 1995).

(2) Randall Jarrell, **Pictures From an Institution** (London: Penguin Books, 1959).

و. هـ. أودين، إزايا برلين، سيمون دو بوفوار، وأرملة جورج أورويل) لذكر حفنة من الشخصيات الهامة ممن خطروا في بالهم. تعكس الأسماء التي يختارها المرء إلمام القارئ، وكيف اختارت آرندت ومكارثي جعل الثرثرة علامة لهذا الكتاب.

فيما يتعلق بحياتهما الخاصة، وكيف كانت كل منهما منفتحة على الأخرى، كانت مكارثي هي الأقدر على تحملها، أو كانت الأحوج إلى المساعدة العاطفية. في أول لقاء لهما عام 1944م، كانت مكارثي لا تزال متزوجة من الناقد الأدبي البارز إدموند ويلسون، لكن يوضح أحد أجزاء «بين صديقتين» والذي يبدأ من عام 1949م، أن مكارثي تمر بسلسلة من الأزمات في منزلها.

كانت آرندت داعمة لها عندما علمت بعلاقتها غير الشرعية، لكنها مالت لأن تكون أكثر عقلانية وحكمة، ومهما كان شعورها حيال تصرف مكارثي الرومانسي، لم تكن آرندت على استعداد لتغطية آثار خيانة مكارثي، فكانت مساعدتها من باب الصديق وقت الضيق. ورفضت آرندت بشكل مؤثر أن تتخلى عن أحد أزواج مكارثي المنبوذين، وفي عام 1960م كتبت آرندت:

> **نظرت إليه كصديق، ولم أكذب، بالنسبة لي، حقيقة أنك جلبتيه لحياتي، وأنه بدونك لم يكن له وجود ـ لا يعني أنه صديق شخصي، وهو بالطبع ليس كذلك ـ لكن كصديق للبيت، إن صح أن يقال. لكن ما أن وضعتيه في تلك المنزلة، لن تخرجيه هكذا بسهولة من حيث مكانه الحالي.**

بزواج مكارثي الرابع، لأميركي دبلوماسي في باريس، بدا أن حياتها استقرت أخيرًا. وبدا وجود آرندت الشخصي مع بلوخر غير مكدر بشكل معقول. آرندت التي بدت قلقة بشكل أساسي حيال مشاكل زوجها الصحية، والتي بلغت الحد حتى وفاته عام 1970م، لم تتذمر إطلاقًا بشأن مرضها، ومهما كانت متاعب قلبها، لم تكن لتثنيها أبدًا عن إدمان التدخين.

ربما كانت ردة فعلي الوحيدة تجاه تلك الرسائل تمييزية، لكن بغض النظر عن خلفيتي كمنظِّر سياسي خلصت منهما بتعجب أكبر، وإن كان لي أن اختار، فقد تميزت مكارثي على آرندت، وربما يعود أساس ذلك لإتقانها للغتها الأم، بينما عانت آرندت دومًا من التعبير عن ذاتها بلسان أجنبي. لكن ليس ما ميّز مكارثي فقط قدرتها على الكتابة بالأميركية الإنكليزية التي تأتي هنا بشكل ملحوظ، لكنني تفاجأت أيضًا بتمرّسها السياسي. اطّلعت بالطبع على

كتب لمقالات لها علاقة بحرب فيتنام، جهد أنجزته الاثنتان مبكرًا وقامتا بعرضه كتضليل هائل. ونشرت مكارثي أيضًا مقالًا صحفيًا حول موضوع ووترجيت. لكنني لم أدرك كيف أن المضمون الأخلاقي كان متينًا في فكر مكارثي، وكيف عُنيت مؤلفاتها الخيالية بالقضايا الاجتماعية والسياسية. مضت عام 1971م بالتعقيب حول كتاب آرندت وما يخص موضوع آيخمان، رغم اختلاف نهجها عن آرندت:

يفترض المرء أن كل فرد يفكِّر بدقة وطبيعة نبيلة، حتى ولو لبعض الوقت .. ربما أكون ساذجة، لكنك تقولين: إن آيخمان يفتقر لميزة الإنسانية الأصيلة، القدرة على التفكير، والوعي والضمير. أليس وحشًا ببساطة؟ لو منحتيه قلبًا شريرًا، لأعطيتيه بعضًا من الحرية، التي تديننا.

ما من سجل يظهر أي رد لهذه القصة التي تبدو رأيًا كاثوليكيًا، لكن يفترض ألا تكون مفاجئة، لأن مكارثي ظهرت في مجلدين لآرندت: «حياة العقل The life of the Mind»، وساعدت في تسهيل نشر محاضرات آرندت عن إيمانويل كانط.

جغرافيًا وحيث عاشت الاثنتان، كانت مكارثي أميل للتعليق على المسائل الأوروبية بينما ظهرت آرندت كمتحدث عن التطورات الأميركية. كلتاهما سافرتا جيئةً وذهابًا عبر المحيط الأطلنطي، والتقيتا بانتظام (وتحدثتا على الهاتف كل أسبوعين). مهما كانت صعوبة إسعاد مكارثي، إلا أن معايير آرندت كانت أشد عجرفة. عام 1962م، على سبيل المثال، أعلنت مكارثي عن مراجعتها لكتابين، واحد لنابوكوف «حريق باهت»، والآخر لسالينغر «فاني و زوي»: «ما فعلته في آخر يومين، كان خبيثًا وحقيرًا، ولم تكن فيه متعة على الإطلاق، باستثناء الترويح عن نفسي، لكنني وقعت حقًا في حب كتاب نابوكوف، وعملت بجد وسعادة لأجله». كانت ردة فعل آرندت لهذا الخبر كما عُرف عنها:

هناك أمر في «ن» والذي أمقته بشدة، وهو استماتته على الإفصاح عن مدى ثقافته. وعلى هذا، يظنّ بنفسه من باب أنه «أكثر ثقافة من». هناك أمر مبتذل في دماثته، إنني حساسة تجاه هذا النوع من الابتذال، لأنني أعرفه جيدًا، وأعلم أن العديد من الناس قد ابتلوا به. لكن ربما هذا الأمر لم يعد له وجود الآن. أعلم عن كتاب وحيد يخصه وأقدِّره جدًا، وهو المقال الطويل حول غوغول.

ربما كانت آرندت على حق بكون نابوكوف متباهيًا، (الأمر الذي ينطبق على آرندت

أيضًا)، لكن يجب ألا تكون السمة المتأصلة أمرًا كافيًا لترسيخ موقفه الفني والنقدي، وما لفت نظري أكبر أن آرندت لم تشعر بحاجة للتعليق حول سالينغر.

رغم أن آرندت كانت معجبة كبيرة بالحريات الأميركية، إلا إنها بقيت منعزلة بشكل غريب عن أحداث البلاد السياسية، على سبيل المثال، كتبت لمكارثي بعد أزمة الصواريخ الكوبية أنها ليست بمزاج جيد لمناقشة ذلك: «لم أكن لأصدق أن ذلك الأمر سيكون جديًا». ربما لن يظن أحد من منظور آرندت كيف اقتربت أميركا والاتحاد السوفياتي من التحدي النووي القاتل.

يبدو كتاب: «بين صديقتين» مبهرًا بما يرويه عن «آيخمان في القدس». (يمكن أن توضع الرسائل هنا جنبًا إلى جنب مع تعليقات آرندت لياسبرز). لم يكن المحرر مساعدًا في تجهيز سياق مثير للاحتفاء بكتب آرندت، والتي ظهرت ابتداء في خمسة أعداد من النيويوركر. أكدت برايتمان أن نصّ آرندت «استند على نص المحاكمة، ولم يكن تحقيقًا في مذبحة يهود أوروبا»، وأضافت أيضًا حاشية لخصت فيها حجة آرندت، لكنها فعلتها بطريقة استخلاص لرأي آرندت قائلة: «لقد دعت إلى المقاومة ولم يكن ذلك ليمنع سياسة الإبادة، لكن ربما جعل تنفيذها أصعب». بدا لي صادمًا، كيف تبنَّت آرندت مع مكارثي موقف..«إنني كتبت تقريرًا، وإنني لست سياسية أو يهودية أو غير ذلك».

ذهبت آرندت للقول:

كما أرى، فليس في هذا التقرير «أفكار»، هناك حقائق فقط باستنتاجات قليلة، وهذه الاستنتاجات عادة تظهر في نهاية كل فصل. والاستثناء الوحيد كان خاتمة الكتاب، والتي كانت نقاشًا عن الجوانب القانونية للقضية. بعبارة أخرى، وجهة نظري أن هذا الغضب قائم على حقائق، وليس على أفكار أو نظريات.

حاولت آرندت خلال حياتها في الولايات المتحدة أن تتبنى البراغماتية الأميركية المناهضة للتنظير، والذي جعلها غير قادرة على فهم الرعب الذي أثاره كتابها بين اليهود في أميركا. رغم أن هنا تاريخ طويل من الاشتباه في صهيونيتها، إلا إنني تصورت أن كتاب: «آيخمان» كان بالأساس فرصة لأعدائها للرد مجددًا، وشككت أن أحدا مثل إزايا برلين على سبيل المثال، كان مسؤولًا عن التلاعب بمراجعات الكتب في بريطانيا لصالح الحكومة الإسرائيلية. (على العكس من آرندت كان برلين مدافعًا عن القيم الكلاسيكية المتحررة،

وينظر للتقليد الفلسفي الألماني، كما جُسد عبر هايدغر وآرنـدت، كمصدر للسموم الاجتماعية والسياسية).

بين ثقافة كلًّا من آرندت ومكارثي المشتركة، حملت كلتاهما منظورًا سياسيًا متقاربًا. فقد كتبت مكارثي: «إن غتيال كينيدي سيكون واحدًا من تلك المحكّات الاختبارية أو فصل الصالح عن الطالح، مثل محاكمات موسكو وباسترناك ومثلك أيضًا مع آيخمان». إذا كانت مكارثي تمتدح آرندت للمكانة التي وصل لها كتابها الجدلي، آرندت أيضًا كانت ستفعل المثل. ففي ربيع عام 1965م، كان الجميع قلقا تجاه تصاعد التدخل الأميركي في الجنوب الآسيوي تحت ولاية الرئيس ليندون جونسون، كتبت آرندت: «هل سبق لك قراءة أعمدة ليبمان الصحفية حول فيتنام؟ أتصور إنها جيدة جدًا، لكنني أعترف أنني أقل قلقًا ممن عرفت. كافة استطلاعات الرأي تُجمع أن ذلك ضد سياستنا ـ وهناك إجماع على أن هذا ما أراد جونسون». هذه النوعية من السخرية في أسلوب آرندت واعتقادها بأنه من السهل على النقّاد التغافل عن عملها. ذهبت بها لاحقًا لتنظير مختلف تمامًا هنا: «يبدو لي أن معضلة الرئيس الأميركي أو الرجل السياسي إنه غير قادر على إدراك ما لذي تعنيه الثورة». (ذلك العام نشرت آرندت كتابها: «في الثورة On Revolution»).

عجزت آرندت عن كبح النزعة الميالة للوعظ في داخلها حيث كتبت بعد أسبوعين: «ليس لدي شك على المدى الطويل، أن آسيا ستكون بأكملها تحت هيمنة الصين، لكن ليس بالضرورة تحت سيطرة صينية». لكن ليس من جهد قد عُمل لقياس أو تقييم دور اليابان، أو حتى التمييز بين «الهيمنة» الصينية كمعارض لـ «السيطرة». وبالنسبة لامرأة كرهت كل شيء قام فرويد بتقديمه، لم تشعر آرندت بالتردد من أن تستفيد من تشخيص يخدم كراهيتها السياسية: على سبيل المثال، كتبت عام 1968م أن لديها انطباعًا أن الرئيس جونسون ليس «سيئًا أو غبيًا فحسب، بل نوعًا ما، مجنونًا». (كراهية مكارثي للتحليل النفسي كانت مستندة على الأقل على تجارب متعددة متواضعة مع المحللين، بينما اعتراضات آرندت كانت مجردة).

***

التألق المريح لكتاب: «بين صديقتين»، والذي لا يقرأ إلا بروية، يأتي كتناقض حاد للتأثير المزعج لكتاب إليزابيتا إتينغر «حنة آرندت/ مارتن هايدغر ـ Hannah Arendt/Martin

Heidegger»[1]، كتاب قصير يستحيل أن تدعه جانبًا حالما تبدأ بقراءته. نعلم أن آرندت ومنذ عام 1982م كان لها علاقة غرامية في شبابها مع معلم الفلسفة هايدغر، والذي كان في ذلك الوقت ضعف عمرها. واتضح عام 1924 أنه بدأ العلاقة، والتي كانت سرية لأربع سنوات تقريبًا، حتى أعلن عنها أخيرًا. انضم لاحقًا للحزب النازي، الأمر الذي لم يندم عليه أبدًا، وكذلك لم يندم على تداخل سياسته، مما جعله أحد أكثر المفكرين تأثيرًا للقرن العشرين. (ولم يحمل الفرنسيون ماضيه النازي ضده، وسارتر الذي يفترض إنه يساريًا، ساعد بجعل هايدغر مشهورًا في باريس). رغم أن كتب آرندت تركِّز في الغالب على الموقف الأخلاقي لليهود، إلا إنها بقيت محافظة على رباطها مع هايدغر.

قارئ «حنة آرندت/ مارتن هايدغر» سيشعر على الأرجح بالإحباط، فليس هناك مخطوطات أصلية للمراسلات كما هو الحال في رسائل مكارثي وياسبرز، بل هناك وصف إتينغر لها فقط. أرملة هايدغر التي أعلنت عن أنها حصلت على نازي أسوأ من زوجها، عاشت لسنوات بعد وفاته عام 1976م، وكان تأخر تقديم الأدلة حول علاقته مع آرندت أمرًا في صالحها. تولت إيتنغر سيرة آرندت الذاتية، وحالفها الحظ بقراءة مراسلاتها ومراسلات هايدغر. رغم هذا، قررت إتينغر أن تركِّز بشكل محصور على تورط آرندت مع هايدغر، رغم أن الوصية على أعمال آرندت (التي عُينت بعد وفاة مكارثي) كانت مندهشة بإقرار إتينغر. أحد أبناء هايدغر لم يكن سعيدًا أيضًا، فقد أعطى الإذن بقراءة رسائل والده، لكن ليس بنيّة اقتباسها، وصرح أن هناك العديد من الأخطاء في أداء إتينغر. اتفق كل من وصية آرندت الأدبية وابن هايدغر على نشر المراسلات كاملة بأنفسهم، رغم أن المدة ستطول حتى تظهر باللغة الإنكليزية، وليس من الواضح إن كانت ستغير الانطباع السيئ الذي أخذه قرّاء «حنة آرندت/ مارتن هايدغر».

أدَّت السمعة السيئة التي أثارها كتاب إتينغر إلى التنقيب عن أمر هايدغر في أعمال آرندت[2]، واستمرار توثيق تفاصيل تعاونه النازي. لكن آرندت وثَّقت سمعتها العلمية بأول كتاب لها: «أسس التوتاليتارية» وكان الدور الأساسي الذي أوضحته وإن كان مبالغًا به، هو قوة معادي السامية، الأمر الذي لا بد أن يُقرأ على ضوء سيرتها الذاتية.

---

(1) Elzbieta Ettinger, **Hannah Arendt/Martin Heidegger** (New Haven, CT: Yale University Press, 1995).

(2) See, for instance, **Richard Wolin, Heidegger's Children: Hannah Arendt, Karl Lowith, Hans Jonas, and Herbert Marcuse** (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001).

إن علاقة آرندت بهايدغر بأكملها قد تلقي بظلالها على مكانتها البارزة الحالية. امتلكت آرندت حرية التعبير عن أحكام أخلاقية عن الآخرين، ومع ذلك، كانت على اتصال بأشخاص مريبين مثل هايدغر. وربما يشك المرء فيما إذا كانت تشعر بالخزي من الرباط المستمر الذي يربطها بهايدغر. (كتبت مرة لمكارثي، في المرة التي شعرت مكارثي بأن علاقتهما في خطر: «فيما يخص كافة المسائل النفسية، أنا لست حساسة، ومتبلدة إلى حدٍّ ما»). ومن السهل أن نحرز ما مدى العلاقة التي تفسر هذه الرومانسية، أو الفرصة التي كانت جزءًا من حياتهم الفكرية.

بعدما استأنفت آرندت مراسلاتها مع هايدغر لبضع سنوات بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، انسحبت من تحفظاته السابقة والمعلنة حوله، وبذا ساعدت في حكم إتينغر وتمويهها لسياسة هايدغر. كما ذكرت سابقًا، كانت آرندت قادرة على التملص من اجتماعات ياسبرز، ووطأة استمرار العلاقة معه. وهنا تلمِّح إتينغر أن آرندت كانت تتصرف بحذر حتى لا تجرح مشاعر ياسبرز، لكنها كانت تتحدث معه عن كذب هايدغر المرضي، حتى وهو يحمل هاجسه وهوسه بالأصالة. (موضوع سوء النية يجذب مرتكبيها عادة) يظهر أن آرندت كانت متحمسة لزيارة هايدغر متى ما أتيح لها، وكانت منفتحة مع مكارثي حول عجزه بسبب تقدم عمره.

تبنت إتينغر نهجًا رقيقًا في تفسيرها لسلوك آرندت كتعبير عن الحب غير المنطقي، لكن المرء يتساءل ما إذا كانت إتينغر قد نجحت دون قصد بقتل آرندت عبر هذه الرقة. إما أن آرندت كانت منافقة استثنائية، أو متيمة ساذجة وسخيفة، وليس من بديل أخلاقي يضاف لسمعتها. الاحتمال الوحيد أن تراجع إتينغر بالكشف، هو أن الاثنين اتبعا علاقة مصلحة لكلا الطرفين.

أعطت آرندت نصيحة لهايدغر ساعدت في تعزيز واتساق ترجمة كتبه خارجيًا، وعندما احتاج هايدغر للمال، لجأ لنصيحتها في زيادة عائد بيع مخطوطة هايدغر (الوجود والزمن). أكدت إتينغر بشكل جارح على مسألة وجود حاجة للمال يلجأ النازي السابق إلى يهودية لمساعدته. لم يجعل ذلك آرندت تتجاوز في علاقتها مع هايدغر، بل كانت متعاونة وملتزمة.

كانت آرندت على ما يبدو قاسية القلب حول مساعدة اليهود في مواجهتهم للرعب النازي، ومثل الآخرين في جيلها من اليهود الألمان، بدت ألمانية أكثر مما كان يطمح أبناء

بلدها السابقين. يتناول كتاب آيخمان في الغالب سقوط ثقافة ألمانية قديمة، وما علق بها من إقرار مصير لليهود. قامت آرندت بحصر التشويش الذي مرت به في حياتها عندما أُجبرت على مغادرة ألمانيا، وفجرته لتمزق المجتمع الغربي بأكمله.

لا تعدو آرندت كونها منظرة عظيمة، حتى بالرغم من اعتقادي بأنها كانت مبدعة بشكل أكبر في مقالاتها. السبب الوحيد بكون كتاب آيخمان ناجحًا هو أن المؤلفة لديها أساس صلب لتتعامل معه، وهذا العمل دائمًا ما يشكِّل إثارة جذابة للطلاب. من وجهة نظري، أن قوة النازية هي إنها أهم حدث سياسي في التاريخ للقرن الماضي، ويفترض أن تكون مزعجة على الدوام لكل أصدقاء النظرية الديمقراطية، فكيف بالأمة الألمانية بتعليمها العالي أن تختار طوعًا التصويت في مكتب طاغية تعرف آراءه وأجندته بكل وضوح.

تلمِّح رسائل آرندت لزوجها الثاني بوخلر، إلى أنها تلوم بالأساس زوجة هايدغر إلفريدا لإعمائه عن الشر العميق للاشتراكيين الوطنيين، وبدت آرندت مصممة على عقلنة معتقداته الضارة وسوء تصرفه. كان هناك إشاعة واحدة (قدمت من إيزايا برلين) تقول: إن آرندت وهايدغر قد جددا تواصلهما جسديًا بعد الحرب العالمية الثانية، رغم أن إتينغر لا تبحث في هذه الاحتمالية. وأقصى ما يمكن أن أقول: إن إتينغر ترفض أي سبيل لهذه الفكرة، لكنها في الوقت عينه تصرح بأن بلوخر زوج آرندت: «اعتقد خطأً أن علاقتها بهايدغر قد انتهت بعد الحرب العالمية الثانية».

لم يكن في ذهن إتينغر افتراض عن مدى تقليل بلوخر من عمق علاقة آرندت المستمرة بهايدغر، حتى لو إنها قد صادقت على احتمالية أن الجميع ربما كانوا متورطين. من المستحيل أن نعزل حياة الفيلسوف عن عمله، يمكن أن تختبر صحة الفطنة وتقيّم باستقلالية، لكن المعنى الذي تقدمه الأفكار، سيأتي من نوايا ممثِّلي التاريخ.

يميل طلاب النظرية السياسية للاعتقاد بأن الأفكار يمكن أن تعالج في الفراغ، بعيدًا عن تجربة الإنسان الطبيعية. لكن إذا كانت سمعة هايدغر قد عانت بوضع التزاماته السياسية الماضية تحت المجهر، آرندت أيضًا تلوثت سمعتها نتيجة لمحاولاتها المستمرة لكسب الموقف. بعد إدراك متأخر، احتكمت علاقة آرندت مع مكارثي إلى سمات هنري جيمس العقلانية. فتعقيدات الأوروبيين، التي تتضمن آرندت، آل هايدغر، ياسبرز وزوجته، إضافة لبلوخر، هي أعقد بكثير من الانفصالات النمطية التي تورطت بها مكارثي.

ربما أدركت مكارثي بفطرتها، أهمية ما حققه هايدغر في حياة آرندت، لكن من الصعب تصديق أنها استطاعت استيعاب التعقيدات الاجتماعية والسياسية التي سعت آرندت لتبريرها. وقد يتساءل المرء، على أي أساس يمكن أن تشارك مكارثي أخلاقية يسارية مع آرندت في قضايا مثل فيتنام أو ووترجيت، في الوقت الذي أظهرت آرندت نفسها مع شخص طائش مثل هايدغر، خاصة وأن آرندت بنفسها قد ميّزت خداع الذات العادي من التجربة المباشرة؟. على أي حال، لا يجب أن يكون الدرس المستخلص من هذا الموضوع إصدار أحكام أخلاقية، فتعاطف آرندت يخبرنا أنها كانت تفعل ما بوسعها، وربما إذا ظهر مجلد مراسلات هايدغر ـ آرندت أخيرًا ستبدو العلاقة أقل بغضًا. لكن البهجة المفاجئة لصداقة آرندت بمكارثي ظهرت مظللة لطبيعة تهديد ارتباطها بهايدغر.

أعطى كتاب إتينغر: «حنة آرندت/ مارتن هايدغر» سردًا مقنعًا يمكن أن يقرأ مساء، وبطبيعة الحال أُثيرت حوله شعبية واسعة وجدل حاد. لتلخيص التفاصيل ـ نقول: إن هايدغر كان أول معلم فلسفة لآرندت، وقد بادر بالشروع في علاقة سرية استمرت لسنوات، وظهر أنه المسؤول عن انقطاعها. سعى هايدغر ـ لأكثر من عقد من الزمان ـ أن يكون عضوًا نشطًا للحزب النازي، ولم يندم على ذلك. ويُعرف عنه أنه أحد أبرز المفكرين المؤثرين للقرن العشرين. لاحظنا بالفعل مدى غرابة ما ذهبت إليه آرندت بكتابتها لكتب نوقشت على نطاق واسع، تركِّز غالبًا على الموقف الأخلاقي لليهود، رغم سعيها المتواصل بالحفاظ على رباطها مع هايدغر. هذه المراسلات بين هايدغر وآرندت، والتي أُستؤنفت بعد الحرب العالمية الثانية، واستمرت حتى وفاتهما (توفيت آرندت عام 1975م، أما هايدغر فكانت وفاته عام 1976م) كانت محظورة حتى سبقت إتينغر الجميع بتفسيرها لهذه المراسلات التي قاموا بتبادلها.

ربما يقول أحد إنها كانت محظوظة بشكل لافت لأنها استطاعت قراءة رسائل آرندت وهايدغر. عاشت أرملة هايدغر (نازية ورعة منذ العشرينات) طويلًا بعد موت زوجها، ولأجلها حُجبت تفاصيل تلك الرسائل. وصلت إتينغر بنجاح لوصية آرندت الأدبية، وسمح لها بقراءة نسخ من رسائل آرندت ورسائل هايدغر لها، لأجل كتابة سيرة ذاتية مكتملة عنها. قررت إتينغر، بدلًا من هذا، أن تركِّز على علاقة آرندت بهايدغر، الأمر الذي شكل صدمة للوصيّة، وأثار استياء أحد أبناء هايدغر. لست متيقنًا ما إذا كانت القصة التاريخية بين آرندت وهايدغر تافهة جدًا، كما أوضحتها تفسيرات إتينغر، أو أنها خليط من اثنين. وبقي أن نرى

كيف ستبدل هذه الوثائق الكاملة ـ يبدو أن السماح بنشرها كان أمرًا حكيمًا من الأوصياء الأدبيين ـ من الانطباع السيئ الأول الذي يأخذه القارئ من كتاب إتينغر: «حنة آرندت/ مارتن هايدغر».

رغم أن فلاسفة مميزون مثل ستيوارت هامبشاير وإيزايا برلين كانوا متحدثين بالنيابة عن المعارضين للشعبية الساذجة لقدرة آرندت على الإسهاب الميتافيزيقي، لم يمتنع الأكاديميون الطموحون من تكرار الجهود لإيضاح تعقيدات فكر آرندت. ليس في ذهني أي منظِّر سياسي حالي نجح في جذب الأدب الثانوي كما فعلت آرندت. لقد صُنِّف المؤرخون المعارضون لأفكار آرندت على أنهم منحازون، ليس بسبب جفافهم كفلاسفة بريطانيا التحليليين المعادين لنطاق المنظِّرين العالميين، لكنهم كممثلين لنهضة مثقفي اليهود الصهاينة، والتي أُسيئ لها من قبل آرندت عام 1963م وكتابها: «آيخمان في القدس».

كان فخر آرندت بأنها ممثلة مبعوثة للثقافة الألمانية النازية لبقية العالم. رغم إنها احتقرت باستمرار كافة أشكال فكر التحليل النفسي، وعبَّرت عن اشمئزازها من الرومانسية والاستبطان أيضًا، إلا إنها سمحت لنفسها في دراستها لمحاكمة آيخمان بأن تلوم ضحايا النازية لتدميرهم ذواتهم، ولكنها لم تستطع تجاوز تململها من طرد المدعي العام لآيخمان كيهودي جاليكي، لا يرقى لمعاييرها العالية في ثقافتها الألمانية.

في الوقت الذي بدأت فيه آرندت بنشر كتبها، على سبيل المثال: «أسس التوتاليتارية» عام 1951م»، لم تكن بأي حال خارج الفكر السائد. لم يعد مفهوم «الشمولية» رائجًا في الوقت الحالي، لكن في الوقت الذي كانت تكتب فيه آرندت، كان وصفها للديكتاتورية النازية والستالينية متواضعًا، حتى لو أنها اهتمت في الأساس بجذور النظام الألماني.

كانت الحرب الباردة في أوجّها ذلك الوقت، وكان الاعتقاد السائد أن ما يسمى بالشمولية يمكن أن يسقط فقط من الضغوط الخارجية للحرب. جورج ف. كينان الذي يعتبر الآن خبيرًا متنبئًا بسقوط النظام السوفياتي عبر ضغوط داخلية وُصم من قبل أقرانه بالمتنبئ الديني، وأصبح محاصرًا بالصوفية بدلًا من صرامة الواقع السياسي.

رغم أن آرندت بدأت بعصرية كافية، لم يطُل الأمر حتى أصبحت خصوصيات تفكيرها معروفة. كما لاحظ رالف إليسون لاحقًا أن الضجة التي أثيرت حول كتاب آيخمان قد تنامت عبر دفاعها الأحمق لموقف محافظ ولاية أركنساس أورفال فوبوس، الذي ناضل من أجل

الحفاظ على المدارس المنفصلة حتى إرسال قوات الرئيس دوايت د. أيزنهاور وفرض إلغاء الفصل العنصري في العاصمة ليتل روك، كجزء من استجابته لتحدٍّ أكبر للسلطة الفيدرالية منذ الحرب الأهلية.

وعبر مقالها في صحيفة: «Dissent»، تلاعبت آرندت بالمفاهيم السامية لـ «عام»، «خاص»، و«اجتماعي» بطريقة متعالية مذهلة. «منذ قرار المحكمة بفرض إلغاء الفصل العنصري في المدارس العامة زعمت بطريقة ما، أن «الأوضاع العامة متدهورة في الشمال». كان من الصعب في ذلك الوقت تخيل أين عاشت آرندت روحيًا، أو ما هي قيمها الحقيقية، فقد عاشت في الولايات المتحدة منذ عام 1941م.

يمكن استيعاب تورط حنة آرندت مع هايدغر عبر كتاب أتينغر الرائع، والذي يلقي ضوءًا جديدًا على موقف آرندت الحالي. من الملفت أن تحرر آرندت في إطلاق أحكام أخلاقية على تصرفات الآخرين قد أوقعها مع هايدغر. وألمحت سابقًا، أن مدى الرومانسية وليس المصلحة في هذه العلاقة، قد يستحيل إعادة بناءه. عندما عادت آرندت للتواصل مع هايدغر بعد الحرب العالمية الثانية، كانت قد سحبت بعض انتقاداتها المبكرة له، وساعدت في إعادة تأهيل سياسته في فترة ما بعد النازية. ولأكرر، هي قد تنكرت من ياسبرز، أستاذها الآخر، وفقًا لما قالته إتينغر، فبعض اجتماعاتها مع هايدغر كانت وقائية حتى لا تجرح مشاعر ياسبرز. وفي ملاحظة لنفسها، واتصالاتها مع ياسبرز، كانت منفتحة حول النقاش عن قدرة هايدغر على الكذب، مع ذلك استمرت بزيارته كلما سنحت لها الفرصة. وبالنهج الودي الذي اتبعته إتينغر، سيكون تفسير سلوك آرندت كجزء من لا منطقية الحب، والطريقة التي تتحكم بها عاطفتها.

كما فعلت مع ياسبرز، منحت آرندت نصيحة نشر لهايدغر، وعملت على ترجماته. كانت تنوي إهداء النسخة الألمانية من كتابها «الوضع البشري The Human Condition»[1] لهايدغر، لكنها تراجعت. وكان إهدائها لكتابها: «في الثورة» إلى ياسبرز وزوجته. بدت رسائل آرندت لهايدغر غزيرة، رغم أنها في مراسلتها لياسبرز تكون متوحشة أحيانًا حول هايدغر. صحيح أن كامل تفاصيل نشاطات هايدغر النازية نمت إلى حد سيئ عبر فحص

(1) صدرت ترجمة هذا الكتاب (الوضع البشري/ حنة آرندت) عن دار جداول بالتعاون مع مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ترجمة: هادية العرقي.

تاريخي مقرب، لكن قد يشك امرئ أن آرندت عرفت إلى أي مدى كانت القصة سيئة، ياسبرز على سبيل المثال، بقي مصرًا على عدم السماح لهايدغر بالتدريس في ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. كان خطاب هايدغر عام 1933م، ليصبح رئيس جامعة فرايبورغ خطابًا سيئًا، وفي مراسلتها لياسبرز كانت لا تكل من الإشارة لسوء سلوك هايدغر تجاه أستاذه السابق إدموند هوسرل. أظهرت إتينغر تفاصيل مزعجة لتلون آرندت وعودتها للمواصلة مع هايدغر، ولا يبدو إنها تريد معرفة إلى أي مدى نهش آرندت وهايدغر من بعضهم البعض.

كان أحد طلاب هايدغر، يدعى هربرت ماركوس الأقل تعاطفًا مع أنشطته النازية. من اللافت أن آرندت لم تكن متعاطفة جدًا مع محنة اليهود وسط أوروبا خلال العهد النازي، ووجدت أساليبًا لعقلنة معتقدات وضلال هايدغر. مسمار واحد منها وضع الثقل على زوجة هايدغر، رغم أن هايدغر بنفسه وفي آخر حياته، أصر على أن ثلاثتهم على أساس مساو من الصداقة الحميمة. بنظر آرندت، كان هايدغر يتحول في شؤونه العملية لطاغية مثل أفلاطون. وقد أقنعت نفسها بطريقة ما، أن هايدغر لم يقرأ «كفاحي» لهتلر، كما لو أن ذلك سيكون لصالحه. وللمرء أن يتساءل عن عجائب حياة الحضارة الألمانية المزعومة، إذا كان الفشل في قراءة كتاب يمكن أن يكون لصالح هايدغر. (في الواقع قرأ هايدغر الكتاب مبكرًا عام 1931م).

يميل أنصار آرندت وهايدغر أيضًا، لفصل الفلسفة عن السياسة العملية. حافظت كاتبة سيرة آرندت الأولى إليزابيث يونغ ـ برول، على أن العلاقة بينهم لا يمكن إظهارها على أن لها تأثيرًا بالغًا على فكرها، وللمرء أن يتساءل إلى أي مدى يمكن للمؤرخين الفكريين أن يبتعدوا عن تلك التجربة الإنسانية. الخبر الأول عن العلاقة بين هايدغر وآرندت كان صدمة لبعض طلاب آرندت الحساسين أخلاقيًا. ربما دأب الفلاسفة الأكاديميين إلى الحدِّ من أهمية هايدغر السياسية، وأن هناك من المثقفين الألمان من تعاونوا مع النازية أيضًا. وحول آرندت، لم يجرؤ أحد على الشكوى من مساواتها لأصولية فلسفة هايدغر، وعلى ضوء أفكارها عن آيخمان، من الصعب ألا تتساءل عمّا إذا كانت متورطة بنقد ذاتها بشكل لا واع، إن لم يكن حاذقًا؟. إذا كان آيخمان يتبع الأوامر ببساطة، ويُرى سلوكه طبيعيًا ضمن منطق النازي الألماني، فدفاعها الشخصي عن هايدغر قد يعكس الطريق الذي يمكن أن يتأثر به مفكر اجتماعي مثلها بالظروف المحيطة، وإيجابية اتخاذ المصلحة وسط أقذر أشكال للشر. فضلًا عن كونها يهودية هاربة من ألمانيا عام 1933م، بقيت آرندت لبقية حياتها مخلصة

للفلسفة التقليدية التي ساعدت للوصول للهتلرية. وربما استمرارها في العزف الدائم على وتر سمعة هايدغر قد دمر موقفها الأخلاقي.

ليس من الواضح لي أن إتينغر واعية تمامًا بما دبَّرت لآرندت، في الوقت الذي كانت متأكدة من بغضها لهايدغر. وعندما تخبرنا بأن زوجة هايدغر النازية المتحمسة كانت: «ربما زوجة مثالية لهايدغر»، كانت إتينغر قد كسرت شوكة هايدغر بطريقتها الخاصة. وبينما تخبرنا أن: «المدافعون عن هايدغر (بما فيهم حنة آرندت) سعوا إلى تصويره ضحية عاجزة لتسلط [زوجته] الشريرة»، إتينغر بنفسها آمنت بأن هايدغر لم يكن: «أداة في يد زوجته أو أي أحد آخر».

ربما كانت إتينغر على حق بأن آرندت «برأت» هايدغر، ليس بدافع الإخلاص، العاطفة، أو حس عدالة نابع من حاجتها لحفظ كبريائها وكرامتها. مع هذا أظن أن آرندت ستكون مصدومة حينما ترى نفسها أُبتليت بحبٍّ نمطي جريح، سخيف حتى لعمرها الكبير. كانت آرندت على نحو ما، متفاجئة من غيرة زوجة هايدغر منها. رغم أن آرندت لم تكن خيانة هايدغر الوحيدة، وكيف لها أن تتوقع أي شيء غير الغيرة من جانب إلفريدا هايدغر.

رغم أن الأديولوجية النازية قد قاربت من الشريكين، لم يكن مفاجئًا أن تنكر آرندت عن زوجها الثاني بوخلر كما فعلت مع ياسبرز، ما حدث بينها وبين هايدغر بعد الحرب العالمية الثانية. تبدو تعقيدات أخلاق وسط أوروبا من وجهة نظر الأميركيين مثل دوامات من العلاقات الخائنة. لنأخذ مثالًا واحدًا، عندما كانت آرندت تقرأ عام 1961م أجزاء من مقالة نيتشة لهايدغر على صديقها كيرت ولف، الذي لم يكن الناشر الأميركي لهايدغر، «لم تذكر ذلك لياسبرز» خشية أن تعلَّ قلب معلمها المريض.

يخطئ المثقفون سياسيًا، أخلاقيًا، وشخصيًا، كما يخطئ الآخرون تمامًا. وربما لا يملك البشر العاديون الكفاءة ذاتها لخداع الذات كأصحاب العقول الفذة. من أجل سمعة آرندت والتساؤلات عن رسائلها التي حققت ضررًا أكبر ـ يتساءل المرء لِم لم تكن داهية لتدمر كافة تلك المراسلات؟.

في دهاء النساء سياسيًا، من كتبن مرارًا عن الأصالة والكذب، قد يستحيل أن تدمر ماضيًا ما لم ترى فيه ضررًا. هايدغر أيضًا، كان لديه طرقه الخاصة في خداع الذات. فقد كان هناك جدل طويل قائم حوله، وأصبحت آرندت جزءًا آمنًا منه. ويأمل المرء أن تحقق الفلسفة

المهنية يومًا المثل الأعلى للنزاهة، حتى توضع قصة آرندت وهايدغر في منظورها السليم، دون مواعظ وعقائد مسيحية لا مبرر لها.

رغم أنه لم يرق لآرندت أن تتخذ مساعدة مما يكتبه فرويد، كتحذير لأحد أكثر فلاسفته إخلاصًا، يذكرنا فرويد كيف أن هاملت قد يبدو محقًا عندما تساءل من الذي سيفر من السوط بعد المثوبة؟.

على عكس ما يروق للآخرين أن يتحدثوا عن «استيلاء» هتلر على السلطة في ألمانيا، قد أُشير بدلًا من هذا على المدى الذي نجح فيه النازيون في العمل داخل سياق قواعد اللعبة الديمقراطية. اتخذوا بالطبع مصلحة غير عادلة من الفرص السياسية، ولعب الترهيب والعنف دورًا في حملاتهم الانتخابية. لكن وفقًا للمعايير التقليدية للبرلمان الديمقراطي، حصل حزب هتلر على دعم شعبي أكبر من أي حكومة ديمقراطية منتخبة. لذلك بقي فشل نظام فايمار بعد الحرب العالمية الأولى من منع نجاح هتلر علامة ثابتة على حيوية الديمقراطية.

يمكن أن يُرى النظام الألماني كتدمير للذات، بتناسب مع ما يُنظر له على أنه ديمقراطي عادل، وقد ساعد ذلك في تعزيز أحزاب متطرفة هامشية مثل بدايات النازية. أتساءل من منا سيواصل وضع امتياز على المثل العليا لحرية التعبير وحقوق الأقليات في شمال أميركا إذا آمنا بالفعل أن هناك فرصة لازدهار نازية جديدة هنا؟. في فرنسا حاليًا بنشر(كفاحي).

بالنظر للقوة المشتركة لحق النازية ويسارية الشيوعية، كان من المستحيل على حكومة فايمار أن تتدبر أمرها دون لجوء لأوامر القوة الطارئة والتي كان هتلر قادرًا من مكتبه أن يستخدمها بأفضلية سيئة. كان هتلر ماضيًا في تحقيق أهداف قد رسمها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. مع هذا لا تزال فداحة نتيجة الهولوكوست، أمرًا مذهلًا، نصف قرن حتى وعى العالم على أسوأ كارثة. لا تزال الدراسات المقارنة الحالية للإبادات الجماعية، والتي لديها على سبيل المثال نظرة على دمار أرمينيا على يد الإمبراطورية العثمانية، أو تعدي ستالين على مزارعي الكولاك، لا تقارن بفظاعة ما ارتكبته النازية[1]. حتى بعد استمرار الهولوكوست نحو الجزء الأخير من الحرب العالمية الثانية باستخدام موارد عسكرية ألمانية

---

(1) Alan S. Rosenbaum, **Is the Holocaust Unique? Perspectives on Comparative Genocide** (Boulder, CO: Westview, 1996).

قاتلة، لم تؤخر المصلحة الذاتية تسارع قرار القوة النازية لتحقيق الحل الأخير. بغض النظر عن إسهام ألمانيا العظيم في الموسيقى، الفلسفة، والأدب، كان بقاء النازية وصمة عار على تحرر ومنطقية أفكار القرن التاسع عشر التنويري.

المفترض أن التحليل النفسي قادر على التعامل مع الدوافع غير العقلانية. لكن من وجهة نظر هتلر، لجأت النازية لعقلنة ذاتها خلف سياسة حكومته. وأصاب اضطراب نظامه وسط أوروبا آثارًا على الحركة التي ابتدأها فرويد. رغم مساعدة الداعمين من الخارج، إلا إن فرويد والمحيطين هربوا في ذلك الوقت للمنفى في لندن، وعند وصوله هناك وجَّه نصيحة لأخواته الأربع الذين خلفهم في فيينا، لكن الوقت كان متأخرًا لإنقاذهم من قبضة النازية.

(فرويد وشقيقه الأصغر تركا لهن مالًا وفيرًا، لإثبات ضمان غير كاف). رغم أن قلة من المحللين قد ماتوا في معسكرات الاعتقال، كان فكر التحليل النفسي بارزًا على حساب سيكولوجية حياة مخيمات الاعتقال. وبإرسال المحللين لأميركا، وبريطانيا، وأماكن أخرى، ساعد النازيون بلا شك بانتشار تعاليم فرويد.

إن علامة تأثير التحليل النفسي على الحياة الثقافية لزماننا، هو مشاركة المعادين له في أسسه البنائية. آرندت على سبيل المثال، كانت معادية لفرويد عداء لا يمكن تصوره. وفي نظرتها حول مدرسة واتسون السلوكية، كتبت لبلوخر: «لا يمكن أن يقرأه المرء، إن فرويد أعمق منه فكرًا، ليس عبقريًا، بل آلهة». سنوات أخرى لاحقة، كان بلوخر يحاول بأسى أن يجمع أحد أصدقائه بإريك فروم لعلاجه، لكن الدعايات المعادية للتحليل النفسي منهما دمرت الغرض الجوهري. كما كتب بلوخر لآرندت «لايزال الرجل البائس يقتبس من جدالنا ضد التحليل النفسي، لا يفترض أن نتحدث مع الآخرين كما نتحدث مع بعضنا- إننا في هذه الحالة نساعد على الفساد».

بالنسبة لآرندت، التحليل النفسي ما هو إلا محاولة لاغتصاب دور الفلسفة التقليدية العالمية. بينما يسعى لاحقًا شخص مثل لاكان ـ على العكس من فرويد ـ بالتقريب بين الفلسفة والتحليل النفسي. كانت آرندت مغيبة بسذاجة عما يمكن أن تؤول إليه تعاليم فرويد خاصة في أميركا، وتصبح بديلًا عما اعتبرته تفلسفًا حقيقيًا.

لازلت قادرًا على استحضار صدمتي بأطروحة آيخمان ـ وحكاية الهولوكوست المسجلة للمحاكمة التي سردتها، وللنظرة الخاصة التي طورتها. رغم أن الخبراء كانوا على صواب، بهجومهم على عدم تعاطف آرندت مع ضحايا النازية، إلا إن كتاب آيخمان يستعرض قضايا

نظرية رائعة. ويبقى ذلك حقيقيًا حتى بالرغم من أن المؤرخين كانوا قادرين على تمزيق خلاف آرندت وقولها بأن اليهود بلا قائد يقودهم، وأن قلة منهم كان عليهم أن يموتوا. تبنت آرندت نهجًا تحليليًا قاسيًا من لوم الضحية، وهي تروي كيف من الممكن أن يتعاون اليهود على تدمير أنفسهم. رغم أنها لم تعترف علنًا بالدعم المعلن الذي عرضه عليها بيتلهايم، كان منطق آرندت مشابهًا له حول تصرف اليهود بزعمها كخراف تجاه عدوان النازية.

لم تمر آرندت بازدراء على دلائل تاريخية تعاكس حجتها فقط، ولكنها ذهبت إلى اتهام آيخمان بشكل مركزي، وكان تحميله مسؤولية تدمير يهود أوروبا أمرًا «عاديًا». استمتعت آرندت باقتراح نصف دزينة من الأطباء النفسيين ممن شخصوا آيخمان برجل «طبيعي» قبل المحاكمة، وعلَّقت: «تقف الحقيقة المرة خلف كوميدية مختصي الروح، وهي أن آيخمان لم يكن طبيعيًا ناهيك عن شرعية جنونه».

وعن دليل الأطباء النفسيين ممن يدَّعون أن آيخمان: «رجل مهووس برغبة خطرة ونهمة للقتل»، و«شخصية سادية منحرفة»، اعتقدت آرندت: «أنه ربما ينتمي لمصحة عقلية» بدلًا من إخضاعه لحكم الإعدام. تجاوزت آرندت لآراء الأطباء النفسيين لأنها وجدت أن التحدِّي الأكبر هو افتراض أن الشخص العادي يمكن أن يكون عاجزًا عن قول الحق من الباطل.

كانت تميل لاتهام الطبقة الوسطى المجتمع «البرجوازية»، وكانت ألمانيا جزءًا من خيبتها. رغم أنها في كتابها المبكر: «أسس التوتاليتارية» تقدمت بفكرة «تطرف الشر»، وتوقعاتها عن الجماهير «كالرجال الذين لا يمكن فهمهم نفسيًا» يتفق مع ما ذهبت إليه في رأيها عن آيخمان.

رغم أن الجدل القائم حول كتاب آيخمان بدأ بالفعل بمسألة ملائمة خطفه في الأرجنتين عام 1961م، واصل الصهاينة تضررهم من موقف آرندت الانتقادي تجاه سياسات إسرائيل، وازدرائها لخطاب المدعي العام البلجيكي، وتجاهلها لبطولة المقاومة اليهودية للنازيين. ليس على المرء أن يعمى عن الصهاينة ليأخذ استثناء لأحكام آرندت، فالعديد منهم بدوا ارتجاليين.

كان الجدل الساخر حول كتاب آرندت يختلف عن الزوبعة الفكرية الأخيرة التي ألَّفها دانييل غوناه غولدهاغن «جلادو هتلر المتأهبون: الألمان والهولوكوست ـ Hitler's

«Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust»[1]. كانت أطروحة آرندت الخاصة مؤثرة عالميًا، بشكل لافت، ولم يشعر غولدهاغن بحاجة ليتقدم بتحدٍّ أمامها. في تصوره الذي يركِّز على سيكولوجية المعتدين، وكيف استجابوا طواعية لحل هتلر الأخير بوحشية غير عادية، يذكر غولدهاغن: «رغم أن استعادة شخصية المعتدين بوجودهم الاجتماعي والثقافي أمر صعب، إلا أن صوتهم كمخلوقات رعناء، خائفة تؤدي مهاما خاطئة إكراهًا غير حقيقية». حول هذه النقطة يقول غولدهاغن: «الشخص المسؤول عن نشر هذه الصورة هي حنة آرندت». نسخة غولدهاغن من «صورة» آرندت، كانت نوعًا ما مغرضة، لكن كتابه لا يزال ملفتًا تحديدًا لأنه سلط الضوء على المدى الذي كان فيه سلوك المعتدين أي شيء سوى «عادي». الواضح أن غولدهاغن لا ينظر إلى شخص مثل آيخمان كشخص بيروقراطي.

مشكلة مقارنة آرندت وغولدهاغن معقَّدة بخلفياتهم المهنية المختلفة. بينما تشيِّد آرندت فلسفتها في ألمانيا، كان غولدهاغن عالم اجتماعي صغير على وشك أن يبدأ حياته. فاق النزاع حول كتابه بطريقة ما، على الجدل حول كتاب آرندت. واتهم غولدهاغن ألمانيا بنفسها، وتقليدها الخاص بمعاداة السامية. بطريقة ما أصبح كتابه موضوعًا للمصلحة السياسية الدولية، ولم تتفوق مبيعات كتابه على مبيعات آرندت فقط، بل أن ردة فعل الألمان تجاه كتابه كانت أكثر شعبية وقوة مما حققته آرندت. يبقى أن نرى كيف نجح كتابه على المدى الطويل.

بعيدًا عن شدة الطبيعة البيروقراطية للهولوكوست، سلط غولدهاغن الضوء على القسوة الاستثنائية الموجودة في ممارسات الإبادة الجماعية الألمانية. تثبت هذه التدميرية للأسف، أن أكثر العوامل تثبيطًا لمنظور التحليل النفسي الكلاسيكي هي الإمكانات الهمجية للطبيعة البشرية، والتي ذكرها فرويد خلال الحرب العالمية الأولى. لا يُلحظ غالبًا أن غولدهاغن تحدَّى شخصيات قديمة، خرجت من محاكمة نورنبيرغ، تزعم مقتل ستة ملايين في معسكرات الاعتقال النازية. يحتج غولدهاغن بأن «وحدات الإبادة» كانت مسؤولة عما يقارب أربعين بالمئة من الضحايا اليهود. ويصر غولدهاغن أن النازية «لم تنشر غرف الغاز، والأرجح أنهم قتلوا مثل بقية اليهود»[2].

(1) Daniel Jonah Goldhagen, **Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust** (New York: Vintage, 1997).

(2) Daniel Jonah Goldhagen, «**Motives, Causes and Alibis**» New Republic (Dec. 23, 1996), p. 45.

بينما انتفض ممثلو المؤسسة اليهودية الدولية (بما فيهم إيزايا برلين كما أشارت آرندت) للانقضاض عليها، في حالة غولدهاغن كان شبه متورط في حلقة حرب مع المؤرخين. فأُتهم بتبسيطه المبالغ للدوافع خلف القتل الجماعي لليهود. يتساءل على سبيل المثال لماذا يُتهم الألمان بشدة في حين أن النمساويين الذين شكَّلوا 10% من سكان نظام هتلر، كانوا متورطين في نصف جرائم الإبادة؟[1]. تبدو معتقدات معادو السامية للأغلبية كتفسير وحيد لتدمير يهود أوروبا. كان الردُّ الشعبي المناسب لكتاب غولدهاغن كافيًا ليمرض منافسيه مهنيًا، والذي يفترض بأنهم غيورون من نجاحه الهائل.

عزت آرندت مفهومها عن آيخمان، كجزء من لائحة اتهام الثقافة الحديثة، لأنها دمرت طبيعة المحرقة وأولئك المسؤولين عن قتل الملايين. لكن إذا كان غولدهاغن قد صحح قطعًا مفهومها عما حدث، فتفسيره الخاص سيظهر في نهاية المطاف لتقليص مسؤولية هتلر عما حدث. نتفق أن القناعة الشعبية هو أن هتلر كان مجنونًا بشكل ما، أو غير مستقر على الأقل عندما ننظر لدوره الخاص. إلى جانب أنه أعطانا هاملت دون أمير الدانمارك. لم ينجح غولدهاغن أيضًا في تغذية الدوافع المتنوعة للذين صوتوا للحزب النازي في بداية المطاف.

دعونا نفترض أن كلًّا من آرندت وغولدهاغن كليهما كانا مذنبين في تبسيطهما، وأن النقَّاد المختصون كانوا مساهمين في رفع الكراهية الشعبية المعترضة. مع هذا كُتب كتاب: «آيخمان في القدس»، وكتاب: «جلادو هتلر المتأهبون»، كما أعتقد لقراءة إبهارية. دراسة الهولوكوست لم تتأخر بالتأكيد للتحيِّز الشعبي لكتاب كلًّا من الطرفين. لا أريد أن أقيِّم أعمالهما على ضوء العواقب الاجتماعية التي حصلت، لكنني أعتقد أنه من العسير إنكار أن نشر هذين الكتابين والجدل الذي تصاعد حولهما، هي إشارة مضيئة للأجيال المتعاقبة حول ما حدث تحت الحكم النازي.

فرّت أستاذتي القديمة مع عائلتها من وسط أوروبا في الثلاثينات، وتشير لي بإنها كانت تأمل في وقت محاكمة آيخمان، أن يُعثر على نازي سابق أو آخر ويوضع في المحاكمة، حتى يذكر العالم من جديد ما حصل. يمكن أن يؤدي الانتقام لسياسة غريبة. كم منا يؤيد اختطاف شخص ما، ليُقدَّم إلى المحاكمة خارجيًا وتحت سلطة قضائية مختلفة؟ أنا مندهش

(1) Fritz Stern, «The Goldhagen Controversy: One Nation, One People, One Theory?» **Foreign Affairs**, Nov.-Dec. 1996, p. 129.

لأنه لم يكن هناك معارضة لما حدث «لنوريغا» في بنما العام الماضي، والذي يقبع الآن في سجن بأميركا. العديد منا يميل لأن يكون مشككًا حول أخلاقيات عقوبة الإعدام، مع ذلك إذا واجهنا ما فعل النازيون أجد من الصعوبة اتخاذ موقف إنساني تجاههم. سيواصل مفهوم جرائم الحرب والمحاكمات السياسية بوجه عام مطاردة التشريع الليبرالي الحديث. ففي عام 1970م صدم تيلفورد تايلور، الذي كان رئيسًا مستشارًا للولايات المتحدة في نورنبيرغ، المناصرين للحرب في الجنوب الآسيوي بنظرته للمغامرة الأميركية على ضوء مبادئ محاكمة نورنبيرغ[1]. وقد أيقظ ما فعله مع طالبان ومقاتلي القاعدة مشكلة تحقيق العدالة السياسية.

من الواضح أن لدى التحليل النفسي شيئًا مهمًا ليقوله حول العنف، فالتركيز الفرويدي المبكر على العلوم المرضية كان قبل سنوات من بدء حديث آنا فرويد حول العنف، وكيف يمكن أن يكون صحيًا وجزءًا أساسًا من نمو الشخصية[2]. لكن ليس هناك كرسي بحث نظري، حتى ولو بشأن الوجود المفترض «لغريزة القتل»، يمكن أن يزودنا بالحقائق الوحشية التي توضحها المحرقة. غالبًا ما تطغى طاقة الشر تحت مصطلحات مهنية، تذكرنا أن ما من اصطلاح في علم النفس الحديث يجب أن يؤخذ كبديل للفلسفة التقليدية الأخلاقية. لايزال لغزًا بالنسبة لي كيف تقع محرقة مثل الهولوكوست أو أي إبادة أخرى. كتب هنري آدامز مرة في كتابه: «التعليم ـ Education» إن: «الفشل الهائل للمسيحية عذاب للتاريخ»[3]، وقوله المأثور هذا يبدو لي وثيق الصلة بالهولوكوست. ربما كان غولدهاغن وآرندت على حق تام في علاجهما لمشكلة قد تبقى عاجزة باستمرار عن حل نفسها، لكنها معضلة حقيقية.

بعد فترة قصيرة من تولي النازيين السلطة، بدأوا بحرق الكتب، علّق فرويد على ذلك بأسف: «ما هو التقدم الذي نجنيه، ربما أحرقوني في العصور الوسطى، لكنهم في هذه الأيام راضين بإحراق كتبي!». بكافة شكوكه في دوافع الفرد، وشكوكه حول تقدم التنوير

(1) Telford Taylor, **Nuremberg and Vietnam: American Tragedy** (Chicago: Quadrangle Books, 1970). See also Gary Jonathan Bass, **Stay the Hand of Vengeance: The Politics of** War **Crime Tribunals** (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002).

(2) Anna Freud, **Normality and Pathology in Childhood** (New York: International Universities Press, 1965), p. 180.

(3) Henry Adams, **The Education of Henry Adams** (New York: Modern Library, 1931), p. 472.

في التاريخ، كان فرويد مثل غيره لم يتوقع فظاعة المحرقة، ولكن غاب عنه الخطر الأصلي لتنصيب هتلر. قبل أن يأخذ النازيون السلطة، نُقل عنه قوله: «إن أمة أنجبت غيته لا يمكن أن تصل لهذا الدمار». وبعد تولي النازيين السلطة انضم فرويد بسذاجة للإيمان بكافة أنواع القصص عن انحراف هتلر الجنسي المزعوم. عندما قال فيلهلم رايخ بأن هزة الجماع الجنسية دلالة على حالة سوية، كان يدافع عن جانب من جوانب التفكير الفرويدي. لكن هتلر وستالين كانوا قد جددوا اهتمامهم برمز الشيطان. ميخائيل بولغاكوف بروايته الشهيرة: «المعلم ومارغريتا» وما هي إلا مثال وحيد على أن الإيمان بقوى الشر الخارقة أمر طبيعي.

عندما عرّف فرويد بنفسه هزليًا في عدة مناسبات بأنه الشيطان، كان يفعلها بروح نيتشة واحتفالًا بفضائل العدوان. مهما كان افتقار فرويد للتقوى الطبيعية مُهينًا، هل التساؤل عما إذا كانت الأخلاقيات المسيحية تستحق أن تهان من قبل أشخاص مثل نيتشه وفرويد (أو هايدغر) يعدُّ تساؤلًا شرعيًا، على الأقل، لم يتركنا فكر فرويد ـ وهذا ينطبق على شخصيات غيره ـ غير مستعدين للاشتباكات بين القيم الأخلاقية البديلة، والتي ستكون صادمة في علاقتها بالمحرقة. كما اعتاد جان بول سارتر أن يتكئ على مثال المعضلة الفلسفية لشاب يجبر أن يختار بين الجلوس في البيت ليحمي أمه المسنة كمعارضة للانضمام للمقاومة.

يفترض أن تُعلَّق مفاهيم أميركا الشمالية للحالة السوية على ضوء المبالغات المختلفة التي قدمها آرندت وغولدهاغن. إذا قدرنا الكفاءة الكاملة للبشرية للتصرف بطرق مخيبة صادمة، يحتم علينا تقدير كفاءتهم بتجاوز التجربة بطريقة بطولية. قبل أن تتحقق هذه الثروة التي نتمتع بها في هذه القارة، كانت قد مرت بتشوّهات عديدة، كالدمار الهندي، العبودية، والحرب الأهلية، لذا يجب أن تكون متوازنة مع ما حصل في أماكن أخرى حتى لو كانت أسوأ من ذلك. في مواجهة واقع الهولوكوست أعتقد أن أولئك الذين حاولوا إحياء التعاليم الأخلاقية والفلسفية قد قدموا خدمة جليلة. فمن الشجاعة أن يحاول شخص مثل أوتو رانك شرعنة إيثار من جانب تحليلي ـ نفسي. وكذلك الطبيب النفسي المتغطرس إريك إريكسون، والذي ازدراه لاكان، بصفته الأكثر خطورة، لأن مدرسة لاكان كانت تحاول إضفاء أخلاقيات مسيحية داخل التحليل النفسي. وليس من المفاجئ أن شقيق الراهب بنديكيت والذي أهداه لاكان أطروحته، كان قادرًا على وصف كافة تعاليم لاكان ضمن اللاهوت الكاثوليكي[1].

(1) Paul Roazen, **The Trauma of Freud: Controversies in Psychoanalysis** (New Brunswick, NJ. Transaction Publishers, 2002), ch. 8.

رغم أن التحليل النفسي انجذب خاصة لليسار، لكن يجب ألا نتجاهل الطرق الأساسية التي كانت مساعدة بإثراء بعض الجوانب القديمة للثقافة الغربية. وعلى المرء ألا يذهب بعيدًا كما فعلت آرندت بردة فعلها مع السلوكي واتسون، لتستنتج أنها وحدها وفرويد يمكن اعتبارهما مفكرين عميقين في هذا الشأن، لكنها ساهمت مثل غيرها من المفكرين بإيقاظنا حول ضرورة مواجهة التحديات الأساسية للحياة الأخلاقية.

الفصل الثاني عشر

جيفري غورير

يتبع التاريخ السياسي المد والجزر في المناسبات العامة، بينما في العصور السابقة يكون تاريخ حياة الملوك نقطة انطلاق للسرد التاريخي. وخلال القرن العشرين، على الأقل في الغرب الديمقراطي، كانت الانتخابات علامات يهتدى بها للماضي التاريخي. أصبحت دراسة التاريخ الفكري تحقيقًا غير مكتمل، وكان لأصحاب التخصصات الأكاديمية من مختصين اجتماعيين إضافة إلى المؤرخين والمنظرين السياسيين، وأيضًا النقَّاد الأدبيين اهتمام في هذا الجانب. لكن أساس تاريخ الأفكار متزعزع، ففي النهاية يكون هناك إجماع قليل حول ما يمكن أن يشكل فكرة.

بدا لي طويلًا أن أحد المشاكل المركزية مع التاريخ الفكري، هو الأسلوب المتقلب الذي بُني عليه. اخترت هنا الكاتب جيفري غورير لأوضح كيف أن العشوائية هي أسلوبنا في تذكر الماضي. كان غورير في حياته (1905 ـ 1985م) رجل رسائل بارز، باحث محترم، عُرف على نطاق واسع في إنكلترا وأميركا. فعلى سبيل المثال، إذا انتقى أحد مجموعة مجلدات جورج أورويل والتي تحوي مراسلاته ومقالاته، سيجد توضيحات عديدة حول علاقة وثيقة بين هذين الرجلين غورير وأورويل. وإضافة لذلك، كان غورير مساعدًا مقربًا لمارغريت ميد، وكزوج بديل لابنة ميد كاثرين باتسون التي كانت تناديه بـ «العم جيفري».

كان غورير معروفًا أيضًا هناك في إنكلترا لعائلة الكاتبة سيتول. خلال الحرب العالمية الثانية، خدم غورير في السفارة البريطانية في واشنطن، في الوقت الذي كان فيه المثقفون يساعدون بوطنية كلا الحكومتين البريطانية والأميركية. من المفاجئ أنه لم يكتب حتى الآن شيء كاف حول الدور الذي لعبه المفكرون خلال أزمة الحرب العالمية، مثل هربرت ماركوس الذي لم يُبدِ اهتمامًا علميًا وخدم في وزارة الخارجية الأميركية. (ونعلم أن فرانز

نيومان الماركسي، كان في فترة ما، يتجسس لأجل السوفيات بينما يخدم لمصلحة مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي سبق وجود وكالة المخابرات المركزية).

زعم غورير أنه يستحق إجازة ستة أشهر من الحرب العالمية الثانية، بعدما نجح في الضغط على الإمبراطور الياباني بعدم الهجوم. (من المسلَّم به أن فشل توجيه الاتهامات للإمبراطور الياباني كمجرم حرب كان لها أثر بالغ في تهرب اليابان من تاريخ ما بعد الحرب العالمية).

قبل ذلك، عندما كنت غارقًا في تباين استقبال المدرسة الفرويدية في أميركا وإنكلترا، نشر غورير عام 1961م مقاله: «هل نحن مهووسون بفرويد؟» في مجلة: «نيويورك تايمز»، قارن غورير قصة غرام الأميركيين بجوانب التحليل النفسي والعداء الصريح له في معظم أوروبا، وقد ألمح إلى أن جزءًا من هذا التفسير، يعود لاختلاف السلوك تجاه الأطفال في أميركا وبريطانيا.

ربما أكثر كتب غورير شعبية كان «الشعب الأميركي ـ The American People» عام 1948م، كتاب انطباعي ومقروء من شريحة واسعة، بُنيت أحداثه على تسع سنوات قضاها غورير في الولايات المتحدة. وبينما كانت دراسات الشخصية الوطنية في أوجها، كان تركيزه على الأنتروبولوجيا معنيًا بالروابط المشتركة بين الثقافة والشخصية. رغم أن غورير كان طالبًا جامعيًا في تشارلستون، كامبريدج، ودرس أيضًا في السوربون، وجامعة برلين، إلا أنه بقي دون أي تدريب مهني دقيق.

قام مع ذلك، بتأليف عدد من الكتب الرائعة. نشر في الثلاثينات كتابًا يدور حول حياة وكتابات الماركيز دي ساد، ومن ثم تقريرًا عن جبال الهمالايا، ومناقشة متواصلة مع شخصية إنكليزية. (رغم أنها تبدو متماشية مع نقاط قوته، وربما جاءت ردة فعل للنقد الذي شعر به، وقد بقي في سنواته الأخيرة مفتونًا باستخدام مواد للدراسة العلمية الاجتماعية). تعاون غورير أيضًا مع محلل نفسي بريطاني، يدعى: جون ريكمان في كتابته عن سيكولوجية الروس.

أثار الكتاب الأخير سخرية معتبرة بين علماء الاجتماع، بسبب العلاقة السببية المقترحة بين ممارسة دثار الطفل، واستبداد روسيا السياسي، واعتبرت هذه الفرضية توضيحًا إجماليًا لكيف يمكن أن يكون علم النفس مبالغة عند علم الاجتماع. (كان هناك طبيب نفسي ـ ثقافي

فنلندي جدد اسم غورير فيما يتعلق بكتابه الأخير «الدثار، العار والمجتمع: حول المنهج النفستاريخي وروسيا ـ Swaddling. Shame and Society: on Psychohistory and Russia[1]. تدّبر غورير نشر كتب السفر، وبقي كاتبًا معتبرًا، و.و نورتون كانت الناشر الخاص له في نيويورك. خرج كتاب: «الموت، الحزن، الحداد ـ Death. Grief and Mourning» في نفس السنة التي التقيته بها، وقد كتب لاحقًا مجموعة من المقالات تدور حول موضوع «أخطار» المساواة. في بريطانيا، انتظم غورير بكتابة مراجعات للكتب في أبرز الصحف الأدبية الأسبوعية، وبقي اسمًا لا يستهان به.

أخبرني غورير وآخرون أعرفهم، حول مرضه الصحي في وسط السبعينات، وحاجته لمنظم ضربات القلب ليثبت له. رغم أن الملفات التي بحوزتي تشير إلى أننا كنا متواصلين بالرسائل خلال عام 1979م، أتذكر أن محاولتي الأخيرة لأتواصل معه كان منها رسالة مني أعيدت إلي من نظام البريد البريطاني، في وقت استنتجت أن أسوأ ما يمكن أن يحدث قد حدث. أعلم إنني لم أرى مذكرة نعي غورير في «نيويورك تايمز»، وعندما سألت بعض معارفه في لندن، كانوا مغيبين أيضًا حول ما حدث. وكذلك كان لورد أنان، خبير في الحياة البريطانية الفكرية للقرن العشرين.

كانت المرة الوحيدة التي مررت بالقطار بمدينة هايواردس هيث، التي يعيش فيها غورير، عام 1994م، كنت حينها بصدد إلقاء خطاب في جامعة ساسكس. كان منزله الرائع الذي يعود إلى عام 1692م معروفًا جيدًا، وكان هناك لوحة إرشادية توجه السياح لهذا المكان حتى عام 1965م. عندما كتبت للمالك الحالي، أفادني بأن وفاة غورير كانت عام 1985م، «كان رجلا خيرًا، محترمًا إلى حدٍّ ما». اتصلت بعد ذلك بمقر سومرست لتسلّم نسخة من وصيته. بعدما أعاد كتابتها عدة مرات حتى النهاية، ذهب الجزء الأكبر من ماله لجامعة كامبردج (فقد بقي في حياته غير متزوج، وبلا أطفال).

أردت بحوثه ـ التي ذهبت لجامعة ساسكس ـ في المقام الأول لأنها ستكون مستودعًا غنيًا للمؤرخين الفكريين. رغم أنني ذهبت إلى هناك بنية جمع مجلد مراسلات غورير، فوجئت بأن رسائل مارغريت ميد كانت طويلة جدًا، كانت تقريبًا كحسابات رحلة ميدانية،

(1) Juhani Ihanus, **Swaddling, Shame and Society: On Psychohistory and Russia** (Helsinki: Kikimora Publications, 2001).

ولم أتخيل كيف يمكن أن أحرر أي شيء للنشر، فمعلوماتي حول و.هـ أودين و ج.ر أكيرلي كانت قليلة جدًا لأخرج بأكوام رسائلهم لغورير.

رغم إنني أخذت ملاحظات بعد لقائي الأول بغورير خلال صيف عام 1965م، حفظت رسائله، ورأيته بين فترة وأخرى عندما كنت في إنكلترا. إلا أن انطباعي المركزي عنه بقي على أنه من بين أذكى الأشخاص الذين التقيتهم، وأكتب الآن عنه لأنه يبدو لي من المريع أن أحدًا لم يقم بجهد لتخليد ذكراه. رأيته لأول مرة بعدما كتبت له على حين غرة، واقترح أن نلتقي لساعة في نادي أثينوم. (بعدما بدأت ألتقي به، وجدت أن بعضًا من أبرز المحللين البريطانيين كانوا معجبين بتواصلي مع غورير).

وعلى الفور وجدته مدركًا جيدًا للسمات الاجتماعية لجمعية التحليل النفسي البريطانية. كانت كما أشار إليها بحق، عامة لغير اليهود، وكان عليها أن تبرز حتى يهيمن عليها اليهود. في العشرينات كان المحللون البريطانيون مجموعة من «قليلي الخبرة تمامًا» لكنهم كانوا على علاقة مع المجتمع المثقف. بعد هجرة محللين عالميين لبريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية، أصبحت الجمعية أكثر مهنية، ولكن في نفس الوقت انقطعت عن علاقاتها القديمة خارجيًا.

ومثل الآخرين في بريطانيا واهتمامهم الكبير في علم الأنساب، كان غورير مهتمًا بـ«نظام القرابة» بين المحللين. في نقطة ما، اقترح علي في ذلك الصيف أن أبني مخططًا عمّن (قام بتحليل من) بتاريخ المحللين. (نجح في الوقت الحالي، طبيب نفسي نمساوي في تحقيق هذه المهمة المعقّدة)[1]، وظنّ غورير أنه كان بإمكانه أن يفرق بين تلاميذ فرويد، والآخرين. فعلى سبيل المثال، ساندور فرينزي أو هانز ساكس، كانوا أعضاء جمعية سرية لفرويد، واعترف غورير بأن الضغوط إذا كانت شديدة، فلن يكون قادرًا على الحديث فعليًا عن التأثير المتناقض الذي أحدثه هؤلاء المحللون المختلفون على مرضاهم. (يقول غورير: إن شجرة نسب التحليل النفسي الخاصة به، كومة من الرسائل المهمة من المحلل الانتقائي جون د. ساذرلاند وجدت في ملفات غورير ـ بجانب عديد من رسائل المنبوذ مسعود خان).

(1) Ernst Falzeder, «**The Threads of Psychoanalytic Filiations or Psychoanalysis Taking Effect**», **in Andre Haynal and Ernst Falzeder**, eds.,100 Years of Psychoanalysis (London: Karnac, 1994), pp. 169 _ 194.

بدا مثاليًا كيف أحسن غورير بناء كل ذلك، وقد تحدث بهدوء عن صداقته مع حفيد فرويد لوسيان، والذي كان رسامًا أقل شهرة مما هو عليه الآن.

(غورير أيضًا يبدو أنه عرف كليمنتي شقيق لوسيان والذي أصبح ليبراليًا للبرلمان وشخصية تلفازية أيضًا). عندما زرت منزل غورير الريفي لأول مرة بنهاية صيف عام 1965م، أطلعني على أمثلة من اللوحات الفنية المعلَّقة على جدرانه والتي اقتناها بثمن بخس في العشرينات، والثلاثينات. يقول غورير: إن كل ما كان عليه فعله لتغطية نفقاته أن يبيع واحدة من هذه اللوحات سنويًا، وبدا لي فخره ببستنة حديقته موازيًا لتأليفه.

عرف غورير الكثير عن جماعة بلومزبري، الدائرة حول فرجينيا وولف ولايتون ستراتشي، والتي جذبت الآن الكثير من الاهتمام، وأدرك غورير تمامًا كيف كانوا متداخلين مع التحليل النفسي. لسوء الحظ لم آخذ باقتراح غورير للقاء الرسام دانكن غرانت، والذي كان على قيد الحياة في ذلك الحين، وقد بدا لي هامشيًا لأولوية اهتماماتي، لاحقًا علمت بتورطه العاطفي مع شقيقة وولف فينيسا، وأيضًا اللورد كينيز. واصلت في ذلك الوقت لقائي بجيمس وأليكس ستراتشي، بما أنني علمت أنهم قد خضعوا للتحليل من قبل فرويد في فيينا.

قد يكون غورير على خطأ حول من كان ومن لم يكن خاضعًا للعلاج منذ وجود التحليل النفسي، ومنذ البداية كان غورير فضوليًا بسذاجة حول ما اعتقد أنه استحقاق لسيرة فرويد الرسمية والتي كتبها إرنست جونز. ذلك الصيف كنت منتشيًا حول ما سأجده في ملفات جونز التي لم تفرز، والتي وضعت لاحقًا في خزانة كبيرة في الطابق السفلي في جمعية التحليل النفسي البريطاني، كان غورير كما أذكر هو الشخص الوحيد الذي أسررت له دون أن أراقب ما قد كشفته له.

أخبرت غورير على سبيل المثال، كيف أعطى جونز تفسيرًا خاطئًا بالكلية حول السنوات الأخيرة للمحلل جونز فرينزي. أحد كفاءات غورير المذهلة كمفكر، هي قدرته التامة أن يبدل رأيه إذا نظر لأدلة كافية، مثلما اعترف لاحقًا بأن جونز كان متحزبًا. لا أستطيع تذكر متى قال غورير كلماته لي بالضبط، ولكن سأذكر تعجبه حينما قال: «حصلت على أسرارهم!». (كنا قادرين على الحديث عن المسائل الأدبية أيضًا، وأتذكر اختلافي مع غورير حول استحقاق سيرة جورج بينتر الذاتية لبروست، المجلد الثاني والذي ظهر في عام 1965م).

منذ بداية لقائي به كان غورير ناقدًا بحدة لميلاني كلاين، محللة هنغارية أصبحت في ذلك الحين أبرز المنظرين في التحليل النفسي البريطاني، رغم أن أعمالها في ذلك الوقت عرفت بشكل نادر في أميركا. قال غورير أنها: «افترست زملائها وطالبتهم بالتفاني الكامل». باولا هايمان، على سبيل المثال، رغم أنها أحد تلامذة كلاين أُخرجت في البداية رسميًا من مجموعة كلاين. وفقًا لغورير، على المريض أن يظهر مراحل ذهانية لمحللٍ كلاينيّ، أحيانًا تكون هذه المراحل متقلبة وأحيانًا لا. وزعم أن أتباع الكلاينية لن يكونوا سعداء خلال فترة التحليل النفسي حتى يُظهر العميل ما يفترض به أن يظهر، مؤكدًا على أن التحليل الكلايني يمكن أن يكون «مدمرًا للغاية». قال غورير: «أن كلاين (أو أحد مدافعيها) يمكن أن «يمضغوا» أوراق قُدمت من مرشحين متدربين مع ابنة فرويد آنا أو أنصارها».

على الرغم من أن آنا فرويد كانت رئيسة منافسة لميلاني كلاين في التحليل النفسي للأطفال، وخصمًا طويل الأمد في جمعية التحليل النفسي البريطانية، إلا إن غورير لم يكن إيجابيًا حول آنا أيضًا. تبين أن غورير قد صُحب برفقة إرنست كريس لمنزلها في حدائق ميرسفيلد (لاحقًا متحف فرويد)، حيث قضى فرويد آخر أشهر في حياته يتعذب من المرض. يؤمن غورير بأن كريس من ألطف وأثقف المحللين النفسيين الذين عرفهم في فيينا. كانت آنا فرويد بنظر غورير عذراء طاهرة في الكنيسة التي أسسها فرويد، وباعتقاد غورير أن تزعمها لحركة التحليل النفسي كان «بحق سماوي». (ورفض ما قيل عن آنا وكونها على علاقة مثلية مع دورثي بيرلنغهام، لأنهن بدينَ في نظره مثل راهبات).

غورير كان أكثر قسوة حول ماري بونابرت، وابنها الأنتروبولوجي بيتر الذي كان متطفلًا على السياسة الملكية الفرنسية. ومن وجهة نظر غورير لم يكن لأي أحد منها ثقله في العالم الفكري. (وُجدت رسائل ماري بونابرت إلى جونز، بينما كان يكتب سيرة فرويد، كانت مملة ورتيبة بشكل ملحوظ).

شعر غورير بأن فرويد قد انجذب بكل تأكيد لماري، وذلك لأهمية الدوائر الاجتماعية الأرستقراطية التي انتقلت لها. كانت السليل المباشر لشقيق نابليون لوسيان، وتزوجت أيضًا من شقيق آخر ملوك اليونان، زوج ماري كان إضافة لذلك عضوًا في العائلة الملكية الدانماركية.

كان غورير مساعدًا في تشجيعه لي برؤية مخبرين آخرين. الدكتور إدوار غلوفر على سبيل

المثال قد حصل على «اتفاق صريح» من كل شخص فيما يخص العذاب خلال الحرب العالمية الثانية بين أتباع الكلاينية وأتباع آنا فرويد. (لم يحصل غلوفر على عداوة مجموعة كلاين فقط، لكن تحالفه المؤقت مع آنا فرويد سهَّل قبول عرض جونز باستبداله كسكرتير للاتحاد الدولي للتحليل النفسي). يلمح غورير إلى أن ذلك كان «قانونًا سيكولوجيًا» وأن كل «الخارجين» مثل غلوفر كانوا أفضل مصدر للمعلومات، ومن منظوري أن غلوفر كان شخصًا يملك بصيرة رائعة[1]. أصرّ غورير أن أرى هارولد لازويل حينما أعود للولايات المتحدة في نيو هافن حالًا. كان لازويل رائدًا في محاولة جمع العمق النفسي مع العلم السياسي، وخبرتي المهنية في الحكومة كانت أيضًا تابعة لمجال لازويل الأصلي، لذلك كان كرمًا من غورير لكونه مدركًا بشكل جيد أن يدفعني لهذا الاتجاه، والذي أثبت لاحقًا أنه مساعدًا لنموي الفكري. لكن غورير أيضًا دفعني لمتابعة رؤية مريضة سابقة لفرويد جيني لاميل دي غرو في هولندا، اتضح أنها متحيزة جدًا لصفّ آنا فرويد، وبالتالي فشلت بأن تكون إسهامًا مستقلًا لبحثي.

كان غورير بنفسه داهية سياسية، وفي ذلك الصيف عام 1965م، عندما صعّد الرئيس ليندون جونسون الالتزام الأميركي للدفاع عن جنوب فيتنام، شعر غورير بأن جونسون «يقود نمرًا»، وذكر شيئًا لم يسبق أن وجدته مثبتًا في الأدب لكنه يستحق التذكير، وهو أن هاري هوبكنز مساعد فرانكلين روزفلت حُلل وكان خارجًا لـ«تحويل» الآخرين. ربما وجد غورير هذه المعلومات بسبب عمله وقت الحرب في واشنطن. كنت قد قرأت أن الطبيب النفسي هاري ستاك سوليفان كان لديه إذن دخول خاص للبيت الأبيض زمن الحرب العالمية الثانية، رغم أنه ما من عالم سياسي أو كاتب سيرة كان لديه سبب غير عادي لدخول البيت الأبيض.

بينما كنت آمل صراحة أن يكون لدى غورير بعض الآراء الأنتروبولوجية حول العلاقة بين الثقافات الوطنية المختلفة، والأعراض النفسية المختلفة، لكنني أعتقد أنه لم يكن هناك بيانات كافية للكتابة حول هذه المشكلة. كان غورير يعتقد أنه من الأمان تجاهل عمل جيزا روهايم، وهو أول محلل يتخذ حقل عمل أنتروبولوجي (بدعم مالي من ماري بونابرت)، روهايم كان ملتزمًا تمامًا بـ«عقيدة وهمية» تقول بأنه يلزم أن يكون لدى المريض «صدمة» نفسية مركزية كي تكتشف.

---

(1) Paul Roazen, Oedipus in Britain: **Edward Glover and the Struggle Over Klein** (New York: Other Press, 2000).

كان من المفترض أن يكون العالم الأنتروبولوجي الفرنسي جورج ديفروكس «أكثر موثوقية»، راجع غورير أحد أعماله مؤخرًا في مجلة التحليل النفسي الدولية الرسمية، لكنه لم يكن ناقدًا جيدًا لعمل ديفروكس. رغم أن غورير أشاد كثيرًا بإريك إريكسون كمحلل لديه اهتمامًات أنتروبولوجية، إلا إنه زعم أن إسهامه الوحيد كان حول (مكسيم غوركي) والذي كان واضحًا في كتابه: «الطفولة والمجتمع»، ذلك لأن مارغريت ميد «ثبتت قدمها» مع إريكسون حول هذه المسألة. (لاحقًا أصبح غورير قاسيًا على كتاب إريكسون دراسة غاندي سواء كانت قسوة علنية أو خفية).

ولتأكيد موقف غورير، في المرة الأولى التي رأيته فيها، كان ثابتًا عندما علَّق على فلاديمير نابوكوف وإيزايا برلين وكيف حاولا تلميع بعضهم في السفارة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية، كنت مصدومًا بمدى تواضع غورير حينما وضع نفسه في فئة أدنى من هؤلاء المشاهير. لم يعلم غورير بمرجع سخي عنه عبر كتابٍ للدكتور كارل مينينغر، ولم يبدُ لي أن اسم غورير رنانًا، عندما صرح بأن قاضي المحكمة العليا ويليام بيرنان كان «حسيًا» تجاهه، وأن القاضي آبي فورتاس كان من معارفه أيضًا.

ولعل أفضل طريقة لإحياء غورير ستكون باقتباس بعضٍ من رسائله. رفضت أرملة أورويل إلى جانب غورير المجلد الأول للدراسة، والذي قدّم عبر بيتر ستانسكي وويليام أبراهامز، (أورويل الذي لم تعرفوه ـ The Unknown Orwell 1972م)، كان غورير مخلصًا بعنف لصديقه القديم إريك بلاير، الذي حققت له أرملته سونيا كل أمانيه، حينها كنت أعتقد (وحتى الآن) أن حكم غورير كان قاسيًا جدًا:

أعتقد أن السبب الأكبر لاعتراض سونيا أورويل على كتاب ستانسكي ـ أبراهامز هو نفس السبب الذي أملكه. لم يكونوا صريحين حياله، عندما حضروا للقائي زعموا أنهم يكتبون كتابًا حول تورط المفكرين البريطانيين في الحرب الإسبانية، كانوا على دراية بأنه لم يرغب بكتابة سيرة ذاتية عنه، وتظاهروا بأنهم لا يفكرون في ذلك إطلاقًا. ثم أخذوا المعلومات تحت ذريعة كاذبة، واستخدموها بشكل مخادع. الكتاب بأكمله قد كُتب بشكل سيئ ومخزٍ، حشو سخيف دون أدنى فهم للثقافة الإنكليزية، من الذي يريد أن يعلم عن تفاصيل فحص دخول الشرطة الهندية عام 1930م أو أيًا يكن؟ لا أظن أن أورويل كان مثل شخصية جايكل وهايد، والذي يبدو أن محور جدلهم الأساسي هو الاسم المستعار. الذي كان لحماية عائلته من

الحرج «أيام بورمية ـ Burmese Days كان أول كتاب كتبه، وكان ذلك كفرًا تقريبًا عند دعاة الإمبراطورية، على الرغم من أنه لم يكن أول كتاب نشر له»، وأشك أن محاولة إثبات كذب إريك من خلال إيجاد غريبي الأطوار ليقولوا بعد أربعين سنة أنه لم يستطع أن يشهد روحًا حقيرة تشنق، أو فيلًا يطلق عليه الرصاص، دون أن تشرح بدافع لائق أو معلن.

راجعت بعضًا من كتب إريك بمجرد نزولها، فخور لأنني بدأت بـ «الحنين لكاتلونيا ـ Homage to Catalonia» في ذروة نجاحه، لكنني لم أكتب ولا أنوي الكتابة عنه مطولًا.

كنت قد فكرت بنفسي أن أكتب مقالًا عن الروابط المفاجئة بين معاد للتحليل النفسي كأورويل، وإسهامات فرويد المركزية. كنت بالطبع أريد معرفة انطباع غورير عن ردة فعل أورويل تجاه التحليل النفسي:

بقدر ما ذهبت ذاكرتي ومعرفتي، لم يكن لجورج أورويل أي اتصال مع أي محلل نفسي، وليس لدي اهتمام بهذا الموضوع. من الواجب قوله: أن أرويل أخذ التحليل النفسي بعدائية لطيفة، ووضعه بشكل ما، مع العلم المسيحي. تدربت زوجته إيلين قليلًا على علم النفس الأكاديمي في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات، ـ بارليت وماك دوغال ومن يشابههم ـ كانوا نوعية من المعدات التي يمكن أن يتسلمها معلم المدرسة. أعرف قليلًا حول موضوع الثلاثينات، عندما كنت مطّلعًا جيدًا على إريك، كنت ممتلأ بالحماس للاكتشاف الجديد (لي) الأنتروبولوجية الاجتماعية. وأعتقد دون مجاملة أنني أستطيع أن أرى تأثيري على عدد من مقالاته، مثل قصص المدارس والبطاقات البريدية.

كان بتشجيع من غورير عندما صدرت الطبعة الأميركية لكتابي: «فرويد وأتباعه Feud and His Followers»[1] عام 1975م، قمت بإرسال نسخة له، كتب بعد ذلك حكاية عن ريكمان وفرويد، وقد ألمح لها غورير سابقًا في أحد المحادثات. أعتقد أنه كان يلمِّح لغياب بصيرة فرويد المرئية عن مرضاه:

أخبرني جون ريكمان عندما أنهى عمله مع أصدقاء من روسيا السوفياتية، والتي

(1) تصدر ترجمة هذا الكتاب (فرويد وأتباعه/ بول روزان) عن دار جداول، ترجمة: يوسف الصمعان.

استقى منها مؤلفه: «بشر من روسيا العظمى»، توقف في فيينا ـ عام 1920م حسبما أعتقد، وحُلل من قبل فرويد. وصل بلحية كثّة لكنه حلقها بعدما قضى شهرًا في التحليل النفسي، كان هناك شهر قبل أن يلحظ فرويد هذا، ويعلّق عليه بمفاجأة معتبرة. أخبرني آخرون أن ذلك أمرًا معتادًا، فهو يعمل مع أناس مختلفين عنه تمامًا. ويدّخر بصيرته لأعمال فنية وبصرية.

رغم أن المجلات الثلاثة التي اعتاد غورير الكتابة فيها ـ «The Observer» «The Listener» «TLS» ـ قد وجدوا مراجعين للنسخة البريطانية من (فرويد وأتباعه)، صرح غورير عام 1976م بأن استضافة الغارديان له لعمل مراجعة أدبية كانت «مفاجأة عظيمة». «ظننت أن أصدقاء إرنست (إرنست فرويد) وآنا، حذرين من النشر الأميركي، فقد تحققوا من كل المراجعات حتى تعاد صورتهم لمركزها السابق».

كانت مراجعة غورير من أفضل المراجعات التي تلقيتها من إنكلترا. أخبرني أنه يظنّ بأنه ساعد بكسر «التمويل الدفاعي الرتيب ضد كتابه»، في ذلك الوقت فكّرت بعمل مراجعة لكتاب يخصني في بريطانيا، فقد كان هناك العديد من الصحف الأسبوعية في الولايات المتحدة. لم يعاتبني غورير قط حول فرصي القليلة:

تجاهل فكرة عمل مراجعة ـ كتاب في أي مجلة إنكليزية. ما من مجلة يمكن أن تتحمل مصاريف السفر لتحصل على مراجعة كتاب في ذات الوقت. The New Statesman متورطة بالمال لدرجة أنها لم تعد قادرة على تحمل إرسال طبعاتها بنسخ ورقية. والتي يظهر فيها مقالاتهم ومراجعاتهم! فرصتك الوحيدة في النشر الإنكليزي (خارج المجلات المعتبرة)، هو أن تقدم مقالات غير مرغوب فيها حول مواضيع مهمة إلى حد ما، والتي تملك فيها معرفة متخصص.

ربما يتضح الآن كم كنت مرعوبًا أن شخصًا بمكانة غورير يمكن أن يتلاشى بسرعة، وبالكاد يترك أثرًا. كان يعمل وفق التقاليد الإنكليزية القديمة بكونه مثقفًا هاويًا، لكن دون انتماء لبعض المنظمات الكبيرة، مثل الجامعة البحثية، أو مدرسة المحللين الأنتروبولوجيين الثقافيين، ومن الصعب معرفة مسيرة سمعته. رغم كونه كاتبًا مستقلًا، ربما كان من دواعي سروره أن أسدد الدين الآن بكتابتي عنه. أشعر أنني مدين له من خلال محاولة تأمين بعض من سمعته، ولربما اعترف أنني أسير بقناعة حقيقية دون أمل بتحقيق مكاسب خفية.

الفصل الثالث عشر

السيرة الذاتية

كان لحركة الحقوق المدنية تأثير بالغ الأهمية على منتصف القرن في المجتمع الأميركي، لا يوجد رجل لعب دورًا بطوليًا في النضال لأجل العدالة العنصرية مثل مارتن لوثر كينغ الابن، وتقدم السيرة[1] التي كتبها ويليام روبرت ميلر الرجل العظيم في أوج مجده. يوضح ميلر أنه ليس من قبيل المصادفة أن يحمل المبشِّر هذه القضية المعينة. وقد كانت الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة التي ترخِّص للزنجي تحت وطأة العبودية، لذلك من الطبيعي أن أصبحت مكان اجتماعهم، حيث تخمد وتركد روح الرجل الأسود في الحياة العامة، تكون الكنيسة مبعثًا لإحيائه. علاوة على ذلك، كان المبشر قادرًا على أن يملك حرية أكبر في مجتمع السود، لأن الرجل الأبيض لا يمكن أن يقطع راتبه. إن موضوع قضية العدالة العنصرية يناسب رجل الدين، لأن «باثولوجية الكراهية ما هي إلا إحباط إنساني، حياة مبددة، ثقافات فرعية غير صحية».

يعطينا مارتن لوثر كينغ الابن مشهدًا دراميًا مثيرًا لطبيعة وأهمية ثورة الحقوق المدنية لعصرنا. ويقدم أيضًا تفسيرًا لتطور الرجل السوي. نجح ميلر بشكل رائع في سرده لكينغ كقائد لحركة الحقوق المدنية، ولكن الكتاب فشل كسيرة ذاتية. يجب أن تمتزج السيرة الذاتية بالتاريخ حتى تنجح تمامًا. فعلى سبيل المثال، عندما كان كينغ في الثانية عشر من عمره، فقدت جدته الوعي إثر انزلاق حفيدها من «الشرفة»، كان في ظنّ مارتن أن جدته ماتت، فما كان منه إلا أن دفع بنفسه من نافذة الدور العلوي. بعد أشهر، شعرت الجدة بالتعب وماتت، مرة أخرى دفع مارتن بنفسه من النافذة. (في كلا المرتين لم يصب بشيء).

لا يعطينا ميلر معلومات كافية عن هاتين المحاولتين لإيذاء الذات. بالتالي، فإن معرفتنا

(1) William Robert Miller, **Martin Luther King**, Jr. (New York: Weybright & Talley, 1968).

لكينغ كداعية للسلام واللاعنف، ألا تخبرنا تلك الحادثتان في بداية حياته شيئًا عن طفولته الخاصة الحساسة تجاه العنف(*)؟. لماذا يريد كينغ أن يعاقب نفسه على سقوط جدته بلا وعي أو بوعي، إذا لم ينشأ على الخوف المفرط من قوته التدميرية؟ في الواقع، نشأت الثقافة الفرعية للأقلية العرقية بتقييد التعبير الطبيعي لتأكيد الذات.

يبدو ملائمًا أن رجلًا مثل كينغ بحساسيته البالغة للعنف، قد صاغ بنفسه فلسفة تتكيف مع وضع شعبه. بالنسبة لمناهضي العنف يمكن أن تكون تلك استراتيجية ناجحة في الشمال، بما أنها السبيل الوحيد للأقلية المظلومة لتعبر عن استيائها دون أن يخاطروا بتعرضهم للقتل.

ما لذي خلفه إرث كينغ للتاريخ؟ كان للأميركي الأبيض أوهام بهذا الشأن، وأن كينغ وأتباعه نجحوا في التضاؤل والانكماش. حين نهاية حياته، أصبح كينغ محبوسًا بين «المعتدلين» من جانبه، وتنامي منزلة السود المتشددين. لم يكن الضمير الأميركي بحاجة لمزيد من الحث حول نجاح كينغ في الإدارة، ولكن سلطة الحب كان لها حدودها، وكان المهمشون يعانون تحررًا أقل مما كان يعتقد. وبالتالي، فإن إيمانه وقناعته كانت مزيجًا من القتالية وضبط النفس، إضافة إلى أن يده التي امتدت إلى مشاركة البيض في قضية الحقوق المدنية، جعلت منه «ليس مجرد زعيم للزنوج، ولكن قائدًا عظيمًا فريدًا للشعب الأميركي بأسره».

الكثير من قضايا السود في أميركا لم يكتب عنها للأسف في الصحافة. في «ملفات السود ـ Black Profiles»[1] يملي علينا جورج ميتكالف سيرًا ذاتية لأحد عشر زعيمًا أسود، معظمهم من المعاصرين لكينغ. أما «رواد الاحتجاج ـ Pioneer in Protest»[2] لكاتبه ليرون بينيت الابن، فهو عبارة عن مجموعة من السير الذاتية لزعماء سود احتجاجيين من الماضي البعيد. كل تلك الكتب يفترض أن تساعد في دفع مرجع التاريخ الأميركي أكثر فيما يخص حقائق العنصرية. من اللائق على الأقل البدء في إعادة تفسير الماضي مقابل وجهات النظر الحالية.

***

(*) في كتابه: «جنون من الطراز الرفيع» الفصل الثامن، ص 129/ ترجمة: يوسف الصمعان» تحدث ناصر قائمي بشيء من التفصيل حول تبعات هذا الفعل، إذ كان كينغ يعاني من نوبات حادة من الاكتئاب بين الفينة والأخرى، رافقته منذ المراحل الأولى من مراهقته.

(1) George R. Metcalf, **Black Profiles** (New York: McGraw-Hill, 1968).

(2) Lerone Bennet Jr., **Pioneers in Protest** (New York: Johnson, 1968).

كتب نويل فار ديفيس «لورنس و أوبنهايمر ـ Lawrence and Oppenheimer»[1]، كتاب مثير كأي عمل فني إبداعي، إلا أن كاتبه قد نسج الحبكة من خارج الواقع التاريخي. والفضل لسلسلة اللقاءات المتحررة مع علماء الفيزياء الرواد، كان البروفيسور ديفيس قادرًا على إعادة بناء ـ وبوضوح ـ حكاية اختراع كلًّا من القنابل الذرية والهيدروجينية.

أي شخص استمتع بقراءة «اللولب المزدوج ـ Double Helix» لجيمس واتسون، أو إصدارات س.ب سنو العلمية الحديثة سيقدّر هذا الكتاب. كتاب: «لورانس وأوبنهايمر» يعطي لمحة مثيرة من تقشف الحياة العلمية. بداية مع شخصيتين متناقضتين في الفيزياء الحديثة، إرنست لورانس التجريبي وروبرت أوبنهايمر التنظيري، ويستعرض الكتاب جماعة من العلماء، جميعهم من النهمين للعمل، الملتزمين بالمعايير المجتمعية للحقيقة، المخلصين لهذه المهمة النزيهة من الكشف العلمي. على الرغم من الضعف البشري، عمل هؤلاء الرجال بتناغم لإنتاج الأسلحة الرهيبة التي تهدف إلى حمايتنا.

ربما من المقاطع التي لا تنسى في هذا الكتاب، هي إحياء ذكرى قيادة أوبنهايمر الرائعة للعلماء الذين اجتمعوا في لوس ألاموس خلال الحرب العالمية الثانية، لإنشاء القنابل الذرية الأولى. حيث يشارك في هذه المجموعة المعزولة في الصحراء، كل عالم بتجربته. تعاون بعضٌ من أفضل رؤوس العلم في متعة وإثارة لإنتاج عمل إبداعي. قال أحدهم بعد ذلك: «هنا في لوس ألاموس وجدت روح أثينا، أفلاطون، والجمهورية المثالية». وخلال ترؤس روبرت أوبنهايمر الرجل الفلسفي الهادئ، كان قادرًا على استخلاص القدرة على إنجاز الهدف من تناقض بشري واسع.

ويا له من هدف! لقد افترض هؤلاء الرجال أن هذا السلاح التدميري ربما يُكتشف من قبل النازيين، لذلك سارعوا دون تردد لتكون لهم الأولوية. في الوقت الذي كانت القنابل الأميركية على وشك الانتهاء، كان الألمان قد استسلموا. لكن العوائق الفنية التي يتعين التغلب عليها قد بقيت مصلحة الجميع، لذا استمر التحرك في لوس ألاموس دون توقف حتى النهاية. في وقت جاهزية القنبلة، قلّة من العلماء من كان لديهم تنظيم أخلاقي أو دهاء سياسي ليشعروا أنهم مؤهلون للتدخل في قرار إسقاط القنبلة على اليابان.

تصبح بقية القصة التي سردها البروفيسور ديفيس أكثر سوداوية وكآبة من البحث النزيه

(1) Nuel Pharr Davis, **Lawrence and Oppenheimer** (New York: Simon & Schuster, 1968).

والمشرق للتقدم العلمي. فجأة وجد العلماء أنفسهم متورطون في أعلى مستويات صنع القرار. وشعروا بطريقة ما، بالخيانة حال إقرار إلقاء القنبلة النووية، وخشي بعض العلماء من فقدان احترامهم للقادة العسكريين والسياسيين، خوفًا من أن يجري التحكم العلمي الدولي للطاقة الذرية على نحو مكروه. أوبنهايمر على وجه الخصوص الذي كان ارتجاليًا بشأن استخدام القنبلة الذرية، يرفض الآن تغيير رأيه (ربما من إحساس بالذنب) بشأن تطور القنبلة الكبرى (الهيدروجينية).

أسقطت حركة «الرعب الأحمر» أوبنهايمر، جنبًا إلى جنب مع صديقه السابق إرنست، والذي امتد بالمناسبة لحياة وعمل أشخاص آخرين بريئين كانوا أكثر تواضعًا. أصبح لورنس مروجًا علميًا بعدما حصل على جائزة نوبل، بفضل عمله التجريبي. وبعد اختراع «السيكلوترون ـ Cyclotron» جهاز تحطيم الذرة، نادى لورنس برعاية الأبحاث العلمية الحديثة سواء كانت خاصة أو حكومية. ثم بنى سلسلة واسعة من الاتصالات مع رجال ذوي نفوذ وثروة، مما مكنه في النهاية من الإضرار بمنصب أوبنهايمر. وكان أقبح جزء في هذه القصة تحقيق الكونجرس حول براءة أوبنهايمر من الارتباط بالشيوعيين قبل الحرب العالمية الثانية، ثم قرار وكالة الطاقة الذرية سلب تصريحه الأمني.

بصرف النظر عن امتنان حكومتنا المتلون، لم يهتز الحب والتفاني الذي حصل عليه أوبنهايمر بين زملائه. أمضى آخر سنوات عمره مديرًا لمعهد برينستون للدراسات المتقدمة والذي أصبح ملجأ للعلماء من كافة أنحاء العالم. أيّ مهتم بالعلم والسياسة العامة يجب أن يقرأ هذا الكتاب، بما أن الدراما الإنسانية تميل لإقناعنا تمامًا.

***

رغم أن بعض المتعلمين الجيدين بالكاد سمعوا بماكس فيبر (1864 ـ 1920م) فهو يحتل بأمان مرتبة كأحد كبار مفكري علم الاجتماع للقرن العشرين. إلا أن كتابه الكلاسيكي حول الاتصال الداخلي بين أخلاقيات البروتستانت وروح الرأسمالية يقف كدفاع ضخم للدور المهم الذي تلعبه الأفكار في التاريخ.

شرع فيبر في بناء نظام فكري منافس لشيوعية كارل ماركس، ونجح في بناء أسلوب بديل للنظر في تغير التاريخ. كانت أفكار الإنسان مجرد «بنية فوقية» لحتمية الصراع الطبقي الاقتصادي، عوضًا عن هذا أكد فيبر على الدور الشرعي للعنصر الذاتي (وغالبًا الديني)

في التاريخ، الذي يتيح الانخراط في العمل الاجتماعي. عبر دراسة ضخمة مقارنة لأديان العالم، حاول فيبر تفسير بعض العناصر المميزة في الثقافة الغربية الحديثة، وربما بقيت أشهر مفاهيم فيبر «الكاريزما» و«النوع المثالي»، كأبرز ما أحدثت البيروقراطية الحديثة من ثورة لحضارتنا.

يعدُّ فيبر مسؤولًا عن أكثر مبرر منهجي محايد خال من قيم العلوم الاجتماعية. فهو ممن يدلل ويرعى قناعاته السياسية الخاصة. فقد كان إمبرياليًا متحررًا، بسبب ما عُهد عليه من عجز قيادة البرجوازية مطلع قرن ألمانيا. مع هذا أراد فيبر حماية الجامعات من غوغائية ألمانيا الأديولوجية. لذا أصرَّ على الأساتذة أن يُبقوا إنسانية سياستهم جانبًا عن علمهم. كتاب: «القفص الحديدي ـ The Iron Cage»[1] لأرثر ميتزمان يأتي كتفسير تاريخي لحياة فيبر، يتلذذ فيه كل محبو التاريخ الفكري.

دون محاولة لتلخيص كافة أعمال فيبر، مزج ميتزمان بعضًا من مشاكل فيبر الشخصية المركزية مع أهم إسهاماته الرائعة للفكر الاجتماعي. وخاصة الاستخدام الرقيق الذي وضع من خلاله ميتزمان أفكار التحليل النفسي، بالنسبة له، كان فيبر رجلًا محطمًا ومعذبًا بدرجة غير عادية، وأحيانًا تعجيزية، من بينها تزييفه لأكثر أفكاره الأصلية.

يبدو نقاش ميتزمان حول مصادر انهيار فيبر النفسية بعد موت والده عام 1897م، مهمًا على وجه الخصوص، بقدر أهمية تفسيره لصعوبات فيبر الجنسية. مثل بعض النقابات الشهيرة في التاريخ الفكري، يبدو أن زواج ماكس وماريان فيبر (التي أصبحت أول كاتبة لسيرته) لم يكن زواجًا تامًا. تأتي هذه المعلومات الجديدة من حياة فيبر الخاصة في نهاية كتاب ميتزمان، ولربما تمنى القارئ لو أنها كانت في بداية الكتاب حينما ناقش حياة فيبر المهنية. لكن تنحية ذلك كان نوعًا ما، تنظيمًا غريبًا، ولكن دخول هذه المعلومات الجديدة للسيرة الذاتية في نهاية بحثه «القفص الحديدي» قد أثبتت مثالًا بارزًا لتاريخ الأفكار في أفضل حالاته.

***

مال المفكرون في منتصف الحرب الأميركية في الجنوب الآسيوي إلى العودة للماضي،

---

(1) Arthur Mitzman, **The Iron Cage** (New York: Alfred A. Knopf, 1970).

لاكتشاف أولئك الكتَّاب الوطنيين الذين حذرونا من احتمالات ظهور الشخصية الإمبريالية الأميركية. من بين نقَّاد الحضارة التقليدية الأميركية لا يمكن لأحد تجاوز مارك توين «لينكولن الأدب» النبي العصري للثقافة الأميركية. لم تتعرض سخرية توين المتوحشة لبداية بناء إمبراطورية القرن العشرين فقط، ولكن للدور الذي ستقوم به العنصرية.

كان ماكسويل غيسمار أحد أبرز نقَّاد أميركا الأدبيين على مدى جيل كامل، وفي كتابه: «مارك توين، نبي أميركي ـ Mark Twain, An American Prophet»[1] نشر غيسمار دراسة مذهلة لتوين، يثني على براعته الفنية، إضافة لسياقه اليومي الاجتماعي. كان غيسمار متجاوزًا عن مسار المدرسة الأدبية النقدية الأكاديمية الأقل تطرفًا، في تأكيده لعصاب توين، تردده، فشله الشخصي ومرارته، بينما تجاهل نقد توين الاجتماعي الرائع، والهجاء الذي ضمن شهرة واسعة له في جميع أنحاء العالم. (تتضمن المؤسسة الأدبية التي تمثلت الهزيمة كلًّا من، ليونيل تريلنغ، ف.ر ليفيز، جستين، كابلان، ليزلي فيدلر، بيرنارد ديفوتو، تشارلز نيدر، إيرفينغ هوي، ليون إيدل، وفان فيك بروكس).

اختار غيسمار التركيز على فكر توين المتأخر «دوره الناضج كضمير أميركي أمام مواجهة العالم، فهذه الفترة اللاحقة بأكملها من نفاذ بصيرة وتنبؤ بالتغيير الاجتماعي، وتنصله الملحوظ من ثقافة الأنجلو ـ ساكسون البيضاء والتي نشأت استنادًا على غزو وقمع أميركي استعماري، إضافة للتماثل النهائي مع عرق البشرة السوداء في العالم، جعلت من مارك توين شخصية وقوة ليس فقط في روسيا الثورية، ولكن أيضًا في الهند، الصين، آسيا، وجنوب أميركا اليوم».

يكمن نزاع غيسمار في أن توين لم يكن في المقام الأول روائيًا أو كاتبًا خياليًا، لكنه كان «شاعرًا نبويًا، على غرار والت وايتمان». استخدم توين خياله، إلى جانب خطاباته ومقالاته، من أجل التعبير عن حسّه الفريد للنظرة الاجتماعية الأخلاقية والميتافيزيقية.

لا يؤطر عمل «مارك توين، نبي أميركي» توين كقديس، لكنه يروي العديد من الأفراح والأحزان في مسيرة حياة سام كليمنس(*). رغم أنه تناول كتابات توين ـ والتي تعد ركيزة لكتابه ـ عوضًا عن حياته، نحصل من قراءتنا لهذا الكتاب على لمحات مثيرة للكاتب، مثل

---

(1) Maxwell Geismar, **Mark Twain: An American Prophet** (Boston: Houghton Mifflin, 1970).

(*) الاسم الحقيقي لمارك توين: (صاموئيل كليمنس).

صداقته مع الجنرال يوليسس غرانت، تأسيسه لدار نشر، تبديد أمواله وثروة زوجته في محاولة لتطوير آلة تنضيد، إفلاسه، ومن ثم إلقاءه محاضرات لأجل جمع المال وسداد ديونه. حتى في ذروة نجاحه العلمي، يمكن أن يعلن كليمنس عن قناعاته الاجتماعية المتطرفة، لذلك في نهاية حياته، ووسط حزنه وخسارته الشخصية، احتفظ بجانب السخرية والاتزان والضحك.

فيما يخص سيرته، دافع توين عن العديد من القضايا كحقوق الصينيين في الساحل الغربي، والسود أيضًا، وندد بالعديد من الحركات الاجتماعية، من البعثات التبشيرية المسيحية وصولًا إلى ارتفاع الثقة الاقتصادية، إضافة للعلم المسيحي لماري بيكر أيدي. يعود ذلك إلى أنه وبشكل جزئي (خاصة في التلاعب المصاحب لإفلاسه) شارك في بعض من المعاملات المالية المشبوهة، هذه اللاأخلاقية الأميركية قد تشاهد في أعمال لصوص النبلاء في عهده. والفضل يعود لشهرته واتصالاته العالمية، كان في منصب جيد لتقدير هوس الثراء السريع أواخر القرن التاسع عشر الأميركي، ولفهم ما يمكن للطمع أن يحدثه للروح البشرية كان توين كما صاغها غيسمار: «أكثر جاسوس شهير في بيت الأوليغارشية(*) الأميركي».

نشأ توين بخيبة أمل عميقة بمجتمعه، كان مروعًا بغزو الأميركي الدموي على الفليبين بالإضافة إلى أنه توصل للإيمان بأن «حضارة» الرجل الأبيض تأسست ونشأت على إبادة السكان الأصليين. وجّه توين كل صلاحياته ككاتب ونبي إلى جانب المظلومين، بسبب غضبه من الظلم الاجتماعي. «كان هناك عهدين من الإرهاب إذا كنا سنتذكرها وننظر لها، قتل بعاطفة جياشة، وآخر بقلب متحجر بارد، الأول استمر لأكثر من أشهر، والآخر لآلاف السنوات». عدو الحرب قادر على السخرية منها، وأصبحت «صلاة الحرب» مفضلة لديه بين المعارضين المسلحين في فيتنام.

فشل غيسمار في محاولاته الفرويدية للتقليل من أكثر أعمال توين الاجتماعية حضورًا لصالح أكثر أعماله التراجيدية الخاصة. (بالمناسبة، حضر فرويد أحد محاضراته في فيينا). في رفضه لسلبية صيغ التحليل النفسي حول الفن، قدم غيسمار خدمة جليلة لفكر ما بعد الفرويدية، عبر إحياءه نظريات أوتو رانك ونفسية الفنان. بغض النظر عن كل الجوانب

(*) شكل من أشكال الحكم ويسمى أيضًا: «حكم الأقلية»، حيث تسيطر العائلات التي تملك قوة ونفوذًا على الحكم في البلاد. أفلاطون هو أول من أشار إلى حكم الأوليغارشية في كتابه: «الجمهورية» حيث قسّم الحكم إلى دولة مثالية، ديمقراطية، وحكم الأوليغارشية.

السوداوية في توين، والإحباطات التي جربها كل كاتب عظيم، شاهد غيسمار توين بإيجابية، ككاتب «نهاري» كان حسُّه الوثني على خلاف مع معايير المجتمع. وكان «أكثر حساسية وتأثرًا بانحطاط المجتمع، عما كانت عليه الإنسانية»، استطاع غيسمار توحيد أعمال توين المبكرة مع مرارته وسخريته اللاحقة، في حين أبقى على احترام ثقته الأساسية بالإنسان، و«حفاوته بالحياة رغم كافة مآسيها».

***

كتاب: «أدلاي ستيفنسون والعالم: حياة أدلاي ستيفنسون Adlai Stevenson and the World, The Life of Adlai E. Stevenson»[1] لجون بارتلو مارتن هو المجلد الثاني لمارتن، الذي يتناول سيرة ستيفنسون وهدية لكل من يحب متابعة تعقيدات السياسة الوطنية الأميركية، وستكون تنويرًا حتى لأولئك القراء العاديين للصحف والمجلات اليومية. ليس من السهل تعلم شؤون حزب خارج السلطة، وعبر ما غُطِّي في هذا المجلد من عام (1952 حتى 1965م) كان أدلاي ستيفنسون زعيمًا غير متوج للمعارضة. إن النظام الأميركي لا يتساهل في نقد الإدارة الرئاسية، ولو كان من شخصية لها مقعد في الكونجرس. حتى لو لم نقبل خلاف مارتن بأن جون كينيدي في سياسته كان وريثًا ومنفذًا لستيفنسون، فقد لعب ستيفنسون دورًا في محاولة الطعن في استئناف دوايت أيزنهاور الذي لا يقهر.

ككاتب سيرة ذاتية ترك مارتن شيئًا ليُبحث عنه. كان ستيفنسون «مدَّخرًا بشكل حرفي، لم يكن يرمي أي شيء»، تُشكل أوراقه الآن أكبر مجموعة مخطوطة تبرع بها شخص لبرينستون. ربما يعتقد أحد أن كاتب السيرة تحت هذه الظروف سيكون انتقائيًا. رغم هذا، يقول مارتن عن استخدامه أوراق ستيفنسون بأنه اعتاد أن يترك المادة «تتكلم عن نفسها»، وكأن التخلي عن المعايير النقدية لن يكون له نتائج سيئة متوقعة. فالقارئ المهتم بإنهاء تسعمائة صفحة يمكن أن يعفى من تفاصيل انطلاق رحلة الطيران أو نوع الطائرة المعنية. وهل يهم ما لون بدلة أو قميص ستيفنسون الذي ارتداه في المؤتمر الصحفي؟ إلا إذا كان مارتن يكتب عن شخص من حقبة بعيدة من الصعب إعادة تصويرها، فسوف تكون هذه المعلومات خادمة للغرض.

---

(1) John Bartlow Martin, **Adlai Stevenson and the World: The Life of Adlai E. Stevenson** (New York: Doubleday, 1978).

انتقد مارتن اهتمام ستيفنسون الشديد بخطاباته «بدا أنه يفكر بشكل ارتجالي، الأمر الذي لا يليق به». وكان يريده «أن يتحدث بشكل رسمي وتسجيلًا فقط». قارن مارتن خطابات ستيفنسون، والتي في الغالب تبدو جيدة عندما تُقرأ لا عندما تُسمع، بخطابات كينيدي، والتي يبدو سماعها أفضل من قراءتها. أُتفق منذ زمن على أن ستيفنسون ليس مفكرًا حقيقيًا ـ بل هو شخص يقرأ الكتب ويهتم بالأفكار بذاتها. لكن ستيفنسون احترم الحياة الفكرية التي أبعدته عن أهم المرشحين الرئاسيين للقرن العشرين. إذا كان مارتن ـ وهو الذي كان أحد كتَّاب خطابات ستيفنسون ـ محقًا في اعتقاده أن ستيفنسون يتهيج كثيرًا في خطاباته، فهذا الكتاب يعاني من نفس هذا الخلل. يمدُّنا الكتاب باقتباسات طويلة من رسائل ستيفنسون الرسمية، بالإضافة إلى مقتطفات مطولة من تصريحاته خلال المؤتمرات الصحفية. كان ستيفنسون كاتبًا نهمًا للرسائل، وفي هذه النقطة عانى مارتن من استخدام غير مؤهل للمواد الأرشيفية، والتي ربما تهدد بفشل كتابه كسيرة ذاتية.

بغض النظر عن كل ذلك، نجح مارتن باستغراقه في إحياء ذاكرة الجهود المحبطة للنقد السياسي خلال سنوات آيزنهاور. رغم تدني مكانة ستيفنسون التاريخية كـ «هاملت سياسي»، كان بإمكانه أن يكون حاسمًا في بعض الأحيان، فقد امتلك موهبة لجذب المستشارين الأذكياء واللامعين. يصف مارتن كيف أدرك ستيفنسون، بمشورة خبير كفء، أن جون فوستر دولز وزير الخارجية قد أعلن عن سياسة «انتقام هائل» لم تنسجم مع ما قُدم حديثًا لميزانية سلاح الجو.

تقرير الحملة الانتخابية لعام 1956م يجعل من قراءته أمرًا محبطًا. (هذا الانتخاب تلاشى كليًا في كتاب هاليبرستام 1993م «الخمسينات»). لام مارتن ستيفنسون لعدم جعله صحة آيزنهاور أمرًا كبيرًا ـ «ربما كانت من أسوأ أخطاءه السياسية» ـ دون أن يلمح أو يشير إلى ما كان واجبًا على ستيفنسون أن يفعله. لم يكن العامة على علم بالمشاكل الصحية للرئيس، وعندما حانت نهاية الحملة الانتخابية، أشار ستيفنسون لنقطة كانت ترى على أنها تصرف يائس. كان ستيفنسون متناقضًا حول أمور الحقوق المدنية، نادى بسياسة إلغاء الفصل العنصري تدريجيًا. ثم مع أغلبية من الجنوب البيض، قام بمعارضة الشرعية الفيدرالية لإجبار المحكمة العليا عام 1954م على الفصل المدرسي، ولا عجب أن السود كانوا أقل حماسًا نحوه عما كان يجدر بهم.

في عام 1956م كانت البلاد رضيَّة وراضية عن نفسها. سواء كان بسبب أخطاء ستيفنسون

في إلقاء الخطابات، أو المبادرة المبكرة لسياسة حظر القنبلة الهيدروجينية واختبارها، وعرض التطوع للجيش، كانت سنة الجمهوريين مع رئيس شعبي غير مدمر. دمرت الثورة المجرية، أزمة السويس، ما بقي من ستيفنسون. وجاءت شعبية آيزنهاور ثانية، بعد أغلبية ساحقة من فرانكلين روزفلت عام 1936م.

عام 1960م كان ستيفنسون غير قادر على مواجهة الواقع السياسي. وكان لايزال يتوق لترشيح الحزب الديمقراطي للانتخابات الرئاسية. سمح ستيفنسون لمرشحه بأن يمضي قدمًا، ولم يدرك أن في ذلك إهانة لكينيدي. رغم أن كينيدي شعر بأن ذلك ولاء منه. بعد ذلك حنّ ستيفنسون لتعيينه وزيرًا للخارجية، رغم أن منصب سفير الأمم المتحدة كان كل ما يستطيع أن يقدمه كينيدي. كانت السنوات الأخيرة في نيويورك محبطة لستيفنسون، وأكثر من صديق له، ظنّ بأنه ذهب لمنصبه الأخير. كره ستيفنسون أن يفكر من جانب السلطة السياسية، وحاول دون فاعلية التخفيف من سلطة كينيدي. كان مشمئزًا لمحاصرته للإدلاء ببيانات كاذبة حول تغطية وكالة المخابرات المركزية لغزو خليج الخنازير. وكانت أزمة الصواريخ الكوبية كارثة أخرى بالنسبة له، على الرغم من أنه كان غائبًا عند الإدلاء بالقرارات، مما جعله يبدو وكأنه داعية للهدوء والسلام. تحت رئاسة ليندون جونسون، لم يعد ستيفنسون قادرًا على قبول أنه لم يكن رئيسًا ولا وزيرًا للخارجية الأميركية، رغم إنه سعى لأقل من ذلك خلال سنوات كينيدي.

ربما مر الكثير لتقدير السياق الذي عاش فيه ستيفنسون، لكن قراءة هذا الكتاب تذكر المرء كيف أنه كان محافظًا بالأساس. كان أقل من اشتبه بعلاقتهم مع الروس، واعتبر الشيوعية «أعظم مؤامرة لبلادنا» محليًا. أمسك ستيفنسون عن أي محاولة لكسر أي سلطة لرؤساء الحزب الديمقراطي القائم. في أواخر عام 1954م، كان سيمور هاريس لايزال يحاول إقحام ستيفنسون في اقتصادية كينيزيان(*) لموازنة الميزانية، أما بطانته التي كانت تعمل على مساعدته «ليتغلب على تنشئته» فقد كانوا يعنون بتأثير مدينة ليك فورست على تفكيره.

في دفاع مبكر لنظرية الدومينو(**) في الجنوب الآسيوي، لم يوافق ستيفنسون: مع بيير منديس عام 1953م على اقتراح تخلي فرنسا عن الهند ـ صينية. عام 1956م أعلن ستيفنيون

(*) نسبة إلى الاقتصادي جون ماينارد كينيز، انظر: هامش (2) الفصل الثالث ص 79.

(**) حضرت هذه النظرية في خطاب الرئيس آيزنهاور الشهير والذي ألقاه عام 1954م. تقول هذه النظرية بأن أي دولة يحكمها نفوذ شيوعي، فإن الدول المحيطة بها ستخضع تحت هذا النفوذ أيضًا عبر تأثير الدومينو.

«ليس هناك أي استعمار، ذهب كله». وفي عام 1964م كان لديه شك شخصي في حادثة خليج الخنازير، حينما تساءل عما تفعله السفن الأميركية في المقام الأول. ولكن بخروج ستيفنسون عن دائرة صنع القرار، وتعبه من التفكير بحصول أي شيء جديد، دعم ستيفنسون قرار جونسون بإرسال قوات قتالية لجنوب فيتنام وبدء الحرب الجوية على الشمال.

أما ما يخص مجلد مارتن الأول، «أدلاي ستفنسون لألينوي-Adlai Stevenson of Illinois»[1]، فقد غطى أول اثنين وخمسين سنة من حياة ستيفنسون، وكان ناجحًا أكثر في حفاظه على التوازن بين حياته الخاصة والعامة، في هذا المجلد، تواصل زوجة ستيفسنون السابقة الظهور والاختفاء بين فترة وأخرى. بغض النظر عن (أو ما يتفق مع) مشاعرها بالاضطهاد، لم تقنعه برؤية طبيب نفسي (باستثناء بوسطن 1942م)، وفي عام 1955م قدمت لقاء صحفيًا بينت لماذا لا يصلح ستيفنسون أن يكون رئيسًا جيدًا.

لم يحصل الطلاق لمرشح (حتى فترة ريغان عام 1980م) كان حينها قد انتخب رئيسًا، وفي الخمسينات كانت أصوات النساء منزعجة بالخصوص لفشل زواج ستيفنسون. في النهاية، أهدرت زوجته إلين أموالها واحتاجت لدعم عائلتها. عام 1966م رفع ابناها ووالدتها قضية أمام المحكمة الوصية، لتعلن أنها ليست مؤهلة للحفاظ على ثروتها. وعُين البنك للحفاظ على مالها. وكان هناك دعوى أخرى رفعها أخصائي اجتماعي لإجبارها على الخضوع لفحص في مستشفى الصحة النفسية، وقررت المحكمة بالإجماع على تأييده، لكن إلين فرت إلى ولاية أخرى. بعدما أخبرنا مارتن عن حياة ستيفنسون التراجيدية في بداية كتابه، يخبرنا هنا كيف تحصَّل الاعتمادي ستيفنسون على دعم نسائي. رغم إنه كان مقربًا للنساء ولديه عدد ممن كان يسميهن: «عشيقات» مارتن، إلا إنه امتلك واحدة في أفضل الأحوال.

يبدو أن النبلاء الأميركيون كانوا مهذبين في مكاتبهم، لكن خارج السلطة كان ستيفنسون خجولًا اجتماعيًا. وبغض النظر عن مشاكل القلب وارتفاع الضغط، كان ستيفنسون يأكل ويشرب الخمر بكثرة. سرد لنا مارتن عن كل تلك «اليخوت، القصور، الحب الأعمى، والطعام» التي ملأت سنوات حياة ستيفنسون المدمرة. رغم ذلك حتى وفاته في تموز/ يوليو 1965م أظهر ستيفنسون صلابة داخلية حتى عندما كان لديه أفضل الأسباب للشفقة الذاتية.

(1) See Paul Roazen, Encountering Freud: **The Politics and Histories of Psychoanalysis** (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers), pp. 255 _ 258.

ومما كان يميزه، أنه في أسوأ هزائمه كان يتذمر قليلًا، ونجح في قدرته على رسم الأفضل بين الناس لأجل الخدمة الاجتماعية. كتاب مارتن قد يكون أقرب لربورتاج سياسي من دراسة سيرة ذاتية رصينة. إلا أنه يذكرنا بأن كلمتي: «السياسة» و«السياسي» لا تزال قادرة على استحضار الإعجاب والاحترام.

***

ليليان هيلمان اسم لايزال يثير نوعًا من الجدال الشرس حتى بعد وفاتها عام 1984. شكّلت مسرحياتها: «أطفال الساعة»، «ثعالب صغيرة»، «شاهد على نهر الراين»، مسيرتها ككاتبة مسرحية عظيمة، وحصلت مذكراتها على أفضل المبيعات، لسيطرة الإنكليزية العامية عليها. لكن إحساسها بالتورط في الخراب دفعها للعديد من المشاجرات الشخصية والسياسية.

كان المصدر الرئيسي للشغب المحيط بهيلمان متعلق بسياستها، وكيف ذهبت للدفاع عنها بأثر رجعي. انجذبت في الثلاثينات للشيوعية، ومنذ ذلك الحين مالت خلف أسوأ أحكام الاتحاد السوفياتي. في بداية الخمسينات كانت هي وكاتب سيناريو هوليودي ضحية الهستيريا التي ارتبطت بنشاطات السيناتور جوزيف مكارثي. في مشهد لا ينسى أمام لجنة مجلس أنشطة غير الأميركيين عام 1952م، تصدَّت هيلمان للمعتدين عليها. لكن بعد ذلك، قامت في كتبها: «امرأة لم تنتهي ـ An Unfinished Woman» «بينتمينتو ـ Pentimento» «زمن وغد ـ Scoundrel Time»، بتأسيس سجل ماضيها بخيال فني مذهل، لدرجة أن محامي الحقوق المدنية الخاص بها لم يستطع أن يميز الحقائق كما عرفها. ولم يرغب أعدائها من غير الستالينية اليسارية واليمينية أيضًا، نسيان التزاماتها الخاطئة السابقة.

في سياق الحديث عنها، بدت سيرتها «ليليان هيلمان، الصورة، المرأة Lillian Hellman The Image The Woman»[1] التي كتبها ويليام رايت، سيرة قيمة وثرية تجبرك على القراءة، مع أنها لم تكن سيرة رسمية. وعلى الرغم من أن هيلمان فعلت ما تستطيع لعرقلة طريقه، وكلفت شخصًا اعتقدت أنه سيكون مترجمًا مخلصًا لسيرتها الرسمية، إلا أن رايت نجح في لقاء أكثر من مئة وخمسين شخصًا عرفوا ليليان هيلمان. ومن بين فوضى المواد المتناقضة، خرج رايت بكتاب منصف على نحو رائع.

(1) William Wright, **Lillian Hellman: The Image, The Woman** (New York: Musson, 1987).

قام بتتبع أصول عائلة هيلمان اليهودية الجنوبية، رغم أنها قضت الكثير من طفولتها في مانهاتن، ونيو أورليانز. بقي تعليمها الرسمي غير مكتمل، وقد صدمت الآخرين بكونها غير سعيدة وبشعة في شبابها. بحلول عام 1924م، عندما كانت في التاسعة عشر من عمرها، حصلت على وظيفة في دار نشر مبتكرة في نيويورك، ولبقية حياتها كانت على علاقة وثيقة مع الأدباء.

نحو نهاية زواج غير واعد التقت هيلمان بداشيل هاميت، وعاشا مع بعضهما لثلاثين سنة حتى وفاته، رغم وجود اضطرابات شخصية في حياتها. لطالما قضى هاميت وهيلمان ليال في فنادق فخمة، وكان يقدم زوجته كعارضة لنورا تشارلز في مجلة: «The Thin Man».

رغم انقطاع كتابات هاميت، إلا إنه كان قادرًا على مساعدة هيلمان في عملها. توقف عن شرب الكحول بعدما حصل على أتعاب كتابه المثير وحقوق الفيلم، بينما لم تقدم هيلمان شيئًا بشأن قدرتها على الشراب، ومعاشرة المشاهير والعظماء، وأصبحت عداوتها أمرًا أسطوريًا. يوحي الانعدام الجنسي عند هيلمان (كانت قلقة من رائحة كريهة «في الأسفل») وأسلوبها في السيطرة، بأنها صورة لأنثى أرنست هيمنجواي. تعقيداتها الشخصية مع ماري مكارثي، تالولاه بانكهيد، سيمون سينور، آرثر ميلر، وديانا تريلينغ جعلتها شهيرة، وكانت شخصيتها العامة عبارة عن مشاحنات نسائية غير طبيعة.

سخرت في مسرحياتها من الجشع، لكن دور المال كان مهمًا فيها كما لو كان شخصية منفصلة. كان قلة من المفكرين يتملكهم القليل من الحرج تجاه الثروة التي يجنونها. لذا، يستحيل نسيانها متجعدة في سن كبير، بصورة في صفحة إعلانية كبيرة مغطاة بفرو أسود، في أسفلها خط «من الذي أصبح أسطورة؟».

عندما صدرت مذكراتها لأول مرة عام 1969م، كتبت قصتها بشكل بارز كما لو كانت رواية لم يجرؤ أحد على تحدي صراحتها. صدرت حكاية «جوليا» بكتابها «بينتمينتو»، في فيلم لعبت فيه جين فوندا دور هيلمان، ليكون القشة الأخيرة في بناء بورتريه شخصي لهيلمان كما صاغها والتر مايتي. لم تجزأ قصة جوليا لأجزاء فقط، كما فعلت هيلمان، لكن تعرضت بعض الأحداث في حياة هيلمان للتفنيد.

جعلت هيلمان مقاومتها السياسية للمكارثية[1] تبدو شأنًا طيبًا وبطوليًا، أكثر مما بدت عليه،

---

(1) ينسب هذا المسمى للسياسي السيناتور جوزف مكارثي، الذي قام خلال الحرب الباردة بتوجيه اتهامات بالشيوعية لبعض الأسماء السياسية والثقافية في أميركا، كانت هذه الاتهامات اعتباطية ليس لها أساس من الصحة. أحدث هذا الفعل هستيريا عامة عرفت بـ«المكارثية».

وفي الشأن المالي عانت من تفتيش إدارة الإيرادات الداخلية أكثر من محاكم الكونجرس. يجب أن يتضمن التقييم السياسي لها تأييدها العام لمحاكمات التطهير التي قام بها ستالين عام 1937م. وحينما نوازن تدخلاتها السياسية فقد دافعت عن الجمهورية الإسبانية، وكانت معادية شرسة للنازية. وقد حفظت الذمّ المرّ للمتحررين «للعقول الضعيفة» التي لطالما احتقرتها.

بنت في نهاية حياتها حضورًا أسطوريًا في الأدب الأميركي. عانت من نظر ضعيف كان من الممكن أن ينضمّ إلى المشاكل المادية الأخرى، وقد جعلها هذا الأمر إلى جانب جويس أكثر حرصًا على التسجيل بإنكليزية منطوقة. ساعة وفاتها في منزل مارثا فاينارد بدت امرأة لا تقهر. كانت عمياء ومتوجعة، ومشلولة بشكل جزئي، كان لديها سكتات دماغية، ونوبات غضب، وبكاء. ومرت بمشاكل كبيرة في الأكل والنوم، وكادت تعض الممرضات. عندما قدم صديقها لزيارتها يسأل عن حالتها ردت: «حالتي ليست جيدة، ليست جيدة». وعندما طلب المزيد من الشرح، أضافت: «هذه أسوأ حبسة كاتب مررت بها». لا يبدو أن سيرة ليليان هيلمان التي كتبها رايت سيرة نهائية مضمونة، ويظهر أنه لم يخطر في باله أن هيلمان حينما تسيىء التصرف في حفل عشاء معين، فإن ذلك ربما بسبب ملل رهيب لتجمع نظمه مضيفون بغيضون معنيون. بلا شك سيكون هناك عمل أدبي لهيلمان، لكن السيرة التي كتبها رايت كانت جيدة في خلق حياة امرأة رائعة.

***

أميركا مبذرة في المواهب السياسية. فقد قامت أسطورة الديمقراطية الأساسية على تغذية وهم قوة وسيطرة المواطن العادي، وأن المعين الذي لا ينضب من الممثلين لهذه الديمقراطية يمكن الاعتماد عليه دائمًا. لطالما كان النظام البرلماني للحكومة أقل نبذًا لقادته، لكن الأمر يختلف في نظامنا السياسي، فمن النادر أن يبقى أحد من الرؤساء السابقين إلى جانب نوابهم والمرشحين الذين فشلوا في انتخاباتهم في النظام. هذا التفاني للخدمة العامة أمر نادر بيننا، وهو جزء من الصورة العامة، لأن ثقافتنا تقاوم فكرة خصوصية التجربة السياسية، أو إنها تجربة تستحق الصقل.

بدت مسيرة ويليام بولت الفاشلة مأساة سياسية كبيرة لأميركي متميز. لكن الأمر لا يمتد للاعتقاد بأنه نسخة من غاتسبي. كما كتب جورج ف. كينان عنه عندما أصبح أول سفير

للاتحاد السوفياتي عام 1933م، أنه كان «وسيمًا، مؤدبًا، ساحرًا للغاية ومتحمسًا، إنه ثمرة مجتمع فيلادلفيا وجامعة يال، لكن بإقامة أوروبية معتبرة، وتوهج شخصي بلمحة من ف. سكوت فيتزجيرالد ـ رجل العالم». وعلى الرغم من أن مشاكل بولت برزت من الإطار الذي عمل به، إلا أن بعض العيوب الشخصية طاردته خلال حياته، وفي نهاية الأمر تسببت في نفيه سياسيًا. لكنه لم يكن راضيًا بمجرد تحصيل خاص له، بل كانت معاناته وضياعه في العالم المحيط به.

لأوراق بولت أهمية تاريخية معتبرة. عندما مدد فرانكلين روزفلت نطاق الإقرار الدبلوماسي الأميركي للسوفيات، اختار بولت مساعدين له كسفير أميركي وهما جورج كينان، وتشارلز بوهلن. بعد ذلك، أصبح سفيرًا لفرنسا عام 1936م حتى اجتياح الغزو الألماني والإطاحة بالجمهورية الفرنسية الثالثة، كان بولت سفيرًا متجولًا في أنحاء أوروبا، واحتل مركزًا متميزًا في المصادر الدبلوماسية، (في غمرة تراجع الجيش الفرنسي في الحرب، رفض بولت ترك منصبه في السفارة الأميركية، وكان رئيسًا مؤقتًا لبلدية باريس).

كان بولت في وقت مبكر، مستشارًا للوفد الأميركي في معاهدة فيرساي. ذهب في مهمة رسمية للقاء لينين، بالنيابة عن البريطانيين والأميركيين. عادة ما يُعزى تعجب بولت «رأينا المستقبل يعمل!» إلى مساعده في تلك الرحلة، لينكولن ستيفنز. حين عودة بولت من روسيا بشروط السلام التي أعتقد أنها بالغة الأهمية، تنكَّر البريطانيون لموقفه كمفاوض، ورفض الرئيس ويلسون مجرد رؤيته، استقال بولت وشعر إلى جانب المثاليين الآخرين، بخيبة أمل مريرة من ويلسون.

دعي بولت في وقت لاحق للإدلاء بشهادته أمام لجنة السيناتور هنري كابوت لودج، وأفصح بولت عن تحفظات لانسينغ وزير الخارجية فيما يتعلق بما حصل في باريس من إجبار لانسينغ على الاستقالة. ساعدت شهادة بولت بأن يهزم لودج عصبة الأمم. لم تكن معاهدة سلام، فقد تذمر بولت بقوله: «أستطيع أن أرى على الأقل أحد عشر حربًا فيها». لاحقًا كما أكد جورج كينان أن بولت كان ذو بصيرة في اشتباهه بنوايا الحرب لجوزيف ستالين. قام روزفلت بإرسال بولت بنصيحة خطية عام 1943م لإبرام صفقات قبل استسلام ألمانيا، أملًا بأن ما بعد الحرب العالمية الثانية قد يكون مختلفًا. كان بولت رجلًا صحفيًا رائعًا في عالم الأدب قبل الحرب العالمية الأولى، ثم في عام 1925م نشر رواية بيع منها 150,000 نسخة، وقد كانت سيرة ذاتية يسخر فيها من معارفه بفيلاديلفيا. زوجته الثانية لويس

براينت، كانت أرملة قريبة جون ريد مؤلف «عشرة أيام هزت العالم ـ Ten Days that Shook the World». في أواخر العشرينات بدأ بولت بدراسة تعاونية مع سيجموند فرويد حول وودرو ويلسون، ولم تظهر أخيرًا حتى قبل وقت قصير من وفاة بولت عام 1967م.

لكن لايزال غريبًا كيف مضى فرويد إلى جانب بولت بكتابة جدلية وهجومية حول ويلسون. في ذلك الوقت الذي ظهر فيه كتاب: «توماس وودرو ويلسون، دراسة سيكولوجية ـ Thomas Woodrow Wilson, Psychological Study»(*) تلقّى رأيًا بتنحية فرويد من هذا الكتاب المؤسف، رغم أن له أسبابه الخاصة لكراهية ويلسون. إريك إريكسون كان أعلى سلطة تشكك في أصالة عمل فرويد في هذا الكتاب، الذي فضل المحللون الأرثوذكس لو أنه لم يرى النور أبدًا. حتى آنا فرويد التي رغبت بتحسين المخطوطة بتحسيناتها الخاصة، مثلما رغب بذلك إريكسون. في إعادة نشر مقاله(**) بعد عقد من الزمن، اتخذ إريكسون جانبًا مختلفًا، دون تلميح للقراء بتغيير رأيه، ومنح اعترافًا عظيمًا لنشاط فرويد ومشاركته في ذلك الكتاب[1].

كان لسحر بولت ومكيدته جزء من المشكلة العلمية، اشتكى فرويد من كتمان بولت بعد اكتمال مخطوطة الكتاب بوقت قصير. تنازل بولت عن حصته من الأتعاب لابنته آنا، والتي بدورها أعلنت لسنوات عن محاولتها كتابة كتاب عن والدها. والحصيلة أن الوثائق القيمة بقيت بعيدة المنال. ولذلك احتوى كتاب: «على مقربة من العظمة، سيرة ويليام بولت So-close to Greatness, A Biography of William C. Bullitt»[2] الذي كتبه ويليام برونيل وريتشارد بيلينغز، على نصف دزينة من الإشارات المحيرة في الملاحظات الخلفية للكتاب

(*) تلقّى هذا الكتاب نقدًا شعبيًا واسعًا بين أوساط المحللين والمؤرخين إلى جانب المثقفين، واتهم فرويد في حركته، عمله التحليلي أنه قائم على إشاعات غير موثوقة.ـ رحب فلاديمير نابوكوف بهذا الكتاب قائلًا: «هذا الكتاب الكوميدي، هو المسمار الأخير في نعش هذا المشعوذ النمساوي»

(**) في مقاله الذي نشر عام 1967م قام إريك إريكسون بنسبة هذا الكتاب لويليام بولت فقط، واستشهد على ذلك بمقدمة بولت نفسه، وإنه لم يزعم بأن فرويد قد «كتب» شيئًا في هذا الكتاب، سوى جزء من المسودة الأولى لمخطوطة الكتاب.

(1) See Paul Roazen, Freud: **Political and Social Thought**, 3rd edition (New Brunswick, NJ, Transaction Publishers, 1999), Epilogue, pp. 300 _ 322; also, Paul Roazen, Erik H. Erikson: **The Power and Limits of a Vision** (Northvale, NJ: Jason Aronson, 1997), pp.13, 201 _ 203.

(2) Will Brownell and Richard N. Billings, **So Close to Greatness; A Biography of William C.Bullitt** (New York: Macmillan, 1988).

حول اللقاء الذي مُنح من قبل آنا بولت للمؤلفين، وللمرء أن يتساءل كيف لكتاب حاسم أن يظهر ويفوز بتعاونها؟. (فقد عرفت بحبها للمقاضاة، ولا يظهر اسمها في قائمة الشكر).

ليس من الواضح تمامًا ما الدور الذي لعبه بولت في إخراج فرويد من فيينا، بعد تحرك النازيين إلى النمسا. كان بولت في ذلك الحين عائدًا بشكل مؤقت للولايات المتحدة، الكابلات الرسمية لوزارة الخارجية جعلت الأمر كما لو أن فرانكلين روزفلت كان له اهتمام شخصي بسلامة فرويد، وربما مرارة بولت جعلته ينكر أي تدخل من روزفلت بشأن مصلحة فرويد. (يمكن أن يكون تغير بولت المفاجئ غير جدير بالثقة، على سبيل المثال، حاول مرة إنكار تفضيل تقدير الاتحاد السوفياتي). كان هناك مساعد قديم لبولت في القنصلية الأميركية في فيينا، وكان قادرًا على تسهيل إجراءات خروج فرويد.

كل القصص عن بولت منعشة، لكن أشهرها تلك التي كانت على حساب إنهاء مسيرته. رغم أنه في بداية الصفقة الجديدة، تخلص من عار عدم ولائه لويلسون، إلا إن روزفلت ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان مستاء منه. فقد كان بولت مندفعًا ومتعاليًا، متقلبًا، وانطباعيًا، وهذه الصفات مجتمعة مع بعضها لا تجعل من التعامل معه أمرًا سهلًا.

يظهر أنه بعد سقوط فرنسا كان روزفلت ملتويًا مع بولت، علَّقه طويلًا دون أن يجد وظيفة أخرى له. زعم برونيل وبيلنغز أن FDR كان منزعجًا بتعامل بولت مع «ميسي لاهاند»، سكرتيرة الرئيس الخاصة لعدة سنوات. عندما أصبح بولت (طليقًا للمرة الثانية) كان ذلك الزواج الرومانسي الحقيقي في حياته، كانت هناك خيانة، جعلت بولت ينهي أمر الخطوبة. لكن الدمار النهائي بين علاقة بولت والرئيس روزفلت جاءت بعد سيمنر ويلز.

رغم أن برونيل وبيلينغر لم يبحثا بسبب عدم رغبة FDR بسكرتير وزير الخارجية كوريل هال (إلا أنهما جعلا ازدراء FDR لمهن الدبلوماسيين أمرًا عاديًا). كان هناك إعجاب من روزفلت بهال عندما كان سكرتيرًا ثانيًا، ويلز أيضًا كان أسطوريًا، ولطالما كره هال ويلز لوصوله الخاص للرئيس. كان بولت يسعى لوظيفة ويلز، وبطريقة ما، علم بما حصل في رحلة قطار جنازة سبيكر بنكهيد عام 1940م، كان ويلز سكرانًا وعرض الجنس على حمال شاب في القطار. حصل بولت عن طريق أصدقائه الذين يديرون السكك الحديدية على وثائق الحادثة، بما في ذلك شهادة خطية، وانتشرت القصة.

تدخل مكتب التحقيقات الفيدرالية في القضية على افتراض أن ويلز كان خطرًا أمنيًا

محتملًا في عرض ابتزازه. لم يكن روزفلت حساسًا لموضوع المثلية، وحاول ترقيق هذه المسألة حتى تخلى بولت عنها.

يخبرنا برونيل وبيلينغز عام 1943م أن سكرتير بولت الخاص والمفضل كان مثليًا، وهو من قام بتعميم وثائق ويلز ورفعها لسيناتور جمهوري، والذي فرض لاحقًا استقالة ويلز إن لم يقبل FDR هذا الأمر مسبقًا. بعد تدمير مهنة ويلز، الذي كان موظفًا عامًا قيِّمًا في الحرب، ذهب بولت لاحقًا الى FDR ليأخذ وظيفة ويلز. ولكنه بدل رأيه، وذهب لطلب دعم الرئيس في ترشحه لمنصب عمدة فيلادلفيا. أصبحت استجابة روزفلت لبولت شعبية، وضمَّنت السيدة روزفلت في مذكراتها ذلك الأمر، لكنها تركت الأسماء، وتفاصيل طيش ويلز. أعاد وودرو بيرسون «حليف سابق لويلز» نشر القصة مباشرة بعد وفاة بولت قائلًا: «لو كنت أنا القديس بطرس، وأتيت أنت وسمنر ويلز إليّ طلبًا للغفران ودخول أبواب الجنة، هل تعرف ما سأقوله؟ سوف أقول: بيل بولت لقد لوثت اسم رجل تعب لأجل زملائه، لتذهب إلى الجحيم». بالنسبة لفرانكلين روزفلت كان ويلز وطنيًا، واعتبرت خطاياه مما يقترفه ابن آدم لنفسه.

كانت محاولة بولت في السياسة الانتخابية مهينة، تعرض للضرب المبرح كعمدة لفيلادلفيا، خيبة أمله المبكرة من السوفيات أدت به إلى أن يصبح أحد أول الأبطال الباردين. كتب بعد ذلك تقييمًا لاذعًا للأيام الأخيرة لروزفلت وسياسته الخارجية. بحلول عام 1946م كان شخصًا غير مرحب به في إدارة هاري ترومان. وفي عام 1948م أصبح الجمهوري الذي يأمل بمنصب تحت إدارة ديوي.

لبقية حياته بقي بولت صديقًا للعظيم والقوي، رغم أن توقعاته العظيمة أدت لخيبات أمل متلاحقة وسقوط مستمر. وقد تشاجر مع تشينغ كي شيك (متجاورين في المنازل في تايوان)، وبغض النظر عن دعم بولت لتحرير فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، فقد تدبر أمر إهانة ديغول. خيمت الصحة السيئة، ومشاكل الظهر المتكررة، ونوبات متقطعة من اللوكيميا على بولت، والتي ابتلعت سنوات حياته الأخيرة.

سافر بولت بين شقتيه في باريس وواشنطن، ومزرعة في ماساتشوستس وهو المعروف دائمًا بطاقته الهائلة. كان طبيبه هو من قال: إن بولت قرر إطلاق مخطوطة وودرو ويلسون عام 1965م بدافع من «الملل المطلق». تألق بولت لم يمنعه من أن يعترف بأنه غير مستقر

ومتطرف. كان متورطًا في أكثر القرارات الأجنبية الخطيرة لبلاده، وحصل على إعجاب خبير مثل هربرت فيس. قد يكون بولت ساحرًا ومتوهجًا، ولكن بغض النظر عن عيوبه، كان قد ناشد فرويد مؤسس الطب النفسي بحرارة أن يتخذه مريضًا ويقوم بتحليله نفسيًا.

مثل آخرين في دائرة فرويد (كالأميرة ماري بونابرت) زعم بولت أنه له نسبًا أرستقراطيًا، لكنه فُضح لوجود أسلاف يهوديين له، (كانت والدته هورويتز(*)، وكانت العائلة بأكملها أسقفية، لكن سلالة الأمهات في القرن الثامن عشر كان بولنديًا ـ يهوديًا). من الصعب ألا نتساءل عن المعجزة التي أصبحها ويليام بولت. كاد تشرتشل أن يقتل بعد عبوره الشارع الأميركي عندما كان ينظر للاتجاه الخاطئ، ومع ذلك لم تتح له الفرصة لمعارضة النازية. كتب بولت بعضًا من الخطابات العظيمة، ولتنظر له في أفضل صورة، يفضَّل أن تكون ملائكية بدلًا من متلاعب سياسي. بعدما كان انعزاليًا أمام ميونخ، أصبح على الفور داعية محاربًا للتدخل الأميركي. بغض النظر عن قدراته، كان لديه نقاط ضعف في الحكم، خاصة فيما يتعلق بالأمور العسكرية، وانتهى به المطاف كدخيل، منفي سياسي. شخصية بولت كانت كما لو أنه كان عاجزًا عن ملء الدور الذي أعطي له. طموحات بولت رغم فشله بإشباعها، لم تبدُ اطلاقًا أنها بعيدة المنال، وهذا ليس تكريمًا صغيرًا لحجم إنجازاته.

إذا كان هناك سيرة علمية لبولت يمكن أن تؤخذ بالحسبان، وأشك في ذلك، لأن العديد من الادعاءات والمعلومات الجديدة في كتاب: «على مقربة من العظمة» تعرضت للتشكيك. يبدو لي من الباطل ـ بعدما علمت معلومات هائلة من هذا الكتاب واعتمدت عليها هنا ـ أن ألجأ لتضخيم الأخطاء في نقاط عابرة. «على مقربة من العظمة» كتاب حيّ وموجز، ولم يقصد به كمشروع ضخم. اعتبره من تلك السير التي نجحت في التقاط روح موضوعها. حتى لو أن برونيل وبيلينغز لم يكتبا تاريخًا عظيمًا، أجد أن هذا الكتاب كُتب لقراءة مقنعة. أحد أهم الجوانب الملحوظة في مهنة بولت، والتي قد تشير لجحودنا التاريخي، أن هذا الكتاب نشر دون أن يلحظه أحد تقريبًا.

***

بمساعدة سيلٍ من العلاجات النفسية تحولت آنا سكستون من ربة منزل في ضاحية إلى أحد أكثر الشعراء الأميركيين تأثيرًا. ساعد انتحارها عام 1974م، كما كان للشاعرة سيلفيا

(*) هذا اللقب ينتشر بين يهود الأشكناز، وهو مستمد من اسم بلدة في بوهيميا.

بلاث التي سبقتها، في إضفاء أسطورة على مكانتها لأنها حولت الألم الروحي إلى عمل فني.

تعتبر سيرة «آنا سكستون، سيرة ذاتية ـ Anne Sexston A Biography»[1] التي كتبتها ديانا وود ميدلبروك، رصينة جدًا تجعل من قراءتها تجربة آسرة، سأضع كل شيء جانبًا لأنهيه في قراءة واحدة. جزء مما جعل آنا سكستون جذّابة كشاعرة، هي طريقة استخدامها لشعرها كأسلوب من الاعتراف، رأت نفسها كمكتشف لللاوعي، وذهبت لتنقِّب عن المناطق المحرمة في التجربة الإنسانية.

بدا أنها عانت من الجنون باستمرار منذ أن أصبحت أمًّا، رغم أن ذلك لم يتداخل مع ربحها لجائزة البوليتزر. في بعض الأحيان تفقد سكستون القدرة على العمل تمامًا، وقد حاولت الانتحار مرارًا، وكانت غالبًا ما تنقل للمستشفى. استخدمت الصدق كتقنية خاصة في شعرها، ورأت أنه وسيلة ناجحة لوصف تجاربها العلاجية.

ظهرت سيرة آنا سكستون بعد ترخيص ابنتها الكبرى (الوصية الأدبية)، يظهر لنا بوضوح أن سكستون انتهكت تقريبًا كل ضبط ممكن للنفس. لم تكن مدمنة كحول فقط، بل لعديد من المخدرات أيضًا، حتى إنها اعتدت جنسيًا على ابنتها. تظهر سيرتها مقنعة، خاصة لأن الابنة سمحت لأحد مختصي سكستون النفسيين الذي تعامل معها لثمان سنوات، أن يطلق الأشرطة التي يملكها، والتي تخص مئات الجلسات العلاجية لها. إذ إنها كانت غير قادرة على تذكر أي شيء ذي أهمية من جلسة لأخرى، فاعتمد على تلك الأشرطة الصوتية ليحافظ على استمرارية العلاقة العملية بينهم.

تلقَّى هذا الطبيب عاصفة من الغضب الطبي، لكسره لقاعدة السرية المعتادة. بالإضافة إلى أنه كتب مقدمة سيرتها، ولاحقًا دافع عن نفسه ضد تهمة الطيش، فقد ألمح عن معالج سابق نام معها، بينما كانت تدفع له ثمن علاجها. والمعالج الثالث أيضًا سمح لآنا سكستون لتمضي في طلاقها مع زوجها والمعاناة الطويلة معه، رغم أن ذلك دمر عمود استقرارها، وأقدمت في السنة التالية على الانتحار.

سيرة (آنا سكستون) غارقة جزئيًا في حكاية الانتهاك. لم تعش آنا حياة «لأقصى درجة» على حدِّ تعبيرها، ولم يجد معالجوها موطأ قدم لمحاولة علاجها. حتى لو إنها فكرت في

(1) Diane Wood Middlebrook, Anne Sexton: **A Biography** (Toronto: Thomas Allen & Son, 1991).

السماح بتسريب أشرطة علاجها النفسي، أتساءل هل كانت في وضع نفسي يسمح لها بفعل ذلك. بقيت منزعجًا من أن شخصًا بهذه الحالة المرضية يمكن أن يتكلم عن تجارب العديد من الناس في وقتنا.

***

في الوقت الذي انتحرت فيه سيلفيا بلاث عام 1963م بوضع رأسها داخل فرن الغاز، كانت أمًّا لطفلين ومتزوجة من تيد هيوز، الذي أصبح لاحقًا شاعر إنكلترا المتوَّج. كانت بلاث كاتبة من الطراز الأول، نشرت بعضًا من القصائد الشعرية، ورواية: «الناقوس الزجاجي ـ The Bill Jar»، والتي نشرت في إنكلترا فقط وتحت اسم مستعار، لاحقًا أصبحت من أفضل المبيعات في شمال أميركا. جاء تكريم مجموعتها الشعرية في وقت متأخر، ربحت جائزة البوليتزر عام 1982م، بعد تسعة عشر عامًا من وفاتها. وقد ساعدت وفاتها المأساوية والسابقة لأوانها في خلق صورة أسطورية لها.

نستمد جزءًا مهمًا من هذه القضية الشائكة بعلاقتها بين الفن والجنون. نشرت بلاث أول قصيدة لها عندما كانت في الثامنة والنصف من عمرها، وارتكبت أول محاولة انتحارية عندما كانت في العاشرة. بينما كانت في كلية سميث، عانت من اكتئاب خطير وخضعت لعلاج بالصدمات الكهربائية. تُظهر السيرة التي كتبها بول ألكساندر «سحر خام، سيرة سيلفيا بلاث ـ Rough Magic, A Biography of Sylvia Plath»[1] أن الطب النفسي لم يقدم لها خدمة حسنة. وأُخضعت لسلسلة من الصدمات الكهربائية العلاجية، التي يأمل المرء أن تأتي آخر الحلول لشابة مثل سيلفيا، خضعت لها ابتداء دون مبالاة، ولم يقوموا حتى بإرخاء عضلاتها. فشل آخر طبيب عالجها بالعثور على سرير لها في لندن في ذلك الوقت، ليحميها من محاولة انتحار أخير. جذبت بلاث الانتباه كواحدة من ضحايا عصرنا البارزين.

كانت السيرة المقدمة من ألكساندر عملًا فائضًا حول بلاث، أضيف لها مفهوم الضحية، عبر تسليط الضوء على زواجها من هيوز الخائن، وما مدى تسببه في انتحارها. رمزية بلاث لعقاب المجتمع بدت أنها أصابت تلك النسوة الذين انتهكوا المحرمات بدعوة أنهن أردن كل شيء، لأنها أرادت أن تكون أمًا، وزوجة، إضافة لمواصلتها مهنتها الإبداعية.

(1) Paul Alexander, Rough Magic: **A Biography of Sylvia Plath** (New York: Viking/Penguin, 1991).

عمل ألكساندر عملًا حسنًا بوصفه لخلفية عائلتها، وشبابها، ونشأتها في ماساتشوستس. نجاح بلاث كان في رسائلها المؤثرة لوالدتها التي بقيت في الولايات المتحدة. وذلك بعدما غادرت بلاث إلى إنكلترا، في البداية للدراسة في كامبردج بعدما منحت منحة فولبرايت، ومن ثم أصبحت زوجة لهيوز، وجذبت الانتباه ككاتبة.

المشكلة المركزية في «سحر خام» هو الغياب المؤسف للتفاصيل الموثقة. أعاق ألكساندر اعتراض متملكي بلاث، والتي كانت تدار بواسطة هيوز وأخته، من الاقتباس مما كتبته بلاث. من دون شك يمكن أن يكون هيوز وحشيًا كما زُعم عنه من (آسيا غوتمان، المرأة التي ترك هيوز بلاث لأجلها، لاحقًا غادرت مع طفليهما ذي السنتين، وفعلت نفس الطريقة المريعة التي انتحرت بها بلاث)، لكن ألكساندر دفع ثمنًا غاليًا لما أنجزه في (سحر خام)، لأن ما نتلقاه كان حياة دون أدلة على أعمالها.

أي كاتب جيد سيتمكن من الخلق، حتى العمل الروتيني يمكن أن يخلق سردًا لأي سيرة غير كافية بذاتها لتغطية حس الروح الإبداعية. على الجانب الآخر، صنعة بلاث كافية بحدٍّ ذاتها، وكتابتها معروفة جيدًا. ولذا كان ألكساندر قادرًا على مواصلة بحثه بضمير، مقتنع بأن السيرة غير الرسمية سيكون لها شيئًا فريدًا ليضاف لفهم الكاتب، ومن ساهم بالضغط عليه أو الاهتمام به.

«سحر خام» سيرة كتبت على نحو جيد وبخطى معنية، جعلت من قراءتها أمرًا آسرًا. كما أنها تثير عددًا من القضايا الأخلاقية كما في سيرة ديانا ميدلبروك (آنا سكستون). بما أن قلة من أطباء بلاث كانوا على استعداد للقاء الكاتب ألكساندر. غدا الأمر مثل السرِّية الطبية، على الأقل عندما يختص الأمر بأولئك المشاهير عند العامة، ممن سيعاد الجدل والشرح حولهم. ربما يعتقد ساخر بأنه من الأفضل أن يعي المريض بمستقبله ومدى استعداد الطبيب النفسي للحديث عنه، لكن هذه الحقيقة قد تتعارض بشكل مأساوي مع حاجة المرضى للحصول على المساعدة التي يطلبونها، ليكونوا قادرين على نحو مطلق بتعقل المعالجين النفسيين.

***

منذ وجود فولتير في القرن الثامن عشر، تمتعت فرنسا بتقليد وجود مفكرين بارزين من

مشاهير العامة. «ميشيل فوكو ـ Michel Foucault»[1] سيرة رائعة كتبها ديديه إربون، حصلت على أفضل المبيعات عندما ظهرت في فرنسا. تملك تفسيرًا ممتعًا عن فيلسوف حاضر (توفي فوكو جراء الأيدز عام 1984م)، وكيف نجح بأن يكون خليفة للأسطورة جان بول سارتر في المحيط الجامعي، وأحيانًا أيقونة شعبية لشركة نجوم الرسوم المتحركة مثل إيف مونتان، وسيمون سنوري.

كان فوكو ناقدًا عظيمًا للاستخدامات التقليدية للمصطلحات النفسية، والأفكار التي تظهر أنها أفكار محايدة عن العقل. وكيف تصبح بسهولة أدوات لتعزيز الأنماط الاجتماعية الموجودة مسبقًا. مثل مثقفي فرنسا الملفتين، سعى فوكو لاتخاذ مواقف حول القضايا السياسية العصرية. في سيرة (ميشيل فوكو) يروي لنا ديديه إربون العديد من التوسلات التي أشار لها فوكو، والإعلانات العامة التي ساعد في توجيهها.

لقارئ أميركي شمالي، تميل الأزمات التي عانت منها فرنسا منذ الحرب العالمية الثانية لأن تكون شاحبة. لكن فوكو وتابعيه لم يفكروا بمغادرة مكاتبهم والوقوف في الشوارع لأجل بعض القضايا الاجتماعية، التي يحتمل أننا نحن في جانب المحيط الأطلنطي لم نسمع بها. بدت الجاذبية التي امتلكها الماوية لفوكو، ومتعلمون فرنسيون آخرون للمندرية محيرة للقراء اليوم.

أحدثت كتب فوكو تأثيرًا في الخارج على أي حال، وسعى بنهاية حياته ليكون متحدثًا في أميركا الشمالية. وبدأ تأثيره الشخصي بالزوال تمامًا. قد تكون هناك أطروحات دكتوراه كثيرة كتبت عنه في كلٍّ من كندا وأميركا أكثر من أي مفكر حالي. أحد أكثر الجوانب المهمة في سيرة (ميشيل فوكو) هي اللمحة المعطاة داخل بناء التعليم العالي الفرنسي، وكيف تدرجت الإنجازات الرسمية التي حصدها فوكو لأجل الوصول إلى القمة العلوية للهرم الأكاديمي.

استخدم تعليمه الرائع وذكائه الفطري للتألق في: «الحضارة والجنون ـ Madness and Civilization» وأعمال أخرى، عرضت صورة واسعة من الجنون خلال عصور في هذا الكتاب. جادل في متابعته لتاريخ الجنون، أن على المرء أن يفهم الحضارات المختلفة

(1) Didier Eribon, **Michel Foucault, translated from the French by Betsy Wing** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991).

التي وصفت هذه الظاهرة. أخذ كل شيء ليعيد تفسيره متصلًا بالمرض العقلي، كان لهذا الكتاب أثر اجتماعي واسع، مثلما حصل عليه تاريخ الجنس. كان لفوكو إيجابية ليس فقط كونه متعلمًا بشكل ثري، بل لكونه كتابًا نثريًا أيضًا. وفَّرت أعماله المعقدة الكثير من المواد للباحثين المستقبليين لشرحها للجمهور العام.

في وقت مبكِّر اعتقد فوكو أن المجانين هم من اضطهدوا كثيرًا، وأخشى أنه مهما كان تقدمه في التسامح مع المرضى، فقد تدبر أيضًا تقديم المساعدة لأولئك المضللين برومانسية كارثة المرض العقلي. كان فوكو فيلسوفًا دون أي ممارسة طبية، ويبدو أنه لم يُعر انتباهًا لتراكم الأدلة العلمية على أن الفصام (سكيزوفرينيا)، على سبيل المثال يمكن أن يفهم بشكل أفضل على أنه اضطراب حيو ـ كيميائي. التزامه بالدفاع عن قضية المنحرفين والمضطهدين جعلته أيضًا يكتب عن المساجين، ويناقش إمكانية تصنيع الجريمة من قبل المؤسسات المعدة للتحكم، التصحيح، والإصلاح المفترض لمساجينها.

لا أعتقد أن أحدًا سيشارك سياسات فوكو المتطرفة، من أجل تقدير شرعية تحدِّيه للمفاهيم التقليدية للسواء والانحراف. تروى حياة فوكو بروعة في هذا الكتاب، تذكرنا بصحة وجهة النظر التقليدية بأن الفلسفة وعلم النفس يفترض أن يرتبطا ارتباطًا وثيقًا. وربما تطلب الأمر جهدًا خاصًا لنكون قادرين على تقدير الطابع المبهر من الحجج الفلسفية التي تقدم في باريس. لكن، وعلى مدى طويل يمكن أن تكون الحياة الفكرية ثرية عبر إلمامنا بأحد الشخصيات الرئيسية في تلك الحجج.

***

«حارس أخيه، سيرة نفسية لصامويل تايلور كولردج ـ His Brothers keeper: A Psychobiography of Samuel Coleridge»[1] كتاب مذهل قام بتأليفه ستيفن وايزمان. تتشابك حكاية حياة كولردج مع حياة مع ويليام ووردزوورث، الأمر الذي يجعلك متيقنًا بأن القارئ غير المثقف سيكون ممتنًا لما تعلمه من هذا الكتاب. لا يبدو لي أن الكاتب، كمختص ومحلل نفسي، لديه أي حس فني للشعر، لكن هذا الكتاب عُمل لإعادة بناء السيرة الذاتية، ومهما كانت عيوب وايزمان في فهم الشعر، فقد نسج حكاية إنسانية مذهلة.

(1) Stephen M. Weissman, **His Brother's Keeper: A Psychobiography of Samuel Taylor Coleridge** (Madison, CT: International Universities Press, 1989).

في نفس الوقت أعتقد أنه من الضروري الإشارة إلى بعض من العيوب المفاهيمية الرئيسة. بداية يظهر الكتاب في دراسة متسلسلة سميت بـ «التحليل النفسي التطبيقي». ربما هذا العمل الوحيد الذي بإمكان فرويد وأتباعه المبكرين أن يروه كمشروع أو تطبيق للتحليل النفسي خارج النطاق العيادي الصارم. لكن يجب أن نعلم جميعًا الآن أن التحليل النفسي لا يشكل مجموعة من المعارف القادرة بطبيعتها على أن تكون «تطبيقية». بل بدلًا من ذلك، التحليل النفسي بنفسه بحاجة لإثراء يمكن أن يأتي من الاتصال بالعلوم الاجتماعية والإنسانية.

الأمر الثاني، بغض النظر عن حقيقة أن عيب السرد في الكتاب قوي جدًا، وقد أثقله وايزمان بمزيد من التنظير أكثر مما ينبغي أن تكون عليه المسألة في السيرة الذاتية، والتي ترمي عادة لخلق حياة الإنسان من جديد. يرى وايزمان الصلة بين كولردج و ووردزوورث على أساس حاجة كولردج لاستعادة الرباط الأخوي القديم. بعيدًا عن كون الأطروحة الاختزالية نهجًا مملًا لأي مشروع سيرة ذاتية، يقدِّم الكاتب النزاعين المركزيين في مقدمة فشل هو بنفسه في استغلالها.

يخبرنا في بداية الكتاب أن ووردزوورث، «وفي نقطة حرجة من حياته في خريف عام 1800م، قام بدفع كولردج للإدمان، ليهدم رجولته وفنه». لم يزودنا وايزمان بشيء يدعم ذلك الاتهام المهلك، في الواقع كلا الرجلين بصرف النظر عن اختلافهما الفني والشخصي، بقيا أصدقاء خلال حياة كولردج. أما ما يخص استسلامه للأفيون وإفراطه في الكحول فهو أمر يعزى لشخصه.

يخبرنا وايزمان أيضًا عن أخت زوجة ووردزوورث، المرأة التي افتتن بها كولردج، «سارة هوتشينسون كانت مجرد وسيط خيالي لعلاقة كولردج مع ووردزوورث، تواصل مثليّ دون وعي، اتضح ذلك من خلال شعر كولردج الذي كان يكتبه في ذلك الوقت»، مرة أخرى لم اقرأ في: «حارس أخيه» دليلًا داعمًا للشبهات التي قدمها وايزمان. لربما اعتقدت أن تبادل تُهم المثلية الجنسية غير المقصودة كان يتم بحرية، خاصة عندما تكون كافة الأدلة الشعرية التي قدمها وايزمان لها شأن بالتفسير الذي قدمه لقصيدة يصف الصلة الغريبة بين المرأتين.

بالنظر لكل المشاكل الطبية المعطاة في حياة كولردج، فقد يكون من الملائم أن تُدرس من قبل الأطباء، لكن لم على الشخص العادي أن يبدأ في دراسة كميات المواد المخدرة

التي ابتلعها كولردج أو الآثار التي ترتبت عليها؟، (ومعاناة كولريدج منها). كتاب: «حارس أخيه» مليء بعيوب مقلقة أخشى أن تنعكس على سيكولوجية التحليل النفسي، بغض النظر عن كل الانتقادات التي وجدت للأجزاء الرئيسة من مذهب فرويد، فلا تزال نوعًا ما، صامدة في كافة فروع الأدب. عودًا على بدء، هذا الكتاب مهم لأي نوع من القراء. وهذه ليست المرة الأولى التي تتفوق ممارسات الكاتب على التزاماته النظرية. وعليّ أن اعترف أن مجموعة المجلدات التي قدمها ريتشارد هولمز[1] عن كولردج هي تحفة فنية في كتابة السيرة الذاتية، قدم فيها نماذج للكيفية التي يجب أن يشرع فيها الكاتب في عمله.

***

دائمًا تبدو الموضوعات الكبيرة دعوة لكتابة كتب مثيرة، وما من شك بأن العلاقة بين سيمون دو بوفوار وجان بول سارتر (جنسيًا، عاطفيًا، وثقافيًا) كانت موضوعًا رائدًا. نجحت هاتان القامتان العظيمتان، مؤلفا الكتب، القصص القصيرة، المسرحيات، والروايات، بعلاقة صداقة مقربة دامت إحدى وخمسين سنة، حتى وفاته عام 1980م (سيمون دو بوفوار 1986م). تحالفهما العظيم والذي نجا مهنيًا، بالإضافة إلى الغيرة الجنسية، كان محوريًا ليس فقط داخل الحياة الفكرية الفرنسية، بل حتى في الفلسفة الوجودية التي قاما بنشرها، وكانت إضافة مهمة لفكر القرن العشرين.

ظهر كافة الكتّاب بمظهر سخيف، على الأقل بمعايير الحياة اليومية، وربما أظهر سارتر انحلالًا واضطرابًا جنسيًا أكثر من بوفوار، رغم أنها تجاوزت المفاهيم المبتذلة للسلوك، بنقلها لتفاصيل خياناتها المتعددة لسارتر.

كتاب: «سيمون دو بوفوار وجان بول سارتر ـ Simone de Beauvoir and Jean Paul Sartre»[2] لمؤلفته كيت و إدوارد فولبروك (زوج إنكليزي وزوجته)، لا يعدُّ مصدرًا أصليًا للبيانات الأولية مثل كتاب ديردري بيير (سيمون دو بوفوار) (1990م) أو كتاب آني كوهين ـ سولال (سارتر) (1987). نؤخذ عبر حياة بوفوار وسارتر وأعمالهم، عبر اقتباسات من

(1) Richard Holmes, Coleridge: **Early Visions, 1772 ـ 1804** (New York: Pantheon Books, 1989) and Richard Holmes, Coleridge: **Darker Reflections, 1804 ـ 1834** (New York: Pantheon Books, 1998).

(2) Kate Fullbrook and Edward Fullbrook, **Simone de Beauvoir and Jean-Paul Sartre: The Remaking of a Twentieth-Century Legend** (New York: Basic Books, 1994).

كتاباتهم، لدرجة أن المرء يميل للبدء في إعادة قراءتهم. من الواضح أن المؤلفين قد قبلا القيمة الحقيقة الكاملة لتفسيرات السيرة الذاتية التي أعطاها سارتر ـ بوفوار لنا. بدا أن الزوجين فولبروك كانا غير قادرين على الارتقاء لمستوى التحدي في فك تشابكات المعاني المحتملة، التي تقع خلف أي كشف ذاتي للسيرة الذاتية.

خلافًا للنظرة الساذجة للسببية من آل فولبروك، لم يكن الماضي تفسيرًا مباشرًا للتطور اللاحق. على سبيل المثال عندما حاولا شرح علاقة سارتر بسميون دو بوفوار، قاما بالاستشهاد بسندات سارتر لأمه الأرملة كمثال على شريكين يخبران كل شيء لبعضهم البعض، ثم ادّعيا بأن ذلك إجراء لـ «تطابق متقارب» وضع القواعد التي حكمت لاحقًا ترتيباته مع بوفوار.

سارتر بنفسه جادل بشكل متكرر ضد التركيز الفرويدي على العامل الطفولي في شرحه على ما نحن عليه. بدلًا من كلام أميركي شمالي طفولي حول مسؤولية الماضي عن تشكيلنا، أصرّ سارتر على أننا نحن من نختار أن نكون. وجودية تطلبت أن نواجه فراغ الوجود عن طريق خلق قرارات مصيرية.

لم يُرد سارتر وكذلك بوفوار بأن يسمحا لهويتهما الاجتماعية أن تصبح هويتهم الذاتية، وكلاهما نجحا في الاحتفاظ باستقلاليتهما ضمن العلاقة. كانا منبوذين اختيارًا، حتى عندما شاركا في الحزب اليساري السياسي، القائم على مبدأ أن المثقفين يكونون مشاركين وملتزمين اجتماعيًا. انشقا أخيرًا عن الحزب الشيوعي الفرنسي خلال غزو هنغاريا عام 1956م، لكن يبدو اليوم أنهما أقل بصيرة في التزاماتهم السياسية للمذاهب المتطرفة الأخرى مثل الماوية.

الجانب المزعج في كتاب: «سيمون دو بوفوار وجان بول سارتر» هو ادعاء آل فولبروك كشفهم سر هذه العلاقة الأسطورية التي تلخص فكرة أن سيمون كانت الأصل، وهو المنتحل. يؤمن آل فولبروك بأن سارتر بنى أطروحته الفلسفية «الوجود والعدم Being and Nothingness ـ 1943م» من رواية معاصرة لبوفوار «جاءت لتبقى – She Come to Stay». ولطالما أظهرا تبلدًا حيال الاعتراف بمدى صعوبة بناء تأثير داخل التاريخ الفكري. عندما يمضي مفكرو الساعات كل يوم يتكلمون مع بعضهم البعض، ويقرأون أعمالهم لبعضهم البعض، ويتشاركون الأفكار، ألا يكون التأثير، تأثير شارع باتجاهين؟.

لعدة أسباب، نُشر هذا المجلد النحيف مفصولًا عن المجلد الثاني، الذي يفترض أن يناقش الموضوع نفسه، لكن ما نملكه هنا هزيل جدًا للحفاظ على الأطروحة التي نوى آل فولبروك إنشائها. على الرغم من أنهم بقيا مقتنعين أن «هذه السيرة المرجعية لأحد أهم العلاقات المذهلة في التاريخ، ستبقى كخطوة مهمة في إعادة صنع أسطورة القرن العشرين». أشك أن العديد من القراء سيكونون مقتنعين بدليل نظريتهم التي عرضوها هنا. أعتقد أن السير الذاتية تنجح أكثر كما في الأمثلة السابقة الجيدة، أي: حينما تكون أعمالًا مكتملة بدلًا من مجموعة واضحة من المبادئ المفاهيمية الممكنة.

الفصل الرابع عشر

شؤون أميركية

«ثمن القوة: كسينجر في بيت نيكسون الأبيض ـ The Price of Power: Kissinger in the Nixon White House» لكاتبه سيمور هيرش[1] هو واحد من تلك الكتب المهمة التي أصبحت من أفضل المبيعات. كان كتابًا جدليًا منذ أول يوم لنشره بما يكفي ليخضع للتدقيق الشديد. وكانت قد أُجريت لقاءات تلفزيونية لمسؤولين سابقين وحاليين لوزارة الخارجية قبل أن تتاح لهم فرصة قراءته. تعرض «ثمن القوة» لتقييم على نحو واسع بناءً على اتجاهات أديولوجية، وعبَّر هؤلاء المتحمسون للدفاع أو إرضاء مؤسسة السياسة الخارجية الأميركية عن انتقاداتهم، في حين تمتع اليساريون بوثائق قوية لأخطاء كسينجر، أكاذيبه، وأنصاف حقائقه. اعتبر مدعو ووترجيت أن كسينجر غير قابل للمس، وبغض النظر عن سياسته عام 1979م وتورطه في القصف السري لكمبوديا، بقيت سمعة كسينجر بين الشعب العام لا تشوبها شائبة.

رغم أن قراءة الكتاب قد تكون عسيرة، إلا أنها رائعة لأي شخص يهتم في شؤون العصر. يزودنا هيرش بتفصيل موسع عن إعادة الإعمار لسنوات (1968 ـ 1972م). من الواضح أن الحرب في الجنوب الآسيوي كانت المحور الأهم في تلك الفترة، لكن هيرش يغطي مسائل أخرى أيضًا، كالانفتاح على الصين، تعقيد مفاوضات الملح، زعزعة الاستقرار في الليندي تشيلي، الصراعات في الشرق الأوسط، وحرب الهند وباكستان.

إن هذا الكتاب «ثمن القوة» ممتع جدًا بسبب حجم ما نُسي في تلك الفترة. في الوقت

(1) Seymour M. Hersh, **The Price of Power: Kissinger in the Nixon White House** (New York: Summit Books, 1983).

عينه هو كتاب مذهل، لأن المراقب الخارجي حيّ الضمير لم يكن ليعلم في ذلك الوقت ما يجري حوله.

افتقار كتاب: «ثمن القوة» للنمط الفني يمكن أن يكون مُتعمدًا بصورة جزئية، للمضيّ في الملل الوثائقي. قد يوحي لنا نهج هيرش بالتقنيات المستخدمة من قبل المؤرخ تشارلز بيرد، الذي حاول مرة أن يلوم فرانكلين روزفلت على حدوث الحرب العالمية الثانية. يتكئ هيرش جزئيًا على السجلات العامة، واستخدم قانون حرية المعلومة(*) Freedom of Information Act للوصول بمهارة لمواد جديدة، وقارن أيضًا بين مذكرات مختلفة مثل نيكسون وكسينجر، من أجل كشف ما حاول كلّ منهما إخفاءه أو تشويهه.

أثمرت لقاءات هيرش عن نتائج ملفتة، على سبيل المثال، يتذكر عضو من طاقم كسينجر، مستعد للتعريف باسمه، كيف كانت ردة فعل كسينجر تجاه إحباطه من التعامل مع ناجوين فان ثيو «سنقتل ابن السافلة إن اضطررنا لذلك». ليس مفاجئًا أن قلة من الذين اقتبس منهم هيرش كانوا غير سعيدين بما فعل بمعلوماتهم، وربما ألمح منتقدو هيرش إلى حتمية السخط الذي يغذي المعلومات الضارة ضد شخص معاد لكسينجر. (رُفعت في الهند دعوى ضد موراجي ديساي بسبب وشايته، ودفع له ليدلي بمعلومات لوكالة المخابرات المركزية). مهما وصلت له حياة كسينجر الشعبية، وجد هيرش ما يكفي ليكون قادرًا على إثبات القسوة التي تمتع بها كسينجر. أصبح تجسيدًا للإيمان الميكافيللي أن أمن الدولة هو المعيار النهائي للتصرف السياسي. ربما يمكن أن تكون الاستخدامات السياسية مجنونة فقط في القرن العشرين، وتصبح «نظرية الرجل المجنون»(**) التي اعتمدها كسينجر توصية للحكام.

امتدت طموحات هيرش وحاول توضيح مكيدة كسينجر التي كانت من أجل تقدمه الشخصي، بينما فشل كل واحد في دائرته السياسية. ربما جال المخططون بدم بارد ـ مثل كسينجر ـ بفكرهم حول معاقبة الخصم، كما في حرب فيتنام، بدلًا من الأمل بنجاح عسكري على الطريقة التقليدية. مع ذلك، ستأخذ الحكاية التي بناها هيرش جهدًا للتراجع

(*) هو قانون فيدرالي يعطي كل فرد حرية الوصول إلى الوثائق والمعلومات غير المعلنة التي تديرها الحكومة الأميركية. هذا القانون يختلف عن قانون آخر لكل ولاية ويحمل نفس الاسم ـ Freedom of Information Acts.

(**) قبل أن يصل كيسنجر للبيت الأبيض كان يستخدم مفهوم «نظرية الرجل المجنون» في كتاباته، وخلال تدريسه كأستاذ للعلاقات الدولية في هارفارد أيضًا. ارتبط هذا المفهوم بالحرب الفيتنامية خلال رئاسة نيكسون، حينما ظهرت السجلات عام 2003م التي تنقل تصريح الرئيس بعزمه على تدمير فيتنام. هي ليست نظرية بالمعنى الفلسفي لكنها تقوم على إيهام الطرف الآخر بقوة خصمه وجنونه.

عنها. فبعض الحواشي الطويلة تشكل قصصًا بمفردها. وللمرء أن يتساءل، بغض النظر عن الدور الذي لعبه هيرش في التاريخ، هل كان كسينجر قادرًا على إداء كل ذلك بمفرده. على العكس من دافيد هاليبرستام في كتابه: «الأفضل والألمع The best and the Brightest»، فهو لا يعطينا شيء تقريبًا من خلفية وشخصية أي من الشخصيات في «ثمن القوة».

كتاب هيرش هو شاهد على حيوية صحافة التحري. ربما لم يكتوِ من كسينجر أحد مثلما اكتوى هيرش، الفائز بجائزة البوليتزر عن كتاب: «مجزرة لاي». يطلعنا هيرش على نجاح كسينجر في التلاعب بالوسائل الدعائية مثل أعمدة جوزيف ألسوب، وجيمس ريستون الصحفية، من الصعب أن يشعر أصدقاء ديمقراطية الحكومة الذاتية بالاطمئنان. ولا ينبغي لأحد أن يقلل من الدهاء السياسي لحكام موسكو، الذين قرروا عام 1972م أن يساعدوا في الالتفاف على الرئيس الحالي الجمهوري.

مثَّل فرانكلين روزفلت وإدارته أعلى معدل مثالي سياسي في القرن العشرين في أميركا. في قبول ترشيح الحزب الديمقراطي عام 1932م للرئاسة، وفي وقت بدا الكساد الاقتصادي للأغلبية فوق طاقة البشر، وعد فرانكلين روزفلت بالتكفل بـ «الصفقة الجديدة»[*] داعيًا بأن يحل الأمل على الشعب. من المفارقات أن روزفلت فاز بأول أربعة انتخابات رئاسية له من خلال برنامج تقليص الإنفاق الفيدرالي وموازنة الميزانية الوطنية، البرنامج الذي دعا له مني بفشل في تغطيته بشكل صادم، لكنه نجح في جذب مجموعة من الشباب المثاليين في واشنطن للانضمام للتجربة الروزفلتية.

كان الراحل جوزيف لاش خبيرًا صحفيًا خدم طويلًا لأجل قضية الصفقة الجديدة. اشتهر في وقت مبكر بعد حصوله على جائزة البوليتزر عن كتاب: «إلينور وفرانكلين ـ Eleanor and Franklin»، والذي كان بيانًا مؤثرًا عن العلاقة بين الرئيس وزوجته. كان لاش يكتب من منظور السيدة روزفلت، ولذلك كان مصونًا عندها. لكن في كتابه: «الباعة والحالمون، نظرة جديدة على الصفقة الجديدة ـ Dealers and Dreamers: A New Look at the New Deal»[1] قام لاش باستعراض أهمية إدارة روزفلت من رؤية جديدة. كاختياره لمحاميين شابين، بينجامين ف. كوهين، وتوماس ج كوركوران، والتركيز على كونهما

(*) انظر: الهامش فصل 2.

(1) Joseph P. Lash, **Dealers and Dreamers: A New Look at the New Deal** (New York: Doubleday, 1988).

راسمين للتشريعات وكاتبين لخطاب الصفقة الجديدة. تخبرنا قصة لاش عن النهايات قبل الحرب العالمية الثانية، عندما فاز هذان الرجلان لصالح روزفلت بواسطة هاري هوبكنز ومستشارين آخرين كان الرئيس بحاجة إليهم في دوره الجديد كـ «دكتور فائز في الحرب».

في ذلك الحين، كان فرانكلين روزفلت قلقًا بشأن قضايا المصالحة والوحدة الوطنية، فأهداف الصفقة الجديدة المبكرة أخذت بالتراجع، بالتالي شعر أن بإمكانه نبذ كوهين وكوركوران من دائرته المقربة.

في الفترتين الأوليين لروزفلت، كان كوهين وكوراكورن من بين أكثر رجال الصفقة الجديدة إخلاصًا. كانا مدمنيين للعمل لأجل المشروعين التوأمين الإصلاح والإنعاش. ولوقت طويل عاش كوهين وكوراكورن مع بعضهما.

رغم أن كليهما لم يمسكا بمنصب رسمي، كانا متناسبين بكل شكل مع مهامهم المختلفة التي كانا يقدمانها، وكانت هالة من الغموض تحيط بسلطتهم، حتى أنهما ظهرا مع بعضهما على صفحة مجلة: «التايم» عام 1938م. أراد روزفلت داعمين يملكان رؤى قوية، وأصرّ في النهاية أن تلبّى دعواتهما النهائية، لكنهما شكلا فريقًا معتبرًا وكان لهما دور في جهد روزفلت التشريعي، والذي يؤكد على أن واشنطن وليس وول ستريت كانت السلطة المباشرة في عالم المال والائتمان.

رغم أن تشريع الصفقة الجديدة المبكر واجه ما حدث لقانون الإنعاش الوطني، وقانون الضبط الزراعي بتعثره بالاعتراضات الدستورية للمحكمة العليا المحافظة، إلا أن الجزء الأكبر من برنامج روزفلت كان مستمرًا قضائيًا. كان لكوهين وكوركوران دور بارز في قانون الأوراق المالية والبورصات، قانون الضمان الاجتماعي، وقانون معايير العمل العادل، والتي تكفل الرواتب وساعات العمل وتحظر عمل الأطفال، وقانون واجنر، الذي ضمن حقوق العمل واستفاد من مساعدتهم.

كان لروزفلت هدف محافظ للإصلاح من خلال المحافظة، وعدم السعي للإخلال بالنظام، بل إنقاذ الاقتصاد الحر. استخدم لاش شخصيات كوهين وكوراكورن بنجاح ليخبرنا حكاية شيقة وممتعة عن كفاح الصفقة الجديدة.

رغم إنني أشك أن لاش كان على دراية كاملة بذلك، إلا أن الشخصية التي تدبرت سرقة الضوء في «الباعة والحالمون» هو فيليكس فرانكفورتر. من بين جماعة فرانكلين روزفلت

الرئاسية كان فرانكفورتر مستشارًا أمينًا، اختار البقاء في كلية القانون بهارفارد بدلًا من قبول موعد مع الإدارة الجديدة. في نهاية الأمر، قام روزفلت بتعيين فرانكفورتر(*) في المحكمة العليا عام 1939م. لكن من خلال الكتاب نلحظ أن فرانكفورتر هو أبرز من يعمل خلف الأضواء، وأن كلًّا من كوهين وكوراكورن كانا يختلفان عنه كرئيس لهما، حتى أن رسائله لهما كانت متألقة ورسمية.

فرانكفورتر الذي كان صبيانيًا بذاته، ألهمه هذان الشابان بمستوى التفاني الهائل لديهما، كان مليئًا بالأفكار، ودائمًا ما يقترح موهبة جديدة لإرسالها لواشنطن. عُرف أتباع فرانكفورتر بـ «هوت دوغز» الذين جاءوا ليحلوا محل مجموعة مستشاري روزفلت الأولى وكانوا يُدعون «بالعقول الثقات».

في النهاية انفصل كلٌّ من كوهين وكوراكورن تمامًا عن فرانكفورتر. وليس من تفسير يوضح سبب هذا الانفصال، باستثناء أن لاش يخبرنا أن فرانكفورتر اختار أن يدعم مرشحين آخرين بدلًا من أصحاب المناصب العليا. ربما يشك المرء أن فرانكفورتر تناغم مع طموحات روزفلت الشخصية، وعرف بديهيًا في أي اتجاه تتحرك ميول الرئيس، وليس من المرجح أن فرانكفورتر كان له نصيب من خيبة أمل الرئيس بكوهين وكوراكورن. في السنوات التالية، كان الليبراليون خائبين بمرارة من أداء فرانكفورتر في المحكمة العليا، وفي طبعة مذكرات[1] فرانفكورتر، لم يصوب لاش لكماته بنقد عدالة المناصب القضائية.

لكن في «الباعة والحالمون» أعطى لاش تفسيرًا داخليًا لا ينسى للصراعات خلال سنوات الصفقة الجديدة. كانت الصفقة الجديدة حالة عقلية أكثر من كونها منظمة، يأخذنا عبر سنوات العذاب التشريعية الأولى للموافقة على برنامج روزفلت من قبل «الرجال التسعة الكبار» الذين يشكلون المحكمة العليا. خطة روزفلت في «اختيار المحكمة» عام 1937م، والتي صاغها بعد فوزه بإعادة انتخابه عام 1936م تُشكل أعلى نقطة درامية في الكتاب.

(ينسخ لاش فيلمًا كارتونيا لهيربولك، عن روزفلت وخطته الجدلية لتوسيع حجم

(*) هاجر فيلكس فرانكفورتر من النمسا إلى نيويورك عام 1894م. تخرج من كلية القانون في هارفارد عام 1906م، وانضم لاحقًا لهيئة التدريس، خلال العشرينات كان فرانكفورتر مؤثرًا كأستاذ للقانون ومشاركًا في المناظرات العامة. عينه روزفلت في المحكمة العليا بعدما نال ثقته، ويعتبر فرانكفورتر القاضي «المجنس» الوحيد في تاريخ المحكمة العليا.

(1) See Roazen, **Encountering Freud**, pp. 251 - 255.

المحكمة والتي بدت لي تستحق شراء الكتاب). ساعد فرانكفورتر روزفلت بهدوء، وقد كوفئ بتعيينه في المحكمة العليا بعد ذلك. رغم أن روزفلت خسر معركة زيادة أعضاء المحكمة، إلا أن المحكمة المرعوبة غيرت من موقفها الأديولوجي، وبدأت بالموافقة على شرعية الصفقة الجديدة، ثم بدأ القضاة بالتقاعد، ورسم روزفلت بعد ذلك شكل المحكمة الجديدة.

يمتلئ «الباعة والحالمون» بأمثلة لمتوددين سياسيين غيورين من أي شخص نجح في الوصول للرئيس. هناك بعض الأمثلة المذهلة، مثل القاضي لويس د. برانديس، رغم أنه كان في المحكمة العليا، إلا إنه قدم أنشطة قضائية زائدة من حفلات شاي، وحديث مع سيل من البشر الذين سعوا لنصحه ومشورته، وعلى ذلك صُنِّف كشخصية رئيسة للصفقة الجديدة. كان لكوهين وكوركوران مهن أخرى في وقت لاحق، لكنها لم تشبع رغباتهم القديمة، وانحدر كوركوران على وجه التحديد لبائع جوال مؤثر. لكن كلاهما كانا في المكان الصحيح في الثلاثينات، وبأفضل دوافع ممكنة، كما صاغها لاش «لقد كبتا تمردهما عالمان بأن كل ذلك لأجل روزفلت والقضايا التي كان بطلًا لها، وقد حققا أعلى لحظات إنجازهما الشخصي».

ظهرت كلمة: «ليبرالي» و«الليبرالية» في مفردات السياسة الأميركية في السنوات المبكرة من رئاسة فرانكلين روزفلت، بعد ذلك وقفوا لوجهة نظره بصفقته الجديدة. رغم الشعبية الهائلة في عهد رونالد ريغان، لم يحرص أحد من المتنافسين على المناداة بتقاليد الليبرالية. بالتالي، وضع الكاتب السويدي جنر مايردال الحائز على جائزة نوبل أصبعه على مفارقة أن الليبرالية في الولايات المتحدة تقليدية، وكتب التالي: «**أميركا محافظة.. لكن المبادئ المحافظة ليبرالية، والبعض منها بالطبع راديكالي**».

***

بدا لي أن مايكل دوكاكيس(*) مثَّل الطريقة التي يكون فيها المصلح محافظًا للغاية. بُنيت مثاليته الحقيقية وتفانيه للخدمة العامة على اعتقاد أن من مثَّله هم الأصدق للقيم الأميركية

(*) يعد مايكل دوكاكيس أطول حاكم لولاية ماساتشوستس في التاريخ، لمع كسياسي فترة الثمانينات الأمر الذي دفعه للترشح للرئاسة في انتخابات 1988م عن الحزب الديمقراطي، لكنه خسر أمام المرشح الجمهوري في ذلك الوقت جورج بوش الأب. وقد كان لرفض دوكاكيس عرض الملفات المتعلقة بصحته النفسية وتاريخه المرضي بالغ الأثر على حملته الانتخابية.

الأساسية، وهم القادة الذين يعودون للمقاصد المثالية التي وجدت لأجلها البلاد. ليس من قبيل المصادفة أنه في خطابه لقبول الترشيح الرئاسي، والذي فاز به الحزب الجمهوري في تموز/ يوليو عام 1988م، استشهد بكلمات البروتستانتي جون وينثروب، الجد الروحي الذي أبقى رعيته الجديدة في ماساتشوستس لأهمية المجتمع.

ويبدو أن شهادة دوكاكيس بوصفه ليبراليًا بدت لي معصومة، حتى بالرغم من تخييبه أمل بعض اليساريين بمرور السنوات. وصف نفسه مرة، كـ «ليبرالي يعتمد عليه». خاصة بعدما أصبح حاكمًا لماساتشوستس لأول مرة عام 1974م، أجبره التزامه باتزان الميزانية أن يقتطع من الخدمات الاجتماعية لأجل أن يتجنب أزمة اقتصادية. صاغ واحد من منتقديه اليساريين في ذلك الوقت عبارة يقول فيها: « الجيد في مايكل، أنه يستقل القطار ليذهب لعمله كل يوم، الأمر السيئ أنه ينزل إلى بيت الدولة».

غدت نزاهته وزهده الشخصي في الستينات أمرًا مستحيلًا بجانب كونه حاكمًا لولاية ماساتشوستس، التي كان لها نمط خلال القرن العشرين من الكسب غير المشروع والفساد الذي توسع تقريبًا أكثر من أي ولاية أخرى (أو ولاية كندية). يميل مناصرو كينيدي في ولاية ماساتشوستس لاختيار السياسية الفيدرالية، وبقوا بعيدين قدر ما أمكن عن غضب سباقات سياسة الدولة.

بدأ دوكاكيس، من الصفر، باستقامة سليمة، وبمهارة تنظيمية هائلة. في عام 1988م كافح في الانتخابات التمهيدية كواحد ممن يسمون «الأقزام السبعة» حتى برز كمنتصر. لكن القصة الكاملة لبروزه هي ثناء على الحلم الأميركي، وأن المثابرة والكفاءة قادرة على التغلب على أي معوقات.

بدأ مهنته كعضو متطوع في تجمع المنطقة المحلي، ثم دخل المجلس التشريعي للولاية، وفي منتصف حرب فيتنام كان رائدًا في سنّ قانون وطني لتأمين السيارات التي لا تحمل مخالفة. أخيرًا، بدأ رحلته الانتخابية على مستوى الولاية، وأصبح حاكمًا في عمر الواحد والأربعين. عام 1988م، عندما تبين أن جوزيف بايدن وغاري هارت يملكان أنواعًا مختلفة من الأسرار القذرة، بدا من الحتمي أن تكون شخصية دوكاكيس جذابة كفاعل للخير. كما قالت والدته عنه في أحد المرات: «ما تراه هو ما تحصل عليه».

ظهر كتابان اثنان عام 1988م يتناولان حياة دوكاكيس، الأول كتبه تشارليز كينيز وروبرت

تيرنر[1] وهما مذيعان لبوسطن غلوب، والآخر كتبه ريتشارد غينز ومايكل سيغال[2] صحفيان في بوسطن فينكس، حمل الكتابان كلاهما مقدمة جيدة. ولد دوكاكيس عام 1933م في بروكلين، في ضاحية في بوسطن، وقد كانت فصول حياته الأولى مذهلة. كانت أستاذة التاريخ القديم في المدرسة الثانوية منبهرة بالشاب دوكاكيس، وتنبأت للفصل: «يومًا ما، سيكون مايكل دوكاكيس رئيسًا للولايات المتحدة». إن النظام التعليمي الذي نشأ عليه كان آمنًا، وعليه من المقنع الإيمان بأنه لو عمل امرئ لآخر بضمير مخلص، لكان من المرجح أن يصبح رئيسًا.

لم يكن دوكاكيس مخادعًا في تذكيره للعامة بإرثه اليوناني. فالولايات المتحدة هي دولة مهاجرين، وحقيقة أن كلًّا من والديه قد ولدوا خارجًا، ما هي إلا ثناء على مرونة وانفتاح ذلك المجتمع. يعطي دوكاكيس مظهرًا لمن ولد ليكون رئيسًا. انتخب لأول مرة رئيسًا للصف في السنة الثالثة. لكن صعوده كان فرديًا، وعندما قلل منه خصومه كلفهم ذلك كثيرًا في نهاية الأمر.

دوكاكيس بنفسه هو أفضل إنتاج في الولايات المتحدة للتعليم العالي، بما أنه قد حضر كلا من كلية سوارثمور والقانون في هارفارد، ولم يتجاهل خدمة سنتين في الجيش كضابط خاص، مع أن الآخرين في ذلك الوقت حصلوا على تأجيل عسكري، أو اختاروا أن يذهبوا لمدرسة الضباط. تبدو مهنته كخط مستمر من التقدم الشعبي في المنصب. وجاء الانقسام الكبير عام 1978م عندما هُزم في إعادة تسميته كحاكم ولاية، وذلك عن طريق أحد الشخصيات البغيضة من الحزب الديمقراطي.

خلال تدريبه الأول قام بإصلاح نظام المحكمة الفوضوي، وأصبح يعرف بـ «الدوق»، وقد ساعدته صلابته المستقيمة في تقويضه. بطريقة ما، تغافل عن إشارات التحذير بالمتاعب السياسية. أطلق خليفته الحاكم نكتة خارج المكتب، حينما كان معاونوه مسؤولون عن فضائح تجميع الضرائب التي شوهت الإدارة عن طريق الخطأ. عندما عاد دوكاكيس كحاكم عام 1983م، بعدما قضى سنوات في كلية كينيدي هارفارد، كان من المفترض أن يحل «الدوق 2» محل القديم «الدوق 1»، لكن تفهمه أثبت أن السياسة هي فنّ الممكن.

---

(1) **Thomas Allen**, 1988.

(2) Richard Gaines and Michael Segal, **Dukakis: The Man Who Would Be President** (New York: Avon, 1988).

أُعيد انتخاب دوكاكيس عام 1986م، وكان له نجاح هائل كحاكم. سجّل كتابه الخاص: «خلق المستقبل ـ Creating the Future»[1] الذي اشترك في تأليفه مع بروفيسور في كلية هارفارد للأعمال، رقمًا قياسيًا حول عودة ماساتشوستس العظيمة. استخدم دوكاكيس سلطة الولاية في تنظيم الوكالات التي تمول البرامج التجريبية لتشجيع الاستثمار في الابتكارات. إن ذلك الرجل الذي بدأ كقديس سياسي، كان قادرًا على العمل بتناغم مع رجال الأعمال والمصرفيين لضمان الرخاء والازدهار، وعدم ترك الولاية من الناحية الاقتصادية ضعيفة.

على خلفية سياسة الدولة القذرة، قام بإقناع الدولة بفكرة برنامج قانون الضرائب، وفي سنتيه الأوليين قدم البرنامج 400 مليون دولار كدخل جديد، متضمنًا 85 مليون دولار، جاءت خلال فترة العفو. وأُعفي غير الموظفين من 12 بالمائة إلى أقل من 3 بالمائة من الضرائب. وما من أحد بإمكانه أن يعتمد على ماساتشوستس كـ«معجزة»، لكن الولاية ذهبت من كونها سلة قمامة اقتصادية لموضع حسد اقتصادي من الدولة، ونموذج للكفاءة والإبداع. صوَّت له خليفته حاكم الولاية كأكثر الحكام تأثيرًا، ويوضح كتاب: «خلق المستقبل» تجربته كمثال اختبار للدولة.

الكتابان كلاهما كتابان رصينان. رغم أن غينس وسيغال قد قدَّما خلفية أكثر شمولًا حول سياسة ماساتشوستس، أما كيني وتيرنر (اللذان قاما باستضافة تعاونية لدوكاكيس وزوجته) فقد قاما بعرض تفاصيل أكثر. كان دوكاكيس سياسيًا نادرًا جمع بين مبادئ التقدم مع ميول للمحافظة، إلى المدى الذي يمكن للشخصية أن تكون حاسمة انتخابيًا. تلك الكتب تذهب بنا بعيدًا لتحديد الصفات التي جلبها دوكاكايز للمنصب الذي شغله.

***

عندما ظهر كتاب ليونيل تريلينغ: «المخيلة الليبرالية ـ The Liberal Imagination»[2] عام 1950م، ثم «تقاليد الليبرالية في أميركا ـ The Liberal Traditions in America»[3] لكاتبه

(1) Michael S. Dukakis and Rosabeth Moss Kanter, **Creating the Future: The Massachusetts Comeback and Its Promise for America** (Toronto: Musson, 1988).

(2) Lionel Trilling, **The Liberal Imagination: Essays on Literature and Society** (New York: Anchor, 1957).

(3) Louis Hartz, **The Liberal Tradition in America: An Interpretation of American Political Thought Since the Revolution** (New York: Harcourt, Brace & Co., 1955).

لويس هارتز عام 1955م، كانا بمثابة ابتكاريين متعلقين بالمذاهب الكلاسيكية الأوروبية السياسية، والفكر الاجتماعي للسمات المميزة للحياة الأميركية. لا يتطلب الأمر الكثير من التفكير التاريخي عند البحث عن جذور الليبرالية الأميركية، وذلك بالعودة لتوماس جيفرسون ومقاطعه القديمة بشأن إعلان الاستقلال. من الوطنية التفكير بإخلاصنا للمبادئ التاريخية لـ «الحياة، الحرية، والسعي للسعادة»، وسرد ما ظهر مؤخرًا من تعهد بالولاء. لكنني أؤمن بأن الحملات الانتخابية السياسية تُسخر للتركيز على القضايا العامة البارزة بدلًا من أن تلهب العاطفة الوطنية.

يجب ألا يكون النزاع ضروريًا حول عظمة أميركا، لكن لها تراث أوسع من ذلك التضمين من قبل أولئك المتحمسين، الذين بدأوا خاصة في الحملات الانتخابية الرئاسية عام 1988م، بوصم مفردة: «التحرر» كمفردة قذرة في العالم السياسي. كان لليبرالية الأميركية جذورها في الماضي الأوروبي، واحتضنت أبطال التاريخ الفكري مثل جون ستيوارت مل، جون ميلتون، جون لوك.

وليس من الضروري أيضًا استبعاد المدارس الفكرية العظيمة للفكر من الإجماع الأخلاقي الأميركي. كتب رالف والدو إيمرسون قديمًا عن الليبرالية والمحافظة قائلًا: «كل واحدة عظيمة في نصفها، ولكن ليس في كلها، فكلًا منها تفضح تجاوزات الآخر في مجتمع حقيقي من رجل حقيقي، ويجب أن تتحد كلٌّ منهما مع الأخرى».

أي حملة سياسية قد ترتفع لأعلى مستوى إذا قُلص استخدام رمزية الأخلاق (مثل تحية العلم)، وأُخضع المرشحون بأنفسهم للفحص. الجميع على طاولة الاقتراع يخضع للتدقيق لدرجة أنهم يجسدون الليبرالية والمحافظة في نفس الوقت. لكننا لن نبتعد كثيرًا باتجاه النقاش السياسي المتطور، مادامت كلمة: «الليبرالية» باقية كملوث، بغض النظر عن كونها جزء من تراثنا الوطني في الأساس.

***

كتاب توماس س. ريفز «مسألة شخصية، حياة جون ف كينيدي A Question of Character: A Life of John F. Kennedy»[1] قصة لا تنتهي من القذارة المرتبطة بما يصح على تسميته

(1) Thomas C. Reeves, **A Question of Character: A Life of John F. Kennedy** (Toronto: Macmillan, 1991).

أكثر سلالة أميركية حاكمة مجونًا. أسس النموذج من قبل الأب جوزيف ب. كينيدي، الذي جمع ثروة عبر السرقة والاحتيال. قام الرئيس فرانكلين روزفلت بتعيينه في الثلاثينيات، وفي اعتراف لدعم الحملة للجنة الأوراق المالية والبورصات، قال FDR للنقاد على انفراد: «ضع لصًا لتضبط لصًا».

قام توماس ريفز وهو مؤرخ محترم بتقديم دراسة موثقة جدًا، ينظر فيها إلى أن السمة الأخلاقية لوالد الرئيس كينيدي هي مفتاح قصة حياة جاك، لكن ريفز فشل باتهام جون كينيدي بارتكاب أخطاء متعلقة بالمالية. تاجر «السفير» ـ كما يحلو لجوزيف كينيدي أن يُطلقَ عليه ـ بجميع أموال أبنائه، وذلك بعدما خدم كسفير روزفلت لدى بريطانيا العظمى، وانتزع كبار المساعدين السياسيين من مهنهم. سوف يأنس معادو كينيدي لأن الصورة التي رسمها ريفز تبدو بشعة في هذا الكتاب. حتى سجّل JFK خلال الحرب العالمية الثانية قد لطَّخ سمعته، فقد صوَّره كقائد قارب غير كفء. كان والده زير نساء، إضافة لكونه انتهازيًا قاسيًا، ولذلك لم يصمت ريفز عن خيانات JFK القهرية.

تتوارى السياسة في كتاب: «مسألة شخصية»، فعلى سبيل المثال لم يذكر المؤلف شيئًا من أخلاقيات رئاسة دوايت آيزنهاور، أو كيف تضاد أسلوب JFK الرائع مع الأيام الأخيرة لخلفه في البيت الأبيض. يدَّعي ريفز في الجملة الأولى لكتابه بقوله: «لطالما أعجبت بجون ف. كينيدي»، وعندما أصبح ريتشارد نيكسون رئيسًا عام 1960م، كان ريفز يفكر بالعيش في كندا. بما أن المؤلف لم يصف أي عملية لخيبة الأمل، أعتقد أن كلا من أبطاله لهم أفضلية على الغلاف، لكن ريفز يعتقد أنه وابتداء من عام 1960م، كان هناك سقوط مفاجئ في شخصية الرئيس الأميركي، فجمع جون كينيدي ونيكسون وليندون جونسون كقادة للهلاك.

يكفّ ريفز عن JFK فقط خلال بيانه عن أزمة الصواريخ الكوبية، ربما كانت أكثر لحظة خطرة في تاريخ العالم، وهنا يتوقف السرد المتصل عن JFK وشؤونه خارج نطاق الزواج. يلمِّح كتاب: «مسألة شخصية» إلى أن هناك الكثير عن حياة كينيدي غير سعيه للملذات والسلطة التي أبرزت حياته المبكرة. ويثني عليه ريفز لأنه نشأ حساسًا تجاه عائلته، منذ نجاح زواجه الأول. ثم يسحب ريفز البساط من هذا النضج المتأخر، رغم أنه لا يقدم ثانية أمثلة ملموسة للاستغلال الجنسي، محتجًا بأن JFK كان «غير قادر على زواج أحادي وقت اغتياله».

يؤمن ريفز أن الرئيس لم يكن له اتصال فقط بمارلين مونرو، ولكن أخيه روبرت كان له اتصال بها أيضًا. ويؤكد ريفز أن الأخوين تشاركا بها، ويضفي مصداقية على قصة قديمة تربط بوبي بمصير وفاتها الغامض. بينما كان JFK لايزال رئيسًا، تشارك أيضًا فتاة مع عصابة رائدة تورطت باغتيال فيدل كاسترو. ومن بين عدة من أنواع المخدرات حقن JFK نفسه بالإمفيتماين. إن كتاب: «مسألة شخصية» يقدم لنا قصة دنيئة، لكن من المفاجئ أن نجد مؤرخًا محترفًا يعتمد على مذكراته في كتاب قديم من قبل صحفي شعبي مثل كيتي كيلي حول جاكلين، كينيدي أوناسيس.

كان ريفز مصيبًا برأيه أن الشعب لم يعُطِ أي لمحات حميمية عن حياة الرئيس الخاصة قبيل رئاسة كينيدي. ولذلك يركز على الفجوة الهائلة التي نشأت بين صورة JFK والرجل الحقيقي الذي كان متهورًا وعديم المسؤولية. عرَّض جون كينيدي نفسه في مناسبات عديدة للابتزاز، وكان على آل كينيدي أن يتملقوا ضابط المخابرات إدغار هوفر مرارًا، وذلك بسبب الملفات التي يملكها عنهم.

لطالما كان المدافعون عن كينيدي وأخوته حريصين على التواجد في المقدمة. تأتي الأجزاء المعبِّرة في كتاب ريفز في ثنايا التعليقات المدمرة التي استشهد بها، والمبهج أن زملائه المؤرخون قد عرضوا في المقابل إعادة تشكيل المنفعة السياسية. خلال نشأتي في بروكلين (ماساتشوستس) في الخمسينات، كانت جهة واحدة من عائلتي جمهورية والأخرى ديمقراطية. مع ذلك، كان هناك إجماع على موضوع واحد، لم يكن هناك ابن لجوزيف كينيدي ذي منفعة. وكان لدي مزيج من الشك والحنين لأدرك إلى أي درجة كان هذا الكلام صحيحًا.

بعد أسبوع من اغتيال الرئيس كينيدي عام 1963م أظهر استطلاع غالوب أن 29 بالمئة من الأميركيين يعتقدون أن لي هارفي أوزوولد مسؤول لوحده عن اغتيال الرئيس. وبدا ليندون جونسون حساسًا بما يكفي، وشكاكًا بشكل شخصي حول مؤامرة التداعيات الممكنة لوكالة الاستخبارات المركزية في اغتيال كاسترو، حيث أقنع جونسون رئيس القضاة إيرل وارين برئاسة لجنة متميزة للنظر في الأمر برمته.

في وقت الانتخابات الرئاسية عام 1964م خلصت لجنة وارين إلى أن أوزوولد بمفرده مذنبًا. لكن في غضون سنتين علمنا أن لجنة وارين توصلت للنتائج بشكل مستعجل، وأن أي

قطعة مهملة في القضية كانت أساسًا ضروريًا لأكثر نوع جنوني من دعاة المؤامرة المنظِّرين للنهضة.

منذ ذلك الوقت، كان هناك اجتهاد بشري ومالي لعمل حكايات يفترض أنها بلا دليل. يعطي فيلم أوليفر ستون (JFK) قدرًا عاليًا من الاحترام لهواة المؤامرة، الأمر الذي كان صادمًا لأولئك العارفين بـالقضية، والقلقين على مسؤولية تضليل شبابنا بقضية صادمة كهذه. رغـم أنني تجهـزت لقـراءة «قضية مغلقـة، لي هـارفـي أوزوولد واغتيال ج ف ك-Case[1] Closed: Lee Harvey Oswald and the Assassination of JFK» لجيرالد بوزنر، لأجل أن أحضر نفسي لأحدث الدلائل القاذفة. أصبح ظاهرًا بشكل سريع أن لجنة وارين قد أنجزت عملًا عادلًا بتقييمها لنقاط القضية، رغم انعدام القدرات التقنية في ذلك الوقت.

بالنسبة لي كان أكثر جانب مذهل في «قضية مغلقة» هو أسلوب بوزنر وقدرته على إعادة تشكيل جوٍّ لا يصدق لجريمة دالاس، والتي لم تدمر فقط حياة رئيس شاب، ولكنها ساعدت على تسميم الجو السياسي لما تبقَّى من القرن العشرين. أعاد بوزنر بشكل مقنع تشكيل شخصيات غير الضحايا، وتقصَّى أيضًا باهتمام مقنع الانتباه للتفاصيل، ونوع التفكير الملتوي الذي يمكن أن يوصل أوزوولد ليرتكب فعلًا لا يمكن تصوره.

اغتيال أوزوولد الشخصي من قبل جاك روبي، كان مثالًا آخر أيضًا لنوع من الشخصية الحدِّية التي كان أوزوولد يعاني منها. ربما من المستحيل تخيل أن أحداث العالم العظيمة قد حثَّت اثنين من المجانين لضرب منافذ الأمن بشكل مفاجئ. وكان على كل الرؤساء منذ وفاة JFK أن يتحملوا عبء المسافة للبقاء بين المسؤولين المنتخبين وعامة الجمهور. يجب تهنئة بوزنر على إنجازه لعمل مذهل دون انحياز، برواية مقنعة تسمح للجيل التالي بفهم ملامح المأساة التي حدثت فعليًا.

كتـاب: «الاستعـداد لبـداية القـرن الـعشـرين ـ Preparing for the Twenty ـ First Century»[2] لبول كينيدي، كان على غير العادة في الوقت المناسب. ناقش المؤلف المؤرخ مبكرًا في كتابه: «ارتفاع وسقوط القوى العظمى ـ The Raise and Fall of the

(1) Gerald Posner, Case Closed: **Lee Harvey Oswald and the Assassination of JFK** (New York: Random House, 1993).

(2) Paul Kennedy, **Preparing for the Twenty-First Century (New York: Harper Collins,** 1993).

Great Powers» التي كانت لدى البلدان العظمى في الماضي. سعى كينيدي في ذلك الحين إلى توسيع تحليله للمستقبل لما خلف حدود الدولة الشعبية كلاعب مركزي في الشؤون الخارجية. وعلى ذلك تفحص القوى العالمية للتغيير مثل نمو السكان، طبيعة التكنولوجيا الجديدة، مشاكل البيئة العالمية، وتحركات الناس عبر الحدود السياسية.

ظهر الاقتصاد العالمي في فوضى غير عادية، وكان كينيدي قائدًا مساعدًا مثل الجميع في فهم ما كان يحصل في الجوار. ظن الرئيس السابق جورج بوش أن بابتياعه لأزواج من الجوارب الحريرية أنه كان يساهم في الانعطاف على الركود الاقتصادي الأميركي. أما نهج كينيدي كان في التواصل مع الآخرين الذين ساعدوا في توفير أسس لمقترحات ميزانية بيل كلينتون الواردة، وأي شخص مهتم بالشؤون الخارجية سيجد تفسيرات تبدو ذات أهمية عظيمة. الجزء الأول يمر عبر سلسلة من الاتجاهات الرئيسة لايزال تأثيرها علينا باق حتى اليوم.

أنعش كينيدي قلقًا قديمًا لمفكر في أواخر القرن الثامن عشر يُدعى توماس روبرت مالثوس، الذي كان متشائمًا بخطر الانفجار السكاني الذي سيؤثر على مصادر الغذاء المتوفر. إن الزيادة السكانية مشكلة خطيرة في الصحراء الكبرى بأفريقيا، والتي عاشت الفقر منذ نهاية الاستعمار الغربي. حتى لو قلصت معدلات الولادة انخفاض معدلات الرضع، سيكون ذلك تهديدًا مناقضًا لإمكانية الازدهار أي: أن ما نسبته 59 % من نسبة النمو السكاني المستقبلي سيكون لها مكان ضمن تطور البلدان. وسيكون وباء الإيدز الذي اجتاح البلدان الأكثر فقرًا بشكل سيئ أسلوبًا محبطًا للأحداث، لحلّ معضلات فُرضت من قبل متطلبات عرضتها قوة السكان.

هددت المنتجات الزراعية بمخاطر على بيئتنا الطبيعية. فالاحتباس الحراري هو جزء من الأزمة بالنسبة لمشاريع المؤسسات المنبثقة. تساهم الصين على سبيل المثال في تلف البيئة عالميًا، حتى أن المناطق الأكثر تقدمًا بدأت تحاول فعل سيئ ما. وتبين أن تلوث الغلاف الجوي سيئ عند المناطق غير المتقدمة، والتي لا يمكن أن تتحمل هذا العائق. الجزء الأفضل في (الاستعداد لبداية القرن العشرين) يكمن في تحرك كينيدي من عموميات معروفة جيدًا لتفحص تأثير هذه القوى عالميًا على مناطق معينة. كان لجنوب آسيا قفزة متقدمة واضحة، والمثال على كوريا واليابان وكذلك تايوان وسنغافورة يجب أن يكون تنويرًا حول ما يخبئه المستقبل.

استخدام كينيدي للاقتصاد يحقق الفكرة القديمة عن كونها موضوعًا محزنًا، وهو مألوف من كينيدي أن يختار تسليط الضوء على المشاكل الخاصة، مثل شيخوخة السكان التي تؤثر حتى على اليابانيين. لكن حقيقة أن اليابان الآن تملك ثلاث أرباع روبوتات العالم يعني أنها ربما تستطيع الهرب من توقعات الإحصاء السكاني الكئيبة من خلال التشغيل الآلي. عنوان كتاب كينيدي ربما يبدو رنانًا تنبؤيًا أكثر مما كانت عليه نيته، ويهدف تحليله إلى حدٍّ ما، لتحضيرنا لما سيكون عليه وضعنا خلال عام 2025م.

الأمثلة على الهند والصين تطرح ألغازًا خاصة بسبب حصيلة سكانهم التي تشكل 37% من نسبة سكان العالم. إذا كان هناك شيء مبتذل نجح كينيدي في العمل عليه فهو فكرة وجود كيان يسمى: «العالم الثالث». إن مشاكل الهنود والصينيين مختلفة تمامًا، والفجوة بين أداء آسيا الشرقية وتثاؤب الصحراء الكبرى الأفريقية يوضح أن مصطلح: «العالم الثالث» زائد عن الحاجة. بالمناسبة وفقًا لمسح دراسي لكينيدي، خسرت أميركا اللاتينية أرضها في الثمانينات أيضًا.

كينيدي لديه فصول مهمة مع الاتحاد السوفياتي القديم، الذي ظهرت مشاكله مروعة في أوروبا البقعة المضيئة. لكن هذا الكتاب بأكمله يجهز للمعضلات الخاصة التي وجدت أميركا نفسها بداخله. في النهاية، يعتقد كينيدي أن الولايات المتحدة ستستمر في الفوضى لكن هذا النهج سيستلزم البطء، بانخفاض مطَّرد مثل الذي مرت به بريطانيا قديمًا. يخلص كينيدي إلى مزاج متفائل نسبيًا، وأن تلك القيادة السياسية الجديدة قد تصنع فارقًا في الإمكانيات التي نواجهها. يمكن للمرء أن يأمل فقط أن القادة الشعبيون في أنحاء شمال أميركا يعيرون انتباهًا لأنواع الأدب الذي تقدمه كتب كينيدي، وأن من الأفضل تجهيزها للوصول لتفاهم مع التحديات المتوقعة.

***

لا تزال أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962م محفورة في أذهان أولئك الذين عاشوا وكانوا واعين سياسيًا لتلك اللحظات المخيفة من الحرب الباردة. لكن ولعقود، بقي الغموض يحيط بالأعمال الداخلية من الجانب السوفياتي. في ذلك الوقت، كان الكرملين لايزال يبحث عن صور جماعية لمكتب الحزب الشيوعي، ويحاول تحديد القوة السياسية النسبية للأعضاء عبر التركيز والوقوف على علاقتهم مع خروتشوف.

تطورت الكريملينية بعد الحرب العالمية الثانية كدراسة لتضخم الصندوق الأسود في الحرب الباردة. رغم أن خروتشوف تخلى عن أسوأ الجوانب في ديكتاتورية ستالين ودوره الجنوني، إلا أن المحللين الغربيين واجهوا صعوبة لتحديد ما كان يجري داخل اتحاد الجمهوريات السوفياتية المقدسة.

لكن مع قرب نهاية القرن العشرين، كان كل شيء تقريبًا يتصل بتأريخ الاتحاد السوفياتي قد تغير. وكانت هناك مشاريع عديدة على قدم وساق لتحديد ما يمكن تعلمه من الملفات السوفياتية عالية المستوى. رغم أن بعض المواد كانت مخفية تقريبًا، بدأ الباحثون الغربيون مؤخرًا بتحقيقات مستقلة. ربما يمكن أن نتكلم بثقة أكبر حول السوفيات وما كانت بصدد فعله عام 1962م أكثر مما ألهم الأميركيين. كان أعضاء المكتب السياسي معتادين على توقع أن أي شيء قد دوِّن سيكون محفوظًا من التفتيش الخارجي، بينما يخضع صانعو السياسة الأميركية لتشاورات ونوع من التقييم الحزبي. (سجّل الرئيس كينيدي بعض الاجتماعات عالية المستوى وشارك هذا السر مع أخيه روبرت فقط). ثم بعد ذلك، والفضل يعود لألكساندر فرسينكو وتيموثي نافتالي ووصولهم الاستثنائي لأرشيفات السوفيات، كسبنا معلومات عن فكر نظام كاسترو خلال الأزمة. جاء عنوان كتابهما: «جحيم من المغامرة ـ One Hell of a Gamble»[1] الذي يتناول سياسة خروتشوف، كاسترو، كينيدي، (1958 ـ 1964م) من التقييم المقترح من الرئيس كينيدي لاجتياح كوبا وسط مواجهة دولية تهدد بإشعال حريق عالمية.

عودًا لعام 1959م كان هناك نقاش حادٌّ حول ما إذا كان، أو إلى أي مدى ساعدت السياسة الأميركية في دفع كاسترو للتحالف مع الشيوعية العالمية. حاول المؤرخون خلال الستينات تقييم المدى الذي تستحق أن تلام عليه أميركا لتصعيدها للحرب الباردة بأكملها. أذكر أن ثيودور دريبر كان في ذلك الوقت يسلط الضوء على جاذبية أديولوجيات كاسترو للشيوعية.

غالبًا عند قراءة «جحيم من المغامرة» كنت مصدومًا ببصيرة دريبر ـ خاصة عندما أتمعن في الاتصالات السرية بين السوفيات والحكومة الكوبية. (كتاب دريبر 1962م «ثورة كاسترو، الحقائق والأساطير» سوف تستغرق طباعته طويلًا). يبدو لي كما لو كان بالأمس

(1) Aleksandr Fursenko and Timothy Naftali, «**One Hell of a Gamble**»: **Khrushchev, Castro, and Kennedy 1958-1964** (New York: W. W. Norton, 1997.

أن آمال المرء لتحرير كوبا انهارت بعدما أُعدم كاسترو، أكثر من 500 موظف سابق لباتيستا، وبعد محاكمات حرب سريعة، رفضوا تعيين تاريخ للانتخابات، في وقت كانت سياسة الولايات المتحدة في أميركا الجنوبية لا تزال تحت تأثير دورها في إسقاط نظام أربينز في غواتيمالا عام 1954م. ووفقا لذكريات خروتشوف عام 1970م، كان السوفيات واعين أن شقيق كاسترو راؤول كان «شيوعيًا مخلصًا» رغم أنه لزمن طويل أبقى معتقداته السياسية العميقة مخفية عن فيدل.

في نفس الوقت، مذهب خروتشوف «للتعايش السلمي» مع الغرب زاد من المنافسة بين اتحاد الجمهوريات السوفياتية والصين، اللذان لا يزالان حلفاء بشكل ظاهري. كان النجاح الاستثنائي للصين وثورة الفلاحين إلهامًا للثوريين في أميركا اللاتينية، وقلق السوفيات من أن كاسترو ربما يجد أن أوراق ماو الثورية أقل عفونة من الكريملين. بداية من أواخر أيلول/ سبتمبر 1959م، قررت اللجنة التنفيذية لخروتشوف إرسال أسلحة حلف وارسو لكوبا. تشير ملفات سرية إلى أن السوفيات كانوا مستعدين لتقديم مساعدات رغم أن الزعيم الكوبي شعر بأنه من الآمن عدم قبولها، وذلك نظرًا لعدم شعبية الشيوعية في كوبا. حملت دبابات وأسلحة السوفيات شعارات دول حلف وارسو المختلفة، وأعطت السوفيات موضع قدم في النصف الغربي للعالم.

يبدو أن تشي غيفارا هو أول من اقترح على خروتشوف خريف عام 1960م أن يركز السوفيات صواريخهم في كوبا. بعد الفشل الذريع في غزو خليج الخنازير عام 1961م، ظهر روبرت كينيدي الأول ضمن الإدارة، يشتبه بأن السوفيات ربما يخططون لتثبيت معسكرات في كوبا.

براعة خروتشوف حملته أن يقفز من فلاح متواضع إلى هرم سوفياتي، ولكن من حيث حنكته السياسية كان بمثابة مغامر. ففي غياب الاتفاقية بين أميركا وحظر الاتحاد السوفياتي لاستئناف التجارب النووية، كان الرئيس كينيدي مصممًا على الاستمرار في هذه التجارب. أما بالنسبة لدورهم، كان السوفيات مترددين في الموافقة على أي اتفاق منذ التفتيش الدولي الذي من شأنه أن يكشف ضعفهم النسبي، وكانوا يخشون من إمكانية غارة أميركية استباقية.

كان خروتشوف خياليًا ومندفعًا، وصفه بيير سالينغر السكرتير الصحفي لكينيدي، بأنه «أكثر الرجال تقلبًا». من المؤكد أن كاسترو قد طلب صواريخ من السوفيات، لكن

خروتشوف قرر أن تلك الصواريخ ستكون متوسطة المدى ومزودة برؤوس حربية نووية. اتخذ قائد السوفيات مخاطرة عظيمة بإرسال أكثر أسلحة بلاده فتكًا على بعد سبعة آلاف ميل من المحيط للجزيرة قبالة ساحل الولايات المتحدة.

وقد نُفذ مشروع الصواريخ بسرية تامة، حتى إخراج السفير السوفياتي لواشنطن من الدائرة. بعدما كشفت خطط المراقبة الأميركية حضور الصواريخ في أكتوبر عام 1962م، كان كينيدي غاضبًا من مخادعته. وبعد تنفيذ العملية كانت الصواريخ قد ضاعفت رقم أسلحة السوفيات النووية القادرة على الوصول للولايات المتحدة في كافة السفن الخمس والثمانين المتورطة، إلى جانب (40،000) من أفراد الجيش السوفياتي.

علم السوفيات في وقت سابق أن طائرات (U ـ 2)، ستحدد موقع الصواريخ، لكنهم أملوا أن يقبل الأميركيون على مضض وجود أسلحة من هذا النوع على بعد تسعين ميلًا من غربي فلوريدا، تمامًا مثلما أُجبرت السوفيات على ابتلاع معارضتها لصواريخ أميركية في تركيا.

بدأت الأزمة في السادس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر عندما أُخبر الرئيس عن الصواريخ في الأراضي الكوبية. بعد ذلك بوقت قصير بدا أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على حافة الحرب، وبعد خمسة أيام من نقاش حاد بين كينيدي ومساعديه، قررت الإدارة الأميركية حصار كوبا وبناء حظر للأسلحة. كان البديل غارة جوية لم يتوقع أن يكتب لها النجاح، لكن كينيدي، في وقت لاحق، بدا مصيبًا في توقعه لأسوأ من غزو كوبا.

من الجانب السوفياتي فالسيناريو الأسوأ (بعيدًا عن التبادل النووي) هو أن تسقط الصواريخ في أياد أميركية. خروتشوف بنفسه شعر بأنه في موضع ضعف لأنه لم يأمل بأن يكون له أي فرصة للسيطرة في حرب الجزر الكاريبية. يكشف تحقيق فورسينكو ونفتالي للوثائق السرية أي من الملفات الاستخباراتية قرأها خروتشوف أولًا في كل يوم من الأزمة، واستنتاجه إلى أن كاسترو يدعو للانتحار النووي. في الثامن والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، استسلم خروتشوف وقبل شروط أميركا، وتنفس العالم الصعداء. بعد ذلك، غضب كاسترو لأن السوفيات كانت لهم الكلمة الأخيرة دون استشارة لنظامه.

من وجهة نظر خروتشوف كان الحادث هزيمة، وهو الحدث الذي أدَّى لاستبعاده من السلطة عام 1964م. وبالنسبة لكاسترو، تحولت هذه الأزمة لتكون بناء للنظام الشيوعي، بينما بكى الصينيون حول الأداء البائس للكرملين. الفائز الأكبر بالطبع كان كينيدي، الذي

خلَّص نفسه بعد كارثة خليج الخنازير، وشعر كافة مفكري جيل الحرب الباردة بمبرر لضرورة الحزم في كبح توسع التحركات الروسية.

كانت المواجهة الوحيدة المرعبة للحرب الباردة قد انتهت. عشرون عامًا من الفكر السياسي أعلت من شأن الرد الأميركي الذي أثار خروتشوف. ولمن لم يعش خلال تلك الأحداث المرعبة، أعاد فريسنكو ونفتالي خلقًا دراميًا ناجحًا للأيام الرئيسة من تشرين الأول/ أكتوبر 1962م. أما بالنسبة لجيلي، فقد جمع الكتاب خلفية عميقة للسرد السريع. وأكثر من ذلك، كان فحصهم للمصادر السوفياتية يعني أن كتاب: «جحيم من المغامرة» لديه ما يقوله لطلاب السياسة الأجنبية حيي الضمير. يعدّ هذا العمل تاريخًا دبلوماسيًا في أفضل حالاته.

***

هاورد كيرتز، صحفي إعلامي للواشنطن بوست، كتب: «دورة المغزل، داخل الآلة الإعلامية لكلينتون Spin Cycle: Inside the Clinton Propaganda Machine»[1] كتاب حيوي قفز لقائمة أفضل المبيعات الأميركية. كان وحتى الآن أكثر كتاب مرعب حول التكنولوجيا الحديثة، وما أنجزته لإخراج الكتاب بسرعة عالية. في كلٍّ من مقدمته وخاتمته كان كيرتز قادرًا على ملامسة الأزمة المرتبطة بعلاقة كلينتون ومونيكا لوينسكي، واستعراض خلفية حالات أخرى مثل كاثلين ويلي وباولا جونز.

حكاية واحدة من «دورة المغزل» فاقت ربما كل نكات كلينتون الأخرى. في حملة لجمع التبرعات ربيع عام 1996م علّق الرئيس حول مومياء الإنكا البالغة من العمر خمسمائة عام والتي اكتشفت في البيرو قائلًا: «تعلمون أنه لو كنت رجلًا أعزب، لربما سألت المومياء أن تخرج معي في موعد. تبدين بحالة جيدة أيتها المومياء». بعد ذلك، ألمح السكرتير الصحفي للرئيس مايك ماكوري إلى أن كلينتون بدا غير عقلاني في تعليقه بالنسبة لرجل له سمعة بأنه زير نساء.

سخر كلينتون من ماكوري، وقرر السكرتير الصحفي أنه بحاجة لإجازة من رئيسه،

(1) Howard Kurtz, **Spin Cycle: Inside the Clinton Propaganda Machine** (New York: The Free Press, 1998).

وركب مع الامتياز الصحفي بدلًا من سلاح الجو الواحد. احتسى ماكوري على الأقل كأسًا واحدة وكان متسائلًا حول ملاحظة كلينتون حول المومياء: «ربما تبدو بحال جيدة مقارنة بالمومياء التي كان يعاشرها».

يستحيل على أولئك المتابعين للصحافة والإثارة الشعبية أن يضعوا كتاب: «دورة سبين» جانبًا. هناك حكايات كثيرة وحيّة عن الصحفيين وطاقم عمل رؤساء البيت الأبيض أيضًا. اعترف أنني معجب بعميدة الصحفيين في واشنطن هيلين توماس عند سؤالها ماكوري: «ألا تعتقد أن هناك نفاق بالغ في الدعوة الدائمة للإصلاح وفعل العكس؟»، فقد كان كلينتون تحت غطاء البهرجة الرخيصة التي رافقت فترته الرئاسية، رئيسًا محافظًا إلى حدٍّ ما.

يركز «دورة المغزل» على مايك ماكوري الذي كان خليفة مساعدي كلينتون دي دي مايرز وجورج ستيفانوبولوس. إن أي شخص يملك تركيزًا نقيًّا على العلاقات العامة مثل كيرتز لا بد وأن يأتي بكتاب مثل هذا، كتاب من المؤكد أنه لا يفتح شهية الأخلاقيين. محرر أركانسس الذي صاغ لقب «بقعة ويلي» لكلينتون، هو من أتى مرة بلقب «القذر اللعين»لريتشارد نيكسون.

كتب كيرتز كتابًا لاذعًا «بغض النظر عن جهود طاقمه»، فهو يخبرنا عن «تورط كلينتون» بـ «يويو» الرئاسة، ويغالب الشك المرء بأن علو كلينتون كان سيمكنه أساسًا من النجاح في مقارعة تيدي روزفلت تاريخيًا. على مدى سبعين قرن من الزمان كتب الناقد والتر ليبمان كتبًا حول مشكلة الإدارة الصحفية عند الديمقراطيين، يزودنا كيرتز أيضًا بتوضيحات دقيقة من الوقت الحاضر تجعل من الصعب تصديق أن جمهور القراء العام لن يخرج من كتابه دون سخرية لاذعة. ربما ازدرى كلينتون صحيفة نيويورك تايمز أو صحيفة واشنطن بوست، لكنه يعلم كيف يتحمل صحيفة أميركا اليوم.

في نفس الوقت يظهر كيرتز قذرًا بشكل مفاجئ في تدبره لكتاب: «تحكم المغزل». من الممكن أن يجعل الكمبيوتر الكتابة سهلة، لكن ليس بالضرورة أفضل، فالحكاية التي ظهرت عن مجلة وول ستريت في الصفحة السادسة عادت للظهور مع بعض التغييرات في صفحات (106ـ7). لم يكن هناك معلم لغة إنكليزية في زمني يسمح بتقسيم المصادر، لكن محرر كيرتز لم يمانع. مع هذا، فموضوع «انضمام ممولي أخبار البيت الأبيض في نهاية المطاف في علاقة تكافلية غريبة مع الصحفيين» سيكون من الصعب دحضها.

موللي إيفنز وكتابها: «عليك أن ترقص مع مواليك ـ You Got to Dance with Them What Brung You»[1] الذي كتب بنوع من الأسلوب والمرح الذي غاب عن (دورة المغزل). إيفنز كاتبة من تكساس، جمعت كتابها من مقالاتها في: «Fort Worth Star-Telegram». لم تكن تملك حسًا سياسيًا غرائبيًا فقط، لكنها أظهرت نوعًا من الحكمة الإنسانية الملفتة. رغم التعاطف مع قضية الليبرالية، إلا أنها قلقت من إمكانية شلل رئاسة كلينتون. واختتمت كتابها بتكريم أمها الراحلة. يمكن للقارئ أن يدخل ويخرج من كتاب: «عليك أن ترقص مع مواليك» ويحصل على شذرات من رؤية حقيقية في كل مقال من مقالاتها.

عند تفكيري بالشخصيات التي ظهرت في كلا الكتابين، أتساءل ما إذا كنا ضُللنا بالسياسة عبر أعظم كتابنا. ليدي ماكبث كانت تمشي وهي نائمة لإحساسها بالذنب، والملك لير قد جُن مما رآه من خيانة بناته، هذه أمثلة للدراما السياسية النفسية، لكن لا يعوَّل عليها مثل النماذج التي تخبرنا أكثر عن إنسانيتنا المشتركة، بدلًا من كونها تثقيفًا حول القادة السياسيين الفعليين. ما يلفت الانتباه حول الحياة العامة هو مدى الصراع المبطَّن وبعده عن تكوين علاقة مع ما يحدث سياسيًا. هذا من شأنه أن يكون مرعبًا لأناس يملكون شخصيات حقيقية في الحياة اليومية، فالاحتيال المالي، وثبوت الزنا، يمكن أن تكون أمورًا تافهة لأولئك المتورطين بجزئيات كبيرة منها. وربما يكون أبراهام لنكولن استثناء للقاعدة التي تقول: إن انعدام الاستقرار الأخلاقي يأتي ملازمًا لأعظم المهارات الانتهازية.

---

(1) Molly Ivins, **You Got to Dance With Them What Brung You: Politics in the Clinton Years** (New York: Random House, 1998).

الخاتمة

سيكولوجية النساء

غالبًا ما تُرى النسوية على أنها حركة سياسية كمنهج فكري، فبالتالي نحن نشأنا معتادين على الكتابات النسوية التي تنقل الواقع ليخدم أهدافًا أديولوجية. وعندما يأتي الأمر عند التحليل النفسي فقد نجحت النسويات في حصد تأثير اجتماعي عظيم. ففي بداية الستينات وامتدادًا للسبعينات أسست النسويات بشكل حاسم التحيز الجنسي مضمَّنًا في الإطار الفرويدي.

قوبلت أفكار فرويد بتحدٍّ منذ القدم من قبل قلة من محللين «منشقين» ممن ليس لهم ارتباط بمنهجه حول سيكولوجية الأنثى، ورغم ذلك، تقلَّدت النساء مناصب عالية كمحللات نفسيات خلال القرن العشرين، وبدَّلت النسوية الطريقة التي كان يُنظر بها إلى أعمال فرويد. والواقع أن النسوية كانت مؤثرة بوجهة نظرها القائلة بأن مكانة فرويد عانت من انخفاض نسبي.

مالت الكاتبات النسويات في التحليل النفسي في السنوات الأخيرة إلى التغيير. وبما أن معركتهم ضد فرويد قد حسمت لصالحهم، سمحت النسوية لنفسها أن ترى الجوانب الأخرى للتحليل أكثر من تلك التي عرفت مسبقًا. أصبح التحليل النفسي يُرى مجرد وسيلة دفاع للثقافة الأبوية، لكنه مصدر نقد مدرك لظلم التقليدية.

لدينا في كتاب: «فهم النساء: منهج تحليل نفسي نسوي ـ Understanding Women: A[1] Feminist Psychology Approach» معالجتان نفسيتان وجدتا في التحليل النفسي أدوات لتحدي المجتمع الحديث. وهو كتاب متوازن، مهم وجدِّي. استخدمت لويس أيخنبيوم

(1) Luise Eichenbaum and Susie Orbach, **Understanding Women: A Feminist Psychoanalytic Approach** (New York: Basic Books, 1983).

وسوزي أورفاك التحليل لعزل مشاكل نموذجية في سيكولوجية الأنثى. في الوقت الحالي تبدو الحركة النسوية قادرة على قبول مقارنة بين الخبرة الداخلية والخارجية، دون تضمين التحيز الشوفيني الذكوري. تعتقد أيبخنيوم وأورباخ أننا يمكن أن نفهم السيكولوجية النسوية من خلال الوجود الاجتماعي النسوي. فباعتقادهن، على سبيل المثال، أن لعب دور اجتماعي ما، قد يساعد في تفسير الاختلاف الأنثوي. وتُرجع المؤلفتان وجوب استقلالية النساء، دون أن يكنّ تملكيات أو معدومات الأمان، إلى خبرات اللاوعي في الطفولة المبكرة. وقد قمن بإنشاء مدرسة فكرية لنظرية علاقات الشيء Object Relations Theory(*) داخل التحليل النفسي في إنكلترا، يديرها مفكرون مثل: فايربيرن، بالينت، كلاين، وينيكوت، وغونتريب.

رغم أن هذه الموضوعية جديرة بالتقدير، إلا أنه يجب الإشارة إلى سذاجة المؤلفتين بشكل غريب، لقبولهم وجهة نظر تحليل ـ نفسية عالية الفكر والتي (أصبحت الآن مألوفة). يطرح منظِّرو علاقات الشيء مرحلة من مراحل الطفولة مستحيلة التحقيق، ببساطة ليست حقيقية، لأبين ذلك: «رونالد فيربين كان المحلل الأول الذي انشق جذريًا من نظرية فرويد الغريزية وتعديل نظرية الليبدو». ومما يجدر الإشارة له، من أجل حفظ التاريخ الفكري للتحليل النفسي بشكل مباشر، أن كارل يونغ، ألفرد أدلر وأوتو رانك ـ من بين آخرين ـ سعوا على هذا المنوال لأكثر من ثمانين عامًا.

كتاب: «فهم النساء» ربما يبدو ضعيفًا بصورة نظرية، لكنه يحتوي على نقاط معقولة. تحتوي الأمومة على نوع من العناية بالآخرين، وربما دفعت النساء ـ في بنائهم للمثل العليا للأنوثة ـ الثمن غاليًا لقدرتهن على التنشئة. في تطور ما سمته المؤلفتان «الاستشعار العاطفي لرغبات الآخرين» تضع النساء رغباتهن بالمرتبة الثانية، مما ينتج عنها حالة تكون خبرة استقبال الحنان «ليست متماثلة للنساء والرجال». يساعد التحليل النفسي على شرح كيف تتماثل الأمهات مع البنات، وتأخذ السيكولوجية الأنثوية بالتكاثر جيلًا بعد جيل. وربما تنقل الرسائل المتناقضة للرجال مبالغة النساء في حاجتهن للحنان، مما يحملهن على الشعور بالخداع والإحباط وخيبة الأمل.

إن رغبة المرأة في الاستقلال الذاتي تلتقي مع مجموعة معينة من العقبات. فـ«نمو الابنة

(*) تنطوي (نظرية علاقات الشيء ـ object relations theory) على أن الطريقة التي يرتبط بها الأفراد البالغون لأوضاع أو أشخاص في حياتهم هي طريقة قد تشكّلت من خبرات عائلية خلال الطفولة.

نحو الاستقلال يعطي مشاعرًا بالخسارة وكذلك الفخر»، نتيجته أن المرأة «تستغني عن إرادة حاجاتها الخاصة التي لم تلب».

تؤمن أيخنبيوم وزورباخ بأن مأساة النظام الأبوي هي علاقة الابنة بأبيها. وتتقاسم كلٌّ من الأم والابنة خبرة الضعف مع الرجال الذين لا يقفون مع النساء، خاصة في مصالحهم، وتشعر كلٌّ من الأم والابنة بخيبة أمل من الأب، مُزدرين تضييق الرجال للرباط غير المعلن بين البالغ والطفل.

تُوضح المؤلفتان بصفتهما معالجتان نفسيتان، كيف أن الجزء المدفون من ذات المرأة يمكن أن يبرز عبر حالة عيادية. مفكرو التحليل النفسي ـ الذين قاموا باختيارهم في هذا الكتاب ـ كانوا بالفعل يرون أنفسهم كائنات أمومية عاطفية. علم فرويد أنه فوّت الكثير من الدور الأمومي، رغم ذلك، تجاهلت المؤلفتان العديد من الكتّاب المبكرين في التحليل النفسي ممن حاولوا تصحيح انعدام اتزان نظرية فرويد الخاصة بعقدة أوديب.

عندما أكدت أيخنبوم وأورباخ على أن المرأة تحتاج في العلاج أن «تأخذ خبرة مختلفة في العلاقة الجديدة»، ذلك يشبه أن يصبح شخص مثل فرانز ألكساندر منسيًا تمامًا. يلزم النسوية أن تكون بعيدة تمامًا بشكل كاف لتعي تمامًا النطاق الكامل لفكر التحليل النفسي، خاصة عند تشريعها للتعبير عن الرغبات والحاجات الاعتمادية، وكيف أنها يمكن أن تكون متضاربة.

تحول العلاج النفسي النسوي إلى ما حاول المحللون الجيدون إنجازه ـ أي: عبر سماحهم للعميل بأن يكبر ويصبح مستقلًا، وهو بالطبع أمر صعب إذا تعلق بمعالج من نفس الجنس. ولو تنجح المرأة «بتحقيقه» عبر امرأة أخرى، تكون تلك جزءًا من صورة الإنسانية الكبرى. وإن كان للنسوية أن تعترف، فستعترف بأن قضيتها يمكن أن تسهم في فهم أوسع لما يعني أن تكون إنسانًا مبنيًا بشكل كامل.

***

بدأ جورج أورويل مقالًا عن المهاتما غاندي بتأكيده: «يُحكم على القديسين دائمًا بأنهم مذنبون حتى تثبت براءتهم». يثير حسن نية المثالية نوعًا من السخرية، ومنذ مجيء

إيلي ساجان بكتابه: «فرويد، النساء والأخلاق ـ Freud, Women, and Morality»[1]، كان كمن نصَّب نفسه عاشقًا للبشرية، لذا بدت شكوك أورويل عن القداسة لائقة لتذكر كأحد المحاولات لتقييم ما يعادله كتاب ساجان.

يقف ساجان ضد الوحشية، العنصرية، العبودية، الوأد، التمييز العنصري، والاستنتاجات الأخلاقية التي يجد قلة منا صعوبة معها. لكنه اتبع سلسلة من الخطوات المريبة معتقدًا أن حجته تهدد القيم التي يتمسك بها. الأمر الآخر، تبنى ساجان وجهة نظر تكنولوجية للكون، فهو لا يؤمن فقط بالتقدم الأخلاقي، لكنه يعرّف المنظور الأخلاقي عبر عملية تطورية من الأسفل إلى الأعلى. من وجهة نظر صريحة جدًا، هو يعتقد بأن العصور الماضية كانت قاسية وسيئة، بينما نصارع نحن ببسالة نحو النور. يبدو لي وعديد من المؤرخين، أن أساس الرؤية التاريخية الحقيقية تعني احترام التنوع، كما تعلمنا من وجهات النظر السابقة. وتأكيد نظرة ساجان للماضي أتت فقط من خلال نظارة تفوق مفترض للحاضر.

رغم أنني صُدمت بساجان كساذج فلسفيًا، إلا أن محور كتابه الذي ينتقد مفهوم فرويد للأنا الأعلى، ومن وجهة نظر نسويات حديثات، نجح في كونه جديًا ومحفزًا. ساجان يعتبر فرويد أعظم عقول القرن العشرين، حتى بالرغم من إيمانه أن فكر فرويد حول الأخلاقية، الحضارة، العلم، والمنطق، قد حرفت من خلال التناقض الجوهري في النساء.

لا يحرص ساجان للتودد للعامة عبر تعنيف فرويد وترويج الأكاذيب عنه. بل على النقيض، وإذا كان هناك شيء ساذج فهو في فرضيته أن فرويد يملك «اكتشافات»، بدلًا من الاعتقاد بأن موقف فرويد كان واحدًا من بين عدة تفسيرات محتملة للدليل النفسي. باكتشاف ساجان للآثار الأخلاقية للتحليل النفسي، احتج بأن فرويد دعم بشكل غير ملائم الموقف السلبي عبر نظرياته عن الأنا الأعلى. اقترح ساجان مفهوم الضمير كبديل للأنا الأعلى، وبينما يظهر التمييز بين هذين المفهومين احتيالًا اصطلاحيًا، بدا ساجان محقًا في بحثه عن عدد من وسائل التليين لقناعات فرويد القاسية حول تصارع القيم، وأن الأخلاق لا يمكن أن تعرف بأي حال على أنها قيم صحية.

حتى لو أن أحدًا لا يستطيع مشاركة إيمان ساجان بوجود الأخلاق الإنسانية العالمية، إلا

(1) Eli Sagan, **Freud, Women, and Morality: The Psychology of Good and Evil** (New York: Basic Books, 1988).

أنه قدم خدمة تحاول الجمع بين ما سماه: الضمير ووضع التنشئة الأصلية بين الطفل وراعيه الأول. بالنسبة لساجان تعرف الأخلاق بالحب، بينما وجود العنف، الطغيان، والسلطة إنما وجدت كدفاعات ثانوية ضد القلق.

يعتقد ساجان أن التميز الجنسي برز من قمع الذاكرة لما يدعى بالأم ما قبل الأوديبية، وأن القيم العاطفية والرحمة عرضة للخطر بسبب الخوف من ابتلاعها من الأم التكافلية. يلزم أن تكون النسوية مركزية لموضوع ساجان الذي اقترحه بناء على تلك الصفات التي تخيف الرجال الموصومين بأنهم «أنثويين». فهو يعتقد أنه يستطيع توضيح مراحل التطور الأخلاقي منذ تيقظ الضمير داخلنا.

جهد ساجان لفهم العلاقة بين التحليل النفسي والأخلاق جهد معتبر، كمحاولته لنجاح سيسيولوجيا التحليل النفسي عبر تبني رأي القيم المشتركة التي هي من صميم أي نظام اجتماعي. لكن نهجه ـ بالنسبة لي ـ انشق على نحو قاتل عبر افتراضاته عن الوجود المزعوم للتقدم الأخلاقي. من العجرفة الإيمان بأن «أنا وأنت قادرون على امتلاك نظرة أخلاقية أبعد مما وصل له أفلاطون، أرسطو، وفرويد». ومهما اعتقدنا أننا متحررون، على تاريخ الأفكار أن يخبرنا أن ما من جديد ليضاف.

إن الروابط بين علم النفس والمجتمع أكثر رقة مما يحلو لساجان أن يظن. قد يظن المرء أن فرضية فقدت مصداقيتها منذ الأربعينات تعادل دثار الأطفال في ألمانيا، أو تقدم الاستبداد السياسي الروسي الذي لا يؤخذ بجدية. لكن ساجان متحمس جدًا للإصلاح حتى أنه ألزم نفسه لمواضع صدمتني بشكل مرعب. على سبيل المثال، في استشهاده بزماننا وكيف أنه زمن استنزاف روحي، يوضح ساجان إحساس الانزعاج الانتقالي بالاستعانة بـ «الفوضى الأخلاقية الحالية للحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة». يكتب ساجان من وجهة نظر اليسار، ولكن في سياق التاريخ الفكري يبدو هذا المثال المعين كحركة سموّ نحو التفاهة. مهما كانت أهمية الوضع الحالي للسياسة الأميركية، فلن يكون ذا نفع عندما يعتزم المرء الدخول لعالم القيم ـ عالم أفلاطون، أرسطو، روسو، فرويد والآخرين.

لـم ترى القارة الأميركية الشمالية تفسيرًا أخلاقيًا كافيًا حول ماهية العيش بعد. ويعدُّ كتاب ساجان محاولة جديرة بالاهتمام لننظر من أين أتت قيمنا. لكنه أتلف مشروعه كاملًا عبر وهم التقدم الأخلاقي القديم. وبغض النظر عما يعتقد، نحن لا «نتعذب بقربنا للفهم الحقيقي

للمجتمع»، ذلك لأن الواقع يلزم أن يعرف بأساليب مختلفة عبر رؤى لقيم متعددة. وليس هذا من قبيل السخرية لكنه تواضع تاريخي لائق، ذلك الذي يخبرنا أن المستقبل سيفاجئنا بقدر ما يخيب آمالنا، وبقدر ما نرى في الماضي تنويرًا لنا. لكنه قِدم الماضي، وأسلوب التاريخ في إعطائنا بعدًا نقديًا نحو أنفسنا، بأسلوب يراوغ التقدمية الساذجة المضمنة في فكر ساجان. سيستدعي القارئ هنا نقاشنا عن التراجيديا في الفصل الرابع.

يعدُّ كتاب: «نساء فرويد Freud's Women»[1] كتابًا مميزًا قام بتأليفه كل من ليزا أبيغنانسي وجون فورستر. صدَّر المؤلفان كتابهما بالإشارة إلى أن فرويد يعدُّ «أكثر كتَّاب العصر تأثيرًا» للقرن الماضي، وعلى هذا الأساس اكتشفا أهمية علاقاته المختلفة مع النساء. (نساء فرويد) كتاب ضخم ومتوسع مثل رواية كتبت على طراز قديم، وليس نتيجة بحوث أولية جديدة، رغم أن القراء المطلعون جيدًا سيعلمون العديد من الأمور الجديدة. ما لدينا هنا هو عمل مركب، أعيد النظر والتفكير فيه كالدراسات السابقة. فقد نشكك بالعديد من أحكام الكتاب، أو نشير لأخطاء تاريخية، لكن النقطة الأهم بالنسبة لي، هي أن تفسيرات أبيغنانسي وفورستر دائمًا رائعة، وتملك هيمنة قوة الفهم الأصلي للموضوع.

استفتح المؤلفان أولًا بالسيرة الذاتية لفرويد، وبغياب كامل المراسلات بين فرويد وزوجته المستقبلية (لأنها حررت لاحقًا للنشر النهائي) فإن فهمنا لزواج فرويد سيبقى ضئيلًا، شخصيًا أجد أن هذا الكتاب يقدم معالجة حساسة للمواد المتوفرة. يصبح الكتاب قيمًا عندما يصف اختراع التحليل النفسي، ورصد فرويد لأول حالة منشورة ومؤرخة. أرجأ المؤلفان الحديث عما قاله فرويد عن الرجال، سعيًا منهم للإبقاء على الهدف المفاهيمي لوصف محاولات فرويد لفهم النساء. تتعرض عدد الحالات الإكلينيكة للذكور الذين استقبلهم فرويد للتجاهل دون قصد، مهما أشارت مؤلفاته إلى غير ذلك. وحتى من منظور هذا الزمن، تبدو العديد من سلوكياته تجاه النساء ظريفة، حتى نظرته للرجال تطلبت خيالًا تاريخيًا حقيقيًا لفهمها. لا يتقاسم المؤلفان المفارقة التاريخية المتحيزة التي تصر على رؤية فرويد فقط ولا غيره في هذا الزمن، وفي أحسن الأحوال علينا محاولة التغلب على المناطق العمياء وحدود المسلمات التي نؤمن بها، على ثقة بأن دراسة الماضي ستجعلنا غير محدودي التفكير في نظراتنا الخاصة.

---

(1) Lisa Appignanesi and John Forrester, **Freud's Women** (New York: Basic Books, 1992).

يذكرنا المؤلفان في مناسبات عدة كيف نظَّر فرويد لمهنة العلاج النفسي كما لو كانت محاولة للتقريب بينها وبين الوظائف التقليدية لوسيط الزواج اليهودي القديم. فكر فرويد مرة بالزواج كعلاج محتمل للعصابيين، رغم إني أعتقد أنه كان متحررًا حول الجنسانية أكثر مما يفترضه المرء عند قراءة (نساء فرويد). هناك بعض من الأمثلة الشهيرة لشريكين رأى فرويد استمرارهما معًا، ولم تكن علاقة جنسية نشطة، وعُلم عنه أنه يفرض عقوبات لأي ترتيبات خارج إطار الزواج. يسقط الكتاب في عدة مناسبات في الفخ المعتاد الذي نخضع له في بعض الأحيان، أي بإيماننا بلا تمحيص في رواية فرويد للأحداث. على سبيل المثال، بدا أن أبيغنانسي وفورستر قبلا افتراض أن مرضى فرويد، وليس هو بنفسه فقط قد ولَّدوا الظاهرة المنقولة. قد يُرى فكر الديناميكية العصرية عن كثب في الإعداد العلاجي الذي طوره فرويد كاختبار قاس يساعد على خلق مصاعب عيادية يتلقاها بنفسه.

تحتوي الأجزاء الرصينة من «نساء فرويد» على فصول النساء التابعات لفرويد. كانت موهبة التحليل النفسي تلائم النساء بشكل ملحوظ، وكان على فرويد معارضة أولئك الذين يحاولون منع النساء من أن يصبحن محللات نفسيات داخل دائرته. فكان يساعدهن رافضًا التوقعات التقليدية عن أنواع الحياة التي عليهن قيادتها. شخصيًا أُعجبت بالطريقة التي فهم بها أبيغنانسي وفورستر لو أندرياس ـ سالومي وتورطها مع نيتشه وريلكة قبل دخولها عالم فرويد. لكنهما وصفا أيضًا المسيرة المهنية لكل من سابينا سبيرلاين، لو كان، آنا فرويد، هيلين دويتش، ماري بونابرت، جوان ريفير، وأليكس ستراتشي، والآخرون بصورة مثيرة.

يعالج القسم الأخير من الكتاب المخاوف النظرية. حيث يبدو تاريخ نزاعات التحليل النفسي ونظريات الأنوثة بالغ التعقيد، لكن أبيغنانسي وفورستر قد نجحا بتلخيص الحالات الرئيسية. لست واثقًا بصورة كاملة أن المؤلفين واعيان تمامًا بالغابة اللاهوتية التي دخلا إليها. يُختتم «نساء فرويد» بنجاح عبر فصل متزن عن النسوية والتحليل النفسي، ويوضح كيف تشبعت النسوية مع فكر التحليل النفسي حتى عند بقية المنظِّرين الحاليين للنسوية. وهذا ليس ما يحتاجه المرء فقط من مفاهيم فرويدية لفهم أنماط من الإيذاء، حتى لو سلمنا بأن الأوضاع الاجتماعية للمجتمع الأبوي مسؤولة عن إدراك أنماط الدونية، التي تقدم الأسئلة الفرويدية الأولية المهمة:

إن الحجج الحتمية تجعل كشف موضوع نسوي لم يُتناول من قبل المجتمع وأدوار القواعد الأبوية، أمرًا صعبًا وضروريًا. وبذا، فالحتمية الاجتماعية للنقد النسوي

لفرويد، ضرورية لأنها تطرح قيمًا وأدوارًا مباشرة، فورية لا خلاف عليها، بالإضافة لترجمة وتحويل للقيم الأبوية من العائلة والجو الاجتماعي إلى المواضيع النسوية الممكنة التي تتطلب في مرحلة ثانية من التحليل ملاذًا للذات النسوية، والتي تبقى محظورة ونشطة بعيدًا خلف المجتمع.

لقد ألَّف أبيغنانسي وفورستر كتابًا يشكل تحديًا ويجب أن يبقى مصدرًا رئيسًا للسنوات القادمة.

***

يبدو أننا نعيش في فترة انعدام تاريخي غير معتاد. كنت في مكتبة صغيرة جدًا، حيث القسم المتاح للتاريخ الأوروبي خاليًا من دراسات المثليين والمثليات. يا له من تناقض مروع لهؤلاء المعنيين بمصير مستقبل المواطنين المتعلمين. يسهل تغيير ذلك عبر خطوة لا مثيل لها، بما أن التطورات التكنولوجية تتداخل مع بعضها البعض، حتى يبدو الماضي وكأنه لا صلة له. لكن لن تكون هذه المناسبة الأولى لتضليل الناس عبر مغالطة فكرية، وأن الحاضر مبارك على نحو مميز بالعلم والفضيلة، بينما تهمل العلاقة التاريخية الباقية.

تدعم المشاكل الغريبة الوضع الحالي المتزعزع في أميركا. كما ناقشنا من قبل، أسست بلادنا على إيمان خطي متقدم، وقد قيل إن البلاد السعيدة لا تحتاج لتاريخ عريق. (فالمرء يحتاج للحديث للألمان، الروس، والإيطاليين، ليحصل على صورة مختلفة لإمكانية التوصل للماضي). بالعودة لتاريخنا، يبدو لي أن أبعد ما وصلنا إليه أمر ملفت، على سبيل المثال، فيما يخص الروابط العرقية تطلب الأمر حربًا أهلية مريعة لتدمير العبودية، ومن ثم فإن مكانة السود لم تكن سهلة التحسين. آمل ألا تكون تهنئة ذاتية ثقافية إن تساءلت كم من البلدان وصلت لهذا البعد، وبفترة قصيرة نسبية، في مسألة تحيز متجذرة.

قد يأخذ الغرور أشكالًا مختلفة من الغواية. يعرف الأميركيون بثقتهم، واهتمامهم بالتغير قصير المدى. فهم يقومون بتنميط أي بلد أو جماعة لها مخاطرها الواضحة، لكنني أعتقد أنه من الممكن تجربة بعض التعميمات المؤقتة. نحن نملك نظرة أخلاقية لها فهم غير كاف للكيفية التي تعمل بها الثقافات الأخرى. لم تكن أميركا كما أظن ميالة للأسلوب الوحشي بإدارة شؤونها، لكننا نملك قلة ذكاء انفرادية حول فهم الماضي. (كيف حافظت بلادنا بامتياز على الآثار التاريخية، ربما يكون موضوعًا شاملًا بحد ذاته).

يمكن أن تقارن دراسة التاريخ برحلة خيالية لبلاد أجنبية. بينما هناك آخرون غير قادرين على التعلم من أسلوب الآخرين في إنجازهم، على التاريخ أن يكون مفيدًا على وجه التحديد لأنه يجبرنا على دخول عقول أرواح أشخاص رتبوا الأمور باختلاف تام عن الحاضر. يكمن الخطر في أن الوقوع في المفارقات التاريخية سهل جدًا عند الفشل في فهم ثقافة بنواحيها الخاصة. من الحتمي أن نرى التاريخ بعيون عصرية، ولكن الواجب أن نضع مسلمات اليوم جانبًا، وذلك لصالح فهم الماضي لذاته. في الغالب يظهر أننا ننظر للتاريخ عبر النهاية الخاطئة من مجهر الأخلاق، وعليه يجب أن ندرس الماضي لأجل محاولة تحرير أنفسنا من مسلمات اليوم، بدلًا من استخدام التاريخ لتأكيد حس تفوقنا.

ولنأخذ في عين الاعتبار، أن عقول الحاضر تتحكم بأفضل ما لدينا لتُنسينا بلمح البصر. لأننا إذا شرعنا في الحكم على مفكري الماضي أو الأساليب الشعبية من نواح عصرية، فإن هذه الطريقة سوف تؤكد على أن الجيل القادم سيقوم بتقييمنا بشكل غير كاف أيضًا. يعني في السنة (2013 أو عام 2023م)، على سبيل المثال سيكون من الممكن للمغفل العادي أن يرانا جميعا في عام 2003م كحثالة حمقاء أو أسوأ. إن ممارسة تقييم الماضي عبر معايير أخلاقية قاسية قد يبني حادثة سابقة، مما يعني أننا أيضًا سنُغلب من خلال الأحداث. وهذا يعني أن إنجازاتنا الخاصة من الممكن أن ترفض في وقت قصير، ليس لأنها غير كافية بل هزيلة المعنى. لذلك أقول لكل من يسعى لتشجيع التغيير يجب أن تكون واعيًا لكيف أن للثورات أسلوبها في إتلاف ابتكاراتنا الخاصة. لكن المساعي المتواضعة أيضًا يمكن أن تعلق بتكرار دوري مستمر، مما يتيح للجيل الأول أن يرفضها بلا مبالاة، فلذلك يجب أن تمضي هذه المساعي دون تأكيد على أن الأسس لتلك الأحكام الماضية تبدو غير سليمة، لإن ذلك غالبًا ما يقابله تجاهل يعيق الحماس للتقدم الحديث.

كيف لهذا الخط من التفكير أن ينطبق على دراسة سيكولوجية النساء؟ يبدو لي غريبًا أننا كنا غير قادرين على الاعتراف بإنجازات سالفة في هذا الموضوع. على سبيل المثال، كارن هورني التي خُولت لسنوات من الاتجاه السائد للتحليل النفسي كمثيرة شغب مسؤولة عن «الانشقاق»، قُبلت لفترة من الزمن كرئيسة لفكر زمانها. لكن في نفس الوقت كانت هيلين دويتش أحد معاصريها، تجد صعوبة في الاعتراف بمساهماتها المبكرة. أوجدت هورني مدرسة تدريب خاصة لها، بمجلة منفصلة، لكن نجاحها تجاوز لأعلى مما كانت المجموعة المهنية قادرة على إنجازه. كتبت هورني للجمهور العام، وكانت كتبها تكافأ بشريحة عريضة من القراء، انطوى على ذلك تعدد الجهود لكتابة سير ذاتية لفهم حياتها وعملها.

هيلين دويتش شخصية مفضلة لدى فرويد والمؤلف، من بين عدة أعمال لها تكاد تكون موسوعية، لُعنت على نطاق واسع بسبب مجلديها «سيكولوجية النساء ـ The psychology of women»، الذي كان بمثابة علامة بارزة لتاريخ مفاهيم الأنوثة، وقد منع من الطبع بالإنكليزية لعدة سنوات. قامت هورني بانتقاد دويتش وكانت تلك الانتقادات مجابة فقط من دويتش نفسها بأسلوب غير مباشر. لكن من أجل زعزعة معايير التصحيح السياسي لليوم وحول هاتين المرأتين، دعوني آخذ اختلافًا واحدًا ينبع من العشرينات بين تلك المرأتين. احتجت هورني في ذلك الوقت بأن تحديد هوية المرأة الشابة مع والدها كان مصدرًا للعصاب، بينما موقف دويتش كان معاكسًا، بحيث ترى أن المرأة يمكن أن تبني مسيرتها المهنية قانونيًا من هوية والدها. نعلم الآن أن كلا المرأتين تحدثتا من جانب سير ـ ذاتي، بما أن هورني كان لديها علاقة ضعيفة مع والدها (والتي امتدت أيضًا إلى فرويد)، بينما دويتش وجدت في والدها خير معين لتحررها كامرأة، والذي ساعد في مقدرتها على استخدام أفكار فرويد للتعبير عن تجاربها الحميمية الخاصة. (رغم أن هورني توقفت عن الكتابة حول النساء، واصلت دويتش الكتابة حول الموضوع لبقية حياتها الطويلة).

نقطة الفصل الخاصة في العشرينات بين هورني ودويتش كانت حول موضوع هوية الأب للمرأة، والذي لم يناقش تقريبًا إلى هذا اليوم، ولو سلط الضوء عليه يمكن أن يجعل موقف دويتش أكثر تنويرًا. لن أجلب نقطة الخلاف النابعة من ثمانين سنة ماضية لأجل الحزبية، لكن من أجل التأكيد على التاريخ وكيف يمكن أن يواجهنا باحتمالات وتعقيدات ربما نكون غير واعين بها. كان لهورني شعارات رائعة وكانت تملك بصيرة في تجاهلها لجوانب من أعمال فرويد، جوانب لا يميل الكثير للدفاع عنها اليوم.

وبينما تحدث هورني نهج فرويد علنيًا، اتخذت دويتش ـ بدءًا من الثلاثينات ـ مسارًا مختلفًا يتطلب فهمًا مقربًا لتقديره. كانت دويتش قادرة على استخدام أفكار فرويد للتعبير عن تجاربها الخاصة، بالطبع كانت تكتب كمحللة نفسية، وعندما اقترحت أهمية الماسوشية في حياة المرأة، كانت ـ مثل فرويد ـ تأخذ بالحسبان فكرة أن كافة الناس المتحضرين ماسوشيين. ردَّت دويتش تصرف هورني معها إلى النرجسية، والتي اعتبرتها وسيلة حماية للمرأة ضد الماسوشية. وكانت قد اقترحت الكشف عن الأساليب التي تكون فيها الماسوشية مختلفة عن الرجال، وقد فعلت ذلك في مرجع عظيم (بالإضافة إلى بحوث تقنية ضخمة)، حيث عبَّرت عن اختلافاتها مع فرويد بأساليب غير مباشرة. عنوان كتابها الضخم

«سيكولوجية النساء» كان بنفسه تنبيهًا للقراء الحساسين لحقيقة أنها ذهبت لأبعد من فرضية سيكولوجية النساء. (تعرض كتابها لتشريح عديد من القراء الذين أخذوا واختاروا أجزاء من جمل دويتش لغرض هجومي، وأصبحت كتاباتها للعديد من الصفحات دعوة لأن تعرض بسخافة).

لكن دعوني أركز أكثر على المادة النقاشية لدويتش. في كتابها الأول «التحليل النفسي للوظائف الجنسية للمرأة The psychoanalysis of the sexual functions of women» عام 1925م، ضمّنت دويتش في كتابها فصلًا في «سن اليأس». في مراجعة هورني لكتاب دويتش، قامت هورني بانتقاء ذلك الفصل للغنى الإكلينيكي المادي. الآن وبعد ثمانية عقود، ربما نكون ميَّالين للاعتقاد بأن العلم الحديث علمنا الكثير من الأشياء التي لم تعلمها هورني ودويتش في ذلك الوقت. لكن النقطة التاريخية التي أحاول بيانها هو أنه مهما كان اعتقادنا حول الحدود أو الخصائص التي اقترحتها دويتش ذلك الوقت، هناك حاجة لإيضاح أنها أنجزت أكثر من أي شخص آخر فيما يخص بناء «سن اليأس» كموضوع شرعي للتفكير به من جانب تحليل ـ نفسي.

حينما كتبت دويتش لزوجها فيليكس، كانت في ذلك الحين قد أنجزت المسودة الأولى لكتابها الأول عام 1925م، قالت: «تجلب شيئًا جديدًا لميدان لم يكشف بعد في التحليل، أعتقد أنها أول أشعة ضوء على الليبدو النسوية التي لم تقدر حق التقدير. لكنني لن أجعلها جزءًا مركزيًا للوجود»[(1)]. تاريخيًا على المرء أن يتذكر كيف كان فرويد أواخر عام 1933م يعتقد بأن «تجاور» الليبدو النسوية «ليس له أي تبرير»[(2)]. لم تتقاطع دويتش مع فرويد بشكل علني، لكنها كانت قادرة على المضي في مشروعها ضمن إطار عمل فرويد العام. ومثل فرويد كانت دويتش مثقفة بما يكفي لتضع حدودًا حول إلى أي مدى يمكن أن يدفع المرء بأهمية ما يعرف بـ «الوظيفة الجنسية». خلال تاريخ التحليل النفسي، كان المحترمون هم أدعى للنسيان، بينما العديد من مؤسسي النظام كان لهم زمانهم لإثبات نجاحهم.

أود أن أمضي في دراسة التاريخ أكثر من ذلك، والإشارة إلى علاقة المنظر إريك فروم

---

(1) Quoted in Paul Roazen, **Helene Deutsch: A Psychoanalyst's Life** (New York: Doubleday, 1985; second edition, with new introduction, New Brunswick, NJ, Transaction Publishers, 1992), p. 231.

(2) Freud, **New Introductory Lectures on Psychoanalysis**, Standard Edition, Vol. 22, p. 131.

والذي لم يقدر بشكل كاف في هذا الزمن. كان إريك فروم متحالفًا أديولوجيًا مع هورني ونعلم الآن عن علاقتهم الرومانسية. لكن فروم وهورني كانا بطريقة ما، وبصرف النظر عن كونهما متداخلين في أعمالهما، بقيا خارج الشخصيات المميزة شعبيًا في موضوع سيكولوجية الأنثى. كان هناك مقال لفروم نشر عام 1949م حول «الجنس والشخصية» والذي أعيد طباعته في كتابه: «عقيدة المسيح»[1] 1963م، والذي بقي غير معروف ضمن الأدب النسوي، حتى بالرغم من أنه كان بيانًا لاذعًا مميزًا من أعظم منظري التحليل النفسي.

كان فروم ناجحًا كمفكر اجتماعي، اختار العديد من المفكرين تجاهل مفهومه المبكر لـ «الشخصية الاجتماعية» وأهميته كإكلينيكي. بالإضافة إلى تلك الأمثلة من التجاهل غير الضروري لدويتش وفروم، يمكن أن أضيف مثالًا لنوع من الخطأ الذي ينهض فجأة لأجل التاريخ النسوي، حيث كان هناك إغراء لجوان إريكسون للتحدث بشأن الحاضر كما لو كانت مسؤولة مع زوجها إريكسون عن كل كتاباته. كانت امرأة موهوبة، وكان تحريرها لكتاب إريك أريكسون ضروريًا لنجاحه الوحيد. لكنها كتبت بنفسها ما يكفي ليطبع، ليتضح لنا أن ما كتبت لم يكن له الجاذبية السحرية، كما كان لكتابات إريكسون. سخر جورج إليوت مرة من أولئك الذين يميلون لنسب نجاح كتاباتهم لآخرين غير المؤلف المعلن.

هذه الأمثلة المختلفة ترتبط بتاريخ النساء الذي يغذي المشكلة العامة، وهي التساؤل عمّا إذا كان كتَّاب اليوم على وعي دقيق لما كان عليه أسلافهم في هذا المجال. على سبيل المثال، كتبت شخصية مثل كارول غاليغان وكتَّاب آخرون حول مصادر نسوية محددة للقوة، دون أن يعترفوا بتقدم أشخاص مثل هيلين دويتش وإريك إريكسون في هذا المحاولة تحديدًا. هؤلاء الذين يتحدثون حول الأمومة لا يبدو أنهم يدركون أن أي معايير لليوم ربما تكون مفتقرة للأمومة في مفهوم دويتش، فلم يفعل أحد في تاريخ التحليل النفسي مثلما فعلت دويتش بوضعها للأمومة على خارطة ما يفترض بالتحليل النفسي الاهتمام به.

تفتقر الصحافة النسوية المعاصرة إلى التمسك الكافي بما كان عليه تاريخ هذه القضية. من السهل أن تأخذ تجارب رخيصة من فرويد، الذي ولد عام 1856م. فلم يكن له وعاء يبصق فيه فقط، بل أنه وجد منفعة من ذلك. (قضاة المحكمة العليا الأميركية أعادوا وعاء

(1) Erich Fromm, **The Dogma of Christ** (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1963).

البصق القديم(*) لاستخدام حديث). لم يظهر أحد منبهرًا بشكل كاف عندما ناقشت جمعية فيينا للتحليل النفسي قبل الحرب العالمية الأولى ولأول مرة، إمكانية السماح بالعضوية النسائية، وقد تحدث فرويد بالنيابة عن هذا الاقتراح. مُرر الاقتراح على الجميع واعترضت أقلية كبيرة من الأعضاء (كانوا جميعهم من جيل أصغر من فرويد بنفسه)، لذا كان على فرويد الادِّعاء بوجوب احترام آراء هؤلاء المعارضين للفكرة الجديدة للمساواة[1]. مضى فرويد حسبما كان يميل إليه، ووضع مزيدًا من النساء في مناصب سلطة، أكثر مما هو الحال عليه اليوم في تنظيم التحليل النفسي. ولكن أين دراسات لو أندرياس سالومي؟ أي كتاب بمثل تعقيد «السيدة لو ـ Frau Lou» كان مصيره التجاهل، جنبًا إلى جنب مع حادة الذهن هيلين دويتش. (أعتقد أن دويتش ستكون سعيدة بقراءة رسالة أليكس ستراتشي عام 1924م لزوجها والتي لاحظت فيها «كان بحث دويتش نجاحًا عظيمًا، تُوِّج بعباءتها المسائية [من باريس، كما يقول الجميع]... كانت امرأة فريدة من نوعها»[2]. تمامًا كما كان لفرويد حلاقًا يوميًا ليهذِّب لحيته، هيلين دويتش احتاجت مصففة شعر يومية في برلين زمن العشرينات).

حقيقة المسألة أن ثقافة العالم القديم كانت مختلفة عن ثقافتنا، ويجب علينا الوصول لها بعين ما يمكن أن نتعلمه. وبدلًا من رفض الماضي لما لم يكن عليه، لربما تعلم المعاصرون شيئًا حول ما كانت عليه الأخلاق الأوروبية من تعقيد. يبدو أن زماننا يمجد ما أعتبره كنوع من شبه العلاقة الحميمة، بينما العالم القديم علم شيئًا حول تعقيد وتناقض التواصل البشري. (شخصيًا أرى عرض الرئيس كلينتون لنفسه في فضيحة لوينسكي كعمل الكاذب الصادق). قد تساء قراءة فرويد وتلاميذه المبكرين بالحكم عليه عبر قيم ومعتقدات غليظة لهذا العصر. أن تقول الشيء نفسه لغريب كشيء حميمي، ربما يبدو للجميع كصنف أميركي مميز من الهمجية. أتذكر محللًا باريسيًا سئل من مرشح كندي «ما هي البراعة؟» ومن الواضح أن الموضوع لم يطرأ عليه أثناء دراسته كمحلل نفسي.

اقترب اليابانيون اليوم لشؤون الإنسان بشيء يشبه رقة العالم القديم. أتذكر مثالًا ساخرًا

(*) انتشر وعاء البصق أواخر القرن التاسع عشر في أميركا، وكان يستخدم للمدخنين بشكل متواصل.

(1) **Minutes of the Vienna Psychoanalytic Society,** Vol. II: 1908-1910, ed. Herman Nunberg and Ernst Federn, translated by M. Nunberg (New York: International Universities Press, 1967), p. 477.

(2) Bloomsbury/Freud: **The Letters of James and Alix Strachey 1924 _ 1925**, ed. Perry Meisel and Walter Kendrick (New York: Basic Books, 1985), p. 87.

أن فرويد نوّه مرتين في كتاب: «النكت وعلاقتها باللاوعي ـ Jokes and their relation to the Unconscious»: على أن «الزوجة كالمظلة، عاجلًا أم آجلًا سيستقل المرء أجرة خاصة»[1]. متعة فرويد من قول ذلك لا يعني أنه كان رجلًا غير مخلص، رغم أن هذا الفهم هو بذاته ما أسيئ فهمه من هذه النكتة. ذكرت هذا الاقتباس مرة على مائدة عشاء مع صديق لي في مطعم بمدينة هونغ كونغ، دون أن ألحظ أن امرأة راقية تجلس بجانبي، من تربّى في اليابان ربما يكون قادرًا على فهم مقصدي بغض النظر عن الحواجز اللغوية. ودون أن تبدو عليها الإهانة، كانت سريعة بالتقاطها للمعنى خلف سخرية فرويد النمساوية، فأعادت الصياغة بسخرية قائلة: «بالصحن، أفضل من قائمة الطعام». (أفكر في أسقف أبريشية إبسكوباليان المقدس الذي كان مصدومًا من ظهور نكتة فرويد، أظن أن هذه الحقيقة المطلقة لعصرنا الذي كان يوحي بها فرويد. كان هناك زميل أميركي غير متزوج لم يفهم تمامًا ما قصده فرويد).

كان للثقافة الأوروبية القديمة شيء قيم نميل لنسيانه. عندما كتبت هيلين دويتش لأول مرة عن الصراع بين الأمومة والجنسانية، كانت تمضي في فرضية سُكت عنها وهي أن كل الأشياء الجيدة لا تتفق تلقائيًا مع بعضها البعض. نشأ الأميركيون على فرضية أن بلادنا يمكن أن تُسخِّر للحياة، الحرية، والمضي في السعادة، وأن هذه القيم بحاجة لأن يزول الصراع فيما بينها. عندما اكتشفنا أن توماس جيفرسون كان لديه علاقة غير شرعية مع خادمة منزلية مستعبدة، كان هناك كتاب مُرضٍ لفترة طويلة «البيض ضد السود ـ White over Black»[2] لمؤلفته وينثروب جوردون، وقد استجاب جزء من الشعب بسخط على النفاق المضمن فيه. تعلم فرويد أن معظم الناس في صراع مع أنفسهم، بينما بصرف النظر عن كل أساليب المداهنة التي ربما ندفعها لتعاليمه، نحن ميالون للاعتقاد بأننا أقل موضوعية لخداع الذات اللاواعية.

أود أن آخذ مشكلة واحدة لم أشهد نقاشها من قبل في أي صحيفة للتحليل النفسي ـ دور الخدم، والعمل المنزلي بشكل عام. (لا أقصر حديثي حول مشكلة الجليسات، والتي ظهرت على الأقل في ذاكرة سيرة فرويد لأهمية المرأة التي أعتقت لسرقتها في فرايبورغ،

(1) **«Jokes and Their Relation to the Unconscious,»** Standard Edition, Vol. 8, p. 78.

(2) Winthrop Jordan, **White Over Black: American Attitudes Toward the Negro 1550 _ 1812** (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1968).

أو رجل الذئب الذي انجذب جنسيًا للخادمة المنزلية وبشكل منحرف). لماذا نفترض في زماننا أن آباء الطبقة الوسطى يفترض بهم القيام بتربية الطفل؟ حسبما أعلم، فإن المفكرين هم آخر الناس الذين يملكون حسًّا مشتركًا في هذه المسائل، لكن ليس هناك شيء في الأدب يخبرهم أن تفويض المسؤولية للآخرين أمر شرعي. بالطبع يتطلب ذلك أمانًا نفسيًا، لكن المقالات التي كتبت في هذا الموضوع لاحقًا ربما جعلت الأمر ممكنًا دون أن تلحقهم بمشاعر الذنب، ولكي يكون قرار السماح بالعمل المنزلي تأكيدًا على مضيِّهم في مهنة الآباء البيولوجيين أنفسهم. لماذا نستمر بالتصديق بأن كل واحد يفترض أن يكون قادرًا على فعل أي شيء؟ في الواقع أنا على يقين بأن أنماط عقدة أوديب، والعلاقات العائلية على وجه العموم، مختلفة عند حضور المساعدة الخاصة. ومثلما تغيرت بناء الأسرة التقليدية الممتدة، يظهر أننا على وعي بإمكانية دور المعالجين النفسيين كمصادر للمساعدة. لست متأكدًا بشكل تام حول ما تسمى: «العائلة المتحدة» التي تظهر بخلفية عاطفية غنية، كحياة أعرق عائلة تقليدية لم يعد وجودها أمرًا ممكنًا.

هناك صراعات حتمية في الحياة أكثر مما يبدو أن أديولوجية الحياة على استعداد لرصده. والكثير من الوعي التاريخي ربما يكون تحذير لنا لبعض البدائل الموجودة. خلال الخمسين سنة الماضية، والتي نميل بسذاجة للتفكير فيها كسجل تقدمي تكون فيه النساء (والسود) قادرين على التقدم، من الذي خسر؟ (تعاني الشيشان في الوقت الحالي من قوة الديمقراطية الروسية). وأتساءل إلى أي مدى استخدم التحليل النفسي لتغذية الثقافة الأوروبية التي يحتمل إصابتها بحبسة تسمية. أصبحت حياة بعض عائلات الطبقة الوسطى غابة محتملة، وقد استخدمت أفكار آنا فرويد حول أهمية الاستمرارية في قضايا حضانة الطفل قانونيًا لإعطاء أحد الوالدين الحاضنين سلطة دون نزاع على حقوق زيارات الحاضن الآخر. كتب أرنست هيمنجواي مرة مجموعة عظيمة من القصص سماها بـ «رجال دون نساء ـ Men Without Women»، هل نحن مستعدون الآن لتأييد علامة تقدم أخلاقي في عالم يكن النساء فيه بلا رجال؟ أنا رجل تقليدي بما يكفي لأجد اقتراح حرية المثليين، هو اقتراح جيد تلقائيًا لحيرة الحركة النسوية الحقيقية.

إذا كانت المجموعات الضاغطة مهتمة بتحصيل قصير المدى، هذا سيكون أمرًا جيدًا. ليس هناك أنواع من المنطقية المطلوبة إذا كان المحك هو الحصول على جزء من التأثير. لكن يجب ألا يخلط بين هذه الحزبية وبين الإنسانية والعدالة، فضلًا عن قدمها. هناك

مكاسب وخسارات في كل تغيير اجتماعي عقلاني، ولن يخدمنا إخفاءنا لحقيقة ما يجري بالفعل.

في الوقت الحالي يحيط بموضوع شأن المرأة اهتمام كبير. عندما أعود بتفكيري حول المشاكل المتعلقة بالتاريخ، يبدو من الرائع أن العديد من الدعايات حول «الأسقف الزجاجية»، «الأرضيات اللزجة»، والتفاهات الأخرى مثل «المتطورة والحديثة» أو «الألفية الجديدة» قد سمح لها أن تنتشر في الأدب. نماذج القدوة الحقيقية في الماضي، مثل هيلين دويتش أو لو أندرياس سالومي، ظهرن دون الحاجة للجوء للخيال الوهمي. ولربما اعتقدت أن دويتش، وهي المدير الأول لمعهد فيينا للتحليل النفسي، هي أعظم المعلمات في التحليل النفسي، وساعدت بجذب إعجاب الطلاب لمكانة أشخاص مثل نوربرت فينر، و ج. روبرت أوبنهايمر. لكن الدعوة إلى الانغماس الذاتي تعد من أسوأ خطايا ثقافتنا المعاصرة، ويكمن الوعظ التقي في المحافظة على ميلنا للتفكير بكل مشكلة اجتماعية يمكن بحثها من منظور الضحية. إذا كانت النساء مهتمات فقط في النجاح قصير المدى، فإن تلك السبل الشعبية من النهج قد تكون مناسبة. لكن المؤكد بأن المنطق الفارغ لن يكون كافيًا ليضمن مستقبل النساء المهنيات، أو تحسين حياة العائلة بشكل عام. (أذكر كيف ازدرت هيلين دويتش في منتصف الستينات فكرة دفع الرجال لعربات الأطفال، رغم هذا، كلفني الأمر سنوات لأدرك أن الخدم كانوا يقومون بهذه المهمة في زمانها).

يمكن أن يكون النقد الذاتي علامة على النضج، وكان وقتًا متأخرًا عندما كرس المحللون أنفسهم لمشكلة السلطة الحقيقية، على سبيل المثال، ماذا يحدث ضمن ممارسة العلاج النفسي بذاته؟ كما كتب فرويد عام 1937م، «عندما يوهب الرجل سلطة فمن الصعوبة ألا يسيئ استخدامها»[1] بقيت حزينًا لعدم وجود مزيد من الدراسات لكيفية ممارسة السلطة داخل الإطار العيادي سواء عن طريق الرجال أو النساء. نجاح الطب النفسي البيولوجي، بتقنية علاج الحبوب تجعل تلك الأسئلة ذي صلة قوية. وفي تصوري أن البحوث التي تتضمن تفكيرًا في هذه النقاط ستكون أكثر إنتاجية من تصنيع العبارة التي تبدو بديلًا لتقييم ما قد كسبناه وما فقدناه.

كل ما نستطيع سؤاله للمستقبل أن يعير الناس احترامًا لائقًا للماضي، والذي يتضمن

(1) **Analysis Terminable and Interminabley**, «Standard Edition, Vol. 23, p. 249».

قراءة أعمال بغض النظر عن كونها خاطئة سياسيًا. أمضيت الآن أربعين سنة أعمل في تاريخ التحليل النفسي، وخلال تلك المرحلة بأكملها لا تحضرني العديد من قصص النجاح العلمية. الشخص الوحيد الذي تدبر إعادة تأهيله كليًا في هذه الفترة هو ساندور فرينزي، والذي يُعترف به الآن عالميًا كمستحق لمزيد من الاهتمام والتدقيق. (أشك أن تعاويذ اليوم الشعائرية لاسم د. ووينيكوت ستذهب مذهب استخدامنا لاسم هاينز هارتمان).

كان لدى فرويد فكرة ماكرة عن سلطة الأسطورة التاريخية، ولهذا السبب قام بتأليف «تاريخ حركة التحليل النفسي» عام 1914م. لم يُظهر كارل يونغ وألفرد أدلر قدرًا مساويًا من الدهاء، وأتاحا لجانب فرويد بقصور نظر منهما أن يدخل التاريخ دون مساءلة.

لايزال هناك صعوبة في إعادة النظر فيما حدث في نزاعات ما قبل الحرب العالمية الأولى الشهيرة، لكنني كرست نفسي الآن لتحجيم مشكلة الكيفية التي يمضي بها الأميركيون. لا زلنا لا نعلم سيئات ما قاله فرويد عن أميركا، في لقاء مع فرانز ألكساندر قرأته مؤخرًا، ازدرى فرويد أميركا لأنها أراض هندية ستصبح خلال خمسين عامًا «جمهورية الزنوج» (حقيقة أن أفلاطون وأرسطو أخذوا وجود العبودية على محمل جدي لا يعدم جزئية كونهم فلاسفة عظامًا). بغض النظر عن تحيز فرويد ضد أميركا، نحن كثقافة نفتقر منظورًا أوروبيًا كافيًا، لذلك فالسلطة التاريخية والواقع التراجيدي هي في الغالب أمور غريبة بالنسبة لنا. سيستمر بعض الناس بمعاملة حالة مريضة فرويد «دورًا» كتفسير على بطوليتها، بينما البعض منا سيتعجب من جرأة فرويد على نشر ورطة علاجية ظنّ أنه فهمها علميًا. (لإعطاء منظور تاريخي لاستجابة اليوم لدورا، في الخمسينات إعتقد الكساندر أن هذه الحالة التاريخية كانت نقطة بارزة في إثبات مدى استعداد فرويد للاعتماد على الواقع العاطفي الحديث ـ كمعارض لإعادة بناء الطفولة المبكرة لأجل فهم المريض).

***

المثال الذي بدأنا فيه في الفصل الأول يُعنى بإقصاء إريك فروم من الاتحاد الدولي للتحليل النفسي، يجب أن يذكرنا بألا نسمح للسياسات البيروقراطية أن تحدد لنا من يستحق أو لا يستحق أن يكون عالم نفس بارز. في الفصل الثاني الذي يتطرق لقضية هيز ـ تشامبرز رأينا كيف أن اختبار الدوافع أمر حتمي، وأن التحليل النفسي الصريح يمكن أن يوجد حتى في أشد الجدالات السياسية المتحزبة. أما في الفصل الثالث فالمثال البارز للروائية فرجينيا

وولف، يستحضر لأذهاننا جماعة بلومزبري الذين ساعدوا في الواقع وبطريقة عظيمة في تعميم فكر التحليل النفسي. لكن حياة وولف فيما يخص تطور النسوية، يمكن أن تكون نموذجًا أوليًا للفرويدية البسيطة على نحو ساخر، هي بنفسها فعلت الكثير لأجل ذلك. قبول علم النفس المختلف في بريطانيا كمعارض لأميركا على سبيل المثال، تبرز لنا كيف يمكن لبعض الثقافات أن تتجاهل حتمية الخيار الأخلاقي. في الفصل الرابع كنت أقترح أن النهج الأميركي للتراجيديا يمكن أن يرتبط مع الميل لاستخدام علم النفس كبديل مباشر للأخلاق. وفي الفصل الخامس، ناقشت الدعم العلني والسري لتمويل مجلة الإنكاونتر، الذي كان جزءًا من التاريخ الفكري لكيفية استخدام الدول لمصادرها، إن أخلاقية ما يحدث وما يأتي بعد ذلك هو جزء من النقاش النظري في رأيي، والذي يحتم على السياسة النفسية أن تكون جزءًا منه.

في الفصل السادس ناقشت ردة فعل ثلاثة من الفلاسفة لاختراعات فرويد، وأهمية مساعدتها في إيضاح قيم ومعتقدات يجب ألا تبقى ضمنية. في الفصل السابع أنوِّه بأن دراسة المنظِّرين العظماء على أسس تقليدية من الفكر الاجتماعي يجب أن تكون ركيزة للسياسة وعلم النفس، فروم وبرلين هما الممثلان الأخيران الوحيدان لهذه المدرسة العريقة من المفكرين. يتناول الفصل الثامن فيتنام والحرب الباردة كمثال واحد على القضية السياسية البارزة التي تتطلب تفكيرًا أخلاقيًا لترتبط مع السياسة النفسية.

وفي الفصل التاسع تصعد مشكلة إمكانية الدعم الاجتماعي للقدرة على التجريد، وفي الفصل العاشر استكشاف لقضايا منهجية مختلفة ترتبط بوضع حقلين مختلفين معًا مثل علم النفس والسياسة دون تحسب لعدم تغيير من أحد الجانبين. قلة سيتنافسون في الفصل الحادي عشر الذي يتحدث عن أعمال حنة آرندت، بأن لدينا شخصية يجب أن يُعترف بها كشخص مركزي للمنظر المعاصر في علم النفس السياسي، بينما الفصل الثاني عشر حول جيفري غورير كان محاولة لإيقاظ الاهتمام بشخص ادَّعى أن يكون اليوم في عداد المنسيين. ويقترب الفصل الثالث عشر من زوايا وقضايا مختلفة حول كتابة السيرة الذاتية، أما الفصل الرابع عشر فقد حوى سلسلة من الأمثلة حول كيفية غرس الدراسات السياسية العملية مع مشاكل الشخصيات السيكولوجية. لا أعتذر عن إيماني بأن فرويد بذاته يشكل شخصية رائعة في التاريخ الفكري، وبالنسبة لمقاصدي فهو يستحق بنظري أن يكون مع مرتبة عظماء، مثل جان جاك روسو والآخرين في الفلسفة الاجتماعية التقليدية.

ولأهمية النسوية أشعر بالحزن عندما يعامل موضوع النساء برفق تام، وبعيدًا عن سياق تاريخ الأفكار. أحد مقولات جورج سانتيانا الذي أقدِّره بشكل بالغ خاصة فيما يتعلق بنقده للبراغماتية الأميركية، هو إيمانه بأنك إذا كنت مدعومًا بوهم أفضل من أن تعيش بتناغم مع الحقيقة، هي ليست آمنة ولا حلوة، ولا مثمرة، أو إيمان بشكل قطعي، وإنما إيمانًا عقلانيًا وتمسكًا بما يبدو مؤكدًا للتأكيد، وما هو محتمل لما هو محتمل، وما هو مرغوب لما هو مرغوب، وما هو خاطئ لما هو خاطئ[1].

أن تحيا حياة مدروسة يعني أن تكون مستعدًا لإبراز نفسك، أو هكذا أظن، وهو ما يبدو أنني أفعله بإنهائي هذا الكتاب حول التحليل النفسي والسياسة، عبر سرد انعكاسات شخصية حول قضية الجدل في الأفكار المتباينة حول النساء. لقد اهتمت النظرية السياسية على نحو تقليدي بالمواضيع الجريئة، وضمن هذا التقليد العظيم للفلسفة الاجتماعية حاولت إبراز أفكاري حول التحليل النفسي والسياسة.

(1) George Santayana, **Character and Opinion in the United States** (New York: Doubleday Anchor, 1956), p.

الكتاب

يشرح المؤلف بول روزان أبرز مؤرخي حركة التحليل النفسي الصلة بين السياسة وعلم النفس في عمل المنظرين السياسيين، أمثال ميكافيللي وروسو وبيرك وتوكوفيل قبل الفرويدية أو بعدها مثل إيزايا برلين. ويخص حنة آرندت التي رفضت أفكار التحليل النفسي بفصل منفرد.

يدرس المؤلف استقبال فرويد عند الفلاسفة، مثل فيتغنشتاين، وألتوسير مرورًا بريبة مارتن بوبر تجاه الفرويدية.

وكما تؤثر النخب في التوجهات السياسية، فهي تُجند في خدمة المؤسسات السياسية - من حيث لاتعلم أحيانًا -، درس المؤلف مجلة «إنكاونتر» اللندنية الشهيرة التي دعمتها المخابرات المركزية سرًا واستكتبت العشرات من رموز الفكر الغربي لمحاربة المدّ اليساري!.

ويختم المؤلف تداخل التحليل النفسي مع قضايا القارة الأميركية والعالم، من حرب فيتنام، إلى المجال الأدبي والفني، والتغييرات الاجتماعية وصولًا إلى الثورة الجنسية. ويختم شارحًا أثر المدرسة التحليلية للحركة النسوية، ثم دور الحركة النسوية في إضافة شروحات وأفكار إلى حقل التحليل النفسي.


ISBN 978-614-418-343-4



